

المتاهة في السير

في شرح وأدلة الرسالة
لابن أبي زيد القيرواني

تأليف
أبي سليمان الخزاز بن العربي مؤمن
المؤلف المسمى

المجلد الأول

إصدارات
بمركز الدعوة الإسلامية
إدارة الشؤون الإنسانية
دولة قطر

المتاهة في السير

إدارة الشؤون الإنسانية
DOWAF

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com



إمناها هذا في الرسالة

في شرح وأدلة الرسالة
لابن أبي زيد القيرواني

تأليف

أبي سليمان المختار بن العربي مؤمن
الجزائري ثم الشيباني

المجلد الأول

إصدار

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بتمويل الوزارة العامة للأوقاف
لوزارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



طبعة خاصة

بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة قطر

turathuna@islam.gov.qa

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار ابن حزم

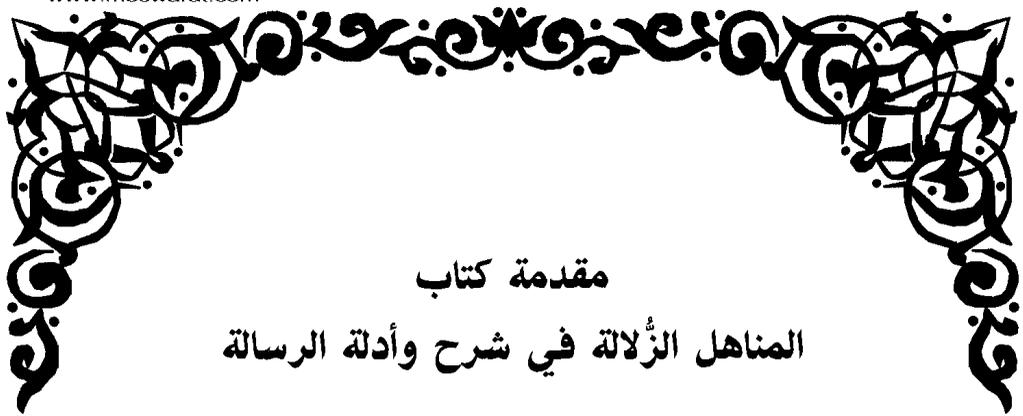
بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com





مقدمة كتاب المناهل الزلّالة في شرح وأدلة الرسالة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد،
فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر - وقد وفقها الله لأن
تضرب بسهم في نشر الكتب النافعة للأمة - لتحمد الله سبحانه وتعالى على
أن ما أصدرته قد نال الرضا والقبول من أهل العلم.

والمتابع لحركة النشر العلمي لا يخفى عليه جهود دولة قطر في خدمة
العلوم الشرعية ورفد المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب القديمة والمعاصرة
وذلك منذ تسعة عقود، عندما وجه الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم
قطر آنذاك بطباعة كتابي (الفروع) و(تصحيح الفروع)، سنة ١٣٤٥هـ، وكان
المؤسس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني رحمه الله تعالى قد سن تلك السنة
من قبل.

وقد جاء مشروع إحياء التراث الإسلامي والنشر العلمي الذي بدأته
الوزارة في السنوات الأخيرة امتداداً لتلك الجهود وسيراً على تلك المحجة
التي عُرفت بها دولة قطر.

ومنذ انطلاقة هذا المشروع المبارك يسّر الله جلّ وعلا للوزارة إخراج
مجموعة من أمهات كتب العلم والدراسات المعاصرة المتميزة في فنون
مختلفة، تُطبع لأول مرة، نذكر منها:

● في التفسير وعلوم القرآن:

أصدرت الوزارة عدة كتب منها: (فتح الرحمن في تفسير القرآن) للعلّيمي، و(المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لابن عطية في طبعته الثانية.

وفي علم رسم المصحف أصدرت الوزارة: كتاب (مرسوم المصحف) للعلّيلي، و(الدرة الصقيلة في شرح أبيات العقيلة) لأبي بكر اللبيب.

وفي علم القراءات أصدرت الوزارة كتاب: (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) لأبي حفص النشار، و(معاني الأحرف السبعة) لأبي الفضل الرازي.

● وفي السنة النبوية وشروحها:

أصدرت الوزارة عدة كتب، منها: (التقاسيم والأنواع) لابن حبان، و(مطالع الأنوار) لابن قرقول، و(التوضيح شرح الجامع الصحيح) لابن الملقن، و(حاشية مسند الإمام أحمد) للسندي، وشرحان لموطأ الإمام مالك؛ لكل من (القنازعي)، و(البوني)، و(المخلصيات) لأبي طاهر المخلص، و(شرح مسند الإمام الشافعي) للرافعي، و(نخب الأفكار شرح معاني الآثار) للعيني، و(مصاييح الجامع) للدّمّاميني.

ومما تشرفت الوزارة بإصداره في تحقيق جديد متقن: (صحيح ابن خزيمة)، و(السنن الكبرى) للإمام النسائي، والمحققان على عدة نسخ خطية، و(جامع الأصول في أحاديث الرسول)، و(النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير.

● وفي الفقه وما يتصل به:

أصدرت الوزارة عدة كتب في المذاهب الأربعة، منها: كتاب: (الأصل) لمحمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ) كاملاً محققاً على أصول عدة، و(التبصرة) للحمي، و(نهاية المطلب في دراية المذهب) للإمام

الجويني بتحقيقه المتقن للأستاذ الدكتور عبدالعظيم الديب رحمه الله تعالى عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي، و(حاشية الخلوتي).

كما أصدرت الوزارة: (الأوسط من السنن والإجماع والاختلاف) للإمام ابن المنذر بمراجعة دقيقة للشيخ الدكتور عبد الله الفقيه عضو لجنة إحياء التراث الإسلامي، و(بغية المتتبع لحل ألفاظ روض المربع) للعوفاي الصالحي، و(منحة السلوك في شرح تحفة الملوك) للعيني.

● وفي السيرة النبوية:

أصدرت الوزارة الموسوعة الإسنادية: (جامع الآثار في السير ومولد المختار) لابن ناصر الدين الدمشقي، وغيرها.

● وفي العقيدة والتوحيد:

أصدرت الوزارة كتابًا نفيسًا لطيفًا هو: (الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد) لابن العطار تلميذ الإمام النووي رحمهما الله تعالى، كما أعادت نشر كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد رحمه الله تعالى، وغيرها من كتب عقيدة أهل السنة والجماعة.

● وفي مجال الدراسات المعاصرة المتميزة

أصدرت: (القيمة الاقتصادية للزمن)، و(نوازل الإنجاب)، و(مجموعة القره داغي الاقتصادية)، و(التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي)، و(صكوك الإجارة)، و(الأحكام الفقهية المتعلقة بالتدخين)، و(التورق المصرفي)، و(حاجة العلوم الإسلامية إلى اللغة العربية)، و(روايات الجامع الصحيح ونسخه دراسة نظرية تطبيقية)، وغيرها.

كما قامت الوزارة بشراء وتوزيع أجود الطبعات من بعض الكتب المطبوعة لما لها من أهمية مثل: (مسند الإمام أحمد)، و(صحيح الإمام مسلم)، و(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، و(الجامع لشعب الإيمان) للبيهقي، و(تاريخ الخلفاء) للسيوطي، و(التاريخ الأندلسي) لعبد الرحمن علي

الحجبي، و(الإقناع في مسائل الإجماع) لابن القطان الفاسي، و(شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي، و(قواعد الأحكام في إصلاح الأنام) للعز ابن عبد السلام.

ومثل (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي و(الرسالة المحمدية) لسليمان الندوي، وغيرها.

ويسرنا اليوم أن نقدّم لإصدار جديد هو كتاب (المناهل الرّلالة في شرح وأدلة الرسالة) للإمام ابن أبي زيد القيرواني، تأليف الشيخ المختار بن العربي مؤمن، وهو كتاب مهمّ في بابہ اعتنى فيه مؤلفه بذكر الأدلة الشرعية وأقوال العلماء من أهل المذهب وغيرهم مع توثيق المسائل من مصادر الفقه وغيرها، ومقابلة المتن على عدة طبعات لتصحيحه، فهو كتاب وسط يعين المتفقه المالكي على معرفة الحكم بدليله وتعليقه، وهذا ما نحتاجه اليوم في تنشئة فقهاء ذوي بصيرة فقهية.

والحمد لله على توفيقه ونسأله المزيد من فضله.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إدارة الشؤون الإسلامية





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريظ شيخنا ووالدنا سماحة العلامة الشيخ محمد

محفوظ بن المختار فال الهاشمي الشنقيطي حفظه الله تعالى

لكتاب المناهل الزلالة في شرح وأدلة الرسالة

فذي النَّاسِ جَرَّاهَا مُعَلَّ وَنَاهِلُ
بِمُنْسَدِحِ الْأَفْيَاءِ مِنْهَا الْخُمَّائِلُ
تَشَدُّ إِلَى أَمْثَالِهِنَّ الرُّوَاحِلُ

مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ شَمُّ فَطَاحِلُ
جَمَاعَا لِمَا أَسَدَوْهُ هَذِي الْمَنَاهِلُ

فَفِيهَا لَدِي الْفَهْمِ السَّلِيمِ مَنَازِلُ
فَفِيهَا لِأَلْحَاطِ الْعَيُونِ شَوَاغِلُ
وَعَجَّتْ كِتَاتِيْبُ بِهَا وَمَحَافِلُ

وَالْأَفْهَوْمُ نَقَّحَتْهَا الْأَوَائِلُ
مُجَاهِدٌ فِيهَا حَاضِرٌ وَمُقَاتِلُ

مَنْ الْمَنْبِعِ الرَّقْرَاقِ فَاضَتْ مَنَاهِلُ
تَدَانَتْ شَفَاءً لِلْغَلِيلِ وَوَرَفَتْ
بِهَا مِنْ عَتِيقِ الْعِلْمِ غُرٌّ فَرَائِدُ

عَلَى ابْنِ أَبِي زَيْدٍ تَتَالَتْ مُجِيدَةٌ
فَجَاءَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ

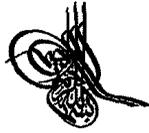
دَرِ الْعَيْنِ فِي الْأَثْبَاجِ مِنْهَا وَفِي الشُّوَا
وَلَا تَزُورِ عَنْهَا الْقَلْبَ أَنْ ظَلَّ سَارِحَا
عَلَيْكَ بِهَا فَالْقَوْمِ هَامُوا بِحَسْنَهَا

هَلِ الْعِلْمُ إِلَّا الْوَحْيُ يُشْرِقُ نُورُهُ
وَالْأَنْقُولُ صَحَّ بِالْوَصْلِ مَتْنَهَا

وتلك أصولُ زانِ ذا الشرحِ حليها
مقاصد هذا الشرع لانتِ مُطبعة
نفيسٌ إذا أنشأت تكشف سره
به الشيخ مختارُ الشَّمائلِ مُومنٌ
هو النَّدب والشَّهم الهُمام عهدته
جزاه على حسن الصنِيعَة ربه
على المصطفى أزكى صلاةٍ مُربِّية

على نورها منه تقوم المسائل
ولانت من الشرع الحكيم الوسائل
قريب إذا مدّت إليه الأنامل
أجاد صنيعا وهو في الجود مائل
إذا ضيم هذا الحق لا يتناقل
ولا عَدِمَتْ منه الجزاء الشَّمائلُ
يَجُودُ بها من مُسبِلِ المُزِنِ هَاطِلُ





صلوات الله على نبيه الكريم

محمد الحسن بن الدردور الشنقيطي

التاريخ / ١١ / ١٤٢٨ هـ

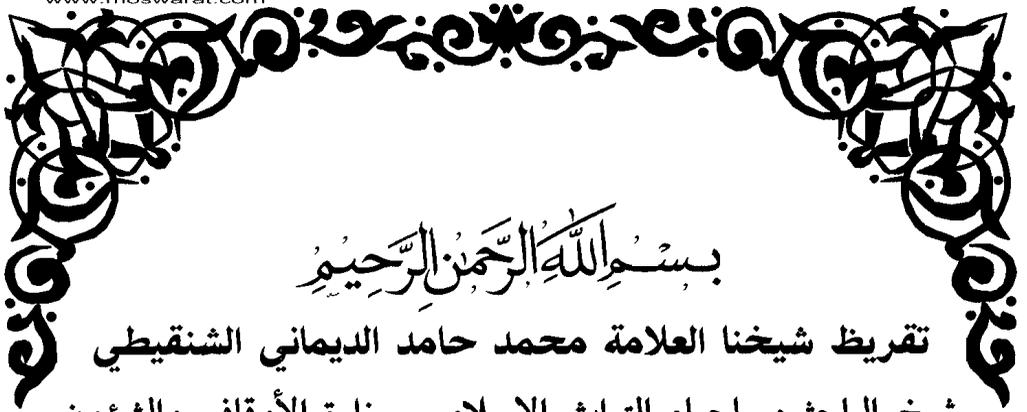
الموافق / ٨ / ٢٠٠٧ م

الموضوع : تزكية وتقريض

الحمد لله .. أما بعد فإن عرف الشيخ : أباسلمان
المختار بن العربي مؤمن الهاشمي الجزائري ثم
الشنقيطي صاحب سنة وحرص على طلب
العلم وجمعه، واستقامة في الدين، مع صحة معتقده
وسلامة منهج . وقد أطلعني على عدد من مؤلفاته
الرائقة النافعة الناصحة المنسجمة مع منهج سلفنا
الصالح : كشرحه لمنظومة ابن عاشر ، وشرحه لرسالة
ابن أبي زيد القيرواني ، وتوشيح له لعلية طالب العلم
للشيخ بكر أبو زيد . نسأل الله أن ينفع به ويكتبه
وأن يوفقه لكل خير ويتقبل منه صالح العمل .
وأنا أوجه الراغبين في غير الراغبين الوصول على أحر تعلم
العلم وتعليمه أن يتعاونوا مع الشيخ المختار في طباعته
هذه الكتب ونشرها فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى .
كتبه محمد الحسن بن الدردور الشنقيطي .

محمد الحسن بن الدردور

محمد الحسن بن الدردور



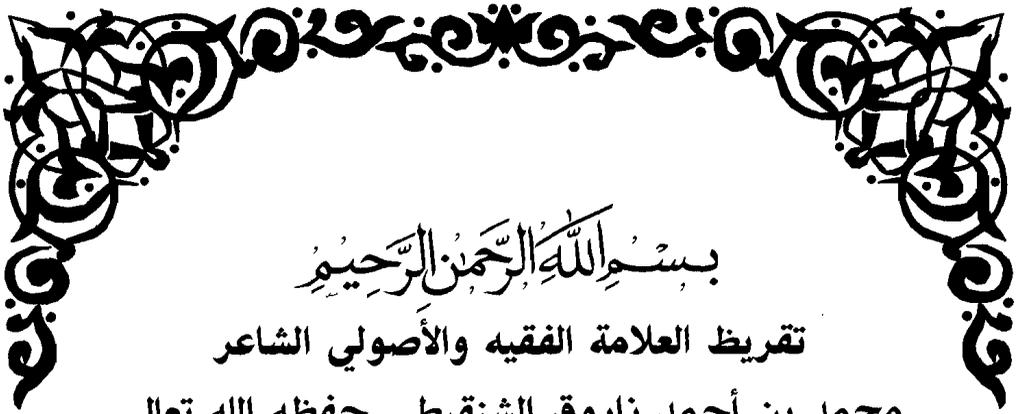
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريظ شيخنا العلامة محمد حامد الديماني الشنقيطي
شيخ الباحثين بإحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف والشؤون
الإسلامية بقطر

تقريظ كتاب المناهل الزلالية للشيخ مختار العربي

وكالزهر المكلل في الجنان
وما خبرٌ بذلك كالعيان
وكنت أُسرُّ بالدرر الحسان
لما نحتاج متسق المباني
كما زانت قلائدها الغواني
صحيح المتن متضح المعاني
له انقادت هنالك بالعنان
قريب منجد كالترجمان
بها الطلاب من قاص ودان
ويعيا عن تتبُّعها لساني
وَحُقَّ له على ذاك التهاني
وبالخير الجزيل وبالأمان
على طه النبي مدى الزمان
محمد بن حامد عفا الله عنه

كتاب كالعقود من الجمان
رأت عيني به دررا حسانا
فأعجبني صنيع الشيخ فيه
فجاء مطابقا لفظا ومعنى
وزانته الأدلة محكمات
من الذكر الحكيم ومن حديث
وجلب للنصوص فكم فروع
وشرح للغريب بكل لفظ
مناهله الزلالية سوف تُروى
كما تُروى مآثر فيه جُلَى
فبارك ربنا الرحمن فيه
جزاه الله بالإحسان عنا
صلاة الله يتبعها سلام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريظ العلامة الفقيه والأصولي الشاعر

محمد بن أحمد زاروق الشنقيطي حفظه الله تعالى

الملقب بالشاعر ناصر السنة وعضو رابطة علماء المسلمين

(للمناهل الزلالية في شرح وأدلة الرسالة)

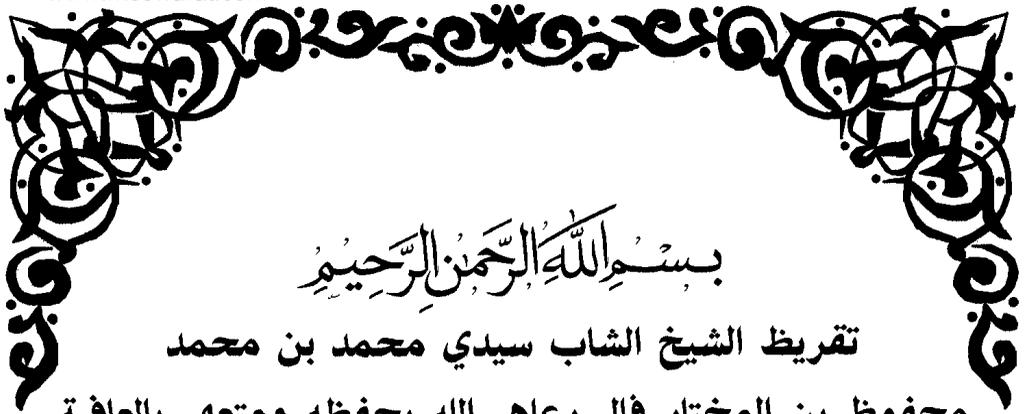
تَيْمَّمْتَهُ (بِالْعَرَفِ) ^(١) وَذَقَا فَأَوْسَمَا
عِهَادًا فَأَزْهَى أَفْحَوَانَا وَعَنْدَمَا
(زُلَالًا) مِنْ التَّأْصِيلِ مَاءً مُسَجَّمَا
وَحِكَّتْ مِنْ التَّفْعِيدِ وَشَيْئًا مُنْمَمَا
رَعَيْنَا بِهِ الرُّوضِ الْبَهِيِّ الْمُدَيَّمَا
وَقَبْلَكَ كَانَتْ تَتْرُكُ الْحِجْلَ أَفْصَمَا
وَكُلُّهُمْ مِّنْ شِدَّةِ الْهَمِّ هَمَّهَمَا
يَعَانِقُ صِمَصَامًا وَلَدْنَا مُقَوَّمَا
فَكَمْ فَارِسٍ بِالرُّمَحِ غُودِرَ مُلْحَمَا
وَسَحَّ بِهِ الْمُخْتَارُ سَحًا وَأَجْدَمَا
مَشُوقًا بِفِغْهِ الْجِمِيرِيِّ مُتَيَّمَا

أَمْخْتَارُ رَبْعِ الْمَالِكِيَّةِ زَنْتَهُ
وَأَوْلَيْتَهُ شَرَحَ الرَّسَالَةَ بَعْدَهُ
وَفَاحَ بِهِ (نَشْرُ) الْهُدَى إِذْ سَقَيْتَهُ
نَسَجْتَ مِنَ التَّأْصِيلِ بَرْدًا مُحَبَّرًا
تَبَوَّأَتْ فِي شَرْحِ الرَّسَالَةِ مَنْزِلًا
وَحَلَيْتَهَا حَلِيًّا يُلَائِمُ قَدَهَا
تَنَافَسَ أَهْلُ الْعَصْرِ فِيهَا وَالْفُؤَا
فَكَانَ الْمُجَلِّي فِي السَّبَاقِ مُظْفَرًا
سَبَاقُ عَوَالِي الرُّمَحِ فِيهِ تَشَاجَرَتْ
وَنْتَ فِي مَرَامِيهِ الْكُمَاءُ وَدَدَعَدَتْ
وَلَا غَرَوْا إِنْ أَبْلَى، فَإِنِّي عَهْدْتُهُ

(١) - يشير إلى (كتاب العرف الناشر للمؤلف عفا الله عنه).

فَقُلْتُ بِذَا التَّأَلِيفِ بَاحٍ بِحُبِّهِ
فَكَانَ عَلَى دَوْحِ الْفُرُوعِ حَمَامَةً
يُهَيِّجُ أَشْوَاقَ الْفَقِيهِ فَيَنْتَشِي
يُذَكِّرُهُ فِئَةِ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ
فَرَقَّشَ فِي الْقِرطَاسِ مَا كَانَ جَمَجَمًا
(دَعَتْ سَاقَ حُرِّ تَرْحَةً وَتَرْنُمًا)
لِتَأْصِيلِ فَرْعٍ كَادَ أَنْ يَتَصَرَّمَا
سَلَاسَةً أَسْلُوبٍ وَدُرًّا مُنْظَمَا





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريظ الشيخ الشاب سيدي محمد بن محمد

محفوظ بن المختار فال رعاهم الله بحفظه ومتعهم بالعافية

مدّ الودودَ وكفّ كفّ المعتدي
في القوم إلا سيد من سيّد
ودنى لصنعته جِماحُ الشُرْدِ
فَتَقَرَّبَتْ وتزلفت طَوْعَ اليَدِ
نورِ المِثاني والحديثِ المُسْتَدِ
إن مدتِ الأيدي منالَ الفَرْقَدِ
إلا بصيرةً حاسد أو ملحد

إن المناهل صيَّبَ للمُجْتَدِي
فيه فرائدُ لا يطيقُ ذرَاكَهَا
لانت لصولته الغوامضُ خُشَعَا
وجلا صعابا عَزَّ نيلُ مَرَامِهَا
عَزَّتْ مَسَائِلُهُ بعزِّ دليلِهَا
في الكُتُبِ عَزَّ نَظِيرُهُ، وَمَنَالُهُ
لا تمترى في حسنه وجماله



يا أوي إليك المنتهي والمبتدي
تهدي لصوب الحقّ من لم يهد
والبده إن عدت بها ليل الندي
تُمسي أثيرا في الكرام وتغتدي
تترا على هادي البرية أحمد

مختارُ لازلت الملاذ لقاصد
والنُدبَ إن ذُكِرَتْ مصابيحُ الهدى
والبدرَ إن طفحتُ سماديرُ الدُجى
أوفى الجزاء لك الكريمُ مضاعفا
أزكى صلاةَ الله ثمّ سلامه



رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إهداء

إلى الذين لا يزالون مرابطين في ثغور العلم، يحيون أموات الجهل، ويهدون صرعى الضلال، إلى مشايخي الأحياء منهم، الذين اقتطعوا من أوقاتهم في سبيل تعليمي ونصحي، لا سيما مشايخي كل من: شيخنا العلامة محمد محفوظ بن المختار فال الشنقيطي حفظه الله تعالى وأطال في الصالحات عمره، وإلى روح شيخنا العلامة محمد سالم ولد عدود الشنقيطي، وشيخنا الزاهد الشيخ الحاج العياشي مصباح، وشيخنا العلامة سليمان بن عمر ميلودي الحسني رحمنا الله وإياهم جميعاً، وإلى كل عالم أثر التعلم والتعليم على زينة الحياة الدنيا.

إلى روح والديّ الكريمين وفاءً لعهدهما، ووصلاً لهما بعد موتهما.
إلى أخي عليّ بن العربي الشقيق الذي وقف على برّهما حتى لقيا الله ربّ العالمين عرفاناً بفضلهم.

إلى زوجتي الكريمة التي تشاطرني أفراحي وأتراحي، إلى فلذات الأكباد، من البنات والأولاد.

إلى الأخ الغالي، والفاضل الناصح فضيلة الشيخ الحفناوي سالمي المعروف بأبي حنيفة أدام الله صحبته على العمل الصالح في الدنيا، والتّعميم المقيم في الآخرة.

إلى كلّ أخ لي في الله كريم، وإلى كلّ أخت نبيلة عفة فاضلة، يقدّمان النّصح، ويكرمان بالدّعاء والصفح.

أهدي هذا الجهد المتواضع عسى أن أفوز بأجره ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا﴾، وأنتفع بذخره، حينما يسمي المرء رهيناً بعمله في رسمه.

رقع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شعار

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، رواه البخاري ومسلم.

قال العلامة محمد بن عمر النابغة الشنقيطي رحمه الله تعالى:

علامةُ الجَهْلِ بِهَذَا الجِيلِ تَرَكَ الرِّسَالَةَ إِلَى خَلِيلِ
وَتَرَكَ الْأَخْضَرِي إِلَى ابْنِ عَاشِرِ وَتَرَكَ ذَيْنِ لِرِّسَالَةِ اخْذَرِ^(٢)

قال القاضي عبدالوهاب رحمه الله تعالى:

رسالةُ علمِ صَاغَهَا العَلْمُ النَّهْدُ قد اجتمعتُ فيها الفرائضُ والزُّهْدُ
أصولُ أضَاءتْ بِالهُدَى فكأُتْمَا بَدَا لِعُيُونِ النَّاطِرِينَ بها الرُّشْدُ
وفي صدرها علمُ الدِّيَانَةِ واضِحٌ وآدابُ خَيْرِ الخَلْقِ لَيْسَ لَهَا نُدُ
لقد أَمَّ بانيها السَّدَادُ فَذِكْرُهُ بها خَالِدٌ ما حَجَّ وَاِعْتَمَرَ الوَفْدُ

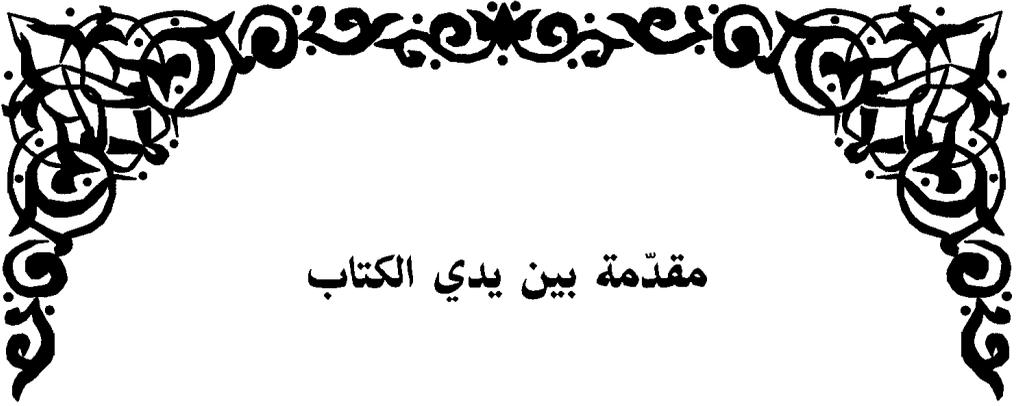


(١) الآية (١٢٢) من سورة التوبة.

(٢) مقدمة المحقق لنص نظم البوطليحية (٣٣).

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مقدمة بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، نحمده سبحانه ونشكره، ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونصلي ونسلم على سيدنا وقودتنا وحيينا محمد صلاة وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم أن نلقاه، فنسعد بلقياه، وعلى آله الأطهار، وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحبه البررة الأخيار، ما تكوّر الليل على النهار، وترنمت بحسن الشدى الأطيّار، وما دعا عابد وسجد ساجد في حلك الليل واستغفرَ بالأسحار.

وبعد: فالفقه في الدين خير ما اكتسبه الموفقون، وأرشد إليه المهتدون، ومن أراد الله به الخير فقّهه في الدين كما جاء عن النبي الأمين ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وأهل الفقه هم مصابيح الدجى، ودّراري الهدى، على الله يدلون، ولنبيه ﷺ يقتفون، ولأحكام شرعه يبلّغون، شغلوا بجمع العلم عن المال، فصلحت بهم الأحوال، وحازوا شرف الرّفعة في الحال والمآل.

ولما كان المذهب المالكي أحد المذاهب السديدة، وطرق التفقه في دين الله الرّشيدة، استخرت من لا يخيب من استخاره، ولا يوهن حبل من استجاره، أن أتبع العرف الناشر الذي كتبه في فقه وأدلة ابن عاشر، شرحاً على رسالة العلم الطاهر، صاحب المكارم والمآثر، أبي محمد عبدالله بن

(١) متفق عليه، من حديث معاوية مرفوعاً رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

أبي زيد مشهور الذكر في الكُتَابِ والمحاضر^(١)، والفَرْدِ جليلِ القَدْرِ في البوادي والحواضر، أجمعُ فيه بين ما ظهر لي من الدليلِ الظاهر، والنظمِ الزاهر، والشرحِ المختصرِ الظافر، بإذن من يُبارِكُ في خطي العبدِ العاثر، وقد أفرغت في جمعه طاقتي وجهدي، وبذلت فيه فكري وقصدي، وأوردت فيه ما استطعت من غرر الفوائد، وجمع الفرائد، ولم أكن أهلاً لذلك ولا زلت، ولكن أرجو ألا أكونَ قد استَسَمَنْتُ ذا وَرَمٍ، وما جرَّأني على ذلك إلا رجائي في قبولِ ربِّي، أن أكون ممن نصر سنَّةَ الحبيب، وقرب الأصل مع الفرع للطالب الأريب، وتمثلت بقول بعض الفضلاء:

أسيرُ خلفَ ركابِ النُجُبِ ذا عَرَجٍ مؤملاً كَشَفَ مَا لَأَقِيْتُ مِنْ عِوَجِ
فإن لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِّ الْوَرَى فِي ذَلِكَ مِنْ فَرَجِ
وإن بقيتُ بظَهْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعاً فَمَا عَلَيَّ عَرَجٍ فِي ذَلِكَ مِنْ حَرَجِ

وأرجو أن أكون قد أتيت بفائدة، ولا أكون ممن وُصِفَ بِتَسْوِيدِ الورقِ كما أشار إلى ذلك القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي رحمه الله تعالى بقوله:

«وَلَا يَنْبَغِي لِحَصِيفٍ يَتَّصِدَى إِلَى تَضْنِيفٍ أَنْ يَغْدِلَ عَنْ عَرَضَيْنِ إِمَّا:
أَنْ يَخْتَرَعَ مَعْنَى، وَإِمَّا أَنْ يَبْتَدِعَ وَضْعاً وَمَبْنَى، وَمَا سِوَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ فَهُوَ
تَسْوِيدُ الْوَرَقِ وَالتَّحْلِي بِحَلِيَةِ السَّرِقِ»^(٢).

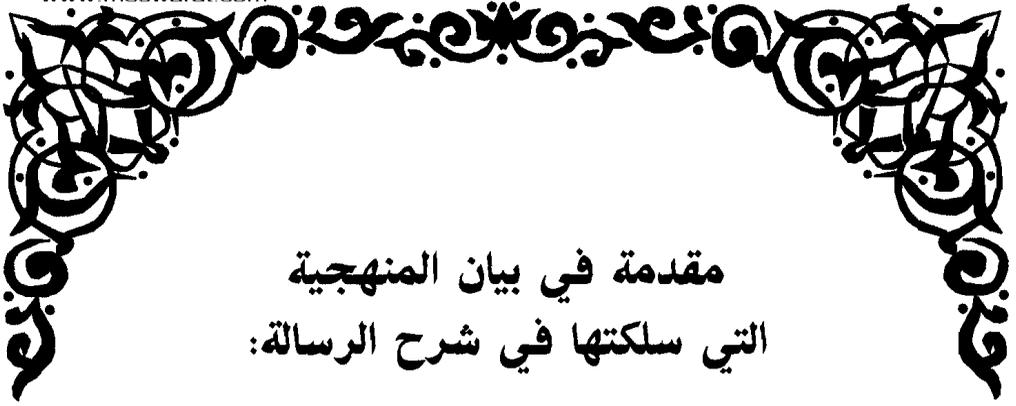
كما أتى أرجو من كلِّ أخ أطلع على خطأ أن يصوبه، أو عيب - وما أكثره لولا ستر الستير - أن يستر عيب أخيه، وينصح له في الله، فينال دعاء منّا، وأجرأ منه، إن أخلص المراد، وأراد الجزاء الحسن يوم المعاد.



(١) الكتاب: بضم الكاف وتشديد التاء مع الفتح البيت الذي يحفظ فيه الصغار القرآن، وأما المحظرة فنوع من الكتاب غير أنها أوسع في تدريس العلوم الشرعية واللغوية وغيرها.

(٢) المنشور من القواعد للزرکشي (١/٧١٠): وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية،

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.



مقدمة في بيان المنهجية التي سلكتها في شرح الرسالة:

هو أنني بحمد الله تعالى:

أولاً: قسّمت الرّسالة إلى أربعة مناهل:

المنهل الأول: ترجمت فيه للمصنف رحمه الله تعالى ترجمة مختصرة اشتملت على نسبه، وحياته العلمية، والعملية، ومواقفه من الحياة السياسية التي عاصرها، ثم شرحت بعد الترجمة مقدّمة الشيخ بين يدي الرّسالة والتي تناول فيها موضوعها والحامل له على تأليفها، وأردفت ذلك بشرح العقيدة وهي تحت عنوان:

«باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات».

المنهل الثاني: أفردته للعبادات، وهي: الطّهارة، والصلاة والزكاة والصوم والحج.

المنهل الثالث: ويشتمل على الأبواب من: باب الضحايا إلى غاية باب الفرائض.

المنهل الرابع: أفردته للأبواب الأخيرة في الرّسالة وهي: باب الجامع وما يليه من الأبواب.

ثانياً: بدأت بالعقيدة فأفردت النثر من كلام المؤلف، كاملاً مضبوطاً،

ثمّ ثبّيت بعده بنظم العقيدة للشيخ القلاوي، فوضعها تحت ما يناسبها من كلام المصنّف، وفي مواضع لم ينظم فيها القلاوي أخذت من نظم الأحسائي المالكي، ما يناسب كلام المصنّف فوضعت تحت رحم الله الجميع.

وأردفت الاثنين بتقطيع كلام المصنّف إلى فقرات أو جمل حسب المعنى المتصل في الموضوع، وجعلت ذلك تحت عنوان، ثمّ أتيت بالأبيات المتعلقة بالفقرة من نظم الرسالة للشيخ عبدالله ابن الحاج حماه الله القلاوي الشنقيطي رحمه الله تعالى ليسهل الربط بين المتن والنظم، وليكون أدعى للحفظ، ونهجت هذا المسلك في جميع الكتاب تقريباً.

ثالثاً: مزجت في غالب الشرح بين كلام المصنّف مع شرحه، لأنه كما قيل هو أبلغ في إظهار المعنى...

رابعاً: جلبت ما استطعت من شواهد لكلام المصنّف ولما أسوقه من شرح، من الآيات والأحاديث والآثار وعمل أهل المدينة^(١)، والإجماع والقياس، والحكم والأشعار.

خامساً: التزمت بعزو الآيات لسورها وأرقامها، برواية حفص عن عاصم لسهولة المأخذ، ولموافقة المرسوم، ولو وجدت رواية ورش لعزوت لها الآيات لا لأفضلية إحدى الروائتين عن الأخرى معاذ الله فكّله كلام الباري، ولكن لكون أنّ جلّ المالكية في إفريقيّا يقرؤون برواية ورش، وبعضهم يجهل الروايات الأخرى فيظنّ أنّ في الطباعة أخطاء، وقد وقع من هؤلاء ما يندى له الجبين، وتقع بسببه أم حُيَيْن^(٢).

وخرّجت الأحاديث باذلاً الوسع في ذلك، فإن كان الحديث في الصحيحين أو الموطأ فقد أقتصر على ذلك، وإلاّ عزوته إلى مظانّه التي أجده فيها.

(١) وعمل أهل المدينة: هو ما كان عليه العمل زمن الصحابة والتابعين وأبنائهم، انظر عمل أهل المدينة للشيخ عطية محمد سالم رحمه الله تعالى، وعمل أهل المدينة وأثره في الفقه الإسلامي لموسى إسماعيل. رسالة ماجستير.

(٢) أم حيين من أسماء الفتنة.

لا أميل إلى الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة إلا إذا كان الأمر يتعلق
بـ«الترغيب والترهيب»، أو كان للحديث شواهد ومتابعات.

وعزوت الأشعار لقائلها إن وجدت.

وشرحت غريب الكلمات الصعبة، ولم أكثر من شرح الغريب لا سيما
غريب الرسالة لوجود غرر المقالة وهو مطبوع ويكفي في الغالب من ذلك،
ومن أشكلت عليه مفردة من غريب الحديث فليراجع النهاية لابن الأثير، أو
لسان العرب لابن منظور، لأنني لو أوردت شرح غريب المصنف والحديث
لاحتاج ذلك إلى مجلد آخر.

سادساً: لم ألتزم في شرحي بشرح معين للرسالة وإن كان الثمر الداني
هو أيسرها فقد أسوق منه عبارات أراها ملائمة في الشرح دون العزو
للشارح، أما أكثر الأقوال فقد عزوتها لقائلها وشرّاحها ما استطعت إلا ما ندد
أو جهلت قائله، أو نسيت المأخذ، فالله يجزي لنا ولقائله المثوبة، ولا
يضرّ من نقلنا عنه ولم نعز له شيئاً فهو مأجور إن شاء الله على كلّ حال،
ولكن من بركة العلم كما قيل عزو القول لقائله والترحم عليه، وعيب على
من استفاد من شيخ ألا يدعو له ويترحم عليه^(١)، وإنّي سائلكم النصيحة
والدعاء لي ولوالدي ومشايخي ومن أحبّ، ولكم بمثل ما دعوتكم.

واعلم أخي الحبيب ويا أيها الطالب اللبيب، أنه قد تفاوتت وجهات
الشرح للرسالة بين شارح مع التطويل، ومختصر مع اجتناب التذييل، ومبين
للغريب مع قصيد في السبيل، ومن مقتصر على الدليل، وبعد أن علقت على
متن ابن عاشر^(٢)، لآخ لي السبيل في وضع تعليق على متن الأخضري،
وآخر يضاهيه على رسالة الشيخ الجليل، فاستخرت الله واستعنته على مسلك
لم أكن فيه أهلاً لهذا المهيع النبيل، ولكن طمعي في الكريم الجليل أن

(١) قال أبو محمد التميمي: «يقبح بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا».
حاشية رسالة المسترشدين (ص ٤) ط/دار السلام.

(٢) كتابي العرف الناشر في شرح وأدلة متن فقه ابن عاشر وقد طبع والحمد لله. وقريباً
سأطبع جزء العقيدة والتصوف منه إن شاء الله تعالى.

يلهمني حسنَ القصد وتيسير السبيل، فهو الذي ألهمني أن أصرف وقتاً ليس بالقليل في جمع هذا الشرح مستنيراً بالدليل، ولا أدعي أنني قد جئت بمراد الشارح ولا ساداتنا الفقهاء الأماجد الذين يعرفون الدليل وطرق الاستدلال، ولكن عذري عند من أطلع عليه أنني أردت أن أجمع ما استطعت بين الشرح والدليل، وإن كان الداه الشنقيطي في الفتح الرباني نحا هذا النحو في شرحه لنظم الرسالة المسمى بالفتح الرباني، ولم أطلع عليه إلا بعد أن أكملتُ الشرح فوجدت له طبعتين: طبعة المكتبة العصرية سنة ١٤٢٦ - وطبعة محققة بقلم الدكتور علي بن حمزة العمري لكنّها غير كاملة، فقد وصل فيما هو تحت أيدينا إلى الحقيقة وهو عمل لا بأس به نفع الله به، إلا أن الشيخ الداه رحمه الله تعالى ركّز في شرحه على اختلاف المذاهب فصار كالفقه المقارن، ولم يسلم من إيراده جملة غير قليلة من الأحاديث الضعيفة، ثم كثيراً من المسائل التي لها أدلة لم يأت بها «والحيّ يغلب ألف مَيّتٍ» وأستغفر الله لي وله.

وقد تطوّقت على الشروح المختصرة والكتب التي اقتصرت على الأدلة، وهل لنا إلا الاقتباس إن أحسناه، واللصق إن أتقناه، وربما أطلت في الشرح حسب من نظر إليه فاستطاله، ولا يسعني إلا أن أقول ما قاله النووي رحمه الله تعالى في مقدمة شرحه لصحيح مسلم وإن كان الفرق بيني وبينه كالفرق بين البقل والتخل، قال رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته: «ولا ينبغي للناظر في هذا الشرح أن يسأم من شيء من ذلك يجده مبسوطاً واضحاً فإنني إنما أقصد بذلك إن شاء الله الكريم، الإيضاح والتيسير والنصيحة لمطالعه وإعانتة وإغناؤه من مراجعة غيره في بيانه، وهذا مقصود الشروح. فمن استطال شيئاً من هذا وشبهه فهو بعيد من الإتيان، مباحد للفلاح في هذا الشأن، فليُعزّ نفسه لسوء حاله، وليرجع عما ارتكبه من قبيح فعالة. ولا ينبغي لطالب التحقيق والتنقيح والإتيان والتدقيق أن يلتفت إلى كراهة أو سامة ذوي البطالة، وأصحاب الغباوة والمهانة والملافة، بل يفرح بما يجده من العلم مبسوطاً، وما يصادفه من القواعد والمشكلات واضحاً مضبوطاً، ويحمد الله الكريم على تيسيره، ويدعو لجامعه الساعي في تنقيحه

وإيضاحه وتقريره. وفقنا الله الكريم لمعالي الأمور، وجنّبنا بفضلِه جميع أنواع الشرور، وجمع بيننا وبين أحبّابنا في دار الجور والسرور. والله أعلم اهـ^(١).

وما توفّيقني إلّا بالله عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم، وأسأله إخلاص القول والعمل، والبركة فيما نفع، وأن يجعل هذا القليل كثيراً ببركاته، وجزاءً حسناً في جنّاته، ونصراً لسنّة سيّدنا ومولانا محمد عليه أزكى صلواته وتسليماته، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته.

شرح العنوان :

- سميت شرحي : بـ «المناهل الزّلالّة في الجمع بين شرح وأدلة الرّسالة».

والمناهل : جمع منهل، والنّهال الرّيّ والعطش ضدّ، والمَنْهَل المشرب ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السّفار على المياه مناهل، وفي حديث الدّجال : «أنه يرد كلّ مَنْهَل»^(٢)، وقال ثعلب : «المَنْهَل الموضع الذي فيه المشرب والمَنْهَل الشّرب».

والزّلالّة : صفة للمناهل، ويقال ماء زلال بارداً، وقيل ماء زلال، وزلال زلّ عذب، وقيل صافٍ خالص، وقيل الزّلال الصافي من كل شيء قال ذو الرّمّة : كأنّ جلودهنّ مموّهات على أشارها ذهب زلال^(٣).

شرح مقدمة المصنف رحمه الله تعالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم، قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رحمه الله وأرضاه).

بدأ المصنف رحمه الله تعالى - وقيل البادي بها تلامذته -، كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب الكريم تبرّكاً وعمل المصطفى ﷺ، والشأن في هذا أنّ كلّ أمر ذي بال يسنّ فيه الابتداء بسم الله، لقوله ﷺ : «كلّ أمر ذي

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ١٥٣) باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

(٢)(٣) لسان العرب (مادة نهل) و(مادة زلل).

بالِ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ»، قال الإمام النووي: روي في «سنن أبي داود»، و«ابن ماجه»، و«مسند أبي عوانة الإسفراييني» المخرَج على «صحيح مسلم» رحمهم الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ»^(١).

وفي رواية: «بِحَمْدِ اللَّهِ».

وفي رواية: «بِالْحَمْدِ فَهُوَ أَقْطَعُ».

وفي رواية: «كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْذَمٌ».

وفي رواية: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ»^(٢). ويحمل حديث البسمة على البدء الحقيقي وهو جعل الشيء أول عمل يعمل بحيث لم يسبقه شيء.

وحديث الحمدلة على الإضافي وهو الذي يكون أمام المقصود بالذات فيصدق بما بعد البسمة»^(٣).

والله) اسم لذات ذي الجلال، المنعوت بصفات الكمال، المنزّه عن

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤)، والدارقطني (٨٥) بسند فيه قرة وهو ابن عبدالواحد المعافري المصري، قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال أبو زرعة: الأحاديث التي يرويها مناكير، والصواب أن الحديث مرسل. والله أعلم. والحديث بروايته قال عنه الألباني ضعيف جداً كما في إرواء الغليل (٢٩/١).

(٢) روي هذه الألفاظ كلها في كتاب «الأربعين» للحافظ عبدالقادر الرهاوي، وهو حديث حسن، وقد روي موصولاً كما ذكرنا، وروي مرسلأ، ورواية الموصول جيدة الإسناد، وإذا روي الحديث موصولاً ومرسلأ، فالحكم للاتصال عند جمهور العلماء، لأنها زيادة ثقة، وهي مقبولة عند الجماهير، ومعنى «ذي بال»: أي: له حال يهتم به، ومعنى أقطع: أي ناقص قليل البركة، وأجذم: بمعناه، وهو بالذال المعجمة وبالجميم. والحديث في إسناده أحمد بن محمد بن عمران ويعرف بابن الجندي، قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد (٧٧/٥) «كان يضعف في روايته، ويطعن عليه في مذهبه».

(٣) الفواكه الدواني للنفراوي (١/ ١١٤). ط/مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ٢٠٠٤.

التقص والمثال؛ (الرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ): اسمان مشتقان من الرَّحْمَةِ، جاربان على صيغ المبالغة، والرَّحْمَنُ رحمته ينعم بها على جميع الخلق حيث أوجدهم ورزقهم وأنعم عليهم بنعم لا تحصى، والرَّحِيمُ رحمته قاصرة على عباده وأوليائه المؤمنين قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(١) والله أعلم.

(وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ) أي: وصلَّ اللهم وسلِّم وهي صيغة إخبار يراد بها الطلب، وقد صلَّى عليه وصلَّى على من يصلِّي عليه، ومعنى الصلاة على النبي ﷺ هو طلب الثناء عليه من الله تعالى إذا كان الطالب بشراً، أما إن كانت من العليِّ الأعلى سبحانه وتعالى فهي ثناء الله تعالى عليه في الملائكة الأعلى، وهذا القول لأبي العالية^(٢)، والآثار في فضل الصلاة والسلام على نبينا ﷺ كثيرة وسيأتي بيان حكم الصلاة والسلام على رسول الله وفضلها وغير ذلك مما يتعلق بها.

والسيد وهو مُشْتَقٌّ مِنَ السُّؤْدُودِ وَقِيلَ مِنَ السَّوَادِ لِكَوْنِهِ يَزْأَسُ عَلَى السَّوَادِ الْعَظِيمِ مِنَ النَّاسِ أَيِ الْأَشْخَاصِ الْكَثِيرَةِ، وهو حقاً سيّد ولد آدم، وسيّد الأولين والآخريين والخلق أجمعين كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذلك؟ يجمعُ اللهُ النَّاسَ الْأَوْلِيْنَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصْرُ وَتَذْنُو الشَّمْسُ...» رواه البخاري من حديث طويل، وإنما خصَّه بالذكر - أي يوم القيامة - لظهور ذلك له يومئذ حيث تكون الأنبياء كلهم تحت لوائه ويبعثه اللهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ^(٣)، وإلا فهو سيد الناس يوم القيامة وفي الدنيا، وقد ورد لفظ السيد في القرآن الكريم بمعنى الزوج قال تعالى: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾^(٤) ووصف الله يحيى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بالسيد

(١) الآية (٤٣) من سورة الأحزاب.

(٢) حكاه البخاري في صحيحه انظر الفتح (٣٩٢/٨).

(٣) أخرجه أحمد ٣٣١/٢ (٨٣٥٩) و«البخاري» ١٦٣/٤ (٣٣٤٠) و«مسلم» ١٢٧/١ وانظر

فتح الباري للحافظ ابن حجر (٤٢٩/٦) أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. ط/الريان للتراث (١٤٠٧ - ١٩٨٦).

(٤) الآية (٢٥) من سورة يوسف.

فقال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾^(١)، ويطلق السيد على الحلیم الذي لا يستفزه الغضب، وعلى الكريم وعلى المالك وعلى الشخص الكامل المحتاج إليه^(٢)، وكلها من صفات سيدنا وحبیبنا محمد ﷺ، وعبر بسيدنا إشارة إلى جواز استعماله في صيغة الصلاة والسلام عليه في غير ما لم يرد مشروعاً بدونه كالصلاة الإبراهيمية، فإنه لا يجوز إضافة السيد فيها لعدم وروده في صيغها التعبدية ولا اجتهاد مع التص خلافاً لمن قال بذلك، أما لو أراد أن يصلي على النبي ﷺ بلفظ اللهم صل وسلم على سيدنا محمد مثلاً في غير الصلاة فقد منع ذلك جمع من العلماء وجوزها آخرون، وممن منع الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط، وتلميذه الحافظ ابن حجر، والسخاوي تلميذ الحافظ ابن حجر، والقاسمي، والألباني، في خلق آخرين، وعدم ذكر السيادة هو مذهب الحنفية والله أعلم^(٣).

واختلف في إطلاقه على الله تعالى، فعن مالك منعه وقيل يكره وقيل يجوز، وفي حديث ابن مسعود عند أحمد: «أما السيد فهو رب العالمين»^(٤)، قال الحافظ: ووقع في مسند عائشة رضي الله عنها من مسند أحمد من طريق علقمة بن وقاص عنها في أثناء حديث طويل قال أبو سعيد: فلما طلع - أي سعد بن معاذ - قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزّلوه، فقال عمر: السيد هو الله». ولا وجه لمنع استعماله في غير الله تعالى، فقد جاء عن عمر ﷺ قوله «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» أي بلال، وقال عليه الصلاة والسلام في الحسن ﷺ: «أبني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين» رواه البخاري، وفي سعد ﷺ: «قوموا لسيدكم» رواه البخاري^(٥)، وكما مر: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

(١) الآية (٣٩) من سورة آل عمران.

(٢) كما قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، وسعيد بن جبیر، وغيرهم: كما في تفسير ابن كثير.

(٣) معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر أبو زيد (٣٠٤). وفيه مبحث فانظره.

(٤) أحمد في المسند ٣٩٩/١ (٣٧٨٧) وسكت عنه الحافظ في الفتح (٤٧٦/٧ و٢٦٩/١٣).

(٥) فتح الباري (١٩١/٦) كتاب الجهاد والسير باب إذا نزل العدو على حكم رجل رقم (٣٠٤٣).

ولكن الحذار من إطلاقها على المنافقين الفجار، أو الكفرة الأشرار فإنها تسخط الملك الجبار جلّ جلاله فعن عبدالله بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيّدا، فإن يك سيّدكم فقد أسخطتم ربكم ﷻ»، رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في شعب الإيمان^(١)، وفي المعاني يكون السؤدد أيضاً ففي الأذكار منها ما هو سيّد، ومنها ما هو دون ذلك قال ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى سَيِّدِ الْإِسْتِغْفَارِ»

قَالَ الطَّيْبِيُّ: «لَمَّا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ جَامِعاً لِمَعَانِي التَّوْبَةِ كُلِّهَا أُسْتَعِيرَ لَهُ اسْمُ السَّيِّدِ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الرَّئِيسُ الَّذِي يُقْصَدُ فِي الْحَوَائِجِ وَيُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ»^(٢).

(وَالِه) الْآل: اسم جمع لا واحد له من لفظه مشتق من آل يؤول إذا رجع إليك بقراءة ونحوها قال ابن عادل في تفسيره اللباب: «آل» اختلف فيه على ثلاثة أقوال: فقال سيبويه وأتباعه: إن أصله «أهل» فأبدلت الهاء همزة لقربها منها، كما قالوا: ماء، وأصله ماه، ثم أبدلت همزة ألفاً، لسكونها بعد همزة مفتوحة نحو: آمن وآدم ولذلك إذا صُغِرَ رجع إلى أصله فتقول: أهيل.

قال أبو البقاء: وقال بعضهم: أويل، فأبدلت الألف واواً ولم يردّه إلى أصله...، ومنهم من قال أصله: أول مشتق من آل يؤول، أي: رجع؛ لأنّ الإنسان يرجع إلى آله، فتحركت الواو، وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً، وتصغيره على أويل نحو: مأل وموئل وبآب وبؤيب ويعزى هذا للكسائي.

وجمعه: آلون وآلين وهذا شاذّ ك (أهلين)؛ لأنه ليس بصفة ولا علم. قال ابن كيسان: إذا جمعت «آلا» قلت: «آلون»، فإن جمعت «آلا» الذي هو [السراب] قلت: «آوال» ليس إلأ؛ مثل: «مأل وأمّوال».

واختلف فيه فقيل: «آل» الرجل قرابته كأهله. وقيل من كان من شيعته، وإن لم يكن قريباً منه؛ قال الشاعر:

(١) وقال الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٤٠٥ في صحيح الجامع.

(٢) تحفة الأحوذى للمباركفوري كتاب الدعوات (ح ٣٣١٥).

فَلَا تَبِكْ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتِ أَجْنَهُ عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَآلِ أَبِي بَكْرٍ

ولهذا قيل: آل النبي من آمن به إلى آخر الدهر، ومن لم يؤمن به فليس بأله، وإن كان نسباً له، كأبي لهب وأبي طالب، ونقل بعضهم أنّ الراغب ذكر في المفردات أنّ: الآل يطلق على الرجل نفسه.

واختلف فيه الثّحاة: هل يضاف إلى الضمير أم لا؟

فذهب الكسائي، وأبو بكر الزبيدي، والنحاس إلى أن ذلك لا يجوز، فلا يجوز اللّهم صلّ على محمّد وآله، بل وعلى آل محمد، وذهب جماعة، منهم ابن السّيد إلى جوازه؛ واستدلوا بقوله عليه الصلاة والسلام لما سئل فقيلاً: يا رسول الله من ألك؟ فقال: «آلي كلّ تقيّ إلى يوم القيامة»؛ وأنشدوا قول عبد المطلب:

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حَالَكَ
وَأَنْصُرَ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ أَلَّكَ

وقول نُدْبَة:

أَنَا الْفَارِسُ الْحَامِي حَقِيقَةً وَالْيَدِي وَآلِي كَمَا تَحْمِي حَقِيقَةً آلِكَ

واختلفوا أيضاً فيه: هل يُضاف إلى غير العُقلاء فيقال: آل المدينة، وآل مكة؟

فمنعه الجمهور، وقال الأخفش: «قد سمعناه في البُلْدان، قالوا: أهل المدينة وآل المدينة، ولا يضاف إلا إلى مَنْ له قَدْرٌ وَخَطْرٌ، فلا يقال: آل الإسكاف ولا آل الحجاج، وهو من الأسماء اللازمة للإضافة معنًى ولفظاً، وقد عرفت ما اختصّ به من الأحكام دون أصله الذي هو «أهل» هذا كلّه في آل مراداً به الأهل، أما آل الذي هو السّراب فليس مما نحن فيه في شيء، وتصغيره أوئل نحو: مَالٌ وَمَوْئِلٌ وتقدم جمعه» اهـ.

والآل هم أتقياء أمته عليه الصلاة والسلام كما هو قول مالك

رحمه الله تعالى لتعميم الدعاء كما قاله الأزهري وجماعة ونقله النفراوي^(١)،
بخلاف باب الزكاة فإنَّ المراد بهم أقاربه المؤمنين وهم: آل علي بن أبي
طالب، وآل جعفر، وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد المطلب وأزواج
النبي ﷺ.

(وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا) الصَّحْب جمع صاحب، وهو كلٌّ من لقي
النبي ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك وإن فصلت الردة بين لقيه ﷺ وبين
موته (أي من ارتد ثم رجع) على الأصح^(٢)، وسيأتي مزيد من الكلام عن
الصحابة وفضلهم في الدين، وسابقتهم في الإسلام.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ:



(١) الفواكه الدواني (١/١٢٥) ط/مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ٢٠٠٤.
(٢) انظر شرح النزهة (١١٥ - ١١٦) وشرح ألفية السيوطي في الحديث للشيخ محمد ابن
الشيخ العلامة علي بن آدم الأثيوبي (١٨٧/٢).

بطاقة تعريف بالشيخ العلامة أبي محمد عبدالله بن أبي زيد عبدالرحمن^(١):

هو الإمام العلامة القدوة الفقيه عالم أهل المغرب^(٢)، أبو محمد عبدالله بن أبي زيد عبدالرحمن النَّفْزِي - بالنزاي المعجمة - وقيل النفاوي نسبة إلى قبيلة نفاوة من قبائل إفريقية البربرية. وقيل بل إلى نفزة من بلاد الأندلس، ورد هذه النسبة الأستاذ البحاث الهادي إدريس أنه لو كانت نسبه إليها للقب بالأندلسي وهذا لم يقع البتة^(٣)، القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان بتونس، المالكي مذهباً، ولد سنة ٣١٠هـ - ٩٢٢م - على الأرجح^(٤)، وتوفي سنة ٣٨٦هـ - ٩٩٦م، على الصحيح عن ستة وسبعين

(١) عقد ملتقى بالمغرب الأقصى خاص بعنوان: محاضرات ملتقى عبدالله بن أبي زيد القيرواني وقد جمع في كتاب لمجموعة من الباحثين ونشره مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، مكان النشر القيروان الطبعة الأولى تاريخ الطبعة ١٩٩٤، وللهادي الدرقاش كتاب حافل في حياة أبي محمد وآثاره أعده رسالة دكتوراه وطبع سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، قد جمع كثيراً من المعلومات حول الشيخ وحياته عامة، وهو أحسن كتاب وجدته ممن ترجم له. وهو الذي أشير له في بحثي هذا والله الموفق.

(٢) نعتة بذلك شيخ الرجال الذهبي في كتابه النفيس في سير أعلام النبلاء (١١/١٧).

(٣) نقلاً بواسطة أبو محمد حياته وآثاره للدكتور الهادي الدرقاش (٩٨ - ٩٩). قلت: وهو قول عندي وجيه.

(٤) انظر ترجمته ترتيب المدارك لعياض (١٤١/٢) وما بعدها) ط/ دار الكتب العلمية، والإعلام للزركلي (٢٣٠/٢ - ٢٣١)، الديباج لابن فرحون (٤٢٧/١ - ٤٣٠) وانظر مقدمة الرسالة بتحقيق الدكتور الهادي حمو وأبي الأجفان. ص ١٢. ط الثانية / دار =

عاماً هجرياً ودفن بداره^(١)، كان من وجوه العلم ورفعاتهم، معنياً بلزوم السنة والأثر، والرد على أهل الأهواء والبدع، وبخاصة الشيعة العبيديين، الذين كانت له معهم صولات وجولات في زمن نفوذ سلطانهم؛ ولهذا ولعلمه وورعه ونبوغه في المذهب المالكي وإحاطته البالغة بالمذهب سمي بمالك الصغير، ومن اطلع على كتابه «النوادر والزيادات»^(٢)، ليتعجب من نبوغ هذا العَلم في المذهب، وهو وطبقته آخر المتقدمين وأول المتأخرين منهم.

وكان - رحمه الله تعالى - عالماً، فقيهاً، ورعاً، كريماً، مُمدِّحاً، ثرياً، عاليَ الهمة، سرياً. وقال القابسي: إمام موثوق به في درايته وروايته^(٣).

ذا عذوبة في الألفاظ، وملاحة إيراد، وجزالة معان، ذا بيان ومعرفة بما يقوله ضربت إليه الأكباد من سائر البلدان، وكان يقول الشعر ويجيده^(٤).

وحصلت له إمامة المالكية بل أهل السنة كافة في المغرب في زمانه، وكان عالي الإسناد بينه وبين سحنون واسطة ويروي عن ابن القاسم بواسطتين وعن مالك بثلاث^(٥)، معنياً بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم واستجازتهم غرباً وشرقاً، لا سيما في رحلته الحجازية لأداء فريضة حج بيت الله الحرام، ولهذا احتوشه الطلاب، وكثر الآخذون عنه، وصار طلب العلم وتعليمه: صنعته، وتدريسه، حرفته، فشهد درسه الكبار، وتخرج به الأقران، وألحق الأحفاد بالأجداد، وكان له في التأليف زيادة، وصنعتة

= الغرب الإسلامي ١٤١٧ - ولهما جهد مشكور في ترجمة الشيخ وآثاره في مقدمتهما للرسالة الفقهية أتاب الله الجميع، ولكثرة من ترجم له سأختصر الترجمة بإذن الله تعالى.

(١) كتاب الجامع لابن أبي زيد تحقيق عبدالمجيد تركي (٥٢).

(٢) والذي طبعته مؤخراً دار الغرب الإسلامي في خمسة عشر مجلداً.

(٣) تنوير المقالة (٤٥/١).

(٤) معالم الإيمان للدباغ (١١٠/٣) بواسطة: الهادي الدرقاش في كتابه أبو محمد حياته وآثاره (ص ٦٥).

(٥) الفواكه الدواني للنفراوي (٩/١).

عناية، وعلى عبارته حلاوة وطلاوة^(١).

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

الشيخ وحياته العلمية:

نشأ عالماً بمدينة القيروان كما سميت، ومدينة عقبة كما عرفت^(٢)، والتي كانت إحدى عواصم العلم في العالم الإسلامي وذلك بتراتها الزاخر، وجملة من علمائها ذوي المفاخر، أهل التقى والعلم والصلاح العاطر، تعلم في بلده فحفظ القرآن في سن مبكرة، ولم تذكر المصادر هل كان ذلك عن طريق الكتاب أم حفظ في بيته، إذ أنه من عادات البيوت الغنية أن يوظفوا مؤدباً لأبنائهم في البيوت كما سلك هذا المسلك ابن أبي زيد فيما بعد مع أطفاله ونجد مثله لسحنون مع ابنه محمد، إلا أن المصادر لا تغفل أمراً مهماً وهو حرصه على العلم وطلبه حتى أيام المحن مما يدل على جدية عالماً ومواظبته على خلق العلم «فإنه لما سجن شيخه ابن اللبّاد من طرف بني عبيد، ثم أطلق سراحه، ومنع من الفتوى والإسماع، كان أبو محمد ابن أبي زيد، وأبو محمد ابن التبان^(٣) يأتيان إليه خفية وربما جعلوا الكتب في أوساطهما وحجزهما حتى تبطل بأعراقهما خوفاً من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه»^(٤)، بل نجده مقبلاً على دروسه حاضراً مجالس شيوخه أيام الفتن فقد ذكرت المصادر أن ابن أبي زيد

(١) انظر ترجمة له مختصرة في عقيدة السلف «مقدمة ابن أبي زيد» للشيخ العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد بتصرف.

(٢) واختلف في لغة العرب في لفظ القيروان فقليل هي موقع الناس والجيش، وقيل هي محط أثقال الجيش نفسه والمعنى متقارب. معالم الإيمان (٨/١ - ٩). نقلاً عن دراسة في حياة أبي محمد للدكتور الهادي الدرقاش (٢١). والقيروان هي ثالث العواصم الإسلامية تمصيراً، بعد الكوفة والبصرة، إلا أنها مصرت في عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه بعد فتحها على يد جيش عبدالله بن أبي سرح (٢٧).

(٣) ترجمته في ترتيب المدارك (٢٤٨/٦ - ٢٥٧) (طبعة المغرب) وانظر جمهرة تراجم الفقهاء المالكية للدكتور قاسم علي سعد (٧٠٠/٢) ط/دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ١٤٢٣ - ٢٠٠٢.

(٤) معالم الإيمان (٣/ ٢٥) بواسطة الهادي الدرقاش (١٠٣). وترتيب المدارك لعياض.

كان مواظباً على حلق شيوخه يوم امتلاك القيروان من طرف أبي يزيد الخارجي، فكان شيخنا من الطلبة الذين لم ترهبهم الجيوش وتثني عزائمهم الإحن، إذ ورد في ترجمة شيخه المعروف بابن أخي هشام «وكان يجتمع - أي شيخه - هو وأبو الأزهر بن معتب وأبو محمد ابن أبي زيد وابن شبلون وابن التبان والقابسي وجماعة... في جامع القيروان للتفقه عندما ظهر أبو يزيد على بني عبيد»^(١)، وكان ابن أبي زيد أحد الطلبة النابهين، فثافن العلماء بجامع عقبة بن نافع، وهو غلام يافع فسقي من علمهم النافع، وصار له الشأو الرافع، والقيروان يومئذ حاضرة من حواضر الإسلام الزاهرة، والكوكب المنير الذي تشد إليه الرّحال من أقطار العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، رغم ما كان بها من حكم الرّافضة الفاجرة، والفئة الباغية الكافرة.

ولقد كان أحد أعمدة الحلق في المناقشة فقد ورد في ترجمة شيخه السبائي: «ويتذاكر العلماء بحضرته - أي السبائي - وفي مجلسه ابن أبي زيد - وهو الملقى عليهم - وأبو القاسم بن شبلون، وأبو الحسن القابسي، وسعيد بن إبراهيم وغيرهم وكل من يعرف مسألة كان يحضر مجلسه، وذلك لما منعوا من المواعيد والفتوى فإذا تنازعوا فصل بينهم بأمر وكلهم يرجعون إليه، وليس هناك أقوى حجة من تقليد كبار الجهابذة له كالسبائي، فهذا هو أبو الحسن علي بن عبدالله القطان (ت ٣٩١هـ) وهو من تلاميذ أبي محمد يقول: «ما قلدت أبا محمد حتى رأيت السبائي يقلده»^(٢)، وهو من شيوخه

(١) الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب لابن فرحون (١١١) ط/ مصر ١٣٥١هـ وانظر الهادي الدرقاش (١٠٣).

(٢) معالم الإيمان نقلاً عن المقدمة لأبي الأصفان، والسبائي هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد قال أبو عبدالله الإجدابي: كان أبو إسحاق من العلم بالله وأمره في خطة، ما انتهى إليها أحد من أهل وقته، حتى لقد كان من بالقيروان من أهل العلم والدين، إنما ينظرون إليه، إذا نزلت الحوادث والمعضلات. فإن أغلق بابه، فعلوا مثله، وإن فتح، فعلوا مثله، وإن تكلم، تكلموا بمثله؛ لتقدمه عندهم، ومكانه من العقل والعلم، والمعرفة بصحة الوقت، وكيف تلقى الحوادث. وقال أبو عبدالله الخراط: (كان من أولياء الله المعدودين، الذين ينزل بدعائهم القطر، وتظهر بهم البراهين) اهـ من ترتيب المدارك للقاضي عياض (ترجمته).

الكبار، وكان أبو محمد يجله ويهابه فقد قال أبو محمد صاحبنا عن نفسه ومن معه: كنا إذا أردنا الدخول إلى أبي إسحاق السبائي يقول بعضنا لبعض: تعالوا نجدد التوبة قبل الدخول إليه خوفاً أن ينطقه الله علينا^(١).

والتقليد هنا بمعنى الأخذ عنه.

بل يذهب بعض شيوخه وهو ابن الحجام المتوفى سنة ٣٤٦هـ - ٩٢٥م، يوصي له بثلاث مكتبته لما لمسه فيه من إقبال على العلم ومثابرة فيه^(٢)، وكان لشيخه أبي العباس عبدالله بن أحمد الإبياني المتوفى سنة [٣٥٢ وقيل ٣٦١هـ]، رأي عظيم فيه يدل على فطنته ونباهته وطلوع سعده فقد سئل رحمه الله تعالى عن علماء القيروان فذكر ابن أخي هشام (خلف بن عمر ت ٣٧٣هـ) ثم قال: «وأما الثاني من الاثنين فإني رأيت شاباً عاقلاً كاملاً فاضلاً لو وزنت الجبال الرواسي بعقله لرجحها يقال له عبدالله بن أبي زيد، والثالث يقال له عبدالله بن التبان تكاد كل شعرة في جسده تنطق بالحكمة يكون لهما في الفقه باع^(٣)».

والمخلص أن الشيخ هو أحد أعمدة المذهب العلمية فقد وصفه الباحث الهادي روجيه إدريس الذي لا يمكن أن نصف كلامه في حيز المتعصبين من أهل المذهب بل هو باحث غربي محايد يقول: «كان أبو محمد عبدالله بن أبي زيد عبدالرحمن النفزي شخصية فذة، إذ قد يبدو من المؤكد أنه هو الذي ضمن الانتصار النهائي للمذهب المالكي بإفريقية، فقد جمع من جهة عناصر عمل الإمام سحنون ومدرسته، وكون منها بعد دراسة تمحيصية المبادئ العامة للمالكية القيروانية، ولخص المادة من جهة أخرى في كتاب صغير أشبه بالمختصر ليضمن لها انتشاراً كبيراً في جميع الأوساط، وقد كان هو المُنظَر والمُبَسَّط للمذهب المالكي بعد تنظيمه وإعمال الفكر فيه، وأيضاً قاضياً مفتياً نبيهاً ومسموع الكلمة، وإن فتاويه التي

(١) معالم الإيمان للدباغ (٦٥/٣) نقلاً عن الهادي الدرقاش (١٣٥).

(٢) معالم الإيمان (٤١/٣).

(٣) معالم الإيمان (١٠٠/٣) وعنه الدرقاش (١٠٨). فكان نظره بفضل الله صائباً.

لا تحصى لتشهد على حصافة فكر قادر على النبوغ في كل الأمور المجردة، والمحسوسة؛ إن الأسباب التي تفسر شهرة ابن أبي زيد وعمق علمه واستمراره هي أساساً قيمة شيوخه وتنوعهم وغزارة إنتاجه ومواهبه الكبيرة في الكتابة طول المدة التي قضاها في النشاط والتي وصلت الستين سنة خصوصية تفكيره»^(١).

وقد تأثر - رحمه الله تعالى - في العربية بشيوخ جلة كأمثال أبي الحسن محمد بن حسن الخولاني الكانشي (ت ٣٤٧هـ)^(٢) نزيل المنستير ودفينها، وقد كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً مشهوراً بالعلم والتعبد كثير النياحة والبكاء وافر الصدقة والعطاء، أديباً ذا دراية عالية بالعربية وعلومها، له شعر رائق وكان كثيراً ما ينشد:

يا ربّ كن لي ولياً بالصنع حتى أطيعَكَ
لئن ذممت صنيعي لقد حمدت صنيعَكَ
إن كنت أعصيك فلئني أحبّ فيك مُطيعَكَ

وفي مجال العقائد كان لشيخه ميسرة بن نزار له عليه أثر في مواقف عدة من بعض المتصوفة الذين رد عليهم بقولهم جواز رؤية الله تعالى في الدنيا، وألف كتابه الاستظهار في الرد على البكرية^(٣) (وهو كتاب نقض فيه كتاب عبدالرحيم الصقلي) كما سيأتي^(٤)، وعمّق معرفته بالعقيدة الأشعرية الصحيحة على يد أبي بكر ابن عبدالمؤمن تلميذ ابن مجاهد البصري الذي بدوره تلميذ أبي الحسن الأشعري، ومن هنا أثبت هذه العقيدة المباركة، ومن جحد ذلك فقد كابر، ومن أوّل فقد لبّس وما نصح لأبي محمد رحم الله الجميع، ومما يزيدني اطمئناناً وتوكيداً لما قلته أن ردّ ابن أبي زيد

(١) نقلاً عن كتاب «أبو محمد حياته وآثاره» للدرقاش (٣٢٤).

(٢) انظر ترجمته في الديباج ص(١٠٠).

(٣) وفي بعض النسخ الفكرية.

(٤) ترتيب المدارك لعياض (١٤١/٢) العلمية، وانظر مقدمة كتاب الجامع لابن أبي زيد تحقيق عبدالمجيد تركي ص(٦٨).

على ذلك المعتزلي البغدادي^(١) الذي ادعى أنه مالكي المذهب، واقترح بكتابه الذي أرسله إلى علماء القيروان يدعوهم لطرح المذهب الأشعري في الاعتقاد والرجوع إلى مذهب الاعتزال، فثارت ثائرة علماء السنة المالكية الأشاعرة بحق في الردّ عليه، ومن ثم نجد أن ما كتبه ابن أبي زيد في كتبه من عقيدة تنمّ بحقّ وضدّ عما مات عليه الأشعريّ لا ما ذهب إليه الأشاعرة بعده، وإلاّ لكان ابن أبي زيد قد افترى على الأشعري في عقيدته وحاشاه وهو العلم الصادق والجهبذ الناقد المسمى بنعت «شيخ المذهب ومؤسسه».

وفي الزهد والرقائق التمس قدوة عظيمة من لسان إفريقية في وقته في الوعظ أعني شيخه ربيع القطان المتوفى سنة [٣٣٤هـ].

ولما كان الفقه هو أعظم ما اشتهر به ونبغ فيه، وبز الأقران، وأذعن الشيوخ لعلمه، رغم تعدد الفنون التي درسها، فإن من أساطين الفقه الذين أخذ عنهم شيخه أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الجراوي الفاسي (ت٣٥٧هـ)، والذي وفد على القيروان وكان بيت أبي محمد محلّ رحلته، فقرأ عليه الواضحة والمستخرجة والموازية مدّة إقامته عنده، وهكذا استفاد من أبي محمد عبدالله بن إبراهيم الأصيلي (ت٣٩٢هـ) عند وفوده للقيروان، وأخذ أصول الفقه والقضاء والنوازل على شيخه العلامة ابن أخي أبي الأزهر

(١) هو علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي سكن مصر، وكان ينتحل مذهب مالك بن أنس، ويقول بالاعتزال. وكان داعية في ذلك. وكتب إلى فقهاء القيروان رسالة معروفة، يدعوهم فيها إلى الاعتزال، والقول بالقدر، والمخلوق، وغير ذلك من مذاهبهم. ويقول لهم: طريقة متكلمي أهل السنة، ومذهب الأشعري، وبيدعه، فجاوبوه - فقهاء القيروان - وردوا عليه، وجاوبه أبو محمد بن أبي زيد رحمته الله، عن كتابه برسالة معروفة. ظهر فيها علمه وقوته في الكلام بالرد على أهل الأهواء. ونفى عن مالك وأصحابه جميع ما نسب إليه. انظر ترجمته المظلّمة في ترتيب المدارك لعياض (١٣٧/٢) العلمية، وقال فيه عياض: وهذا الرجل غير معروف في المالكية، ولا معدود فيهم، وإنما تسمى بمذهب مالك لينفق بدعته عند العامة. فذكرناه تنبيهاً عليه، لا لنستكثر بمثله. أبعد الله مثله. . .

(ت ٣٧١هـ)، وهلم جرّاً في سلسلة ذهبية مترامية الأطراف، مطرّزة بعتيق الدرر والأصداف، لا يمكن الإحاطة بها، ولا الوقوف على حدودها.

وقد كان من شيوخه العلماء النبلاء، والصالحين الشهداء الذين أخذ عنهم كما تذكر التراجم وقد جاوزوا الأربعين شيخاً ممن ترجم لهم^(١)، والعدد أكبر من هذا ولا شك، منهم:

أبو الفضل العباس بن عيسى المُمسي^(٢) (نسبة إلى قرية مُمس بإفريقية)^(٣)، وهو فقيه فاضل عابد، حفظ القرآن وهو ابن ثماني سنين، والموطأ وهو ابن خمسة عشرة عاماً نال الشهادة في سبيل الله تعالى وذلك سنة (٣٣٣هـ) وهو يقاتل الرافضة العبيديين الذين كان يعتقد كفرهم، فرحمه الله تعالى وحشرنا وإياه مع ساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي^{رضي الله عنهم}، وكان الممسي قد جمع بين الفقه البارع والورع الحاجز والسمت الحسن، وحسن الإشارة والهدي والسكينة، وحكي أن مشيته كانت تشبه مشية عمر بن عبدالعزيز، وبه كان ابن أبي زيد يتشبه بأحواله «ويقلد شيخه»^(٤)، ويثني عليه فيقول: ما هذا الذي نحن فيه إلا ببركته.

ولما قتل سقط عليه جرف فأخفاه الله تعالى عن العبيديين، وقد كانوا يبحثون عن رأسه، ومن لطيف ما وقع في بيته يوم استشهاده أن انكسرت آنية في مرحاضه ببيته، وكان له مرحاض خاص به، فلما سمعوا انكسارها داخل المرحاض وليس فيه أحد قالت الوالدة - كما يحكي ابنها -: أعطانا الله خيرها فإذا بها الساعة التي استشهد فيها رحمه الله تعالى، وجزاه عن أهل السنة خيراً^(٥).

(١) انظر أبو محمد حياته وآثاره للهادي الدرقاش (١٠٥).

(٢) تراجم المؤلفين التونسيين ٣١٨/٤، ومعالم الإيمان ٢٩/٣.

(٣) بضم الميم الأولى، وسكون الثانية.

(٤) معالم الإيمان (٢٧ / ٣) بواسطة الهادي الدرقاش (١٠٥).

(٥) الديباج المذهب (٢١٧). وانظر الدرقاش (١١٨).

وكان خروجه رغم مرضه جهاداً للرافضة الخبيثة، وليتضح المقام أنقل لك هنا ما حكاه القاضي عياض رحمه الله تعالى قال:

كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتزام والتستر، كأنهم ذمة، تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة.

ولما أظهر بنو عبيد أمرهم، ونصبوا حسيناً الأعمى السبّاب لعنه الله تعالى، في الأسواق، للسبّ بأسجاع لُقْنها. يوصل منها إلى سبّ النبي ﷺ، في ألفاظ حفظها. كقوله لعنه الله: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى؛ وغير ذلك. وعلقت رؤوس الأكباش والحرمر، على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل، ومثّل به.

وذلك في أيام الثالث من بني عبيد، وهو إسماعيل الملقب بالمنصور، لعنه الله تعالى، سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة. وكان في قبائل زناتة، رجل منهم، يكنى بأبي يزيد، ويعرف بالأعرج صاحب الحمار، واسمه مخلد بن كيداد، من بني يفرن، وكان يتحلّى بنسك عظيم، ويلبس جبّة صوف قصيرة الكمين، ويركب حماراً، وقومه له على طاعة عظيمة، وكان يبطن رأي الصفيرية^(١)، ويتمذهب بمذهب الخوارج. فقام على بني عبيد، والناس يتمنون قائماً عليهم، فتحرك الناس لقيامه، واستجابوا له، وفتح البلاد، ودخل القيروان، وفرّ إسماعيل إلى مدينة المهديّة، فنفر الناس مع أبي يزيد، إلى حربه، وخرج بهم فقهاء القيروان، وصلحائهم، ورأوا أن الخروج معه متعين لكفرهم، إذ هو من أهل القبلة. وقد وجدوه يقاتلهم معهم. وكذلك كان أبو إسحاق السبائي، يقول ويشير بيده إلى أصحاب أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة لقتالهم. فإن ظفرنا بهم، لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، والله يسلط عليه إماماً عادلاً، يخرج عتاً.

وحكى أبو عبدالله بن محمد المالكي، فيمن خرج معه أبو الفضل

(١) الصفيرية هم: أصحاب زياد بن الأصفر، فرقة من الخوارج خالفوا الأزارقة، والنجدات والإباضية، انظر الملل والنحل للشهرستاني (١١٠) ط/دار الفكر ١٤٢٢ - ٢٠٠٢.

الممسي، وربيع بن سليمان القطان، وأبو العرب ابن تميم، وأبو إسحاق السبائي، وأبو عبد الملك بن مروان بن منصور الزاهد، وأبو حفص عمر بن محمد العسال، وعبد الله بن محمد الشقيقي، في جماعة المدنين، وإبراهيم بن محمد المعروف بالعشاء الحنفي، وغيرهم. ولم يخلف من فقهاء المدنين المشهورين، إلا أبو ميسرة لعماه، ولكنه مشى شاهراً للسلاح في القيروان مع الناس، باجتماع المشيخة على الخروج. ووجهوا إلى الممسي ليروا رأيه في ذلك، وكان عباس الممسي في ذلك الحين مريضاً بمنزله. وأندر الناس إلى الجامع فحضروا، وتكلموا في الأمر، فذكر ربيع جبر والديه (أي الوقوف على برهما وخدمتهما)، وذكر العشاء ثقل وضوئه. فقال العباس الممسي: قد تعلمون أنه يشق عليّ من الوضوء والوالدة - أي خدمتها وطاعتها -، أكثر مما ذكرت، وغير ذلك من علتي هذه الظاهرة. ولكن لما بلغني من ردّ الناس الأمر إليّ زال العذر، وإن عزمتم عزيمة رجل واحد، فلا أضنّ عليكم، لما وجب عليّ من جهادهم.

فقال أبو إسحاق السبائي: جزاك الله، يا أبا الفضل عن الإسلام وأهله خيراً، إنا والله نشمر ونجدّ في قتال اللعين المبدّل للدين، فلعلّ الله أن يكفّر عنا بجهادنا، تفریطنا وتقصيرنا عن واجب جهادهم، فكلّمهم أبو الفضل واحداً واحداً.

فقال ربيع القطان: أنا أول من يسارع ويندب الناس، وتسارع جميع الناس إلى ذلك، وذلك يوم الاثنين لثلاث عشرة بقيت بجمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين أي بعد المائة الثالثة. وعقدوا أمرهم على الخروج إلى المصلّى بالسلاح الشاك، فلما كان الغد، خرجوا واجتمعوا بالمصلّى بالعدة الظاهرة، فضاقت بهم الفضاء من كثرتهم. وتواعدوا للخروج والنظر في الأزواء. ثم اجتمعوا يوم الأربعاء في السلاح. فركب ربيع فرساً، عليه درع مصبوغ، وتقلد سيفاً، وحبس رمحاً، وقد تعمّم بعمامة حمراء، وأبو سعيد ابن أخي هشام يمشي معه على عنقه السيف مصلتاً.

وركب أبو العرب، وتقلّد مصحفاً، وركب غيرهما في السلاح الشاك.

وشقوا القيروان، ينادون بالجهاد، وقد شهروا السلاح، وأعلنوا بالتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي ﷺ وعلى آله، والترحم على أصحابه، وأزواجه رضي الله تعالى عنهم. فاستنهضوا الناس للجهاد، ورغبوهم فيه. فلما كان يوم الجمعة، ركبوا بالسلاح التام، والبنود والطبول، وأتوا حتى ركزوا بنودهم قبالة الجامع. وكانت سبعة بنود:

بند أحمر للممسي فيه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لا حكم إلا لله، وهو خير الحاكمين. وبندان أحمران لربيع، في أحدهما: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفي أحدهما: نصر من الله وفتح قريب، على يد الشيخ أبي يزيد. اللهم انصر وليك على من سب نبيك، وأصحاب نبيك. وبند أصفر لأبي العرب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ الآية. وبند أخضر لأبي نصر الزاهد، فيه: لا إله إلا الله، ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾. وبند أبيض للسبائي، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. محمد رسول الله، وأبو بكر الصديق، وعمر الفاروق. وبند أبيض للعشاء^(١)، وهو أكبرهم، فيه مكتوب: لا إله إلا الله. ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ الآية. وحضرت صلاة الجمعة، فخطب خطيبهم، أحمد بن أبي الوليد، خطبة بليغة، وحرّض الناس على الجهاد، وسبّ بني عبيد، ولعنهم وأغرى بهم. وتلا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٥﴾ الآية. وأعلم الناس بالخروج من غدهم، يوم السبت. فخرج الناس مع أبي يزيد لجهادهم. فرزقوا الظفر بهم، وحصروهم في مدينة المهديّة. فلما رأى أبو يزيد ذلك، ولم يشك في غلبته، أظهر ما أكتنه من الخارجية. فقال لأصحابه: إذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان، حتى يتمكن أعداؤهم منهم. فقتلوا منهم، من أراد الله سعادته، ورزقه الشهادة. فمنهم الممسي، وربيع، ومحمد بن عليّ البقال.

(١) هو إبراهيم بن محمد المعروف بالعشاء الحنفي.

وكان نبيلاً من أهل العلم، في خمسة وثلاثين رجلاً، من الفقهاء والصالحين^(١). وذلك في رجب سنة ثلاث وثلثين وثلاثمائة، ففارق الناس أبا يزيد بالقيروان، وأظهروا السنة وحلّقوا بالجامع، فكان لربيع حلقة يجتمع إليه فيها، للفقهاء من علماء المالكية: أبو الأزهر ابن معتب، ومحمد بن أحمد السيوري، وابن أخي هشام، وعمر بن محمد الغسال، وعبدالله بن عامر بن عبدالله بن الحداد، وأبو الليث مولى ابن اللباد، وأبو محمد ابن أبي زيد رحمه الله تعالى، وعبدالله بن الأجدابي.

فلما ظفر إسماعيل بأبي يزيد ودخل القيروان، سلط الله به على جماعة منهم، سوط عذاب. واختلف في قتل الممسي، كيف كان؛ فقبل سقط من دابته، وقت الهزيمة، فانكسر وركه، فداسته الدواب. وقيل وقعت به جراح، فأثختته، فسقط إلى الأرض. فقبل إنّه لما سقط، وقع ظهره إلى ناحية المهديّة. فمرّ به رجل، فقال له: بفضلك ردّ وجهي إلى ناحيتها لئلا ألقى الله مولياً ظهري عنهم^(٢).

ورثاه أبو محمد ابن أبي زيد رحمه الله تعالى، بقصيدة أولها^(٣):

يا ناصر الدين قمت مسارعاً	وبذلت نفسك مخلصاً ومريداً
وذبت عن دين الإله مجاهداً	وبعت بيعاً رابحاً محموداً
عهدي به بين الأستة لم يكن	لله عند لقاء العدو كنوداً
كانت حياتك طاعة وعبادة	فسعدت في المحيا وامت شهيدا
يا قرة للناظرين وعصمة	للمسلمين وعدة وعديدا
يا فاتق الرتق الخفي بعلمه	ومبيناً للمشكلات مفيدا

(١) ومنهم من ذكر خمسة وثمانين وهو عدد عظيم إن صح يدل على موقف العلماء المالكية من الرافضة قديماً، وعلى ثباتهم في بلدانهم حتى لا تتحول إلى بلد شيعي ولولا فضل الله تعالى ثم ثبات أولئك الأشاوس لكان الخبر غير ذلك.

(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض (١٤٢/٢).

(٣) ترتيب المدارك لعياض (١٤٢/٢).

جمعت كل فضيلة ونقيبة
وبرعت بين أصوله وفروعه
يا أيها المحسود في أخلاقه
أفديك من ورعٍ سليمٍ فاضل
يبكي إذا غسقَ الدجى بمدامع
إن فاتني نظري إليك فلم يفت
ومدامع تشفي وتطفي بالحشا

ومن شيوخه الأعلام ذوي الحجا والأفهام شيخه الهمام أبي سليمان
ربيع بن عطاء الله بن نوفل القطان^(١) الذي كان من النساك الورعين، عالماً
عاملاً بالقرآن وأحاديث خير ولد عدنان ﷺ، لقي الشهادة مقبلاً غير مدبر
في نفس السنة التي استشهد فيها أبو الفضل الممسي ولعلهما في معركة
واحدة، وكان قد عهد على نفسه عهداً أن لا يشبع من طعام أو نوم حتى
تنقطع دولة بني عبيد^(٢)، وجيء برأسه بعد المعركة إلى الحاكم العلوي في
طست فلما كشف عنه فتح الرأس عينيه فقال: أبعدوه عني...

وممن عوّل عليه أبا بكر محمد بن محمد المعروف بابن اللبّاد
القيرواني^(٣) من أصحاب يحيى بن عمر^(٤) وابن طالب وحمديس القطان،
وكانت وفاته بعد مرض الفالج الذي أصابه فأقعده ثلاث سنين^(٥)، وقيل
توفي شهيداً كسابقه في تلك السنة^(٦).

ورثاه أبو محمد ابن أبي زيد رحمه الله تعالى، بقصيدة طويلة أولها^(٧):

-
- (١) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف محمد ٨٣ وتراجم التونسيين ٩٢/٤.
(٢) انظر الدرقاش (١٢٢).
(٣) معالم الإيمان ٢١/٣ - ٢٧ وترتيب المدارك للقاضي عياض (٣/٣٠٤).
(٤) أبو زكريا يحيى بن عمر [٢١٣ - ٢٨٩هـ] الكناني أندلسي سمع من ابن حبيب
وسحنون من أهم كتبه المنتخبة وهو اختصار للعتبية.
(٥) هكذا ذكر الخبر الدرقاش نقلاً عن الديباج ص ٢٥٠ ومعالم الإيمان ٢٦/٣.
(٦) هكذا قال محققا الرسالة مع غرر المقالة لابن حمادة ص (١٤).
(٧) ترتيب المدارك لعياض (٣٢/٢) العلمية.

مستوطن من بقايا آية وطننا
جوامع العلم والخيرات إذ دفنا
ت قد كان أحيا الدين والسّنا
فدتك من كلّ مكروه إليك دنا
فنحن بعدك نلقى الضيم والفتنا
إذ غيّب الترب عنا وجهك الحسننا

يا من لمستقرب في ليلة حزناً
يا عين فابك لمن بفقده فقدت
لهفي على ميّت ماتت به الخيرا
نفسى تقيك أبا بكر ولو قبلت
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
ونحن بعدك أيتام بغير أب

ومنها ذكر محنته وذكره:

لذّله بهوان السجن إذ سجننا
يجد لذلك إذ في ربه امتحننا
ويحتمي مغضباً لله إن فتنا
ولا ملامة من في قوله طعنا
لولاه مات به الإيمان واندفنا
والدين زينته والله شاهدنا
وفي النوازل ملجانا ومفزعنا
ومن تأدب بالتقوى وأدبنا
ومن بدعوته الرحمن ينفعنا

قد كان يعتز بالرحمن إذ قصدوا
كم محنة طرقته في الإله فلم
بل كان حصناً لدين الله ينصره
إن صال في الحق لم يرهب عواذله
حتى استنار به الإسلام في بلد
الفقه خلّته، والعلم حلّته
أب لأصغرنا، كهف لأكبرنا،
يا من هو العَلْمُ المشهود منظره
ومن به تكشف الظلمات إذ نزلت

قلت: وكان الأولى أن تسمى بسنة العلماء الشهداء، لكثرة من لقي
الشهادة منهم في قتال زنادقة الرافضة.

وأبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني^(١)، مؤلف كتاب
«طبقات علماء إفريقية» وقد شارك في قتال العبيديين توفي سنة ٣٣٣هـ.

ومن شيوخه أبو عبدالله محمد بن مسرور العسال المشهور بعلمه

(١) ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣/٣٣٤) وشجرة النور الزكية في طبقات
المالكية لمخولف محمد (٨٣ - ٨٤).

وصلاحه توفي سنة ٣٤٦هـ^(١). باع الشيخ خادماً أعجمية فهربت من دار مشتريها إليه وقالت: بعثني من قوم لا يصلون بالليل وأظنهم يهود^(٢).

ومحمد بن الفتح والحسن بن نصر السوسي، وأبو محمد عبدالله بن قاسم بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام أحد العلماء العزاب توفي سنة ٣٤٦هـ، كتب ونسخ كثيراً حتى إن مكتبته كانت تزن تسعة قناطير خلا كتابين فيها، قال أبو الحسن القابسي: تركها كلها بخط يده، وكانت المكتبة مهددة باستيلاء العبيديين عليها قبل موته، ولم يكن له وارث فأشاروا عليه أن يوزعها أثلاثاً على تلامذته فأعطى ثلثها لأبي محمد ابن أبي زيد، والثلثين الباقيين إلى غيره، ثم لما أصبح قال: ما نمت البارحة لما فقدت كتبي ردوها عليّ فردوا عليه الثلثين، ولم يبق إلا ما أخذه أبو محمد ابن أبي زيد، وأخذ الأمير الثلثين بعد موته^(٣)، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

كما أنه أجازته في رحلته الحجازية كل من أبي سعيد ابن الأعرابي وإبراهيم بن محمد بن المنذر عن أبيه وأبي بكر الأبهري في جماعة من البغداديين، وأرسل ابن أبي زيد إلى الأبهري مختصر المدونة والنوادر بعد أن طلبهما منه، وكان بينه وبين الشيخ مراسلات، وإجازات، وغير هؤلاء كثير.

والخلاصة: فإن حياة أبي محمد كما وصفها عياض في ترتيبه تكفي كما قال الأول:

أَنْعَتْهَا إِنْ نِي مِنْ نُعَاتِهَا كَوْمَ الذُّرَى وَدَاقَةَ صُرَاتِهَا

حيث قال: «وكان أبو محمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إمام المالكية في وقته، وقدوتهم، وجامع مذهب مالك، وشارح أقواله، وكان واسع العلم كثير

(١) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمخلوف محمد (٨٤ - ٨٥).

(٢) معالم الإيمان (٣/ ٥٩) بواسطة الهادي الدرقاش (١٣٠).

(٣) معالم الإيمان (٣/ ٥٨). بواسطة الهادي الدرقاش (١٣١). وحق له أن يحزن عليها ويصيه الأرق ووالله لا يعرف هذا إلا من أصابه مثل ما أصاب ابن الحجام.

الحفظ والرواية، وكتبه تشهد له بذلك، فصيح القلم ذا بيان ومعرفة بما يقوله. ذاباً عن مذهب مالك، قائماً بالحجة عليه، بصيراً بالرد على أهل الأهواء، يقول الشعر، ويجيده، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تاماً، وورعاً وعفة، وحاز رئاسة الدين والدنيا، وإليه كانت الرحلة من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثر الآخذون عنه. وهو الذي لخص المذهب، وضم كسره، وذبت عنه. وملأت البلاد تواليفه. عارض كثير من الناس أكثرها. فلم يبلغوا مداه، مع فضل السبق، وصعوبة المبتدأ، وعرف قدره الأكابر»^(١).

الشيخ وتلاميذه:

لقد تتلمذ على يديه عشرات ممن أخذوا عنه قليلاً أو كثيراً، وكان له في طريقة التعليم باع طويل وأسلوب حسن، قد أحبه الطلاب فكثروا، واستفادوا من علمه وسمته ثم في الآفاق انتشروا، يعلمون الناس ويسوسونهم، وإن العالم إذا ملك مفتاح توصيل المعلومات لطلبته يكون أعظم حظاً ممن امتلأ جرابه بالعلم ولا يستطيع تفريغه بصورة أخاذه، وطريقة جذابة، فكم من علماء هم البحور في علمهم ولكنهم في طرق التدريس كأنما ينحتون من الصخر، لقد كان لأبي محمد طريقته في توصيل مسائل العلم، «كان رحمه الله تعالى يفتح مجلسه بجواب سؤال السائلين عن غوامض المسائل ودقائقها، وربما قال: حدثني نفسي أن في هذا المجلس كذا وكذا سؤالاً فأيكم صاحب سؤال كذا؟ فيقول بعض الحاضرين أنا فيجيبه»^(٢)، ولذا تبوأ كثير من تلاميذه بعده مراكز قيادية في مجتمعاتهم.

وقد ذكر القاضي عياض أربعة عشر تلميذاً، ونقلهم ابن فرحون كلهم^(٣)،

(١) ترتيب المدارك لعياض (١٤١/٢).

(٢) معالم الإيمان (٣/ ١١٦) بواسطة الهادي الدرقاش (١٨٠).

(٣) مقدمة «كتاب الجامع لابن أبي زيد» للدكتور عبدالمجيد تركي (ص ٥٨)، وانظر كتاب حياة أبو محمد حياته وآثاره للدكتور الدرقاش فقد ترجم لأكثر من سبعين تلميذاً من تلاميذ ابن أبي زيد. وانظر مقدمة محقق كتاب الجامع لابن أبي زيد (٥٨ - ٥٩) طبعة دار الغرب الإسلامي.

وهم من أقطار شتى منها القيروان، والأندلس، وسبته، وصقلية، والمغرب وغيرها، ناهيك عن استجازوه فمن أبرز تلاميذه:

البرادعي^(١) المشهور عند المالكية وهو العلامة الفقيه أبو سعيد أو أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي^(٢)، من كبار علماء المالكية، ألف التهذيب وهو عبارة عن اختصار المدونة، والتمهيد، واختصار الواضحة، قال عنه عياض: كان من كبار أصحاب محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وحفاظ المذهب المؤلفين فيه^(٣)، وتوفي بصقلية وقيل بالقيروان ولم تذكر الروايات تاريخ وفاته إلا أن الواضح من حضوره جنازة شيخه أبي محمد أنه توفي بعده.

وأبو بكر أحمد بن عبدالرحمن الخولاني القيرواني^(٤)، وهو من أعلام المذهب وأساطينه، تخرج على يديه الكثير، أبرزهم محرز والسيوري، وكانت وفاته سنة ٤٣٢هـ.

ومن تلاميذه أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي^(٥)، الفقيه المقرئ نزيل قرطبة توفي سنة ٤٣٧هـ، من تأليفه كتاب الكشف في وجوه القراءات، وكتاب إعراب القرآن، وكتبه مشهورة سائرة، وهو معدود في علماء فن القراءات.

وسمع منه خلق كثير منهم الفقيه عبدالرحيم بن العجوز السبتي، والفقيه عبدالله بن غالب السبتي، وعبدالله بن الوليد بن سعد الأنصاري، وأبو بكر أحمد بن عبدالرحمن الخولاني وغيرهم كثير^(٦).

(١) أطلق عليه عياض البرادعي بالبدال المهملة.

(٢) الأسدي كما في ترجمته بالترتيب لعياض.

(٣) معالم الإيمان ١٤٦/٣.

(٤) هكذا ذكره محققا الرسالة في مقدمتهما أبو الأجنان والهادي حمو وذكر تاريخ وفاته.

فإن ترجمته في الشجرة لمخلوف (١٠٧).

(٥) انظر ترجمته في السير للذهبي (٥٩١/١٧) رقم الترجمة: ٣٩٥. ووصفه بأنه العلامة

المقرئ كان مجاب الدعوة.

(٦) انظر السير للذهبي في ترجمته الزكية (١٠/١٧).

أثنى عليه معاصروه من الجهابذة، ومن وليهم في الأعصر إلى يوم
الناس هذا، لا تزال كتبه محط أنظار الطلبة، ومثوى صدورهم، وقصب
السبق لديهم، قلده الكبراء من معاصريه فكيف بمن بعدهم، واتخذوه إماماً
لفقهه وورعه وزهده، كما تقدم.

حتى قيل: لولا «الشيخان والمحمدان والقاضيان للذهب المذهب»^(١).

والشيخان هما: ابن أبي زيد والأبهري.

والمحمدان هما: ابن سحنون وابن المواز.

والقاضيان هما: عبد الوهاب وابن القصار.

وقال الدباغ: «كان رحمه الله تعالى متفنناً في علوم كثيرة منها علوم
القراءات، وتفسير القرآن، وحديث رسول الله ﷺ تسليماً، ومعرفة رجاله
وأسانيده وغريبه، والفقه البارع، وآثار العلماء، وكتب الرقائق والمواعظ
والآداب»^(٢).

بل عده الحجوي في الفكر السامي^(٣): أنه أحق من يصدق عليه حديث
«يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»^(٤).

(١) معالم الإيمان (١١٠/٣) انظر مقدمة أبي الأجنان على الرسالة (٢٦).

(٢) مقدمة الرسالة لأبي الأجنان (٢٥) نقلاً عن معالم الإيمان ١١٣/٣.

(٣) الفكر السامي (١١٦/٣).

(٤) أبو داود: ٣١ - كتاب الملاحم، ١ - باب ما يذكر في قرن المائة، حديث ٢٩١،
٤٨٠/٤، ط ٣. والحاكم في المستدرک: كتاب الفقه والملاحم ٥٢٢/٤، دار الفكر.
والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ٢، ص ٦١، نشر دار الكتاب العربي. وقال
السيوطي: اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح... «ثم قال: وأما المتقدمون فكلهم
لهجوا بذكر هذا الحديث». ورمز لصحته في (الجامع الصغير). وقال الزين العراقي:
سنده صحيح وقال السخاوي: سنده صحيح، ورجاله كلهم ثقات، وقال المناوي:
بإسناد صحيح وقال الألباني: والسند صحيح، ورجاله ثقات، رجال مسلم وبالجملة
فقد اعتمده العلماء: الزهري، وسفيان بن عيينة، وأحمد، والحاكم، والبيهقي، وابن
عساكر، والنووي، وابن السبكي، وابن حجر العسقلاني والحافظ الذهبي، والحافظ =

وقال الذهبي^(١): كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول، فنسأل الله التوفيق اهـ.

قلت: وهي طريقة إمام المذهب ومن تبعه كابن القاسم وسحنون^(٢)، روى المالكي قال: «ذكر يحيى بن عون قال: دخلت مع سحنون على ابن القصار، وهو مريض، وكان من أصحابه، وأصابه في علقته قلق، فقال له: يا ابن القصار، ما هذا القلق، الذي أنت فيه؟ قال: الموت والقدم على الله وَعَلَى فقال له سحنون: أأنت مصدقاً بالرسول أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار؟ وأن أفضل الأمة - بعد نبينا وَعَلَى - أبو بكر ثم عمر؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق؟ وأن الله تعالى يرى يوم القيامة؟ وأنه على العرش استوى؟ ولا تخرج عن الأئمة بالسيف وإن جاروا؟ قال: إي والله الذي لا إله إلا هو، فضرب سحنون بيده على ضبعيه وقال له: مت إذا شئت، مت إذا شئت ثم خرج اهـ^(٣).

الشيخ وأجل أصحابه:

إن أصحاب أبي محمد كانوا من خيرة طلاب العلم الذين زاملوه في

= زين الدين العراقي، والحافظ ولي الدين العراقي، وابن الجزري، وابن كثير، وابن الأثير، والسيوطي، والسخاوي، والمناوي، ومئات غير هؤلاء، كلهم اعتمدوا الحديث، واشتغلوا في تجديد من ينطبق عليهم الحديث. وذكر ذلك الحافظ ابن حجر في كتابه (توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس) ص ٢٤٠ من المخطوط في مكتبة الحرم المكي برقم ١٠٦ مجاميع، وتابعه على ذلك المصنفون من بعده كالسيوطي، والعظيم أبادي صاحب (عون المعبود). والسيوطي في رسالته المخطوطة: (التنبئة فيمن يبعث الله على رأس كل مائة) ص ١٢، والسخاوي في (المقاصد الحسنة) ص ١٢٢، حديث ٢٣٨، ط: دار الكتب العلمية. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٥٠/٢، رقم ٥٩٩، المكتب الإسلامي.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/١٧) مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

(٢) الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية لعبدالعزیز المجذوب (ص ٤٣) ط/الدار التونسية ١٣٩٥ - ١٩٧٥.

(٣) وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٧/١٢).

دراسته، فقد ذكرت المصادر أن أبا محمد ابن التبان (٣١١ - ٣٧١هـ)، وأبا القاسم بن شبلون (٣٩١هـ)، وأبا الحسن القابسي (٣٢٣ - ٤٠٣هـ)، والمؤدب محرز بن خلف (٤١٣هـ)، كانوا إخوة متحابين وعلى مجالس الخير متعاونين، لا سيما الأخيرين كانا مع ابن أبي زيد أبناء الخالة وهذا مما زاد في الرابطة بينهم مع رحم العلم التي كانت تجمعهم^(١)، ومن كرم أبي محمد بن أبي زيد مع إخوانه أنه كان يواسيهم بماله فقد مرض أخوه في الله تعالى ابن شبلون فبعث له بخمسين ديناراً ذهباً^(٢)، وكيف أنه جهز ابنة أبي الحسن القابسي بمبلغ لا تجود به إلا الأنفس الواثقة بالله، والصادقة في حبها لله.

هم الرجال وعيب أن يقال لمن لم يكن في زيّهم رجل

الشيخ وحياته العملية:

كان ابن أبي زيد أمةً وحده، ونسيحَ زمانه وأوحدَه، جمع الله له بين العلم والعمل، فكان ورعاً، تقياً، حسن السميت، وقوراً، صالحاً، عفاً، كريماً، شهماً، مقداماً على الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، خاضعاً للحق، راجعاً عن الخطأ إن تراءى له الصواب، أيّد السنة وأهلها زمن الخبثاء العبيديين وأذئابهم ممن حلوا في الولاية بعدهم حتى إنه عاش حياته كلها تحت هذين الحكمين من سنة (٢٩٦هـ إلى ٣٦٢هـ) تحت الحكم العبيدي المباشر^(٣)، ثم من (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ) تحت حكم أذئابهم من بني زيري قبل أن ينفكوا عنهم، ولك أن تتصور تلك المعاناة التي وصل إليها في ظل النقيض مما يعتقد ويدين به، وقرأ كتاب الصراع المذهبي وغيره ممن كتب عن القيروان، تجد طرفاً كبيراً مما عاناه السنة عموماً وعلمائهم

(١) أبو محمد حياته وآثاره للهادي الدرقاش (١٦٥).

(٢) معالم الإيمان (٣/١١٣). الدرقاش (١٧١).

(٣) والعبيديون نسبتهم الى عبيدالله المهدي الفاطمي الشيعي الخيث لا صبحه الله ولا مساه بخير.

على وجه الخصوص^(١)، وقد كان رحمه الله تعالى وقيًا، جواداً، كثير البذل للفقراء والغرباء وطلبة العلم، ينفق على العلماء مما أعطاه الله ووسع عليه، حتى قيل: كانت له غلة كبيرة ترد عليه يومياً آلاف الدنانير ولم تجب عليه الزكاة قط لما كان ينفقها في سبيل الله.

قال الشيخ الدباغ عنه: «كان - رحمه الله تعالى - من الأجواد وأهل الإيثار والصدقة، كثير البذل للفقراء والغرباء وطلبة العلم، كان ينفق عليهم، ويكسوهم، ويزودهم»^(٢).

وإليك بعض مواقف جُوده وكرمه:

كان القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر التغلبي المالكي^(٣)، شيخ المالكية في العراق قد ضاقت عليه بغداد بما رحبت من قلة ذات اليد فقال فيها:

بغداد دار لأهل المال طيبة وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظَلِلْتُ حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق^(٤)

- (١) انظر مقتل العلمين الجليلين القيروانيين ابن البرذون وابن هذيل في معالم الإيمان للدباغ (٢/٢٦٣٩) وأبو محمد حياته وآثاره للهادي الدرقاش (٣٥ - ٣٦) وغيرهم كثير. ممن قتل أو استشهد في قتالهم حيث استشهد منهم في يوم واحد ٣٥ فقيهاً، - وتقدم أن قيل أكثر من ذلك - زيادة على العامة وكان ذلك بسبب خيانة أبي يزيد الخارجي لهم في معركة المهديّة سنة ٣٣٣هـ وكان منهم شيوخ لابن أبي زيد رحمهم الله تعالى.
- (٢) مقدمة الرسالة لعبد الهادي وأبي الأجنان (ص ٢٢).
- (٣) السير للذهبي (١٧/٤٢٩) صنف في المذهب كتاب التلقين وهو من أجود المختصرات وله كتاب المعرفة في شرح الرسالة، وخرج في آخر عمره إلى مصر واجتاز بالمعرة فضيفه أبو العلاء ابن سليمان المعري وفيه يقول أبو العلاء:
- (٤) انظر صفحات من صبر العلماء لأبي غدة (ص ٢٠٨)، وقد زعم الذهبي أن هذه القصة فيها بُعْد مع أنه أقر بالقصة التي تليها في السير.

فلما سمع ابن أبي زيد بحالة الشيخ العلامة القاضي وقره أرسل إليه بألف دينار من العين^(١)، ولما وصل إليه المبلغ من المال، قال القاضي: هذا رجل يجب علينا مكافأته، وكانت المكافأة من القاضي هي تخليد اسمه في كشف المتواضعين الكبار، بشرحه لرسالة ابن أبي زيد التي هي بين أيدينا وكان أصغر منه سناً، بل قيل كان أول الشارحين لها^(٢)، ويذكرنا هذا الموقف السخي من ابن أبي زيد بتلك المواقف الزكية التي كان يفعلها العالم التقي المجاهد المبارك عبدالله بن المبارك^(٣)، حيث كانت همته في التجارة أن ينفق على العلماء وطلبة العلم ليستغنوا بدينهم عن دنيا الناس، وقد وجدت أجزاء من شرح القاضي للرسالة وطبع منها جزء العقيدة^(٤)، فله الحمد والشكر.

ووصل الفقيه يحيى بن عبدالعزيز العمري حين قدم القيروان بمائة وخمسين ديناراً، وجهاز بنت الشيخ أبي الحسن القاسبي^(٥) بأربعمائة دينار من ماله قائلاً: «كنت أعددتها من حين إملاكها، لئلا يشتغل قلب أبيها من قبيلها».

بل إنه شارك في تزويج بعض طلبة العلم وإعفافهم فها هو يهدي جارية لأبي بكر ابن أبي العباس الصقلي وهو أحد تلامذته النجباء، فولدت له غلاماً، وكان الطالب كلما تذكر شيخه انهمرت عيناه بالدموع، فأين هذا الشيخ المبارك من شيوخ زماننا الذين يستحذون على أرزاق الطلبة، ويأكلون من مخصصاتهم، مدلين عليهم بما يقدمونه لهم من عمل وعلم، ولقد تقدم لك إكرامه لإخوانه كابن شبلون.

(١) يراد بها الدنانير من الذهب والدارهم الفضية.

(٢) وقيل أول شارح لها هو تلميذ ابن أبي زيد أبو بكر محمد بن موهب القبري المتوفى سنة ٤٠٦هـ.

(٣) انظر ترجمته المباركة في السير للذهبي (٣٧٨/٨).

(٤) طبع بدار الكتب العلمية بتحقيق الأخ بدر العمراني الطنجي وتحقيقه على منهج السلف، وطبعته أيضاً دار زايد للتراث وتحقيقه على منهج الخلف بقلم الدكتور أحمد محمد سيف.

(٥) معالم الإيمان (٣/ ١١٣) بواسطة الهادي الدرقاش (١٧٣).

وقد كان أبو سعيد الخولاني أحد تلامذته يشتغل خياطاً ورأس ماله مقص وحلقة، وكان يتوقف عن عمله بمجرد تحصيله على درهمين لقوته ليتفرغ بعد ذلك للدراسة، وروي أنه انصرف يوماً وعليه أطمار بالية، فسأل عنه ابن أبي زيد فذكر له أنه ما يلبس هذه إلا ليتجمل بها في الميعاد، وأما ما يقطع به فَفَرَّو^(١) يساوي درهمين، فبعث له أبو محمد بصرة فيها خمسون ديناراً ذهباً فأبى أن يأخذها على شدة فقره وحاجته وقال: إنما قوتي كل يوم حزوبة (أي جزء من الدرهم وكان يساوي ست عشرة حزوبة) آخذ بها خبزاً تصب عليه الوالدة مرق بقل أو ما تيسر^(٢).

ولم تقتصر نفقته على الأكل والشرب واللباس بل كما مر أنه اهتم بتزويج بعض تلامذته الشباب لما لهم من حاجة إلى الزوجة الصالحة، وإليك هذه القصة التي تدل على روحه الشفافة، وقلبه الصافي، وكرمه الذي جاوز الحد في الوصف، فها هو يرى أحد تلامذته الأندلسيين الذين جعلهم محل اهتمامه، ونصبه إماماً لمسجده، إذ في غفلة عن الرقيب كما يحسب، يُتبع بصره امرأة خارجة من الحمام وقد كشفت عن وجهها لما نالها من حر الحمام، ولم تظن أن أحداً ينظر إليها فلما رآته سترت وجهها وانصرفت، فأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً فتبعها إلى أن دخلت إلى دار أبي محمد شيخه، والشيخ ينظر إليه وهو لا يشعر بوجوده، فلما رآه خجل واستحيا وظن أنه لن يفلت من توبيخ الشيخ، وصار يتهرب إلى درجة أنه تخلف عن الصلاة بالشيخ فأرسل إليه المؤذن فلما جاء أمره بالصلاة، وآنسه بعدها مما خفف عليه لوعة ما أصابه، وأمره بعد العشاء الآخرة أن يبقى في بيته كي يزوره، وطفقت كل الهواجس والظنون تحدث هذا الطالب بما قد يكون، وليته ابتلعت الأرض من أن يصادف موقفاً مثل هذا، وما هو إلا أن أرخى الليل سدوله، إذا بالباب يقرع، وإذا بالشيخ بالباب ليبادر بالقول: «يا بني إنما قد جئتك معتذراً من تقصيري في حقك إذ لم أقم بجميع ما تحتاج

(١) الفرو: نصف كساء يتخذ من وبر الإبل كما في القاموس.

(٢) أبو محمد حياته وآثاره للدرقاش (١٩٧).

إليه، وذلك أنني لم أتفقد أنك شاب تحتاج إلى النساء، وها أنذا شيخ وأرغب في المزيد فكيف أنت؟ وأما الصبية التي رأيته خارجة من الحمام فإني ربيتها صغيرة لنفسى وهي لك، وما أخرجتها لهذا الوقت إلا أنهم في الدار من ذلك الحين يصلحون من شأنها فلم يبرح حتى وصلت الصبية بجميع جهازها وتركها في منزله وانصرف»^(١)، الله أكبر ما أعظم هذا النبل والإيثار من شيخ كان يريد الأمر لنفسه!، فلله درُّ تلك النفوس الزكية، لقد علق ابن ناجي قائلاً: «واعجابه هكذا كان خواص العلماء في أخلاقهم وإنصافهم وإعانتهم، ولو وقع اليوم أقل من هذا لتلميذ مع شيخه لما نظر له في وجه ولا صلى وراءه أبداً، ولا يقدمه في خطبة شرعية، ولا تقبل له توبة أبداً»^(٢).

وهل أتاك نبأ الطالب الذي بات يشوي أصابعه من أجل ابنة الشيخ ما قصته؟:

لقد تأخرت ابنة الشيخ يوماً في الحمام، وظنت أن الليل لما ينصرم منه ما يمنعها من الخروج في تلك الأزقة الضيقة، فلما خرجت إذا بالظلام الشديد وخشيت إن أخذت الطريق إلى أهلها باتت بشر ليلة، وما عليها إلا أن طرقت على أقرب بيت تظن أنه عامر، فإذا بشاب بين يديه كتب يقلبها فدخلت، بعد أن استأذنت وباتت بركن البيت، وبات الشاب اليافع في صراع مرٍّ ومزير مع الشيطان، فكلما أزه إلى المعصية بها وأغراه بجمالها وخلوتها، إذا به يقدم أحد أصابعه للنار ليتذكر غضب الله وأليم عقابه، والفتاة خائفة تنظر إلى هذا المشهد وتتعجب، ولا يدرى ما يخبئ لهما القدر، وما إن طلع الفجر ولاحت تباشيره حتى أمرها بالخروج، وخرجت المسكينة وذهبت إلى بيتها وإذا الأم واقفة وراء الباب تتلهب عليها، فقالت لها: يا بنيتي، لعلك سالمة، فقالت: سالمة وأعلمتها الخبر كيف جرى من مشاهد الصراع بين الشاب ونفسه وأخبرت الوالدة أبا الفتاة، فأعجباً بعفة هذا

(١) معالم الإيمان (٣/ ١١٤) بواسطة الهادي الدرقاش (٢٥٠). بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق والصفحة السابقة.

الشاب ونقاء سيرته، ولما غدا الطلاب على الدرس مع شيخهم ابن أبي زيد إذا بشاب قد غطى يديه بثيابه فاستفسره الخبر، فأخبر بما يوحى أنه صاحب القصة، فأمره بالبقاء بعد انصراف الطلبة، فما كان إلا أن زوجه إياها^(١).

انظر يا رعاك الله كم كان بينه وبين الحلال المبارك والذكر الطيب، ليلة واحدة، ثم ينال هذا القرب من الشيخ وما نال ذلك إلا بقربه من الله والخوف منه في مكان لا رقيب عليه فيه سواه، فاللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلانية آمين.

ومن كراماته:

لا ينكر الكرامات إلا جاحد للقرآن بعيد عن سنة خير ولد عدنان ﷺ، إلا أنه قد تلبس الكرامات بالخرافات وتلبسات الشيطان، لا سيما على الجهال الذين لا يميزون بين المنقول والمعقول، والحقيقة والخيال، وأبو محمد رجل فقيه ذو اطلاع قوي على شريعة الإسلام، وفهم دقيق لمقاصد الشرع الذي لم يدع أتباعه للدروشة بعيداً عن الأخذ بمناكب الحياة، واكتفاء بالخرافات والأساطير، ومن ثم كان يعرف الفرق بين إثبات الكرامة الحقيقية وبين التلبسات الخفية من الشيطان لا سيما على العباد الجهال، ولما شاع في عصره من بعض متصوفة زمانه الغلاة إمكان رؤية الله تعالى في الدنيا عياناً، شحذ يراعه ليرد الأمر الذي قد راعه من شأن هذه الفرية، والتي وجد أولئك الطاعنون عليه فيها مأخذاً يغمزونه بها ويشنعون عليه أنه ينكر الكرامات، وهو ما يجده في كل زمان ومكان من يتصدى للخرافات فتتأثر حوله الأراجيف زعماً أنه لا يحب الصالحين، ويحارب الأولياء وهي لعمر الله شنشنة مفضوحة عند عوام الناس العقلاء فكيف بعلمائهم الفضلاء، لم يسلم منها الأنبياء فكيف بغيرهم من العلماء الصالحاء، فما كان من أبي محمد إلا أن رد على أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد

(١) المرجع السابق (ص ٢٥٠).

البكري الصقلي بكتاب: الاستظهار في الرد على البكرية، وكتاب كشف التليس.

ثم أيعقل أن ينكر الكرامات وهو الذي يحكي لتلاميذه كرامة لصديقه وحببه محرز التونسي وقعت له وقد عاشها معه، وهي أن محرز بن خلف جاء زائراً لأبي محمد فلما كان الليل قام هذا الولي الصالح ليصلي ورده من الليل، فطلب الماء فلم يجد، فسأل أبا محمد فأخبره أنه غير موجود، فطلب منه أن يأمر الجارية بكنس السطح، وتنظيف الميزاب، ثم صعد على السطح فاستسقى، فإذا بسحابة تمطر فملئوا ما شاء الله أن يملئوا وتوضؤوا، فلما أصبحوا سأل ابن أبي زيد تلاميذه عن المطر، فلم يذكر أحد ممن حضر شيئاً، فعلم الشيخ أن السحابة لم تتجاوز الدار.

وأيضاً إقراره كرامة وقعت لبعض الذين قدموا عليه من طرابلس منهم تلميذه ابن المنمر، حيث جاعوا ثلاثة أيام، فأقبل أحدهم فمسح ظهر الربوة ودعا وقرأ وأخذ التراب وصب عليه الماء فإذا هو سويق مستو فطعموا، فقال الشيخ: هذا داخل في الإمكان أنتم جياع والله يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

وقيل أيضاً: إن محرزاً التونسي أتى بابنة ابن أبي زيد وهي زَمِيَّة فدعا لها، فقامت، فعجبوا وسبَّحوا الله^(١). وغيرها من الكرامات كثير ولكن لم يدع يوماً أنه صاحب كرامات، فهو يعرف حدّه، ويعبد ربّه، يرجو رحمته ويخاف عذابه، ويغيب شيطانه، ولا يتاجر بدينه.

وغير هذا كثير، ومع ذلك كان متواضعاً في نفسه غير متعال بعلمه ولا عمله، منكسر القلب، غزير الدمعة، لا يرى لنفسه فضلاً عن غيره من عباد الله، قال أبو القاسم الليدي: اجتمع عيسى بن ثابت العابد، بالشيخ

(١) معالم الإيمان (٣/ ١١٦) بواسطة الهادي الدرقاش (٢٥٦). وانظر السير للذهبي المرجع السابق، والتوسل بالحي الصالح التقي الموجود بينهم ثابت لا خلاف فيه كما في قصة استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنه.

أبي محمد، فجرى بينهما بكاء عظيم وذكر، فلما أراد فراقه، قال له عيسى: أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك، فإذا رأيت دعوت لي. فبكى أبو محمد، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. فهَبْنِي دعوت لك. فأين عمل صالح يرفعه؟^(١)، إنه غمط النفس وإلجامها، ونسيان الذات واحتقارها، فويل لغرورنا، إن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا.

وأقول: من عظيم منة الله تعالى عليه وكرامته له أن حُفِظَت هذه الرسالة وأمثالها من كتبه حتى وصلت إلينا مسندة، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على إخلاص عبوديته لربه وتعلقه به سبحانه فرحمه الله وغفر له آمين.

أسرة الشيخ أبي محمد:

لقد كان لأبي محمد رحمه الله تعالى أسرة مثالية في الأدب والأخلاق، وكان هو نعم المربي والأب الناصح الشفيق، فكان حريصاً على أبنائه وبناته وتربيتهم بالرغم من شغله الشاغل في التدريس والتأليف ومتابعة طلابه وأحوالهم، إضافة إلى ما ابتلي به من امرأة تسيء عشرته، وتنغص عليه حياته، وهو في كل ذلك صابر محتسب، فقد ذكر ابن العربي في أحكام القرآن، أنه أخبره أبو القاسم ابن أبي حبيب بالمهدية عن أبي القاسم السيوري عن أبي بكر ابن عبدالرحمن قال: كان الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد من العلم والدين في المنزلة المعروفة وكانت له زوجة سيئة العشرة، وكانت تقصر في حقوقه، وتؤذيه بلسانها، فيقال له من أمرها، فيسدل بالصبر عليها، وكان يقول: «أنا رجل قد أكمل الله علي النعمة في صحة بدني ومعرفتي، وما ملكت يميني، فلعلها بعثت عقوبة على ديني؟ فأخاف إذا فارقتها أن تنزل بي عقوبة هي أشد منها»^(٢).

ورزقه الله ثلاث بنات وذكرين، وله مع بناته الشفقة الوافية التي

(١) ترتيب المدارك لعباوض (١٤١/٢ - ١٤٢).

(٢) أحكام القرآن (٣٦٣/١) ط/ دار الفكر.

يحملها كأب رفيق ببنته، فتراه يطلب لهن الدواء، والدعاء ممن كان يرجو منه الصلاح، وقد ذكرنا أن إحداهن رقاها شيخه السبائي فشفاه الله، والأخرى كان بها الفالج فدعا محرز لها ببركة أبيها فشفيت، وإحدى البنات قد علمنا تزويجها لأحد طلبته الأتقياء في قصة مثيرة تدل على صدق الطالب وعفته، وكرم الشيخ ورفعته.

وقد ذكر العلماء له ولدين وهما أبو بكر أحمد بن أبي محمد وقد ولي القضاء سنة (٤٣٦هـ)، في عهد المعز بن باديس وكان عدلاً في الأحكام كثير السياسة محبباً للناس، لكن سرعان ما نحي بسبب الوشاية لا عن جرحه في دينه وتوفي بعد سنة (٤٦٠هـ) ودفن في الدار التي دفن بها والده.

وولده الثاني هو أبو حفص عمر بن أبي محمد وتوفي سنة (٤٦٠هـ) صالحاً تقياً، وكان الولدان وفين لوالدهما بعد حياته وذلك بصلة العلماء ومراسلتهم ومواساتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مما يدل على أصل المحتد وكرمه ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، وكان لأبي حفص ولدان هما أبو القاسم عبدالرحمن، وكان عالماً له عناية بالحديث، حافظاً له معتنياً بالفقه، ذاباً عن مذهب مالك توفي بعد أبيه بخمسة عشر عاماً، وأما ابنه الثاني أبو الطيب عبدالمنعم بن عمر بن أبي محمد كان عالماً صالحاً ولي إمامة جامع عقبة بالقيروان وهو خاتمة عائلة ابن أبي زيد توفي آخر رمضان سنة ٤٩٥هـ^(١).

مؤلفاته^(٢):

صنف ابن أبي زيد رحمه الله تعالى كتباً كثيرة متنوعة ومفيدة، وهي «على صنفين صنف دُونَ من أجل تطوير الفقه المالكي وجمع

(١) معالم الإيمان (١٨٩/٣) بواسطة الهادي الدرقاش (٢٥٨ - ٢٥٩).

(٢) انظر القاضي عياض ترتيب المدارك (٢١٧/٦)، وذكر الذهبي في السير جملة منها في ترجمة المصنف (١١/١٧)، وانظر: مقدمة أبي الأجنان للرسالة (٣٤ - ٣٥).

أقوال علمائه وتقريبه من الأفهام، ويشمل هذا الصنف: كتاب الرسالة، وكتاب مختصر المدونة، وتهذيب العتبية، والنوادر والزيادات، بحيث كل المصنفات هي مصادر هامة على ذمة الفقهاء السنيين يرجعون إليها ويستنجدون بها ساعة الحاجة سواء للدرس أو للرد؛ وأما الصنف الثاني فهو يشمل رسائل عديدة دونت لأسباب متعددة منها الرد على البدع الشيعية في ميدان الفقه الإسلامي ككتاب الاقتداء بأهل السنة وكتاب الذب على مذهب مالك، وكتاب التنبية على القول في أولاد المرتدين، وكتاب تفسير أوقات الصلاة، وكتاب المناسك، ورسالة إعطاء القرابة من الزكاة وكتاب فضل قيام رمضان، ومواضيع هذه الكتب كلها عبارة عن مسائل وقع التناظر فيها بين أهل السنة والتشييع...»^(١)، وإليك هذه الكتب حسب الفنون:

في القرآن:

- كتاب إعجاز القرآن.
- وكتاب من تحرك عند القراءة.
- رسالة في حكم أخذ الأجرة على قراءة القرآن.
- رسالة إلى أهل سلجماسة في تلاوة القرآن.

في العقيدة:

- كتاب الثقة بالله والتوكل على الله.
- وكتاب النهي عن الجدل.
- ورسالته في الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي^(٢).
- ورسالته في التوحيد.

(١) أبو محمد حياته وآثاره للهادي الدرقاش (٣١١).

(٢) ترتيب المدارك لعياض (٢١٧/٦).

- التنبيه على القول في أولاد المرتدين.
- الدعاء.
- قصيدة في مدح رسول الله ﷺ.
- إثبات كرامات الأولياء.
- كشف التليس.
- قصيدة في البعث.
- الرد على أبي ميسرة المارق القرطبي المالكي (ت ٣١٩)، الذي اهتم بالفلسفة والتصوف وتأثر بالتشيع^(١).
- وكتاب المعرفة.
- المضمون من الرزق.
- الاستظهار في الرد على البكرية^(٢) (وهو كتاب نقض فيه كتاب عبدالرحيم الصقلي، ورد كثيراً مما تقلده من خارق العادات على ما قدره في كتابه) واتهم - ابن أبي زيد - بعض من لم يعرف قصده بنفيه الكرامات، وعرف مقصده الباقلاني كما قال عياض فدافع عنه^(٣)، وألف مجلدين لذات الغرض.
- كتاب المعرفة واليقين أو كتاب المعرفة واليقين والتوكل.

(١) ومن تلاميذ الشيخ أبو عبدالله الجالطي (ت ٤٠٣هـ) وكان قد أمد شيخه أبا محمد برد الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) على ابن ميسرة المالقي الدرقاش (٢١٣) وممن رد على ابن ميسرة هذا أبو عمر الطلمنكي (ت ٤٢٩هـ) وهو أحد تلاميذ أبي محمد.

(٢) وفي بعض النسخ الفكرية والصحيح ما أثبتناه لأنه رد على البكري.

(٣) ترتيب المدارك لعياض (٣ و ٤/٤٩٤، ٤٩٥)، وانظر مقدمة كتاب الجامع لابن أبي زيد تحقيق عبدالمجيد تركي ص (٦٨).

في الفقه :

- كتاب النوادر والزيادات على ما في المدونة وغيرها من المهمات من مسائل مالك وأصحابه. وقد جمعه من: الأسدية لأسد، والمدونة لسحنون، والواضحة لابن حبيب، والمستخرجة للعتبي، والموازية لابن المواز وغيرها وقد طبع والحمد لله^(١).
- مختصر المدونة وفي المعيار يدعوه بـ«اختصار المدونة»^(٢)، وهو يحوي خمسين ألف مسألة اختصر فيه المدونة والمختلطة وهي ما تسمى بالأسدية^(٣).
- والرسالة الفقهية التي نحن بصدها، والثلاثة من أحسن كتبه، وكان عليها المعول عند المالكية^(٤).
- كتاب العتبية على الأبواب ويسمى تهذيب العتبية.
- كتاب تفسير أوقات الصلوات أو الصلاة.
- وكتاب الاقتداء بمذهب مالك، وقد أفاد فيه بأنه بحث فيه مسائل الإجماع وإجماع أهل المدينة^(٥).
- وقد سمي في بعض المصادر بـ«الاقتداء بأهل المدينة»^(٦).
- مسألة الحبس على الأعيان.
- المناسك.

(١) طبعته دار الغرب الإسلامي في ١٥ مجلدًا.

(٢) المعيار المعرب للنشرسي (٣٠١/٩).

(٣) مقدمة ابن خلدون (٨٠٧) بواسطة الدرقاش.

(٤) كما قال ذلك القاضي عياض ترتيب المدارك (٤٩٤/٤) والذهبي في السير (١١/١٧).

(٥) مقدمة الرسالة لأبي الأصفان (٣٤).

(٦) مقدمة كتاب الجامع لابن أبي زيد تحقيق عبدالمجيد تركي ص (٦٥) نقلاً عن شجرة النور لمخلوف.

- رسالة إعطاء القرابة من الزكاة.
- كتاب فضل قيام رمضان... وهي رسالة في الرد على البدع الشيعية في منعهم من قيام رمضان.
- النكاح بغير بينة.

أخرى:

- وكتاب الجامع في السنن والمغازي والتاريخ وقد طبع.
- كتاب ردّ السائل.
- كتاب حماية عرض المسلم.
- رد الخاطر من الوسوس.
- رسالة الموعظة الحسنة لأهل الصدق.
- رسالة طلب العلم ولعلها رسالة: آداب المعلمين والمتعلمين.
- حكايات عن سعيد بن الحداد.
- لكن المطبوع على ما ذكر منها الآن فيما نعلم:
- الرسالة.
- والنوادر والزيادات.
- وكتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ.

الموجود من كتبه:

- الثلاثة الأنفة الذكر وهي مطبوعة متداولة.
- وكتاب الرد على ابن ميسرة المارق (وقد ترجم إلى الفرنسية).

وشعر في مدح النبي ﷺ. (مكتبة المتحف البريطاني فهرست المخطوطات الشرقية ١١/١٦١٧)^(١).

وقد طبع.

ومختصر المدونة.

وكتاب تهذيب العتبية^(٢).

مجموعة في الحديث مخطوطة في المتحف البريطاني^(٣).

كتب كذب العلماء نسبتها إليه :

- التقريب والتبيين.
- الفصول والدلائل^(٤).
- قال النابغة الشنقيطي رحمه الله تعالى :

هذا بيان كتب الشيطان
قد حذروا من كتب منسوبة
من ذلك التقريب والتبيين
كذاك ذو الفصول والدلائل
وما من الأقوال لليطان
للعلماء نسبة مكذوبة
لابن أبي زيد له تبين
لابن أبي زيد بلا دلائل

على أنّ المحقق ذكر أنّ الهلالي في «نور البصر» نسب الفصول لأبي عمران.

قصة تأليفه للرسالة :

وقد يصير علماً بالغلبة مضافاً، أو مصحوب «أل» كالعقبة إذا أطلقت
الرسالة عند المالكية فإنها رسالة العَلَم التَّهْد ابن أبي زيد المشهورة، وهي

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ٨٨ ط ديسمبر ١٩٣٣، نقلاً عن الدرقاش (٣٣٨).

(٢) تاريخ العرب لسزكين (١٠٢ - ١٠٣).

(٣) بروكلمان (٢٨٩/٣) وعنه الدرقاش (٣٢٧). فهرسة المخطوطات الشرقية (٢/رقم ٨، ٨٨٨ب).

(٤) انظر البوطليحية تحقيق يحيى بن البراء ص (١٠٢ - ١٠٣).

بذاك من أجل كتب المالكية في الفقه، وهي أول مؤلفاته، وأول مختصر في فقه المذهب^(١) بعد الموطأ والمدونة والتفريع لابن الجلاب، وقيل إنه صنع رسالته المشهورة وله سبع عشرة سنة، وهو لا يزال حدثاً، مما يدل على غزارة علمه، وعلو نجمه، وهو في زهرة العمر، وكان سبب تأليفها^(٢) أن رفيقه الصالح مؤدّب الولدان، والمتحلي بخيرية القرآن، أبا محفوظ مُحَرِّز (بفتح الراء) بن خلف الصدفي (٣٤٠ - ٤١٣هـ) الذي أسعده الله بتعليم كتابه، وحمل عنه إلى الآفاق أراد أن يشفع ذلك بجملته من أصول الدين وفروعه، وآدابه وسلوكه، فكانت له تلك الاستجابة التي ينال أجرها، بسبب التسبب فيها ف«الدال على الخير كفاعله»^(٣)، فاستجاب أبو محمد حميد الله مسعاه، وجعل رسالته همه ومبتغاه، ماضية عبر بريد الزمان، فصار لها اليوم عشرة قرون ببركة إخلاصه ونصحه، إلا أن الإشكال المطروح والذي أورده الهادي الدرقاش^(٤)، وهو وجيه عندي أن أبا محمد قد يكون ألف هذه الرسالة التي بين أيدينا، وهو شيخ كبير قد عركته التجارب، وعجمت عوده السنون، لأنه وببساطة لا يعقل أن يؤلف الرسالة وعمره سبعة عشر عاماً بطلب من لم يولد وقتها!! فوجود محرز كان بعد تأليف الرسالة بما يقل عن ستة عشر عاماً [٣٤٣ - ٤١٣]، وعليه فإما أن الرسالة فعلاً ألفت بطلب

(١) يقول الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد: ومن العجيب في شأن مذهب الإمام الجليل، أنه لم يؤلف في مذهبه كتاب مختصر في وقت مبكر، حتى ألف خليل المتوفى سنة ٧٧٦هـ رحمه الله تعالى «مختصرة» وما زلت متطلباً السبب حتى وجدته في شرح الإحياء للزيدي (٢٨١/١) فليقف الراغب على قراءته انظر التأصيل (٢١/١).

(٢) ومنهم من يقول: إن سبب التأليف هو طلب أبي إسحاق إبراهيم بن محمد السبائي والذي رجح هو محرز، انظر مقدمة أبي الأجنان على الرسالة ص (٣٨ - ٣٩). ورجح آخرون كإدريس في أطروحته: أن لها تحريرين الأول موجه للسبائي والثاني لمحرز بن خلف، انظر مقدمة كتاب الجامع لابن أبي زيد تحقيق عبدالمجيد تركي ص (٦٦) ووصف المحقق بأن بحثه مدقق. لكن ابن ناجي شارح الرسالة والمتوفى (٨٢٩هـ) نفى أن يكون الشيخان سألوا ابن أبي زيد معاً فترجح المؤدّب.

(٣) رواه الترمذي وهو حديث حسن صحيح.

(٤) انظر كتاب «أبو محمد حياته وآثاره» للهادي الدرقاش ص (٣٤٧ - ٣٥٣).

السبائي، وهي رسالة غير التي بين أيدينا أو بصيغة أخرى، إما أن تكون هذه هي التي ألفت تنفيذاً لطلب السبائي فهذا غير راجح، لأن السبائي لم يوصف قط بأنه كان مؤدب الصبيان، وعليه فالموجودة بين أيدينا تكون قد ألفتها لمحرز في عمر لا يقل عن ستين عاماً، ومما يدل على ذلك والله أعلم حسن سبكها، وقلة التناقضات، وسعة المادة العلمية قرآناً ولغة وحديثاً واستنباطاً... إلخ.

فأجزل اللهم له المثوبة، وأبلغه رسالتنا بالدعاء له والثناء عليه، ولحفاوة الطالب وظفره بمرغوبه صادف ذلك هبة من الله له بوليدة سماها «بركة» تيمناً بأنهما مباركتان^(١)، فكان من شأن أبي محمد أن جهز هذه الوليدة لما بلغت بخمسين ألف دينار^(٢)، فلله در هذا العالم الكريم.

مكانتها في المذهب وعند العلماء:

لقد كتب الله تعالى لهذه الرسالة المباركة الانتشار الواسع والقبول من طلبة العلم والعلماء قديماً وحديثاً، وقد حكي أنه كان يجعلها في محرابه الذي يصلي فيه ليلاً ويدعو الله أن يجعلها مكان عقبه لأنه لم يكن له عقب^(٣)، فمن يوم تأليفها طارت في الآفاق، واحتوشتها القلوب والأحداق، وتنافس الطلاب في حفظها، والعلماء على شرحها ونظمها، وقد شرحت ومؤلفها على قيد الحياة، ولهذا قيل عنها «هي باكورة السعد»، وكان القاضي أبو العباس ابن عرضون الغماري يطلق عليها «زبدة المذهب»^(٤)، وبيعت

(١) (البت) و(الرسالة).

(٢) قلت: وأرى أن هذا المبلغ مبالغ فيه والله أعلم.

(٣) شرح الرسالة لزروق (٣/١). وقال المحققان للرسالة أبو الأجنان والهادي: إن هذا الخبر ليس له نصيب من الصحة لأنه ورد له ذكر ولد لابن أبي زيد في سند إجازة الرسالة، وقيل ولدان وهما: أبو بكر أحمد، وأبو حفص عمر، وكانا فقيهين صالحين، قلت: ولعل تسميتهما بهذين الخليفتين الراشدين نكابة في الرافضة العبيديين فجزاه الله خيراً. وقد تقدم الكلام عنهما في مبحث أسرته.

(٤) الفواكه الدواني للنفرأوي (٢/١) وانظر محاضرات في تاريخ المذهب المالكي د. عمر الجيدة ص ١٩٤.

بأعلى الأثمان في حلقات كبار علماء المذهب وخيرة الأعيان، وأن أول النسختين منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري كبير فقهاها بعشرين ديناراً^(١)، وقيل إنها بيعت بمائة مثقال ذهباً^(٢). وبعث بأخرى إلى أبي بكر ابن زرب القرطبي [٣١٧ - ٣٤٣هـ] فأخفاها - إن صح الخبر -، ولكن الله أظهرها، وتعدت شهرتها المغرب الإسلامي إلى المشرق، فوصلت بغداد، والشام، والحجاز، ومصر، وبلاد السودان، وصقلية والأندلس، ويروى أن بعض من كتبها نسخها بالذهب.

وقال الفقيه ابن عباد رحمه الله تعالى: «طلبوا الفقه في غير الرسالة فأضلوه»^(٣).

وبلغ من حبهم لها أنهم قالوا: إن من حفظها، أو اعتنى بها، وهبه الله تعالى ثلاثاً أو واحدة من الثلاث: العلم، والمال الطيب، والصلاح، فاللهم إنا نسألك من فضلك.

ولعلو شأنها لا يزال إسنادها مسطوراً، وذكرها في العالم مشهوراً.

وقد عد القرافي الرسالة من جملة خمسة كتب عكف عليها المالكيون شرقاً وغرباً^(٤).

قال زروق رحمه الله تعالى: «ولم تزل الناس يشرحونها على مر السنين والدهور، والعلماء يتداولونها، ويؤولون ما فيها من مشكل الأمور، نحواً من خمسمائة سنة - (قلت: ونحن اليوم بيننا وبين زمن تأليفها ألف سنة وعشرين ونيفاً) - ولم تنقص لها حرمة، ولا طعن فيها عالم معتبر في الأمة، مع ما فيها من عظيم الإشكال، ودواعي الإنكار من الحساد والأشكال، وهذه كرامة من الله لا تنال بالأسباب»^(٥).

(١) محاضرات في المذهب المالكي وقيل بوزنها ذهباً ص(١٩٣).

(٢) معالم الإيمان (١٣٧/٣) نقلاً عن مقدمة أبي الأجنان على الرسالة.

(٣) شرح الرسالة لزروق (٤٢٣/٢) عن محاضرات في المذهب المالكي ص(١٩٤).

(٤) الذخيرة للقرافي (٣٤/١).

(٥) شرح الرسالة لزروق (٢/١). طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

وقد ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية فالمستشرق «أدرسل» ترجمها إلى الإنجليزية مع عبدالله المأمون السهروردي، ونشرت الترجمة مع النص العربي بلندن سنة ١٩٠٦، وترجمها المستشرق فانيان إلى الفرنسية، ونشرت بباريس سنة ١٩١٤، وطبعت مرات بالجزائر^(١).

ما تمتاز به الرسالة عن غيرها:

تمتاز الرسالة بسلاستها وحسن عبارتها، وجودة سبكها، وترتيب أبوابها إلا ما رأى المصنف تكراره ليبيني عليه، أو يفسر به ما انبهم في مكان آخر، وأغلب مسائلها مشهورة في المذهب معتمدة فيه، وما لم يكن كذلك فقليل، والرجل جمع كل ذلك في سنِّ يُعذر فيها فيما خالف فيه غيره، على القول الذي قيل: إنه السابعة عشر من عمره، والحقيقة أنه لو قيس ما خالف فيه من مسائل المذهب وقواعده مقارناً بما أورد فيها من مسائل بلغت أربعة آلاف مسألة^(٢) لعدّ كالعدم، حتى قيل عندنا: «مَنْ قَرَأَ الرِّسَالَةَ مَا فَاتَتْ أَمْسَالَهُ»، ومع ذلك لا يسلم أحد من ألسنة الناس، والعبرة بطلب الحقِّ ومجافاة الباطل، وابن أبي زيد بحر لا يكدره نجل الفخار^(٣)، ولا غيره من الأخيار، وإن كان مع ابن الفخار في بعضها الحق، «فإن الماء إذا بلغ القلتين لا ينجسه الخبث»، والكمال عزيز:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى بالمرء نبلاً أن تُعدَّ معايبه

وقال عياض رحمه الله تعالى: عَارَضَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَهَا (أي كتبه)، فلم يبلغوا مداه، مع فضل السَّبْقِ، وَصُعُوبَةِ الْمُبْتَدَأِ، وَعَرَفَ قَدْرَهُ

(١) مقدمة أبي الأجنان على الرسالة ص(٤٨).

(٢) كما قال زروق ومن تبعه، وكما قال لي شيخنا محمد الحسن من أنها ثمانية عشر ألف مسألة.

(٣) نقد ابن الفخار القرطبي الرسالة في مسائل وصلت إلى تسع عشرة مسألة، وقد نشرتها مجلة الأحمدية الصادرة عن دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث دبي في عددها السابع عشر ١٤٢٥هـ. بتحقيق بدر بن عبدالإله العمراني المغربي.

الأكابر^(١)، فأذعنوا له.

وقد نظم ابن غازي^(٢) رحمه الله تعالى مشكل الرسالة، وشرحه العلامة أبو عبدالله محمد الحطاب^(٣)، والله الهادي للمحجّة والصواب.

شروح الرسالة:

لقد كان للرسالة الفقهية انتشار واسع وقبول عظيم، أدى إلى تنافس الطلبة في حفظها، والعلماء في شرحها ونظمها، وقد تقدم أن شيوخاً كباراً كالقاضي عبدالوهاب الذي زعموا أن ما حصّله من وجاهة بمصر كان بسبب شرحه للرسالة، فإنه لما أتى مهاجراً من بغداد إلى مصر قيل له: إن المصريين يحبّون مذهب مالك فتودّد إليهم بشرح الرسالة ففعل، فعظّم جأه عند الناس، وقد شرحها في نحو ١٢٠ ورقة منصورى وبيعت أول نسخة من هذا الشرح بمائة مثقال ذهباً^(٤) وقد قيل: إنها منذ أن ألفت لا تمر سنة إلا ووضع لها شرح^(٥).

وقد ذكر الشيخ حسن حسني عبدالوهاب أن شروحها زادت عن مائة شرح^(٦).

(١) ترتيب المدارك لعياض (٦/٢١٥ - ٢١٦) طبعة المغرب، وجمهرة تراجم الفقهاء المالكية (٧١١/٢).

(٢) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن غازي العثماني نسبة إلى قبيلة بالمغرب يقال لها: بنو عثمان (ت ٩١٩هـ).

(٣) وهو مطبوع متداول.

(٤) معالم الإيمان (٣/١١٢) ويوجد من هذا الشرح جزء مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم (٦٢٥ق) كما في المقدمة لأبي الأحناف (٤٣). ولعله الذي طبع منه جزء العقيدة، والله أعلم.

(٥) قاله زروق في شرح الرسالة (٣). والمثقال الشرعي لوزن النقد: ٤، ٢٥ بالغرام انظر تحويل المكييل والموازن للأوزان المعاصرة محمود الخطيب نشرته مجلة الحكمة في عددها ٢٣.

(٦) محاضرات في المذهب المالكي ص (١٩٥) نقلاً عن كتاب الإمام المازري (ص ٣١).

شروح الرسالة كثيرة وسأكتفي ببعضها^(١):

- أبو بكر محمد بن عبدالله بن صالح الأبهري^(٢)، ولد سنة [٢٨٧هـ - ٣٧٥هـ] ألف كتاباً سماه «مسلك الجلالة في مسند الرسالة» تتبع فيه جميع مسائلها وأسندها وهي أربعة آلاف مسألة.
- أبو بكر محمد بن موهب القبري المتوفى سنة ٤٠٦هـ وقيل هو أول الشارحين^(٣).
- وقيل أول من شرح الرسالة هو القاضي عبدالوهاب المتوفى سنة (٤٢٢هـ).
- شرح داود المالكي^(٤)، المتوفى قبل (٧٣١هـ) توجد منه نسخة خطية بدار الكتب بتونس [١٤٨٦٩]^(٥).
- عبدالرحمن بن عفان الجزولي (ت ٧٤١هـ) له تقييد على الرسالة، وهي التي قال فيها الشيخ زروق: ليست بتأليف وإنما تقييد الطلبة زمن الإقراء، فهي تهدي ولا تعتمد، توجد منها نسخ مخطوطة إحداهن

-
- (١) ولينظر بقية الشروح في مقدمة أبي الأجنان على الرسالة ص (٤٣ - ٤٨) ومحاضرات في تاريخ المذهب المالكي (١٩٦).
 - (٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٢٧ ط/ بيروت ١٩٧٠ تحقيق إحسان عباس.
 - (٣) ترتيب المدارك لعباس (٦٧٦/٤/٢) ط/بيروت، في مقدمة المحققين أبي الأجنان في موضع المقبري ولعله تصحيف لأن أكثر من ذكره بدون ميم.
 - (٤) نقلته بواسطة مقدمة أبي الأجنان على الرسالة ص (٤٤) والقصد منه لعل من يطلع على كتابي هذا أن ينفذ الغبار عن هذه الكنوز المدفونة والبال على الخير كفاعله. وهناك شروح كثيرة ذكرها كل من الدكتور الهادي الدرقاش في كتابه (أبو محمد حياته وآثاره)، ومحقق الجامع، ومحققا الرسالة وغيرهم. كما ذكر العلامة محمد ولد حامد الشنقيطي في موسوعته التاريخية... شروحا للشناقطة، وأشار الدكتور الدرقاش إلى نسخة بالقاهرة ولم يوضح أين.
 - (٥) محاضرات في المذهب المالكي ص (١٩٨). وهناك نسخ منها بالجزائر والقرويين وميونخ والمتحف البريطاني.

بخزانة القرويين^(١).

- شرح يوسف بن عمر الأنفاسي المتوفى (٧٦١هـ) وتوجد نسخة منه بدار الكتب الوطنية بتونس [١٢٢٥٠]^(٢).
- شرح قاسم بن عيسى بن ناجي المتوفى حوالى (٨٣٧هـ)، وقد طبعته دار الفكر كحاشية مع شرح زروق.
- شرح أبي العباس القلشاني المتوفى سنة (٨٦٣هـ)، يسمى تحرير المقالة في شرح الرسالة وتوجد نسخة منه بدار الكتب الوطنية بتونس [١٢٢٥١] و[١٢٢٥٢]. وتحفظ الخزانة العامة بالرباط بنسخة جيدة برقم [٦٩٩ك]، وقد وصفه زروق بأنه صحيح النقل. وقال الدكتور الجيدة: وله نسخ عديدة عند أشخاص، ولو طبع هذا الشرح لأغنى. قلت: ومنها مخطوط بخزانة أزاريف، بالسُّوس، بخط مغربي بالأسود والأحمر بصفحاته الأولى تآكل بفعل الأرضة. ناسخه: عمر بن محمد بن علي بن محمد بن عبدالرحمن بن الحسين بن أبي القاسم ابن الحاج اليزيدي بتاريخ: جمادى الأولى عام: ٩٦٨هـ.

ومخطوط بالخزانة المحجوبية، بالسُّوس، بخط متوسط، تحمل رقم: ١٩٩، ناسخها: أحمد بن عبدالله بن موسى بن علي بن محمد. بتاريخ: رجب عام: ١١٤٤ (وهي منسوبة إلى أبي عبدالله محمد بن عبدالله القلشاني والد المؤلف المذكور، إلا أن كتب التراجم تنسب الشرح للولد دون الوالد، فلعل الناسخ إنما أسقط اسم أحمد خطأ وسهواً)^(٣). وهناك نسخ في كل من الإسكوريال والجزائر والقرويين والزيتونة والفايكان^(٤).

(١) كما توجد منه نسخ من شرحه بالقرويين وتوجد أخرى بميونخ والمتحف البريطاني والإسكوريال. بروكلمان (٢٨٧/٣) الدرقاش (٣٦٢).

(٢) مخطوطات مغربية جمع أخينا الأستاذ أحمد بن عبدالكريم نجيب.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) بروكلمان (٢٨٧/٣) الدرقاش (٣٦٣).

- شرح لسعيد بن الحسين الحميدي أتمه سنة (٨٦٤هـ)، وسماه بمرشد المبتدين، منه نسخ بالزيتونة بتونس وبالإسكندرية^(١).
- شرح أحمد زروق المتوفى سنة (٨٩٩هـ) وهو مطبوع متداول.
- شروح أبي الحسن علي بن محمد المنوفي المولود بالقاهرة سنة (٨٥٧هـ)، والمتوفى سنة (٩٣٩هـ)، له ستة شروح والمشهور منها: كفاية الطالب الرباني مطبوع.
- وللشيخ علي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي المتوفى سنة (١١٨٩هـ)، حاشية وهي مطبوعة ومشهورة.
- شرح محمد بن إبراهيم التتائي المتوفى سنة (٩٤٢هـ) ويسمى تنوير المقالة بحل ألفاظ الرسالة وقد كتب عليه الأجهوري^(٢) حاشية، وتوجد من الحاشية نسخة خطية بدار الكتب الوطنية بتونس في جزأين [١٤٨٧٠] و[١٤٨٧١]، وشرح التتائي مطبوع بعضه، وتوجد مخطوطة بمكتبة تطوان العامة برقم: [٣٥٨].
- شرح لعبدالله الفاكهاني (٩٧٢هـ) توجد منه نسخة برامبور^(٣)، ويسمى التحرير والتنوير حصلت على نسخة منه من دار الكتب بتونس، وهو مخطوط جيد.
- حاشية الأجهوري على شرح الرسالة مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس (١٤٨٧٠).
- حاشية لجسوس أبي عبدالله محمد بن قاسم - طبع على الحجر بفاس.

(١) بروكلمان (٢٨٧/٣) الدرقاش (٣٦٣).

(٢) علي بن محمد بن عبدالرحمن بن علي أبو الإرشاد نور الدين الأجهوري، فقيه مالكي من علماء الحديث مولده ووفاته بمصر توفي سنة (١٠٦٦هـ)، انظر شجرة النور الزكية لمحمد بن محمد حسين مخلوف (٣٠٣ - ٣٠٤). ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣) بروكلمان (٢٨٧/٣) الدرقاش (٣٦٤).

- مذاكرة إخواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني لأحمد الرهوني التطواني مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: [٢١٥٦ د].
- شرح للحطاب توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة تطوان العامة برقم: [١٤].
- شرح النفراوي أحمد بن غنيم بن سالم بن مهنا المتوفى سنة ١١٢٥هـ، ويسمى «بالفواكه الدواني» وهو مطبوع متداول.
- وللشيخ صالح عبدالسميع الآبي الأزهري الجزائري شرح موجز مطبوع يسمى «الثمر الداني في تقريب المعاني» وقد أفدت منه في شرحي هذا مع الشروح الأخرى لكن لاختصاره، أنقل منه وقد لا أعزي إليه فليعلم ذلك.
- وللشيخ عبدالحميد الشرنوبى المتوفى سنة (١٣٤٠هـ) شرح مختصر سماه «تقريب المعاني» مطبوع.
- وللشيخ عبدالله ابن الفقيه الطالب أحمد ابن الحاج الغلاوي الشنقيطي توفي ليلة بقيت في ربيع الأول ١٢٠٩هـ نظم عليها وشرح مخطوط بالمعهد العلمي بموريتانيا تحت رقم: [١٧٤٦].
- وللشيخ محمد أحمد الملقب بالداه الشنقيطي شرح على نظم الغلاوي مطبوع يسمى «الفتح الرباني شرح على نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني»^(١) وسأسرد لكل فقرة نظمها مع الشرح بحول الله تعالى، ليكون جامعاً بين النشر، والنظم، والاستدلال، بحول وقوة ذي العزة والجلال.
- ونظمها ميمون الفخار^(٢).
- ولها نظم ذكره سزكين في كتابه تاريخ التراث في ترجمة ابن أبي زيد

(١) طبع عدة طبعات منها دار الفكر والمكتبة العصرية.

(٢) محاضرات في المذهب المالكي ص (٢٠٠).

(ص ١٦٦ إلى ١٧٣)^(١). وهو نظم مع شرح لمحمد بن محمد بن عبدالرحمن الخطاب المتوفى سنة ٩٥٣هـ - ١٥٤٦).

● وللشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي المتوفى سنة (١٢٨٥هـ) نظم لعقيدة ابن أبي زيد.

● وللشيخ بكر بن عبدالله أبي زيد تقويم لنص العقيدة ورد على أبي غدة الذي أغار على النص فحرفه، والكل مطبوع.

● وللشيخ محمد بن منصور المغراوي شرح لغريبها بعنوان «غرر المقالة في شرح غريب الرسالة» مطبوع مع الرسالة بتحقيق أبي الأجدان والهادي حمو^(٢).

● وللشيخ أبي الفيض أحمد بن محمد بن الصديق الغماري المتوفى سنة (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م) تدليل لمعظم مسائل الرسالة سماه «مسالك الدلالة في شرح مسائل الرسالة» وهو مطبوع، وقد ذكر أنه اختصره من شرح له كبير يسمى «تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني، من الفروع والمسائل» قال وهو كأصله الذي لم أتعرض فيه لجميع المتن بل حذفته منه ما هو ظاهر لا يحتاج إلى دليل.

وقد استفدت منه وإن كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يتعرض لجميع المسائل، وليس هو عمدي وحده في الاستدلال كما زعم بعض من اطلع على كتابي: «العرف الناشر» وكأنه لم ينظر في فهرس المراجع إلا مسالك الدلالة، وهو بسبق حائز تفضيلاً، مستوجب ثنائي الجميلاً، وما استفدناه من المتقدمين هو ما يحلّي كلّ مصنف بعدهم به كتبه، وإنما قد يتفاوت الناس في ابتكار طرق تجمع للطلبة هذه التآليف وتسهيلها، بغية الوصول إلى التبصر ورجاء ما

(١) تاريخ التراث لفؤاد سزكين قسم الفقه (٣/١٦٦ - ١٧٣) ط/جامعة الإمام - الرياض (١٤٠٣ - ١٩٨٣).

(٢) قال الأستاذ الكعك: بل اهتموا بشرح ألفاظها وجعلوا عليها شبه المعاجم اللغوية والاصطلاحية. أبو محمد حياته وآثاره للدراش (٣٢٨).

عند الله ﷻ، ونصرة لدينه، وإحياء لفقهِ أئمتنا رحمهم الله تعالى، وإلا فمن نحن أمام علماء والله درسنا عليهم واستفدنا منهم إلا كبقل صغار جنب نخل طوال^(١)، ونحن معترفون بالجهل والتقصير، وطامعون في فضل الله الواسع، وعطائه الجَمِّ، فله المنة والشكر ونسأل الله الإخلاص في القول والعمل، ونعوذ به من الكبر والحسد، آمين.

- وللشيخ عبدالمحسن العباد شرح لعقيدة ابن أبي زيد وهو مطبوع، تحت عنوان «قطف الجنى الداني».
- وللشيخ محمد بن عبدالرحمن الخميس تعليقات عليها أيضاً وهو مطبوع.
- وللشيخ ابن حنيفة العابدين الجزائري شرح للعقيدة مطبوع ومعه مقدمة عن الإمام ابن أبي زيد طبع تحت عنوان «العجالة في شرح الرسالة»، ويسر الله لنا وله طبع الباقي ونفع بهما.

أقسام الرسالة:

لقد نبه المصنف رحمه الله تعالى إلى ما تحتوي عليه الرسالة فقال:

[أما بعد أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكداها ونوافلها وרגائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين]^(٢).

(١) البقل: (ب ق ل) البقل معروف الواحدة بقلة والبقلة أيضاً الرجل وهي البقلة الحمقاء والمبقلة موضع البقل، وقيل: كل نبات اخضرت له الأرض فهو بقل (مختار الصحاح).

(٢) الرسالة الفقهية تحقيق أبي الأجنان (٧٢ - ٧٣).

● مسائل هامة في العقيدة أوصلها زروق إلى أكثر من مائة مسألة فقال: «قد جمعت هذه العقيدة نحواً من مائة مسألة من مسائل الاعتقاد، . . . إلخ»^(١).

● المسائل الفقهية: عبادات ومعاملات.

● باب جامع في الآداب والسلوك.

وقد قال القاضي عبدالوهاب مشيراً إلى ذلك^(٢):

رسالة علم صاغها العلم النهْدُ
أصول أضاءت بالهدى فكأنما
وفي صدرها علم الديانة واضح
لقد أمّ بانيها السّداد فذكره
● عدد الأبواب خمسة وأربعون باباً.

قد اجتمعت فيها الفرائض والزهدُ
بدا لعيون الناظرين بها الرشد
وآداب خير الخلق ليس لها ند
بها خالد ما حجّ واعتمر الوفد

● عدد المسائل أربعة آلاف مسألة.

● عدد الأحاديث التي أوردها المصنف أربعمئة حديث^(٣).

ومن طرائف فقهه: أنه اتخذ كلباً للحراسة زمن العبيديين وقد كثر السطو على العلماء وقتلهم ف قيل له: إن مالكا حرم اتخاذ الكلب في البيوت فقال:

لو كان مالك حيّاً في زماننا هذا لاتخذ أسداً.

(١) شرح زروق على الرسالة.

(٢) معالم الإيمان بواسطة الدرقاش (٣٥٨).

(٣) ذكر الهادي درقاش (٧٤ - ٢٨٤ - ٣٢٧) -: قوله: إن كتاب الرسالة لابن أبي زيد يقال: إنه يشتمل على أربعة آلاف أثر من الآثار السنية. نقلاً بواسطة عن حاشية الأجهوري، ونقل عن أبي الأجنان وبطيخ قولهما في تحقيق الجامع لابن أبي زيد أن الأبهري أسند مسائل الرسالة وهي أربع آلاف مسألة، فيكون المجموع عددها من الأحاديث والآثار.

ومن القصص المكذوبة عن الإمام مالك وأوردها صاحب كتاب المعالم^(١) على أنها وقعت لأبي محمد ابن أبي زيد وهي: أنه توفيت امرأة بالقيروان كانت مشهورة بالزنا فلما جاءت الغاسلة لتغسلها وهي ميتة ضربت بيدها على فرجها وقالت: قد طالما عصيت الله تعالى سبحانه وتعالى بهذا الفرج فالتصقت يد الغاسلة بفرج الزانية، فجاء الناس إلى أبي محمد ابن أبي زيد فأخبروه بالقضية فأمر بأن يقام على الغاسلة حد القذف ففعل فزالت يدها».

وفي القصة نفسها عن مالك لم تتغير إلا شخصيات التمثيلية ومكانها الذي وقعت فيه.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري في ترجمة: يعقوب بن إسحاق بن حجر العسقلاني الكذاب (وقد وجدت حكاية يشبه أن تكون من وضعه، فذكرها) اهـ^(٢). قلت: والظاهر عليها الاختلاق.

وفاته وراثؤه:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٣)، كغيره من خلق الله تعالى الذين كتب عليهم الفناء، لحق الشيخ المجاهد بربه، بعد عمر مبارك حافل بالمنجزات العلمية والعملية، والمواقف الشجاعة الأبية، أمام واقع متلاطم بالسياسة الضالة لأهل البدع والزندقة، فلم يهُنْ له عزم، ولم تَلِنْ له قناة، حتى جاءه المنون، وأزفت ساعة الفراق، فقد روى القاضي عياض في ترجمته قائلاً:

(١) ونقلها عنه الهادي الدرقاش في كتابه: «أبو محمد حياته وآثاره» ص (٣٢٦). وقال الدكتور: إن مثل هذا الاجتهاد في الحكم إنما هو نتيجة لوعيه بالقرآن، ومن أين للدكتور بأن القرآن أقام الحد على من لم يسمع منه قذف؟ ومن هو الذي سمع هذه القصة ونقلها؟ وأظن أن القصة وضعت كما وضع غيرها مما هو ناتج للتعصب المذهبي وإعلاء أشخاصه، بينما هم في غنى عن هذه الافتراءات، والقوم شرح الله صدورهم للتقوى ورفعهم فلا يحتاجون للكذب عليهم.

(٢) لسان الميزان (٦/٣٠٤ - ٣٠٥) وعنه العلامة بكر بن عبدالله أبو زيد في كتابه «التأصيل» الجزء (١/٧٣ - ٧٤).

(٣) الآية (١٨٥) من سورة آل عمران.

وذكر أن أبا محمد ابن أبي زيد، رحمته الله، رئي في مجلسه تحت فكرة وكآبة، فسئل عن سبب ذلك؟ قال: رأيت باب داري سقط، وقد قال فيه الكرمانى: إنه يدل على موت صاحب الدار.

ف قيل له: الكرمانى مالك في علمه؟ قال: نعم. هو مالك في علمه، أو كأنه مالك في علمه. فلم يقم إلا يسيراً. ثم مات رحمه الله تعالى وغفر لنا وله.

وقد توفي أبو محمد رحمته الله، وغفر له، يوم الإثنين عند الزوال ثلاثين من شهر شعبان سنة (٣٨٦) ست وثمانين وثلاثمائة، وقد عاش ستاً وسبعين سنة، وصلى عليه الشيخ أبو الحسن القاسى بالريحانية عند باب أصرم، يوم الثلاثاء في جمع لا يحصون عدداً ودفن بداره^(١).

ورثاه كثير من أدباء القيروان، بمرث مشجية، قيل إنها نحو مائة مرثية، وأقيم المبيت على قبره، وأنشدت المرثية سنة كاملة^(٢)، فممن رثاه أبو الخواص الكفيف:

هذا لعمر الله أول مصرع	كادت تميد الأرض خاشعة الرُبي
عجباً أيدري الحاملون لنعشه	علماً وحكماً كاملاً وبراعة
وسعت فجاج الأرض سعياً حوله	يبكونه ولكل باك منهم

وقال أبو علي ابن سفيان في قصيدة:

أرض ولا علم ولا بطحاء	غصت فجاج الأرض حتى ما تُرى
في موكب حفت به النجباء	ما زلت تقدم جمعهم رهب لهم

(١) معالم الإيمان (١١٨/٣) وكل ما أنقله عن معالم الإيمان فهو بواسطة الهادي الدرقاش (٣٣٠).

(٢) معالم الإيمان (١٤٢/٣).

ولشدة لوعة الفراق، وصدق محبة الأحباب والرفاق، فإنه لما بلغ أبا الحسن القابسي وفاة أبي محمد سقط على الأرض باكياً وقائلاً: «الآن انكشفت عورتي لما كان ينوب عنه في الفتوى»^(١).

من فتاوى الشيخ وشيوخه في حكم الرافضة الشيعة:

قال جبلة بن حمود من علماء المالكية في القرن الثالث: جهاد هؤلاء أعظم من جهاد الشرك^(٢).

وقال الممسي: لما أراد الخروج مع أبي يزيد الخارجي الخادع ضد العبيديين أن هؤلاء من أهل القبلة لا يزول عنهم الإسلام ويرثون ويورثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينتسبون إليهم^(٣).

وأورد عياض من كلام ابن أبي زيد أنه كفر من اعتقد اعتقادهم فقال: «ولما حمل أهل طرابلس إلى بني عبيد، أضمروا أن يدخلوا في دينهم، عند الإكراه. ثم ردوا من الطريق سالمين. فقال ابن أبي زيد عليه السلام: هم كفار لاعتقادهم ذلك».

وقال أبو يوسف ابن عبد الله الرعيني في كتابه: أجمع علماء القيروان أبو محمد، وأبو الحسن القابسي، وأبو القاسم ابن شبلون، وأبو علي بن خلدون، وأبو بكر الطبني، وأبو بكر ابن عذرة: أن حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهره من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل. فيقتلون بالزندقة، قالوا: ولا يقدر أحد بالإكراه على الدخول في مذهبهم، بخلاف سائر أنواع الكفر. لأنه أقام بعد علمه بكفرهم، ولا يجوز له ذلك، إلا أن يختار القتل، دون أن يدخل في الكفر. على هذا الرأي أصحاب سحنون يفتون المسلمين.

(١) معالم الإيمان (٣/ ١١٨).

(٢) معالم الإيمان (١/ ٢٧٣).

(٣) معالم الإيمان (٣/ ٢٩).

قال أبو القاسم الدهان: وهم بخلاف الكفار، لأن كفرهم خالطه سحر بمن اتصل بهم، خالطه السحر^(١).

أبو محمد ابن الكرّاني من فقهاء القيروان:

سئل عن من أكرهه بنو عبيد على الدخول في دعوتهم، أو يقتل؟ قال: يختار القتل، ولا يعذر أحد بهذا، إلا من كان أوّل دخولهم البلد. فيسأل إن يعرف أمرهم، وأما بعد، فقد وجب الفرار، فلا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته، لأن المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع، لا يجوز، وإنما أقام من هنا من العلماء والمتعبدين على المباينة لهم، لئلا يخلو بالمسلمين عدوهم، فيفتنوهم عن دينهم. وعلى هذا كان حبيب بن حمدون ونظراؤه، القطان، وأبو الفضل الممسي، ومروان بن نصر بن والجبنياني والسبائي، وبه يقولون ويفتون^(٢).

قلت: وإنما ذكرت هذه الفتاوى هنا لما ابتليت به الأمة من ظهور هؤلاء الزنادقة في عصرنا وقويت شوكتهم حتى اغتر بهم كثير من أهل السنة، فينبغي أن تجمع فيهم جميع فتاوى علماء الإسلام من أهل السنة وتشر، والله ولي الصالحين.

هذا آخر ما تيسر من ترجمة مختصرة لشيخ المذهب، ولعلم الفذ المذهب، والله نسأل أن يجزيه عنا خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه. والحمد لله أولاً وآخراً.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ الْإِنْسَانَ بِنِعْمَتِهِ، وَصَوَّرَهُ فِي الْأَرْحَامِ بِحُكْمَتِهِ؛

(١) ترتيب المدارك لعياض (٢/٢٩١).

(٢) ترتيب المدارك لعياض (الجزء والصفحة السابقين).

وَأَبْرَزَهُ إِلَى رَفْقِهِ، وَمَا يَسِّرُهُ لَهُ مِنْ رِزْقِهِ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا. وَنَبَّهَهُ بِآثَارِ صَنْعَتِهِ، وَأَعَدَّرَ إِلَيْهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُرْسَلِينَ، الْخَيْرَةَ مِنْ خَلْقِهِ فَهَدَى مَنْ وَفَّقَهُ بِفَضْلِهِ، وَأَضَلَّ مَنْ خَذَلَهُ بِعَدْلِهِ، وَيَسَّرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيُسْرَى وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِلذِّكْرِى، فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ نَاطِقِينَ، وَبَقَلُوبِهِمْ مَخْلِصِينَ، وَبِمَا أَتَتْهُمْ بِهِ رِيسُلُهُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ، وَتَعَلَّمُوا مَا عَلَّمَهُمْ، وَوَقَفُوا عِنْدَ مَا حَدَّ لَهُمْ، وَاسْتَعْنَوْا بِمَا أَحَلَّ لَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ.

(أما بعد) أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها، ونوافلها، وورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه، ما ترحى لهم بركته، وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسى ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه.

وَأَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ الْقُلُوبِ أَوْعَاها لِلْخَيْرِ، وَأَرْجَى الْقُلُوبِ لِلْخَيْرِ مَا لَمْ يَسْبِقَ الشَّرُّ إِلَيْهِ، وَأَوْلَى مَا عُنِيَ بِهِ النَّاصِحُونَ، وَرَغِبَ فِي أَجْرِهِ الرَّاعِبُونَ، إِيصَالُ الْخَيْرِ إِلَى قُلُوبِ أَوْلَادِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْسَخَ فِيهَا، وَتَنْبِيهُهُمْ عَلَى مَعَالِمِ الدِّيَانَةِ وَحُدُودِ الشَّرِيعَةِ لِيَرَاضُوا عَلَيْهَا، وَمَا عَلَيْهِمْ أَنْ تَعْتَقِدَهُ مِنَ الدِّينِ قُلُوبُهُمْ، وَتَعْمَلَ بِهِ جَوَارِحُهُمْ، فَإِنَّهُ رُوِيَ أَنَّ تَعْلِيمَ الصَّغَارِ لِكِتَابِ اللَّهِ يُطْفِئُ غَضَبَ اللَّهِ، وَأَنْ تَعْلِيمَ الشَّيْءِ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ، وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ مِنْ ذَلِكَ: مَا يَنْتَفِعُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ، وَيَشْرَفُونَ بِعِلْمِهِ، وَيَسْعَدُونَ بِاعْتِقَادِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

وَقَدْ جَاءَ أَنْ يُؤْمَرُوا بِالصَّلَاةِ: لِسَبْعِ سِنِينَ، وَيُضْرَبُوا عَلَيْهَا لِعَشْرِ،

وَيَفْرَقَ بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَلِّمُوا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، قَبْلَ بُلُوغِهِمْ، لِيَأْتِيَ عَلَيْهِمُ الْبُلُوغُ، وَقَدْ تَمَكَّنَ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ، وَأُنْسَتْ بِمَا يَعْمَلُونَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَارِحُهُمْ.

وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات، وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً، ليقرب من فهم متعلميه إن شاء الله تعالى، وإيأه نستخير، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ
وَكُلَّنَا أَبْرَزَهُ بِرِفْقِهِ
وَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمَا
نَبَّهَهُ بِصُنْعِهِ وَأَعَدَّرَا
هَدَى الَّذِي وَفَّقَهُ بِفَضْلِهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ يُسْرُوا لِلْيُسْرَى
فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ نَاطِقِينَ
وَقَدْ تَعَلَّمُوا الَّذِي عَلَّمَهُمْ
ثُمَّ اكْتَفَوْا بِمَا أَحَلَّ لَهُمْ
أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَى وَدَائِعِهِ
فَهَاكَ مَا سَأَلْتَنِي مِنْ مُخْتَصِرٍ
مِنْ نُطْقٍ أَوْ مِنْ إِعْتِقَادٍ أَوْ عَمَلٍ
مِنْ سُنَّةٍ أَوْ نَفْلِ أَوْ رَغِيبَةٍ
مِنْ أُمَّهَاتِ الْفِقْهِ لِلْمُدْرَسِ

بَدَأْنَا مُصَوِّراً بِحِكْمَتِهِ
وَمَالَهُ يَسَّرَهُ مِنْ رِزْقِهِ
وَكَانَ فَضْلُهُ عَلَيْهِ أَعْظَمَا
إِلَيْهِ بِالرُّسُلِ خَيْرَةَ الْوَرَى
وَضَلَّ مَنْ خَذَلَهُ بِعَدْلِهِ
وَشَرِحَتْ صُدُورُهُمْ لِلذِّكْرِى
لُسْنًا وَبِالْقُلُوبِ مُخْلِصِينَ
وَوَقَّفُوا عِنْدَ الَّذِي حَدَّ لَهُمْ
عَنِ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ
وَحَفِظَ مَا أَوْدَعَ مِنْ شَرَائِعِهِ
مِنْ وَاجِبٍ مِنَ الدِّيَانَةِ انْتَصِرُ
جَوَارِحٍ وَمَا بِفَرْضٍ ذَا اتَّصَلُ
وَأَدَبٍ وَجُمَلٍ عَجِيبَةٍ
عَلَى طَرِيقِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ

سَبِيلَ مَا مِنْ ذَا عَلَيْنَا أَشْكَلًا
 وَمِنْ بَيَانِ الْمُتَفَقِّهِينَا
 كَمَا تُرِيهِمْ أَحْرَفَ الْقُرْآنِ
 خَالِيَّةً مِنْ كَدْرِ الدُّنُوبِ
 دُنْيَا وَتُحْمَدُ لَهُمْ عَاقِبَتُهُ
 لِعِلْمِ دِينَ اللَّهِ جَلَّ أَوْ دَعَا
 أَحْفَظُهَا لِلْخَيْرِ كَالْمَنْدُوبِ
 لَمْ يَسْبِقِ الشَّرُّ إِلَيْهِ مُسْلِمًا
 بِهِ وَقَدْ رَغَبَ فِيهِ الرَّاعِبُونَ
 لِيَرْسَخَ الدِّينُ بِهَا وَأَنْ يَبِينُ
 هُوَ حُدُودُ الشَّرِّعَةِ أَنْتَمَا
 وَعَمَلِ لِحَيْفَةِ الشَّرَادِ
 اللَّهُ يُطْفِي غَضَبَ اللَّهِ الْعَذَابِ
 كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ تَعْسًا لِكَبْرِ
 بِحِفْظِهِ وَعِلْمِهِ وَيَشْرَفُونَ

وَقَوْلِ صَاحِبِهِ مَعَ اللَّذِّ سَهْلًا
 يُفَادُ مِنْ تَفْسِيرِ رَاسِخِينَا
 لِمَا رَغِبْتَ فِيهِ لِلْوَلْدَانِ
 لِيَسْبِقَ الدِّينُ إِلَى الْقُلُوبِ
 فَسَبْقُهُ تُرْجَى لَهُمْ بَرَكَتُهُ
 وَلِلثَّوَابِ يَزْتَجِي مَنْ أَوْدَعَا
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ أَفْضَلَ الْقُلُوبِ
 وَأَقْرَبُ الْقُلُوبِ لِلْخَيْرَاتِ مَا
 وَأَنَّ أَوْلَى مَا يَهُمُّ النَّاصِحُونَ
 إِيصَالُ خَيْرِ لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
 لَهُمْ مَعَالِمُ الدِّيَانَاتِ وَمَا
 لِكَيْ يُذَلَّلَ عَلَى اغْتِقَادِ
 إِذْ جَاءَ تَعْلِيمُ الصَّغَارِ لِكِتَابِ
 وَأَنَّ تَعْلِيمَ الْعُلُومِ فِي الصُّغُرِ
 فَلَكَ مَثَلُ الَّذِي يَنْتَفِعُونَ

الشرح:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ الْإِنْسَانَ بِنِعْمَتِهِ)، معنى الحمد كما قال العلماء:

هو الثناء بالجميل الاختياري على وجه التبجيل والتعظيم للمحمود بالكمال
 محبة وتعظيمًا، فإن وصفه بالكمال لا محبة ولا تعظيمًا، ولكن خوفًا ورهبة
 سمي ذلك مدحاً لا حمداً، وتعبير المصنف بالمصدر وهو الحمد أبلغ في
 الدلالة على الثبوت والاستمرار وكأنه يقول أحمده حمداً دائماً مستمراً لا
 ينقطع، ولا يثني على الله أحد حق الثناء إلا هو على نفسه سبحانه، وقد
 ذكرت صيغة الحمد لله واحداً وعشرين مرة في الكتاب الكريم، فله الحمد
 سبحانه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه،
 وله الحمد على ما أنعم به علينا من نعمه الظاهرة والباطنة ومنها إيجادنا

وإمدادنا^(١)، أوجدنا من عدم، وأمدنا بسائر النعم، ولولا إنعام الله علينا بالإيجاد لما وجدنا، ولولا نعمته علينا بإمداد النعم لما بقينا فهو أهل الفضل والكرم قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾^(٣).

(وصورة في الأرحام بحكمته) قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٤) التصوير التخطيط والتشكيل حيث صور الله تبارك وتعالى الإنسان في أحسن صورة وأتم خلق عبر مراحل خلقية متدرجة في رحم أمه أدهشت العقول وحيرت الأبواب تفكراً في جميل الصنعة ولطيف الحكمة حيث يمر بها الجنين من النطفة، إلى النطفة الأمشاج^(٥)، إلى العلقة إلى المضغة إلى خلق العظام ثم كسوتها لحماً، حتى إنشائه خلقاً آخر قال جلّت قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

(١) انظر إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة (١٨١) ط/دار الخير - ١٤٢٦ - ٢٠٠٥. وشرح زروق على الرسالة (١٤/١).

(٢) الآيات (١٣ - ٢٠) من سورة نوح.

(٣) الآية (٧٠) من سورة الإسراء.

(٤) الآية (٦) من سورة آل عمران.

(٥) والنطفة الأمشاج هي المختلطة من خلايا التكاثر وهي ثلاثة وعشرون صبغياً في الزوج وثلاثة وعشرون في الزوجة فإذا التقت النطفتان في الرحم واتحدتا بمشيئة الله تعالى تكونت النطفة الأمشاج وتكامل عدد الصبغيات الموجودة في الإنسان وهي ستة وأربعون صبغياً في نواة خلاياه الجسدية، فيأتي الولد حاملاً من أبويه أخلاطاً من الشبه والاختلاف مع الوالدين ولذلك يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم» أخرجه الطبري في تفسيره (٥٦/٣٠) وذكره السيوطي في جمع الجوامع (الحديث: ٥٩٨٦). انظر موسوعة الإعجاز العلمي خلق الإنسان في القرآن الكريم للدكتور زغلول راغب محمد النجار (٣٨٩/٤) بتصرف، ط/وزارة الأوقاف القطرية.

قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾^(١)، وجاء وصف الأطوار التي يمر بها الجنين مرتبة ترتيباً دقيقاً، وموصوفة وصفاً شاملاً لم تصله بعد العلوم المكتسبة في قمتها الحالية، وذلك في عدد من آيات القرآن الكريم منها: [النحل: ٤؛ والكهف: ٣٧؛ الحج: ٥؛ المؤمنون: ١٣ - ١٤؛ فاطر: ١١؛ يس: ٧٧، غافر: ٦٧؛ النجم: ٤٥ - ٤٦؛ القيامة: ٣٧؛ الإنسان: ٢؛ عبس: ١٩]. وهذا الوصف القرآني المعجز جاء في زمن ساد فيه الاعتقاد بأن الجنين البشري يخلق خلقاً كاملاً في صورة متقزمة جداً لا تكاد ترى بالعين المجردة، وذلك من دم الحيض فقط، أو من ماء الرجل فقط، ثم يزداد في الحجم تدريجياً حتى لحظة الميلاد، فلم تكتشف العلوم المكتسبة، كلاً من نطفة الرجل ونطفة المرأة إلا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي بعد بناء المجهر، وحتى بعد اكتشافهما فإن دورهما في تكوين الجنين لم يدرك إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ولم يعرفا على أنهما من الخلايا الحية إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٩م) ولم تعرف العلوم المكتسبة أن الجنين يتخلق بإخصاب نطفة الأنثى (البيضة) بواسطة نطفة الذكر (الحيمن)^(٢) إلا في القرن التاسع عشر الميلادي» وقد جاء الكتاب الخالد المعجز والسنة النبوية الشريفة بوصف الأطوار بدقّة متناهية قبل اكتشافها من بني البشر قبل أربعة عشر قرناً^(٣) قال تعالى: ﴿سَرُّبِهِمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾^(٤).

ومن المكتشف علمياً أن الدفقة الواحدة من مني الرجل تحمل ما بين

(١) الآيات (١٢ - ١٤) من سورة المؤمنون.

(٢) اختصار حيوان منوي.

(٣) انظر موسوعة الإعجاز العلمي خلق الإنسان في القرآن الكريم للدكتور زغلول راغب محمد النجار (٤/٣٨١ - ٣٨٥) بتصرف، ط/وزارة الأوقاف القطرية.

(٤) الآية (٥٣) من سورة فصلت.

مائتي مليون وألف مليون نطفة (حيمن) وأن الحد الأدنى للإخصاب يحتاج إلى كثافة لا تقل عن عشرين مليون نطفة في كل ميليلتر من المنى الذي يتكون من تلك النطف ومن سائل يشترك في إفرازه كل من الغدتين التناسليتين وعدد من الغدد الأخرى، وإذا علمنا أن من بين تلك البلايين من نطف الرجل التي تتحرك في اتجاه البيضة من أجل إخصابها لا يصل أكثر من خمسمائة نطفة، وأن هذه النطف يحلل أغلبها من أجل المساعدة على ترقيق جزء من جدار البيضة لتمكن نطفة واحدة منها - تختارها الإرادة الإلهية - من الولوج إلى داخل البيضة من أجل إخصابها وتكوين النطفة الأمشاج، هذا كله إذا أذن الله في إخصابها وإلا فإن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَنَثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ أَوْ بُرُوجَهُمْ ذُرِّيًّا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾^(١)، وقال المصطفى ﷺ: «إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة، فإن قال غير مخلقة مَجَّتْهَا الأرحام دمًا» رواه مسلم^(٢).

والأرحام جمع رحم وهو الغلاف المحيط بالمشيمة التي بداخلها الجنين^(٣)، والجنين تحيط به ظلمات ثلاث ذكرها المصور سبحانه في كتابه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذِنِ تُصْرَفُونَ﴾^(٤) واختلفت أقوال المفسرين في الظلمات الثلاث فمن ذلك:

١ - البطن، والرحم، والمشيمة (ويقصد بها ما يغلف الجنين بصفة عامة). أو أنها هي:

(١) الآيتان (٤٩ - ٥٠) من سورة الشورى.

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب خلق آدم وذريته (٦٦٧٢). انظر: موسوعة الإعجاز العلمي خلق الإنسان في القرآن الكريم للدكتور زغلول (٤/٣٨٩ - ٣٩١).

(٣) وتفسير زروق رحمه الله تعالى للرحم بالمشيمة هو باعتبار الكل لا التفصيل.

(٤) الآية (٦) من سورة الزمر.

٢ - الرحم، والسلى، والرهل. أو أنها هي:

٣ - البطن، والظهر، والرحم. أو أنها هي:

٤ - المبيض، وقناة فالوب، والرحم.

وقال الدكتور زغلول النجار: «أن الخلق يتم في داخل الرحم، والجنين محاط بأغشيته التي تحدث الظلمة الأولى، والأغشية محاطة بجدار الرحم الذي يحدث الظلمة الثانية، والرحم محاط بالبدن الذي يحدث الظلمة الثالثة»^(١).

(وأبرزه إلى رفقه، وما يسره له من رزقه)، أبرزه أخرجه وأظهره من العدم إلى الوجود الغيبي، ثم إلى الوجود الظاهر المشاهد، فالله سبحانه خلق الإنسان من طين ثم خلق ذريته من ماء مهين، وفي كلّ مراحل رفق به سبحانه فصوره في أحسن صورة، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ويسر له الرزق في جميع أطوار حياته الجنينية والخارجية، فعندما كان في بطن أمه جعل دم حيضها له غذاء، ولما أخرجه حوله بجميل صنعته سقاء، عذباً بارداً في الحرّ ودافئاً سائغاً شتاء (وما يسره له من رزقه) وما بمعنى الذي أي والذي أعدّ له رزقه قبل خروجه إلى هذه الحياة وقد جاء الدليل عليه من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٢)، وقال: قال عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا» رواه الشيخان^(٣).

(١) موسوعة الإعجاز العلمي خلق الإنسان في القرآن الكريم للدكتور زغلول (٤/١١٤٤ - ١١٥). بتصرف، ط/وزارة الأوقاف القطرية.

(٢) الآية (٦) من سورة هود.

(٣) «البُخَارِي» ٤/١٣٥ (٣٢٠٨) و«مسلم» ٨/٤٤ (٦٨١٦).

والرزق شأنه عجيب تهرب منه ويتبعك، قال محمد بن إدريس البلنسي
(ت ٦٤٣هـ):

مَثَلُ الرَّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكَ
أَنْتَ لَا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعاً وَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكَ

واختلف أهل العلم هل الرزق ما تملكه أم هو ما تنتفع به؟ قال
صاحب الجوهرة:

والرزق عند القوم ما به انتفع وقيل لا بل ما ملك وما اتبع
فيرزق الله الحلال فاعلماً ويرزق المكروه والمحرمًا
والأرزاق مقسومة معلومة عند أهل السنة لا تزيد بتقوى ولا تنقص
بفجور، قال إبراهيم الخليل كما جاء على لسانه في الذكر: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
الشَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى
عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

(وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيمًا) تلميح إلى
قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٢)،
نعم لقد خرج الإنسان من بطن أمه إلى هذا العالم المترامي جاهلاً لا
يعرف شيئاً، إلا أنه خرج مزوداً بالآلات الاكتساب والتعلم مما حوله قال
تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣)، فعلمه الله تعالى وفتح له
بصيرته كما علم أباه من قبل قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ
عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤)
وقال جل من قائل: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾

(١) الآية (١٢٦) من سورة البقرة.

(٢) الآية (١١٣) من سورة النساء.

(٣) الآية (٧٨) من سورة النحل.

(٤) الآية (٣١) من سورة البقرة.

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾^(١)، إن هذا من فضل الله علينا ونعمه العظيمة التي توصل العبد إلى الفوز العظيم في جنات النعيم، «إذ لا فضل أعظم من هذا، والفضل إعطاء الشيء من غير عوض لا في الحال ولا في المال، وهذا لا يكون من غيره تعالى، وإنما قال: «عظيماً دون غيره من الأوصاف لاندرج كل صفة حسنة تحت العظمة»^(٢)، فله الحمد والشكر.

(ونبهه بآثار صنعته) ومن فضله تعالى على الإنسان أن جعل له عقلاً يهتدي به من غفلته، ويهتدي إليه بآثار صنعته في نفسه وفي مخلوقاته قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿١٠﴾ وَفِي الْأَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١١﴾﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾^(٤) وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦٥﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦٦﴾﴾^(٥) والكون كتاب منشور يتفكر المتفكرون بالنظر فيه والتأمل في جميل صنعة الخالق، وبديع حكمته، فيستدلون عليه بخلقه، ويهتدون إليه بإتقان صنعته ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٧﴾﴾^(٦) إن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون - حين تفتح وتستيقظ - وتسمع منه الكثير!

والمنهج القرآني في تكوين التصور الإسلامي في الإدراك البشري يتكئ

(١) الآيات (١ - ٤) من سورة الرحمن.

(٢) الفواكه الدواني للدواني للفراوي (١/ ١٣٦).

(٣) الآيات (٢٠ - ٢١) من سورة الذاريات.

(٤) الآية (١٦٤) من سورة البقرة.

(٥) الآيات (١٩٠ - ١٩١) من سورة آل عمران.

(٦) الآية (١٠١) من سورة يونس.

على ما في السماوات والأرض، ويستلهم هذا الكون؛ ويوجه إليه النظر والسمع والقلب والعقل... والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزيادة من المشاعر والتأملات؛ وزاد من الاستجابات والتأثرات؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود... وذلك كله في الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله، وبجلال الله، وبتدبير الله، وبسلطان الله، وبحكمة الله، وعلم الله^(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى^(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فُرُشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢)^(٣): هذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدلل بها كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعتها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الربّ تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدلّ على البعير، وإن أثر الأقدام لتدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أنّ الرشيد سأله عن ذلك فاستدلّ باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارئ تعالى، فقال لهم: دعوني فإنني مفكر في أمر قد

(١) في ظلال القرآن للسيد قطب رحمه الله تعالى (ج ٣) من تفسيره لسورة يونس.
(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى (١/ ١٩٧) دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
(٣) الأيتان (٢١ - ٢٢) من سورة البقرة.

أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم^(١)، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام [فتخرجه حلياً صافياً] وتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: هاهنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مريح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأشدد:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال آخرون: «من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير

(١) بفتح السين وضمها: الحرير الناعم.

يخصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّ سُودٌ ﴿٧٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٧٨﴾﴾^(١)، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد، وما ذراً في الأرض من الحيوانات المتنوعة، والنبات المختلف الطعوم والأرايح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه، ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم، لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً اهـ.

وقد أحسن وأجاد من قال:

أَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدُ
وله في كلِّ شيءٍ تَسْكِينَةٌ عَلَيْكَ وَتَحْرِيكَةٌ شَاهِدُ
وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

(وأعذر إليه على السنة المرسلين الخيرة من خلقه) أعذر أي بالغ في الإعذار لجنس الإنسان والجان بإرسال الرسل الكرام، ليقم عليهم الحجة، وتبين لهم المحجة، جاؤوا عليهم الصلاة والسلام يحملون البشري للمؤمنين، والندارة للكافرين، واصطفاهم من خير الخلق ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾^(٢)، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ

(١) الآيتان (٢٧ - ٢٨) من سورة فاطر.

(٢) الآية (٧٥) من سورة الحج.

(٣) الآية (١٦٥) من سورة النساء.

ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ
 الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾^(١)، ولم يجعل الله تعالى المرسلين من غير
 جنس المرسل إليهم، لئلا يتعذر متعذر أن الرسول ليس من جنسهم المبتلى
 بالشهوات، وأنه من جنس آخر قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
 وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ ﴿٩٦﴾^(٢)، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً
 لكان على هيئة رجل لثقتهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك
 لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما
 قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَسِّحُونَ مِطْمَئِينَ لَرَزَلْنَا عَلَيْهِمْ
 مِن السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٥﴾^(٣)، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل
 إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن
 بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال^(٤).

(فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله)، لما ذكر المصنف
 مئة الله تعالى على عبده بوجوده وموجوده، وقيام حجته عليه في أوامره
 ونواهيه ذكر أن التوفيق إليها والهداية لها من فضل الله ورحمته، وأن
 الإضلال عنها والخذلان فيها من قضائه وعدله فعاد الأمر إليه كما بدأ
 منه^(٥)، ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾^(٦)، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ
 عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾^(٧) خلقنا لما اختار، لا لما نختار فيفعل ما يشاء ويحكم ما
 يريد سبحانه، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، كتب الإيمان في قلوب
 أهل الإيمان فضلاً منه وتكرماً، وأضل من شاء بعدله لا ظلماً ﴿وَمَا رَبُّكَ
 بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٨)، ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ

(١) الآيات (٤٨ - ٤٩) من سورة الأنعام.

(٢) الآية (٩) من سورة الأنعام.

(٣) الآية (٩٥) من سورة الإسراء.

(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (١٢١/٥) ط/ دار طيبة.

(٥) شرح زروق (١٦/١).

(٦) الآية (٢٣) من سورة الأنبياء.

(٧) الآية (٣٠) من سورة الأعراف.

(٨) الآية (٤٦) من سورة فصلت.

مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ ، يقول الإمام الشافعي عليه رحمة الله :

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتَ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ فِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسِنَ
عَلَى ذَا مَنْنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ وَهَذَا أَعَنْتَ وَذَا لَمْ تُعِنْ
فَمِنْهُمْ غَنِيٌّ وَمِنْهُمْ فَقِيرٌ وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَنٌ
وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَكُلٌّ بِأَعْمَالِهِمْ مُرْتَهَنٌ

وإن مسألة الهداية والإضلال من أهم المسائل العقدية التي ضل فيها قوم حشروا عقولهم في فلسفة لاغية أضلتهم عن الهدى المستقيم، فاعترضوا على الحق المنير، وأعرضوا عن الوحي المبين وهذا من القدر المحجوب و«كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ»^(٢). ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٣) ، والهداية نوعان: هداية توفيق وهي من الله تعالى يخص بها من يشاء من عباده، وهداية دلالة وإرشاد وهي من النبي المرسل الذي يدل الناس إلى صراط الله المستقيم، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤) ، أي: لا تهديهم هداية توفيق وإن كنت تدلهم على الطريق، وسيأتي مزيد من الكلام عن هذه المسألة في باب العقيدة.

(ويسر المؤمن) أي هياهم (لليسرى) ضد العسرى وهو ما لا مشقة فيه من عمل صالح تحفه السعادة الأبدية، وفسرت اليسرى بالجنة أو الخير أو طريقهما إذ طريق الخير عاقبته^(٥)، وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا تَنْكَلُ

(١) الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) متفق عليه.

(٣) الآية (٣) من سورة الإنسان.

(٤) الآية (٥٦) من سورة القصص.

(٥) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة (٨٦/١) تحقيق محمد شبير.

عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ (١).

(وشرح صدورهم للذكرى) وشرح أي وسع قلوبهم وأفسح فيها فقبِلت لتنورها بنوره نُورُهُ، وذلك من نبع هدايته ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (٢) والتعبير بالصدر عن القلوب من التعبير عن الشيء بمحلّه فأطلق المحل وأراد الحال، والتعبير بالشرح وهو من خصائص الأجسام فيه مجاز، وقد فسر النبي ﷺ علامة الانشراح عندما سئل عن هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (٣) وقالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نور يُقذَف فيه، فينشرح له وينفسح». قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتَّجَافِي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» (٤).

والذكرى: الموعظة يتقبلها الأتقياء ويحرم منها الأشقياء ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿١﴾ سَيَذَكِّرْ مَنْ يَحْشَى ﴿٢﴾ وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿٣﴾﴾ (٥) (ف) لما قبلوا الذكرى (أمنوا بالله) حيث قالوا (بالسننهم ناطقين) أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ (وبقلوبهم مخلصين) أي: معتقدين اعتقاداً خالصاً بتلك الشهادة (وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين) بمقتضى شهادة التوحيد، وقد جمع بين القول والاعتقاد والعمل وهو ما عليه أهل السنة والجماعة،

(١) الآيات (٥ - ٧) من سورة الليل. والحديث سبق تخريجه.

(٢) الآية (٢٢) من سورة الزمر.

(٣) الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٧٨٦٣)، وقال الذهبي في التلخيص: عدي بن الفضل ساقط، وأخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢١٠/١) ورواه الطبري في تفسيره (٩٩/١٢) من طريق عبدالرزاق به، وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان بسند آخر (١١٥٦) وقال الألباني: ضعيف انظر الضعيفة (٩٦٥).

(٥) الآيات (٩ - ١١) من سورة الأعلى.

وقد أشار إلى ذلك في ثنايا مقدمته كما سيأتي الكلام عليه بحول الله مستوفى، وجمعه للرسول والكتب لا إشكال فيه فمن آمن بمحمد ﷺ واتبعه، وعمل بالكتاب كان مؤمناً بجميع الرسل وعاملاً بما في الكتب، لأن الله تعالى أخذ ميثاق الأنبياء لئن بعث إليهم رسولا ليتبعونه ويصدقونه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾^(١).

(وتعلموا ما علمهم، ووقفوا عند ما حدّ لهم، واستغنوا بما أحلّ لهم عما حرم عليهم) أي وتعلموا من الإيمان والطاعات، مما جاءهم على لسان رسولهم، وما اعتقدوه من خالص الإيمان في قلوبهم، فكانت نتيجة ذلك أن وقفوا عند حدود الله التي حدّت لهم فلم يتعدوها، فأحلّوا ما أحلّ الله وكانوا على يقين من حلّه، واطمأنت قلوبهم لعلمهم به، وحرّموا ما حرّم الله، وتركوا ما شبّه عليهم ابتغاء رضوان الله، واعلم أن أكل العبد الحلال، وتجنبه الحرام، من أعظم التوفيق للوقوف عند حدود الله التي حدّها ﴿يَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢)،

(أما بعد)، كلمة فصل وافتتاح يؤتى بها لغرض الانتقال من كلام لآخر، وأصل أما: مهما يكن من شيء، أو أم ما يكن من شيء بعد الحمد والصلاة والسلام، قال بعض المحققين: ولتضمنها معنى الشرط لزمها الفاء اللازمة للشرط غالباً^(٣)، وجاء عدم الورد في قول أفصح الخلق ﷺ: «أما

(١) الآيتان (٨١ - ٨٢) من سورة آل عمران. وانظر: العجالة في شرح الرسالة لفضيلة الشيخ ابن حنيفة العابدين (٦٨). ط/دار الإمام مالك.

(٢) الآية (٢٢٩) من سورة البقرة.

(٣) قال ابن مالك: أما كمهما يك من شيء، وفا - لتلو تلوها وجوباً - ألفا قال ابن عقيل: أما: حرف تفصيل، وهي قائمة مقام [أداة] الشرط، وفعل الشرط، ولهذا فسرها سيبويه بمهما يك من شيء، والمذكور بعدها جواب الشرط، فلذلك لزمته الفاء، نحو: «أما زيد فمنطلق» والأصل «مهما يك من شيء فزيد منطلق» فأنيبت «أما» =

بعد ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله»، هكذا وقع في صحيح البخاري^(١) «ما بال» بحذف الفاء، والأصل: أما بعد فما بال رجال، فحذفت الفاء.

و(بعد): تُضَمُّ دَالُهُ وَأَجَازُ الْفَرَاءِ فَتَحَهُ مَنْوَنًا، وهشام فتحه بدون تنوين وأنكره التّحاس.

وقال جماعة أما بعد: هي فصل الخطاب، واختلف في أول من قالها قال الحافظ: فقيل داود رضي الله عنه، رواه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وفي إسناده ضعف، وروى عبد بن حميد والطبراني عن الشعبي موقوفاً أنها فصل الخطاب الذي أعطيه داود، وأخرجه سعيد بن منصور من طريق الشعبي فزاد فيه عن زياد بن سمية. وقيل أول من قالها يعقوب رواه الدارقطني بسند رواه في غرائب مالك. وقيل أول من قالها يعرب بن قحطان، وقيل كعب بن لؤي أخرجه القاضي أبو أحمد الغساني من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بسند ضعيف، وقيل سحبان بن وائل، وقيل قس بن ساعدة، والأول أشبه. اهـ، وبوب البخاري باباً فقال: باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد^(٢).

(أعاننا الله وإيتاك على رعاية ودائعه) لَمَّا وَعَدَ الْمُصَنِّفُ مِنْ طَلَبِ مَنْهُ كَتَبَ رِسَالَةً فِي أَحْكَامِ الدِّينِ لَمْ يَجِدْ بَدَأً مِنْ أَنْ يَجَارَ إِلَى اللَّهِ وَاهِبِ الْمِنَّةِ، وَمَعِينِ الْعِبَادِ عَلَى قِضَاءِ الْوَعُودِ أَنْ يَعِينَهُ أَيَّ يَقْدِرَهُ وَمَنْ تَصَلِّهِ رِسَالَتَهُ عَلَى حِفْظِ مَا اسْتَوَدَعَهُ اللَّهُ مِنْ وَدَائِعِ قِيلِ هِيَ جَوَارِحُ الْإِنْسَانِ، وَأَضِيفَتْ لَهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ الْخَالِقُ لَهَا، وَيُقَالُ لَهَا الْكَوَاسِبُ وَهِيَ سَبْعٌ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَاللِّسَانُ وَالْيَدَانُ وَالرِّجْلَانُ وَالْبَطْنُ وَالْفَرْجُ، وَحَفِظَهَا أَنْ لَا يَرْتَكِبَ بِهَا مِنْهَيًّا عَنْهُ، وَأَنْ لَا يَتَخَلَّفَ عَنْ مَأْمُورٍ بِاسْتِطَاعَةٍ، وَقِيلَ هِيَ الشَّرَائِعُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

= مناب «مهما يك من شيء»، فصار «أما فزيد منطلق» ثم أخرجت الفاء إلى الخبر، فصار «أما زيد فمنطلق»، ولهذا قال: «وفا لتلو تلوها وجوباً ألفاً» وحذف ذي الفا قل في نثر، إذا لم يك قول معها قد نبذا.

(١) البخاري (٤٤٤).

(٢) فتح الباري (٤٧٠/٢).

وغيرهما من المأمورات ورعايتها علماً وعملاً وتبليغاً، قال النفراوي: والأول أولى لعدم التكرار^(١).

وقد بدأ في الدعاء بنفسه اقتداء بالكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾^(٢) وغيرها من الآيات، وثبت عن النبي ﷺ أنه: «كان إذا دعا بدأ بنفسه» رواه أبو داود^(٣)، ثم ثنى للمسلمين أو للمؤدب الذي سأله الكتاب، وهكذا دأب الأنبياء والصالحين وأدبهم مع الله في الدعاء.

والودائع: جمع وديعة، وهي ما وضع عند الشخص ليحفظه ويرعاه فإذا طلبه صاحبه وقاه إيّاه.

(و) أعاننا الله وإياك على (حفظ ما أودعنا) وائتمنا عليه (من شرائعه) وهي أحكامه تعالى ولعل هذا مقتبس من قول سيد الناس ﷺ لابن عباس **«احفظ الله يحفظك»**^(٤) أي: احفظ أوامر الله بامثالها، ونواهيها باجتنبها يحفظك الله تعالى في بدنك ومالك وأهلك في الدنيا من الآفات **وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَفِي الْعُقْبَى مِنْ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ وَالذَّرَكَاتِ**، وقوله ﷺ «من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى...»^(٥) والشريعة هي العقيدة والأحكام العملية **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾**^(٦)، **﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾**^(٧).

(فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة) سؤال القرين لقرينه

(١) الفواكه الدواني للنفراوي (١/ ١٥٢).

(٢) الآية (١٠) من سورة الحشر.

(٣) رواه أحمد في المسند، وأبو داود (٣٩٨٤)، وابن ماجه (٣٨٥٢)، والترمذي (٣٤٤٥) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٤) رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وانظر شرح الحديث في تحفة الأحوزي (١٨٥/٧) دار الكتب العلمية، وجامع العلوم والحكم (١٩٧) ط/دار البيان الحديثة مصر ١٤٢٢ - ٢٠٠٢.

(٥) أخرجه أحمد ٣٨٧/١ (٣٦٧١) والترمذي (٢٤٥٨).

(٦) الآية (١٨) من سورة الجاثية.

(٧) الآية (٤٨) من سورة المائدة.

التماس، ومن العالي أمر، ومن الأدنى للأعلى جلّ جلاله دعاء، والكتابة الضم والجمع وذلك أن يضم المسائل بعضها لبعض مجملة تحت أبواب وفصول، والجملة مأخوذة من جملة الشيء إذا لم أفصله، والاختصار الإيجاز البليغ من القادر عليه المستوعب لأطراف الكلام في الموضوع، والمختصرات أسهل في الضبط والحفظ، والذي سأكتبه لك ستكون أبوابه (من واجب أمور الديانة: مما تنطق به الألسنة)، كالشهادتين للقادر على النطق بهما، وكقراءة أم القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر الواجبات القولية، والألسنة جمع لسان آلة النطق المعروفة.

(وتعتقده القلوب) أي: تجزم به وتصمم عليه القلوب كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (وتعمله الجوارح)، من أعمال مفروضة ومسنونة وغيرها، والواجب هو ما ألزمتنا الشارع بفعله من أمور الديانة؛ ولم يقتصر في رسالته على الواجبات بل (وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها، ونوافلها، ورغائبها) إذ لا تخلو فريضة من فرائض الشرع المطهر إلا ولها شروط وأركان وسنن ومستحبات ومكروهات ومبطلات، فأشار إلى ما يتصل بذلك من السنن المؤكدة، والنوافل المطلقة والمقيدة، والرغائب التي رغب فيها الشارع، والرواتب القبلية والبعدية، وقد شرحنا كل حكم من الأحكام الخمسة في موضعه، وبالله التوفيق، كما شرحنا ذلك مستوفى بحمد الله في كتابنا العرف الناشر في شرح وأدلة فقه متن ابن عاشر؛

ولمّا كانت عادة المتقدمين في عدم إغفالهم أمور الأدب والتربية من أجل تزكية النفوس وترويضها على العمل بالعلم وكتبوا في ذلك كتباً، وعقدوا لها في الكتب أبواباً^(١) قال: (وشئ من الآداب منها)، والآداب جمع

(١) قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى: ومن هذه الكتب: «الجامع» للخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، و«الفقيه والمتفقه» له، و«تعليم المتعلم طريق التعليم» للزرنوجي، و«آداب الطلب» للشوكاني، و«أخلاق العلماء» للأجري، و«آداب المتعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين» للقباسي، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة، و«الحث على طلب العلم» للعسكري، و«فضل علم السلف على الخلف» لابن رجب، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر، و«العلم فضله وطلبه»=

أدب، وأصله الدعوة إلى الشيء ومنه سميت المأدبة لأنها يدعى لها الناس، «والأدب ما يحسن حالة الإنسان فيما بينه وبين ربه وملائكته ورسله وكتبه وبينه وبين الناس»^(١)، والشرع يدعو الناس إلى مكارم الأخلاق وأعاليلها، وينهاهم عن قبيحها وسفسافها، وقد عقد لهذه الجملة من الآداب باباً في آخر الكتاب كنت أتمنى أن يكون في الترتيب بعد مقدمة العقيدة أو قبلها ليجمُل بنا أن ندخل باب الطلب للعلم مزودين بالآداب الحسنة، لا بالغرور والتعالي، وقد كان السلف رحمهم الله لا يغدو طالبهم لطلب العلم إلا بعد أن يتنسك، قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى: لقد توارَدَتْ مُوجِبَاتُ الشرع على أن التحلي بمحاسن الأدب، ومكارم الأخلاق، والهدى الحسن، والسُّمْت الصالح: سِمَةٌ أهل الإسلام، وأنَّ العِلْمَ - وهو أثنى دُرَّة في تاج الشرع المُطَهَّر - لا يصلُ إليه إلا المُتَحَلِّي بآدابه، المتخلي عن آفاته، ولهذا عنها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إما على وجه العموم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص، كأدب حَمَلَة القرآن الكريم^(٢)، وأدب المُحَدِّث^(٣)، وأدب المفتي، وأدب القاضي، وأدب المُحْتَسِب، وهكذا...

= للأمين الحاج، و«فضل العلم» لمحمد أرسلان، و«مفتاح دار السعادة» لابن القيم، و«شرح الإحياء» للزيدي، و«جواهر العقدين» للسهودي، و«آداب العلماء والمتعلمين» للحسين بن منصور - منتخب من الذي قبله -، و«قانون التأويل» لابن العربي، و«العزلة» للخطابي، و«من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان، و«مناهج العلماء» لفاروق السامرائي، و«التعليم والإرشاد» لبدر الدين الحلبي، و«الذخيرة» للقرافي الجزء الأول، والأول من «المجموع» للنووي، و«تشحذ الهمم إلى العلم» لمحمد بن إبراهيم الشيباني، و«رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، و«آثار محمد البشير الإبراهيمي». وغيرها كثير، أجزل الله الأجر للجميع آمين. قلت: ومن المهم تدريس حلية طالب العلم للشيخ بكر أبو زيد يرحمه الله تعالى.

(١) تنوير المقالة للتنائي (٩٧/١).

(٢) وأجلُّ التأليف في ذلك كتاب الإمام النووي رحمه الله تعالى الموسوم بـ«التبيان في آداب حملة القرآن».

(٣) ومنها كتاب الإمام الخطيب رحمه الله تعالى المنعوت بـ«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع».

والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلك طريق التعلم الشرعي.

وقد كان العلماء السابقون يُلقِّنون الطلاب في حلق العلم آداب الطلب... إلخ^(١)، قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: «كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم»^(٢). بل كانوا صوراً طبق الأصل لشيوخهم في السمت الصالح والآداب الرّاقية قال ابن داسة رحمه الله تعالى: وبلغنا أنّ أبا داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥) كان من العلماء العاملين حتى أن بعض الأئمة قال: كان أبو داود يُشبهه بأحمد بن حنبل في هديه ودلّه وسمته، وكان أحمد يُشبهه في ذلك بوكيع، وكان وكيع يُشبهه في ذلك بسفيان، وسفيان بمنصور، ومنصور بإبراهيم، وإبراهيم بعلقمة، وعلقمة بابن مسعود، وقال علقمة: كان ابن مسعود رضي الله عنه يُشبهه بالنبي صلى الله عليه وآله في هديه ودلّه^(٣).

(وجمل من أصول الفقه) التي هي قواعد للمسائل الفرعية، والأصل في اللغة ما بينى عليه غيره كالأساس للجدار وأصل الشجرة لفرعها، والفقه الفهم، وفي الاصطلاح هو: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية^(٤)، وأصول الفقه صار علماً لهذا الفن وهو مركب من جزأين أصول وفقه، وفي اصطلاح أهله هو: إدراك القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية^(٥)، أو يقال: معرفة دلائل الفقه الإجمالية، وكيفية الاستفادة منها وحال المستفيد^(٦)، وهذا لا يريد هنا

(١) انظر حلية طالب العلم للشيخ العلامة بكر أبو زيد رحمه الله تعالى، وتوشيحها للعبد الضعيف عفا الله عنه.

(٢) الجامع لابن أبي زيد القيرواني (٧٩/١).

(٣) تذكرة الحفاظ (٥٩٢/٢). وانظر غير مأمور توشيح حلية طالب العلم للمؤلف.

(٤) الإحكام للآمدي (٥/١).

(٥) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني (١٠) ط/دار المعرفة - بيروت.

(٦) أصول الفقه تاريخه ورجاله للدكتور شعبان محمد إسماعيل (١١) دار المريخ الرياض

١٤٠١هـ.

لأنه لعدم تعرضه له، وإنما يريد أصول الفقه التي استنبط منها من قرآن وسنة أو ما وقع عليه الإجماع، وفهمه أهل القياس في إلحاقهم الفروع بأصولها وهلم جرًا، والله أعلم. قال النفراوي: واختلف في المراد بهما في كلام المصنف فقيل: المراد بالأصول أمهات المسائل كمسألة بيوع الآجال ونحوها من المسائل التي يتشعب منها مسائل كمسألة الأمة المشتركة وبالفتون ما يتفرع عليها، وقيل: المراد بالأصول الأدلة وبالفتون ما يستفاد منها^(١).

(وفنونه) جمع فنّ وهي الفروع المأخوذة من تلك الأصول هكذا قال زروق، وفي اللغة: الفنّ واحد الفنون وهي الأنواع. والأفانين الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه^(٢).

(على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته)
 المذهب: مفعول من الذهاب، وهو لغة: الطريق ومكان الذهاب، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية استنتاجاً واستنباطاً؛ وعند المتأخرين يطلق على ما به الفتوى في المسائل الفقهية فيقولون: مذهب مالك في المسألة كذا وكذا من إطلاق الشيء على جزئه الأهم^(٣)، طريقة الإمام في بيان الأحكام الشرعية وما استنبط منها من مسائل فقهية، من قبل أتباعه من أئمة الفقه لوجود التشابه بين المنقول عنه والمنقول إليه، ولم تكن المذاهب معروفة في الزمن الأول بل كان الناس ينشرون علم السنة وفقه الصحابة، ولذا لم يكن مالك يسمي طريقته في نشر العلم مذهباً ولا ادعى ذلك، بل كان يوصي أتباعه أن يعرضوا كلامه على هدي الكتاب والسنة فما وافق أخذوا به وما عارض تركوه، «ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه، إلا رسول الله ﷺ، وإنما حدد مصطلح المذهب في القرن الرابع

(١) الفواكه الدواني (١/ ١٥٩).

(٢) المصباح (مادة فنن).

(٣) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي للدكتور عمر الجيدة (٧).

الهجري عندما دعت الظروف إلى هذا النوع من الالتزام بمنهاج معين في الفقه والتشريع»^(١)، وهو الذي ننصح به طالب العلم أن يتفقه على مذهب أهل بلده لوجود من هو أبصر منه فيه، ووفرة الكتب في مذهبه، وليحفظ من ذلك ما استطاع في صغره، يقول الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: شأن الطالب أن يدرس أولاً مصتفاً في الفقه، فإذا حفظه، بحثه، وطالع الشروح، فإن كان ذكياً، فقيه النفس، ورأى حجج الأئمة، فليراقب الله، وليحتط لدينه، فإن خير الدين الورع، ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، والمعصوم من عصمه الله... إلى أن قال: (وبكل حال فإلى فقه مالك المنتهى، فعامة آرائه مسددة، ولو لم يكن له إلا حسم مادة الحيل، ومراعاة المقاصد لكفاه...)»^(٢). ومعنى ذلك إن صرت أهلاً للاجتهاد وتوفرت فيك آتته فلك أن تأخذ بالدليل الأقوى، فمالك رحمه الله تعالى أو غيره من الأئمة لم يلزموا أحداً باتباعهم فيما لم يحالفهم فيه الصواب، ولا ادّعوا لأنفسهم العصمة رحمهم الله تعالى، ولكن إن كنت مبتدئاً فاحذر التّطاول كقول بعض المُستَسْمِنِينَ وَرَمَا «هم رجال ونحن رجال» فنقول لك نعم:

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعة وثريد

ولا خير فيمن أتى لقوم على مذهب من هذه المذاهب السنية السديدة فشقّ عصاهم، وفرّق جماعتهم، وسفّه فقه أئمتهم فهو أحقّ بما رماهم به، ولو قرأ تراجمهم لاستحيا أن يفكر في تنقيصهم قال الإمام الحافظ الحجّة أبو عمر يوسف ابن عبدالبر رحمه الله تعالى: «فكلّ قوم ينبغي لهم امتثال طريق سلفهم فيما سبق إليهم من الخير، وسلوك مناهجهم فيما احتملوا عليه من البرّ وإن كان غيره مباحاً مرغوباً فيه»^(٣).

(١) حجة الله البالغة (١/١٢٦).

(٢) السير (٨/٩٠)، وانظر كلام الشوكاني في (أدب الطلب ومنتهى الأرب) ص (١٣٦).

(٣) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبدالبر المغراوي (المقدمة ص ٣٠).

قال سفيان رحمه الله تعالى: «إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه»^(١)، وقال أحمد رحمه الله تعالى: «لا ينبغي للفقهاء أن يحمل الناس على مذهب، ولا يشدد عليهم».

وكذلك لا خير فيمن ترك الدليل الصحيح - إن كان أهلاً لمعرفة، وشرط صحته واستنباط أحكامه، ومعرفة ناسخه ومنسوخه، وما يتعلق بلفظه - لرأي إمام من الأئمة رحمهم الله تعالى.

قال الإمام الأصولي الفقيه المعروف بالقرافي المالكي صاحب الكتب الماتعة رحمه الله تعالى: «وقد آثرت التنبيه على مذهب المخالفين لنا من الأئمة الثلاثة وما أخذهم في كثير من المسائل تكميلاً للفائدة ومزيداً من الاطلاع، فإن الحق ليس محصوراً في جهة فيعلم الفقيه أي المذهبين أقرب للتقوى وأعلق بالسبب الأقوى»^(٢).

ونقل الإمام الزاهد والمحدث الصادق الإمام النووي عن شيخ الإسلام أبي عمرو ابن الصلاح رحمهما الله تعالى قال: «فمن وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه، نظر إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقاً، أو في ذلك الباب أو في المسألة، كان له الاستقلال بالعمل به، وإن لم تكمل وشق عليه مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفه عنه جواباً شافياً، فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير الشافعي ويكون هذا عذراً له في ترك مذهب إمامه هنا، وهذا الذي قاله حسن متعين، والله أعلم»^(٣).

والإمام مالك: هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري

(١) فتح البر (٤/٥٤٩).

(٢) الذخيرة للقرافي (١/٣٨).

(٣) انظر مقدمة الآيات البيئات في سماع الأموات للشيخ العلامة نعمان الألوسي وتحقيق الألباني رحمهما الله تعالى ص (ز).

المدني^(١)، ولد عام ٩٣هـ، على أشهر الأقوال، وقيل ٩٤، وقيل ٩٦،
وقيل غير ذلك^(٢). وتوفي سنة ١٧٩هـ^(٣).

وأمه العالية بنت شريك الأزديّة، نشأ في بيت علم وصلاح، فأبوه
أنس كان عالماً فقيهاً، وعمّاه: ربيع، ونافع، كانا عالمين محدثين، وجدّه
مالك كان من كبار التابعين، وجملة فقهاءهم وعلماهم يروي عن عمر بن
الخطاب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله رضي الله عنه في آخرين.

كان رحمه الله تعالى من أحسن الناس خلقاً، وأرجحهم عقلاً،
والطفهم معشراً، قال فيه ابن المبارك رحمه الله تعالى قولاً جميلاً ينبي عن
مكانته في نفوس الآخرين:

صُمُوتٌ إِذَا مَا الصَّمْتُ زَيْنَ أَهْلِهِ وَفَتَّاقٌ أَبْكَارِ الْكَلَامِ الْمُخْتَمِّ
وَعَى مَا وَعَى الْقُرْآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ وَسَيَّطَتْ لَهُ الْأَدَابُ بِاللَّحْمِ وَالْدَّمِ^(٤)

عاش في المدينة، وترعرع فيها وأخذ عن علمائها كالزهري وربيعة
ويحيى بن سعيد في آخرين كثير، وأخذوا عنه، كان زاهداً ورعاً تقياً معظماً
للسنة، لم يُعرف أحد من العلماء بلقب إمام دار الهجرة غيره، تعلم بها
ومات بها فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وأجزل مثوبته، وهو عند المحدّثين

(١) انظر الانتقاء لابن عبد البر (١٠)، والمدارك لعياض (١٠٤/١) وانظر محاضرات في
تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي للدكتور عمر الجيدي (١٠).

(٢) الدياج المذهب للعلامة باب التنبكتي (١٧) والمصدرين السابقين.

(٣) انظر ترجمته الزكية بتوسع في: ترتيب المدارك للقاضي عياض (٤٤/١) وما بعدها
العلمية، والانتقاء لابن عبد البر، ومناقب مالك للزواوي، وسير أعلام النبلاء وغيرهم
كثير ممن ترجم له، ولا تنس كتاب محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب
الإسلامي للدكتور عمر الجيدي فهو من الكتب المفيدة في ترجمة مالك وسيرة مذهبه
في المغرب الإسلامي.

(٤) سيطت: أي اختلطت انظر البيهقي في كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي ضمن ترجمة
الإمام (١/١٣٣).

والعلماء المخبتين ممن تجاوز القنطرة، فقد روى له أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، وكتابه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، وعلى خلاف في الرتبة بعد الصحيحين، وهل هما إلا منه ومن أمثاله^(١). وسلسلته في الحديث تسمى سلسلة الذهب عند البخاري.

وترجمته مبسطة في كتب التراجم ومثله لا يحتاج إلى تعريف:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج التّهار إلى دليل

(وطريقته) وهي أقوال أصحابه إذ طريق أصحابه طريقه، وقيل المذهب، والطريقة بمعنى واحد، وقيل مذهبه ما يفتي به، وطريقته ما يأخذ به في خاصة نفسه، فقد يحمل نفسه على أشياء لا يفتي بها غيره^(٢).

قال الشيخ أبو الحسن شارح المدونة نقلاً عن أبي محمد صالح: الأدلة التي بنى عليها مالك مذهبه ستة عشر: نصّ الكتاب، وظاهر الكتاب وهو العموم، ودليل الكتاب وهو مفهوم المخالفة، ومفهوم الكتاب وهو المفهوم بالأولى، وتنبيه الكتاب وهو التنبيه على العلة مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا﴾، ومن السنة أيضاً مثل هذه الخمسة.

والحادي عشر: الإجماع.

والثاني عشر: القياس.

والثالث عشر: عمل أهل المدينة.

والرابع عشر: قول الصحابي.

والخامس عشر: الاستحسان.

(١) انظر كتاب إضاءة الحالك من ألفاظ السالك على موطأ مالك ص (١٣ - ١٩)، ورجوع الحافظ ابن حجر في نكته على ابن الصلاح عن تقديم صحيح البخاري في الصحة عن موطأ مالك. انظره تستفد. ط/دار البشائر الإسلامية.

(٢) تنوير المقالة في شرح الرسالة (١/١١١).

والسادس عشر: الحكم بالذرائع أي بسد الذرائع، واختلف قوله في السابع عشر وهو مراعاة الخلاف فمرة راعاه ومرة لم يراعاه.

قال الشيخ أبو الحسن: ومما بنى عليه مذهبه الاستصحاب اهـ^(١).

و(مع) الجملة المختصرة والطريقة الميسرة أبين (ما) أي الذي (سهل) أي يسر (سبيل ما أشكل) بأن التبس واشتبه (من ذلك) أي من واجب أمور الديانة وأشار لبيان ذلك بقوله (من تفسير الراسخين) أي من بيان الثابتة أقدامهم وعلا كعبهم في العلم قرآناً وسنة تفسيراً وشرحاً، والراسخون من الصحابة كأصحاب العلم والفتيا الذين شهد لهم النبي ﷺ في حياته، أو اتفقت الصحابة من بعده على رسوخهم كالعبادة، (وبيان المتفقهين) وتوضيح ما أشكل أيضاً من أمور الديانة مما بينه الفقهاء المشهود لهم في المذهب من أصحاب مالك، قال الشراح^(٢): كابن القاسم وأشهب وغيرهما فإنهم قيدوا ما أطلق وخصصوا ما عمم من الآثار، فإنهم بينوا خبر: «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه» متفق عليه^(٣)، بأنه ليس على إطلاقه بل محلّ النهي إذا ركنا بأن تقارباً وتوافقاً، وخبر «من ابتاع طعاماً لا يبيعه قبل أن يستوفيه»^(٤)، بينوا أنه ليس على إطلاقه بل محلّ النهي إن كان الشراء على الكيل لا إن كان اشترى على وجه الجزاف.

وقوله ﷺ: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»، مقيد بما إذا

(١) الفواكه الدواني للنفراوي (١/ ١٦١).

وانظر كتاب: الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة للعلامة الفقيه حسن بن محمد المشاط المتوفى سنة ١٣٩٩هـ رحمه الله تعالى فإنه نفيس في بابه.

(٢) الفواكه الدواني (١/ ١٦٥)، وتنوير المقالة (١/ ١١٤ - ١١٥).

(٣) أخرجه مالك «الموطأ» ١٤٩٠، و«أحمد» ٢١/٢ (٤٧٢٢)، و«البخاري» ٢٤/٧ (٥١٤٢)، و«مسلم» ١٣٨/٤ (٣٤٣٨).

(٤) أحمد: ١/ ٢١٥ (١٨٤٧) والترمذي (١٢٩١) و«النسائي» (٧/ ٢٨٥) وفي «الكبرى» (٦١٤٥) و«ابن ماجه» (٢٢٢٧).

كان هناك خلطة أو ظنّة في غير المسائل المستثناة اهـ، وقدم تفسير الراسخين على بيان المتفقهين لفضل المفسر على الناقل المبين.

(لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان، كما تعلمهم حروف القرآن) لما ذكر مقاصد المطلب وهي خمسة: بيان الواجب نطقاً وعقداً وعملاً وبيان المندوب كذلك على حسب متعلقه من الجوارح وتعقله، وذكر جمل من أصول الفقه وكون ذلك مقيداً بمذهب مالك مع ما يحلّ مشكله ويفتح مقفله من كلام عالم راسخ أو متفقه ناصح ذكر السبب الموجب لذلك، والباعث عليه هو رغبته في تعليم ذلك للصبيان كما يعلمهم القرآن^(١)، وقد كان ذلك دأب السلف في تعليمهم أبنائهم فطفحت كتب الحديث والسير تروي لنا قصصهم ومآثرهم في حفظ القرآن والسنة وهم صغار كابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم من الصحابة وأبنائهم، والتابعين ومن جاء بعدهم، (ل) يكون أول شيء (يسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه) لقول النبي ﷺ: «أدّبوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفياؤه» رواه الطبراني وابن النجار^(٢)، لأنّ قلوب الصبيان صفحات بيضاء ناصعة، فطرتها نقية، وأرضها خصبة طيبة ندية، ما غرس فيها بسق، وما علّقَ بها اتّسَقَ، ولذلك رَجَى المصنّف رحمه الله تعالى أن يكون أول شيء يُراضون عليه هو حفظ كتاب الله تعالى مع مبادئ الشرع المطهر الذي ارتضاه الله لنا شرعةً ومنهاجاً، فيشَبُّ الولدان على إدراك أصول الدين ومقاصده، عقيدة سليمة على مذهب السلف الصالح، وفقهاً صحيحاً مستنبطاً من شريعة الله الطاهرة، لا يفرّقون بين ما ذهب إليه مالك وغيره من الأئمة في العقيدة والفقه والآداب كالمُتأخّرين الذين جعلوا مذهب مالك عَضِين.

(١) بتصرف من شرح زروق (٢٤/١).

(٢) ورمز له السيوطي لضعفه في الجامع الصغير، وضعفه الألباني (ضعيف) انظر حديث رقم: ٢٥١ في ضعيف الجامع.

وقد اختلف العلماء في أيهما يسبق إلى قلوبهم هل حفظ القرآن، أم تعلم العقيدة والأحكام فكان من رأي ابن العربي المالكي^(١)، أن لا يخلط الطالب في التعليم بين علمين، وأن يُقدّم تعليم العربية والشعر والحساب، ثم ينتقل منه إلى القرآن.

لكن تعقّب ابن خلدون بأنّ العوائد لا تُساعد على هذا، وأنّ المُقدّم هو دراسة القرآن الكريم وحفظه؛ لأنّ الولد ما دام في الحجر؛ ينقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ؛ صعب جبره^(٢).

وقال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى: «تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام، فينشأون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها؛ وسوادها بأكدار المعصية والضلال»^(٣). وقال التتائي رحمه الله تعالى: «والإجماع على أنّ تعليم العقائد ومعرفة الشرائع أكد من تعليم القرآن، لأنّ القرآن إنما يتعلم حروفه دون معناه ولا يتأكد عليه من القرآن إلاّ أمّ القرآن التي هي فرض في الصلاة، وقراءة السورة التي هي سنّة وما زاد على ذلك فمستحب»^(٤).

وقال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها ومن تعدّاها جملة فقد تعدّى سبيل السلف رحمهم الله ومن تعدّى سبيلهم عامداً ضلّ، ومن تعداه مجتهداً زلّ فأول العلم: حفظ كتاب الله عزّ وجل وتفهمه، وكلّ ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه ولا أقول: إن حفظه كله فرض ولكني أقول: إن ذلك شرط لازم على من أحب أن يكون عالماً فقيهاً ناصباً نفسه للعلم ليس من باب الفرض... ثم قال: القرآن أصل العلم فمن حفظه قبل بلوغه ثم فرغ

(١) «تراجم الرجال» للخضر حسين (ص ١٠٥).

(٢) انظر حلية طالب العلم للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد رحمه الله تعالى.

(٣) مقدمة تلاوة القرآن المجيد للشيخ عبدالله سراج الدين، وعنه منهج التربية النبوية للأطفال محمد نور بن عبدالحفيظ السويد (٢٣٢).

(٤) تنوير المقالة (١/١١٦).

إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب كان ذلك له عوناً كبيراً على مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك وهو أمر قريب على من قربه الله ﷻ عليه، ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ فيها يصل الطالب إلى مراد الله ﷻ في كتابه وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً، وفي سير رسول الله ﷺ تنبيه على كثير من الناسخ والمنسوخ في السنن» اهـ^(١).

ودين الله: أضيف إليه لأنه ارتضاه ولا يقبل من الخلق سواه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلَدَيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٣).

(ما ترجى لهم بركته) الرجاء: تعلق القلب بما يطمع في حصوله مع بذل سبب التحصيل وإلا فطمع، والبركة: الخير المتدارك الزائد، والمتكاثر النافع، ولا شك أن من حفظ كتاب الله تعالى وطلب العلم وعمل به فهو مبارك، (وتحمد لهم عاقبته) والعاقبة: ما يؤول إليه الأمر من خير وغيره والمراد ما يحصل لهم من الخير العظيم والنفع العميم والرفعة في الدارين (فأجبتك إلى ذلك) ولبييت مرادك (لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله) فقد صحح عن النبي ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٤)، وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَرْبَعَةٌ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أَجُورُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ: مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ عَلَّمَ عِلْماً أُجْرِي لَهُ أَجْرُهُ مَا عَمِلَ بِهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهَا يَجْرِي لَهُ مَا جَرَتْ،

(١) جامع بيان العلم وفضله (٣٢٢/٢) ط/ مؤسسة الريان - دار ابن حزم الطبعة الأولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٣هـ.

(٢) الآية (١٩) من سورة آل عمران.

(٣) الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

(٤) أخرجه أحمد ٥٨/١ (٤١٢) و«البُخَارِي» ٢٣٦/٦ (٥٠٢٧) و«أبو داود» ١٤٥٢ و«التِّرْمِذِي» ٢٩٠٧ و«ابن ماجه» ٢١١ و«التَّسَائِي» في «الكبرى» (٧٩٨٢) من حديث عثمان رضي الله عنه.

وَرَجُلٌ تَرَكَ وَلَدًا صَالِحًا، فَهُوَ يَدْعُو لَهُ» رواه أحمد والطبراني في الكبير^(١).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «معلم الخير ومتعلمه يستغفر لهم كل شيء حتى
الحوث في البحر» رواه الدارمي، وابن أبي شيبه^(٢). (أو دعا إليه) لقوله
تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣) وقوله ﷺ: «والدال على الخير كفاعله»^(٤)، «لئن
يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُرِ النَّعَمِ»^(٥).

قال المصنف: (واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب
للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره
الراغبون، إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبههم على
معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين
قلوبهم، وتعمل به جوارحهم).

واعلم يؤتى بها لإرادة تنبيه السامع، ولفت انتباهه لما يلقي إليه من
أمر مهم، والأمر المهم هو تنبيهه للاعتناء بالأولاد في سن الطفولة وقد كرره
لأهميته، فهو أفضل عمل يعنى به أي يهتم به المخلصون في نصحتهم،
وتشتد رغبة الخيرين في التنافس إليه، فغرس الخير في قلوبهم أرسخ من
غيرهم، وتأثيره فيهم أشد.

(١) أخرجه أحمد ٢٦٠/٥ و(٢٢٦٠٢) و٢٦٩/٥ و(٢٢٦٧٥) وقال الهيثمي في المجمع
(٤٠٩/١): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط والبخاري وفيه ابن لهيعة ورجل لم
يسم. وقال الألباني: (حسن)، انظر حديث رقم: ٨٧٧ في صحيح الجامع، وصحيح
غيره كما في صحيح الترغيب والترهيب (١١٤).

(٢) الدارمي في مسنده (٣٦٣/١)، ومصنف ابن أبي شيبه (٧٢٨/٨).

(٣) الآية (٣٣) من سورة فصلت

(٤) رواه أحمد والترمذي من حديث أنس رضي الله عنه (٢٦٧٠) وأبو داود من حديث
أبي مسعود الأنصاري بلفظ يقارب (٥١٣١) وصححه الألباني (صحيح) انظر حديث
رقم: ١٦٠٥ في صحيح الجامع.

(٥) متفق عليه، أخرجه أحمد ٣٣٣/٥ و(٢٣٢٠٩) و«البخاري» ٥٧/٤ (٢٩٤٢) و«مسلم»
١٢١/٧ (٦٣٠٢).

وخير بمعنى أخير وهو أفعال تفضيل وحذف همزته أكثر من إثباتها في التفضيل.

قال ابن مالك رحمه الله تعالى في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم أخير منهم وأشر

وقال المختار ابن بونة رحمه الله تعالى في ألفيته:

وحذف همز أخير هنا كثير أشر هكذا وهنأ قد نزر

وخير الثانية ضد الشر؛ أي اعلم أن أفضل القلوب ما كان وعاء للخير، لم تدنسه الخطايا، فالقلوب أوعية والآذان مقامع ترمي إليها، والولد كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه...» مالك، والشيخان^(١)، وكما قال الأول:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وقلوب أولاد المؤمنين لترعرعهم بين آباء مسلمين وأمهات مسلمات أولى القلوب بهذا الخير والسبق إليه، فإن من سبق إليه الشرُّ احتاج إلى إزالته كما تزال الأوساخ والأقذار قبل صبغ الدار، وفي ذلك مشقة وأكدار، والولد إذا نشأ في بيئة علمية شرعية سهل انقياده، وتوجيهه وإرشاده:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عودُه أبوه
وما دان الفتى بحجّجى ولكن يُعوّده التّديّن أقرّبوه^(٢)

وقال آخر:

قد ينفع الأدب الأحداث في مهلٍ وليس ينفع بعد الكبرة الأدب

(١) أخرجه مالك الموطأ (١٦٥)، وأحمد (٢/٢٤٤) (٧٣٢١) والبخاري (١١٨/٢) (١٣٥٩) و٦/١٤٣ (٤٧٧٥) ومسلم ٨/٥٤ (٦٨٥٨).

(٢) البيتان لأبي العلاء.

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوْمَتَهَا اَعْتَدَلَتْ وَلَنْ تَلِينَ إِذَا قَوْمَتَهَا الْخُشْبُ

يقول الغزالي رحمه الله تعالى: الصبيّ أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة ساذجة، خالية من كل نقش وصورة؛ وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة أبواه، وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه والوالي له.

والمعالم: جمع معلم وهو في اللغة الأثر الذي يستدل به على الطريق، والمراد بها هنا قواعد الإسلام الخمس بدليل إضافتها إلى الديانة.

(فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله) أورد المؤلف ثلاثة أحاديث تدل على فضيلة تعليم الصغار أولها: روي أي عن النبي ﷺ وصيغته مشعرة بالتضعيف بل الحديث ضعيف، رواه ابن عدي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً^(١)، وقد ضعفه الذهبي في ميزان الاعتدال^(٢)، وأقره الحافظ في اللسان^(٣)، وقبلهما أورده الحافظ ابن الجوزي في الموضوعات، وصححه السيوطي ولعل ذلك لوجود متابع لابن أبي علاج في شيخه سفيان^(٤)، ولا شك أن تلاوة كتاب الله وتجويده والعمل به سبب عظيم من أسباب دفع البلاء وحلول البركات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥)، والثاني: (وأن تعليم شيء في الصغر كالنقش في الحجر)، إشارة لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حفظ الغلام الصغير كالنقش في الحجر، وحفظ الرجل بعد

(١) الكامل لابن عدي (٢١١/٤) ط/ دار الفكر، وقال: وهذا عن ابن عيينة بهذا الإسناد لا أعلم رواه عنه غير ابن أبي علاج هذا وهو منكر.

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي (٦٣/٤) ط/ العلمية، وقال: هذا كذب بين.

(٣) لسان الميزان (٤/ ٤٣٨): تحقيق عبدالفتاح أبو غدة دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية.

(٤) مسالك الدلالة للغماري (١٠ - ١١).

(٥) الآية (٩٦) من سورة الأعراف.

ما يكبر كالكتاب على الماء» أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء،
والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع والفقير والمتفكر كلاهما
للخطيب البغدادي^(١).

قال الشاعر:

إذا أنت أعيك التعلم ناشئاً فمطلبه شيخاً عليك شديد

وقال بعض الشعراء:

ما الحلم إلا بالتعلم في الكبر وما العلم إلا بالتعلم في الصغر
ولو ثقب القلب المعلم في الصبا لألفت فيه العلم كالنقش في الحجر

وقال علقمة: «ما حفظت وأنا شاب، فكأنني أنظر إليه في قرطاس أو
ورقة».

قال السخاوي في المقاصد^(٢): وهذا محمول على الغالب، وإلا فقد

(١) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٢ / ٨٥): موضوع. أورده السيوطي
في «الجامع» من رواية الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء. وقال الشارح المناوي:
«قال المصنف في «الدرر»: سنده ضعيف، وقال الهيثمي: فيه مروان بن سالم
الشامي، ضعفه الشيخان وأبو حاتم. قلت أي الألباني: البخاري ضعفه جداً فقد قال
فيه: «منكر الحديث». وكذلك قال مسلم وأبو حاتم، وقد سبق أن ذكرنا أن من قال
البخاري فيه: «منكر الحديث» فلا تحل الرواية عنه، ولذلك فإن الاقتصار على
تضعيف الرجل قصور، وكذا الاقتصار على تضعيف حديثه، فإنه يفتح الباب لمن لا
علم عنده أن يستشهد به، مع أنه من المتفق عليه أن الحديث إذا اشتد ضعفه لا
يجوز أن يستشهد به. وأنا أرى أن هذا الحديث موضوع، لأن ابن سالم هذا متهم
كما يشير إلى ذلك قول البخاري فيه: «منكر الحديث». ويؤيده قول أبي عروبة
الحراني: «كان يضع الحديث». وقول الساجي: «كذاب يضع الحديث». وقال ابن
حبان (٢ / ٣١٧): «يروى المناكير عن المشاهير، ويأتي عن الثقات بما ليس من
حديث الأثبات». والحديث روي من حديث أبي هريرة بلفظ آخر، وهو: «من تعلم
العلم وهو شاب كان بمنزلة وسم في حجر، ومن تعلمه بعد كبر فهو بمنزلة كتاب
على ظهر الماء».

(٢) المقاصد الحسنة للسخاوي (٢٨٨) دار الهجرة بيروت ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

اشتغل أفراد كالفقَالَ والقُدوري بعد كبرهم ففاقوا في علمهم وراقوا بمنظرهم.

روى البخاري في صحيحه معلقاً من حديث عمر رضي الله عنه قال: «تفقهوا قبل أن تُسَوِّدُوا»^(١)، قال البخاري: «وبعد أن تسودوا». وبوّب رحمه الله تعالى في صحيحه: «باب تَعْلِيمِ الصُّبَّانِ الْقُرْآنِ».

قال العلامة شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: «وقد رأوا أن حافظة الصَّغِيرِ قوِيَّةِ الوَعْيِ لما يودع فيها، وأنَّ فهم الكبير يحول تدريجاً بينه وبين الاستكثار من الحفظ، فرأوا أن يزودوا حوافظ الصغار بالقرآن وألفاظ متون العلوم بدون إفهام، ثم يكرّون على ذلك بالتدريس للإفهام، وقد أشار إلى هذا المقصد أبو علي ابن سينا في أرجوزته المنطقية، إذ قال في ديباجتها يخاطب أخاه علي ابن سينا ويحرضه على حفظ ذلك:

«فيا عليُّ اجعله ظهرَ القلبِ حتى إذا بلغتَ سنَّ اللَّبِّ
عَقَلْتَ فاستَظْهَرْتَ منه عَقْلاً وصِرْتَ للخيرِ الكثيرِ أهلاً»^(٢)

(وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به) إذ ضمنها من الآيات والأحاديث والفقهِ السديد مما يرجى أن ينتفع به حافظه، وينال الشرف الرفيع حامله، ويسعد به بإذن الله تعالى معتقده والعامل به، والعلم شرف للفتى وأي شرف قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣)، قال زروق: وقد حقق الله تعالى له ذلك فلا يعتني بها أحد علماً وعملاً إلا كان غنياً أو عالماً أو رئيساً أو صالحاً أو أحدهما أو اثنين أو ثلاثة منها وقد ذكر ذلك الشيوخ وعزوه للاستقراء فإنه طريقة، وبالله التوفيق.

(١) أثر عمر أخرجه ابن أبي شيبة وغيره، وإسناده صحيح كما في الفتح (١/٢٠٠).

(٢) أليس الصبح بقريب للطاهر بن عاشور (٥٠) تحت باب مناهج التعليم. ط/ دار السلام ١٤٢٨ - ٢٠٠٧.

(٣) الآية (١١) من سورة المجادلة.

ورحم الله الألبيري إذ يقول في قصيدته الماتعة والتي مطلعها:

تفت فؤادك الأيام فتاً:

أبا بكر قد دعوتك لو عقلت إلى ما فيه حظك لو عرفتا
إلى علم تكون به إماماً مطاعاً إن أمرت وإن نهيتا

والحديث الثالث:

(وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع)، من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»، رواه أبو داود والترمذي^(١)، المضاجع: أي: المرافق. وفي الحديث منهج تربوي نبوي فريد حيث يؤمر الصبي بالصلاة لتحسن صلته بينه وبين المنعم عليه وهو خالقه فيتعلق به من صباه، ويؤدب إن تراخى عن أدائها إذا بلغ البرزخ الفاصل بين الصبا والبلوغ وهو عشر سنين ضرباً للتأديب لا للتعذيب، ليعرف قدر المربي الشفيق، والناصح الرفيق، قال الخطابي رحمه الله تعالى: قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا يَدُلُّ عَلَى غِلَظِ الْعُقُوبَةِ لَهُ إِذَا تَرَكَهَا مُدْرِكاً، وَكَانَ بَعْضُ فُقَهَاءِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ يَحْتَجُّ بِهِ فِي وُجُوبِ قَتْلِهِ إِذَا تَرَكَهَا مُتَعَمِّداً بَعْدَ الْبُلُوغِ، وَيَقُولُ إِذَا اسْتَحَقَّ الصَّبِيَّ الضَّرْبَ وَهُوَ غَيْرُ بَالِغٍ فَقَدْ عَقَلَ أَنَّهُ بَعْدَ الْبُلُوغِ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الضَّرْبِ، وَلَيْسَ بَعْدَ الضَّرْبِ شَيْءٌ مِمَّا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ»^(٢).

وهل أمر الوالدين للصبي بالصلاة واجب في حقهم أم مندوب، قال النفراوي: «وأمر الشارع للولي أمر ندب على المشهور، وليس الخطاب

(١) أخرجه أحمد ٤٠٤/٣ (١٥٤١٤) و«الدارمي» ١٤٣١ و«أبو داود» (٤٩٤)، و«الترمذي» ٤٠٧. والحاكم (٩٤٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم.

(٢) عون المعبود (١٦٢/٢) كتاب الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة.

للصبي لأنه غير مكلف، والخطاب من الشارع إنما يكون للمكلفين، وعلى ما قلنا: إنه المشهور لو ترك الولي أمر الصبي لا إثم عليه لأنه إنما ترك مندوباً، والتارك له لا إثم عليه، ومقابل المشهور قول ابن بطال: أمر الشارع للولي أمر إيجاب على الولي، وعليه إن لم يأمر الولي الأولاد يأثم بترك الواجب عليه ويكون أمرهم بالكلام ابتداء ثم بالتهديد والتخوف بالضرب لا بالشم^(١).

قال في المراقي:

والأمر للصبيان ندبه نمي لما رووه من حديث خثعم

ثم يفرق بينه وبين إخوانه وأخواته لثلا يفضي المضجع إلى سوء الأدب، وما لا تحمد عقباه عند أهل الرتب، حتى ولو كان من في المرقد بنات، قَالَ الْمُنَاوِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ شَرَحَ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ: أَي فَرَّقُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي مَضَاجِعِهِمُ الَّتِي يَنَامُونَ فِيهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا حَدْرًا مِنْ عَوَائِلِ الشَّهْوَةِ إِنْ كُنَّ أَحْوَاتٍ. قَالَ الطَّيْبِيُّ: جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالْفَرْقِ بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ فِي الطُّفُولِيَّةِ تَأْدِيبًا لَهُمْ وَمُحَافَظَةً لِأَمْرِ اللَّهِ كُلِّهِ وَتَعْلِيمًا لَهُمْ وَالْمُعَاشِرَةَ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَأَنْ لَا يَقْفُوا مَوَاقِفَ التُّهْمِ فَيَجْتَنِبُوا الْمَحَارِمَ إِنَّتَهَى^(٢).

(فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم، ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعلمون به من ذلك جوارحهم) فقد شبه رحمه الله تعالى تعليمهم ما ذكر من أعمال الجوارح والقلوب وترويضهم على ذلك كترويضهم على الصلاة وهم أبناء سبع وهو قياس صحيح لا لبس فيه، فإنَّ الطفل إذا صلى قبل العشر أكثر من ثلاثة آلاف صلاة سهل عليه المحافظة عليها يافعاً، ومن شبَّ على لبان العلم صغيراً لم يأت عليه الحلم إلا وهو

(١) الفواكه الدواني (١/ ١٧٨ - ١٧٩).

(٢) عون المعبود (٢/ ١١٥).

عالم منيب، وذاك قوله رحمه الله تعالى: (ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكّن ذلك من قلوبهم... إلخ). ولا التفات لمن قال: إنهم لا يعلمون الصوم ففعل الصحابة مع آبائهم غير خفي في كتب الصحاح والسنن، وكذلك حجهم، وجهادهم، وغير ذلك من أعمال الطاعات، فإن لم يشبوا على هذه الأعمال شبوا على غيرها.

(وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات)، يعني أنه يجب أن يتعلموا ما فرض الله عليهم مما تعلق بعمل القلوب والجوارح.

(وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً، ليقرب من فهم متعلميه إن شاء الله) وقد أنجز حر ما وعد، وأتى بذلك مفصلاً في أبواب بسطها بسطاً تينم عن عالم عامل مرب، كان على قدم السلف في العقيدة والتفقه في الدين والتزكية، وجملتها كما قال لي شيخي العلامة محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي ثمانية عشر ألف مسألة»، في «ثمانية وأربعين ترجمة منها بغير لفظ الباب نحو من ثمانية وبقاياها مبوب، وقوله (إن شاء الله) تعالى تفويض ورجوع لعلم الله وامثال لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْ فَعِلْتُ ذَلِكَ غَدًا ۗ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ﴾ (١).

(وإياه نستخير) أي: ونطلب من الله وحده لا شريك له أن يختار لنا ما فيه الخير، والاستخارة سنة مشروعة وعبادة معلومة كان يعلمها النبي ﷺ أصحابه ويحثهم عليها لما فيها من طلب طريق الخير ممن بيده الخير فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي

(١) الآيتان (٢٣ - ٢٤) من سورة الكهف.

وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةَ أَمْرِي أَوْ: قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَأَقْدُرُهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةَ أَمْرِي أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَأَضْرِفُهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَأَقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ^(١)، وليست الاستخارة ما يفعله بعض الجهال من عقد الأمر بالسبح أو غيرها من أنواع الكهانة، فذلك مسخرة وليست استخارة، فليتق الله أولئك المشعوذون الذين يُلبسون الباطل ثوب الحق ويضحكون على ضعف المسلمين ليأكلوا أموالهم بالباطل، وكلام المؤلف دعاء أن يريه الله طريق الخير فيما يعمل، (وبه نستعين) لا بغيره، وقدم المعمول هنا وفي الذي قبله للحصر؛ والاستعانة طلب العون، ولا يكون على الحقيقة إلا من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) فمن طلب العون ممن لا يقدر عليه ضلّ عن سواء السبيل، ومن وصايا الحبيب ﷺ «وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٣)، (و) قوله (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) فهي تنصّل العبد من الحول والقوة من نفسه والاعتراف بأنه لا حركة ولا سكون ولا ثبات ولا تحول إلا به جل في علاه، وقد وردت «الحوقلة» بدون لفظ العلي العظيم^(٤)، فعن أبي

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٤٤ (١٤٧٦٣) و«الْبَحَّارِي» (١١٦٦) وفي (٦٣٨٢)، وفي الأدب المفرد (٧٠٣) و«أبو داود» (١٥٣٨).

(٢) الآية (٥) من سورة الفاتحة.

(٣) أخرجه أحمد ١/٢٩٣ (٢٦٦٩) والتِّرْمِذِيُّ (٢٥١٦).

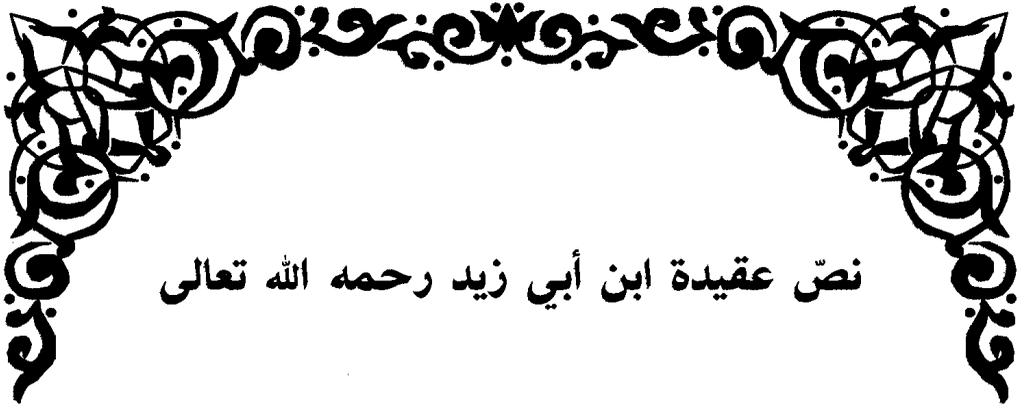
(٤) فائدة عظيمة: قال العلامة الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى في كتاب التأصيل ص (١١): لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم: وردت هذه الصيغة في صحيح مسلم (برقم ٢٦٩٦) وغيره، وأما ختم الحوقلة بهذين الاسمين: «العلي العظيم» فنفي ورودهما ابن علان في «شرح الأذكار» (١/٢٢٥): لكن وردا في: مسند البزار كما في مجمع الزوائد (٤/١٢، رقم ٣٠٧٧)، وتحفة الأبرار للسيوطي (٢٩)، وصيغة ثالثة في كتب السنة «لا حول ولا قوة إلا بالله» [قلت: كما أشرت لها في الصحيح]، وهذه الصيغ الثلاث واردة في الذكر المطلق أما في المقيد كما في إجابة المؤذن عند «الحيعلتين» فيلفظ: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فتحرر أن للحوقلة ثلاث صيغ على حالتين، وانظر: نتائج الأفكار لابن حجر (١/٣٥٩ - ٣٦٢) اهـ.

مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: «ثُمَّ أَتَى عَلِيَّ - أَي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ أَوْ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» رواه البخاري^(١)، قال الحافظ: سَمِيَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَنْزاً لِأَنَّهَا كَالْكَنْزِ فِي نَفَاسَتِهِ وَصِيَانَتِهِ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ^(٢)، ومعنى لا حول: لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوّة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله، وقيل معنى لا حول لا حيلة، وقال التّووي: هي كلمة استسلام وتفويض وأنّ العبد لا يملك من أمره شيئاً وليس له حيلة في دفع شرّ ولا قوّة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى، (وصلّى الله على سيّدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً) وتمّ شرح الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه في آخر باب ما تنطق به الألسنة من كتاب العقيدة بعون الله وتوفيقه.



(١) أخرجه أحمد (٣٩٤/٤)، والبخاري (٦٩/٤)، ومسلم (٧٣/٨).

(٢) الفتح (١٩١/١١) كتاب الدعوات، وشرحها في كتاب القدر.



نص عقيدة ابن أبي زيد رحمه الله تعالى

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أنّ الله إلهٌ واحدٌ لا إلهَ غيره، ولا شبيهَ له، ولا نظيرَ له، ولا ولدَ له، ولا والدَ له، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ له.

ليس لأوليّته ابتداءً، ولا لآخريّته انقضاءً، لا يبلغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الواصفون، ولا يُحيطُ بأمرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بآيَاتِهِ، ولا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَا هِيَ^(١) ذَاتِهِ، ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، ولا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

العالم^(٢) الخبير، المُدَبِّرُ الْقَدِيرُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، وَأَنَّهُ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بَدَاتِهِ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِعِلْمِهِ.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

على العرشِ اسْتَوَى، وَعَلَى الْمُلْكِ اخْتَوَى، وَهُوَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

(١) في نسخة: (مائة).

(٢) في نسخة: (العليم).

والصِّفَاتُ العُلَى، لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ، تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً، وَأَسْمَاؤُهُ مُحَدَّثَةً.

كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ ذَاتِهِ، لَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى لِلجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَيَبِيدُ، وَلَا صِفَةٌ لِمَخْلُوقٍ فَيَنْفَدُ.

وَالِإِيمَانَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلُوهِ وَمُرِّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْرُهُ اللَّهُ رَبُّنَا، وَمَقَادِيرُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصَدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ.

عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ، فَجَزَى عَلَى قَدْرِهِ، لَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبَقَ عِلْمُهُ بِهِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤).

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، فَيُخَذُّهُ بَعْدْلِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَيُؤَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ، فَكَلَّ مُتَسَيِّرٌ بَتَيْسِيرِهِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدْرِهِ، مِنْ شَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ.

تَعَالَى أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، أَوْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَى، أَوْ يَكُونَ خَالِقٌ لِشَيْءٍ إِلَّا هُوَ^(١) رَبُّ الْعِبَادِ، وَرَبُّ أَعْمَالِهِمْ، وَالْمُقَدِّرُ لِحَرَكَاتِهِمْ وَأَجَالِهِمْ.

الباعثُ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنَّذَارَةَ وَالثَّبُوتَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ^(٢)، فَجَعَلَهُ آخَرَ الْمُرْسَلِينَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كَمَا بَدَأَهُمْ يُعُودُونَ.

(١) في نسخة: (إلا هو). الجملة كما في نسخة البابي الحلبي؛ وأما في نسخة دار الغرب تحقيق أبي الأجنان (تعالى أن يكون خالق لشيء إلا هو رب العباد) (ص ٧٧).

(٢) في نسخة: (محمد ﷺ).

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ، وَصَفَحَ لَهُمْ
بِالتَّوْبَةِ عَنِ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ
لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكِبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا
دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

وَمَنْ عَاقَبَهُ اللَّهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ، فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧)، وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ
أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ.

وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ
فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى
أَرْضِهِ، بِمَا (١) سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ.

وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَالْحَدَّ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ، وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَيْتِهِ.

وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًّا؛ لِعَرْضِ
الْأُمَّمِ وَحِسَابِهَا وَعَقُوبَتِهَا وَثَوَابِهَا، وَتَوْضُوعِ الْمَوَازِينِ لِوِزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَمَنْ
ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَيُؤْتَوْنَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ
يَصْلَوْنَ سَعِيرًا.

وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَنَاجُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي
سُرْعَةِ النِّجَاجِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَقَوْمٌ أُؤَبِّقَتْهُمْ فِيهَا أَعْمَالُهُمْ.

وَالْإِيمَانُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَرُدُّهُ أُمَّتُهُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ،
وَيُذَادُ عَنْهُ مَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ.

وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، يَزِيدُ

(١) فِي نَسْخَةِ: (لِمَا).

بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها^(١)، فيكون فيها النقص وبها الزيادة، ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنية^(٢)، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

وأن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يُبعثون، وأرواح أهل الشقاوة^(٣) مُعذبة إلى يوم الدين.

وأن المؤمنين يُفتنون في قبورهم ويُسألون، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٤).

وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه.

وأن خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة^(٥) الخلفاء الراشدون المهديون؛ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ ﷺ أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس، أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب.

والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم^(٦) وعلمائهم، واتباع السلف

(١) في نسخة: (بنقص الأعمال).

(٢) في نسخة: (وأنه لا قول ولا عمل إلا بنية).

(٣) في نسخة: (الشقاء).

(٤) الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.

(٥) في نسخة: (أصحابه).

(٦) في نسخة: (أمرهم).

الصَّالِحِ واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين،
وترك كل ما أحدثه المُحدثون.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ [نبيِّه] ^(١)
وعلى آله وأزواجه وذريته، وسلِّم تسليماً كثيراً ^(٢).



(١) ما بين المعقوفين زيادة من نسخة.
(٢) من النسخة التي حققها الشيخ عبدالمحسن العباد حفظه الله تعالى ونفع به. من كتابه
قطف الجنى الداني.

نظم العقيدة للقلوي مع الإشارة إلى ما خالف فيه الناظم المصنف

وَالثُّطُقُ بِاللِّسَانِ بِاسْتِشْهَادِ
لَيْسَ لَهُ شِبْهٌ وَلَا نَظِيرُ
وَوَالِدٍ وَعَنْ شَرِيكِ انْفِرْدُ
وَلَا لِأَخْرِيَّةِ انْقِضَاءُ
وَلَمْ يُحِطْ بِأَمْرِهِ مُفَكَّرُ
وَمَا لَهُ تَفَكُّرٌ فِي ذَاتِهِ
سُبْحَانَهُ مِنْ مَالِكٍ عَلِيٍّ
وَهُوَ السَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ وَالْكَبِيرُ
بِعِلْمِهِ جَلَّ عَنِ التَّقْيِيدِ
يَعْلَمُهُ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ
صِفَةٌ عِلْمٍ مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى
وَبِالصُّفَاتِ الْعَالِيَاتِ يُسْنَى
حَقِيقَةُ الْقَدَمِ وَالْبَقَاءِ
صِفَتُهُ لَا خَلْقُهُ فَاتَّخِذْ
فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِ اللَّهِ جَلَّ
مَخْلُوقٌ أَوْ وَصَفٌ لِمَخْلُوقِ الْبِلَا
خَيْرٍ وَشَرِّهِ كَمَا فِي الْخَبَرِ

وَيَجِبُ الْإِيْمَانُ بِالْفُؤَادِ
أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ قَدِيرُ
وَجَلَّ عَنْ صَاحِبَةٍ وَعَنْ وَلَدٍ
لَيْسَ لِأَوْلِيَّتِهِ ابْتِدَاءُ
لَمْ يَدْرِ كُنْهَ وَصْفِهِ مُخْبِرُ
ذُو الْفِكْرِ يَعْتَبِرُ فِي آيَاتِهِ
فَهُوَ كَمَا فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ
وَهُوَ الْخَبِيرُ وَالْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ
وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ
وَمَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُ الْمُرِيدِ
وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ حَوَى
وَهُوَ لَهُ الْمُلْكُ وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
وَلِصِفَاتِهِ وَلِلْأَسْمَاءِ
كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي
وَلَا تَكَيْفُ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ
أَمَّا الْقُرْآنُ فَكَلَامُ اللَّهِ لَا
وَوَاجِبٌ إِيْمَانُنَا بِالْقَدْرِ

وَالْكُلُّ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَلَا
عِلْمَ كَلًّا قَبْلَ كَوْنِهِ وَلَا
وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ رَبُّ خَلْقًا
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ
كُلُّ مُيَسَّرٍ إِلَى مَا سَبَقَا
لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا يُرِيدُهُ وَمَا
خَلَقَ كُلَّ الْخَلْقِ وَالْأَعْمَالَ
وَبَعَثَ الرُّسُلَ إِلَى الْعِبَادِ
وَبِرَسُولِنَا الَّذِي اخْتَارَهُ
فَجَاءَ آخِرَهُمْ بِشِيرَا
عَلَيْهِ أَنْزَلَ كِتَابَهُ الْحَكِيمِ
وَقَدْ هَدَى بِهِ
وَأَنَّهُ لَا رَيْبَ فِي الْقِيَامَةِ
وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَثُرَا
وَقَدْ تَجَاوَزَ لَهُمُ بِالتَّوْبَةِ
صَغِيرَةً تُغْفَرُ بِاجْتِنَابِ
وَفِي الْمَشِيئَةِ الَّذِي لَمْ يَثْبُ
وَمَنْ يُعَاقَبْ مِنْ ذَوِي الْإِيمَانِ
وَبِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ يَخْرُجُ
وَالْجَنَّةُ الَّتِي أَعَدَّتْ مَخْلَدًا
وَأَنَّهُ أَكْرَمَهُمْ بِالنَّظَرِ
وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَا
وَالنَّارُ دَارُ مَخْلَدٍ لِمَنْ كَفَرَ
وَهُمْ عَنِ الرَّؤْيَةِ مَحْجُوبُونَ
وَجَاءَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا

يَضُدُّ إِلَّا عَنِ قَضَائِهِ عَلَا
يَجْهَلُ قَوْلًا لِلْوَرَى وَعَمَلًا
وَهُوَ اللَّطِيفُ وَالْخَبِيرُ مُطْلَقًا
نَعَمْ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ
فِي عِلْمِهِ مِنْ سَعْدًا أَوْ ذِي شَقَا
لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَا فَعَمَّمَا
وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَجَالَ
لِحُجَّةِ تَقَامٍ فِي الْمِيعَادِ
خَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ وَالنُّذَارَةَ
وَدَاعِيَاءَ وَقَمَرًا مُنِيرَا
ثُمَّ بِهِ شَرَحَ دِينَهُ الْقَوِيمِ
الصُّرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ
وَبَعَثَ مَنْ يَمُوتُ بِالْعَلَامَةِ
لِلْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ مُخْبِرَا
عَنِ الْكَبَائِرِ وَكُلِّ حَوْبَةٍ
كَبَائِرِ بِالنَّصِ فِي الْكِتَابِ
مِنَ الْكَبَائِرِ وَذُو الشُّرْكِ أَبِي
يَخْرُجُ مِنَ النَّيْرَانِ لِلْجَنَانِ
أَهْلُ الْكَبَائِرِ فَفِيهَا الْفَرْجُ
لِلْمُؤْمِنِينَ حَتَّمُ أَنْ تَعْتَقِدَا
فِيهَا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ الْمُسْفِرِ
نَبِيَّهِ بِسَابِقِ اللَّذِّ عَلِيمَا
بِهِ وَالْحَدَّ بِمَا مِنْهُ ظَهَرُ
وَمِثْلُهَا فِي الْعُظْمِ لَنْ يَكُونَ
لِلْعَرَضِ وَالْحِسَابِ مَنْ لَا يَخْفَى

وَالْوَزْنَ لِلْأَعْمَالِ بِالْمِيزَانِ
 وَصُحُفُ الْأَعْمَالِ بِالْيَقِينِ
 وَحَقُّ الصُّرَاطِ كُلِّ جَائِزُ
 تَفَاوُتُوا بِسُرْعَةِ النَّجَاةِ
 وَحَوْضُهُ تَرِدُهُ الْأُمَّةُ لَا
 وَإِنَّمَا يُذَادُ عَنْهُ كُلٌّ مِّنْ
 وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ
 يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ بِالْأَعْمَالِ
 بِعَمَلٍ وَلَا يَصِحَّاحَانِ بِلَا
 وَلَا يُكْفَرُ أَحَدٌ بِذَنْبِي
 وَالشُّهَدَاءُ يُرْزَقُونَ أَحْيَا
 نَاعِمَةٌ وَرُوحٌ ذِي الشَّقَاءِ
 وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْقُبُورِ فُتِنُوا
 وَأَنَّ لِلْعَبْدِ كِرَامًا حَفِظَهُ
 وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِظْهَارِ
 وَمَلَكَ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلَ بِهِ
 وَأَفْضَلُ الْقُرُونِ قَرْنُ الْمُصْطَفَى
 وَأَفْضَلُ الْأُمَّةِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ
 بَكَرٍ يَلِيهِ عُمَرُ ثُمَّ يَلِي
 وَلَا يَجُوزُ ذِكْرُ شَخْصٍ مُّقْتَنِي
 وَيَجِبُ الْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ
 أَحْسَنُ مَخْرَجٌ لَهُمْ وَأَنْ يَظُنَّ
 وَطَاعَةُ الْوُلَاةِ قُلٌّ وَالْعُلَمَاءُ
 وَأَقْتَفِ آثَارَهُمْ وَاسْتَغْفِرِي
 وَالتَّرْكُ لِلْمِرَاءِ جَحْدُ الْحَقِّ مَعَ

حَقٌّ وَأَفْلَحَ دَوُو الرُّجْحَانِ
 فَآتِنَا اللَّهُمَّ بِالْيَمِينِ
 بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ الْفَائِزُ
 وَقَوْمٌ أُوْبِقُوا بِالسَّيِّئَاتِ
 يَظْمَأُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ مُسْجَلًا
 بَدَلٌ أَوْ غَيْرَ سِرًّا أَوْ عَلَنَ
 وَعَمَلُ الْأَعْضَا وَإِخْلَاصُ الْجَنَانِ
 وَالْقَوْلُ بِالْإِيمَانِ ذُو كَمَالِ
 قَصْدٍ وَلِلْسُنَّةِ كُلِّهَا تَلَا
 مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ أَنَّبِي
 وَرُوحٌ مَنْ سَعِدَ نَالَتْ بُغْيَا
 عَذَابُهَا بَاقٍ إِلَى اللَّقَاءِ
 يُثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 تَكْتُبُ مَا عَمِلَهُ وَلَقِظَهُ
 بِهِمْ تَعَالَى عَالِمِ الْأَسْرَارِ
 يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ
 مَنْ آمَنُوا فَمَنْ قَفَا فَمَنْ قَفَا
 وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ أَبِي
 عُثْمَانُ وَالتَّالِيهِ فِي الْفَضْلِ عَلَيَّ
 صُحْبَتَهُ إِلَّا بِذِكْرِ حَسَنِي
 بَيْنَهُمْ فَهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُرَى
 أَحْسَنَ مَذْهَبٍ لَهُمْ فَهُوَ الْحَسَنُ
 وَالسَّلَفَ الصَّالِحَ فَاتَّبِعْ مُسْلِمًا
 لَهُمْ جُزُوا خَيْرًا وَسَبِّهِمْ ذَرِي
 ظُهُورِهِ وَلَا تُجَادِلْ ذَا بَدْعِ

وَتَرَكُ مَا أَحَدَتْ مُحَدِّثُونَا مِمَّنْ بَغَيْرِ الْحَقِّ يَنْفُثُونَا



باب ما تنطق به الألسنة، وتعتقده الأفئدة، من واجب أمور الديانات^(١)

مقدمة حول العقيدة الإسلامية عبر القرون:

لقد بدأ المصنف رحمه الله تعالى في بيان ما وعد بالكلام عليه من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة كالنطق بالشهادتين وكل ما يجب على المكلف الإتيان به نطقاً، وما تعتقده القلوب، وتكنه الأفئدة من الاعتقاد الجازم الواثق الذي لا يخالطه شك ولا ريب، والمطابق للدليل الشرعي والفطري والعقلي كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وكل ما وجب على العبد المكلف اعتقاده من أمور الدين وتوحيد رب العالمين، ثم ما وجب على الجوارح عمله والتخلق به من السلوك الصالح، وقد يكون من نافلة القول أن ما أورده المصنف هنا كان في سلف هذه الأمة من صحابة وتابعين

(١) قال الشيخ عبدالمحسن العباد في كتابه «قطف الجنى الداني شرح مقدّمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني»: وكان من بين هذه المختصرات مقدّمة الإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي لرسالته ومقدّمة رسالته على طريقة السلف مختصرة مفيدة والجمع بين الأصول والفروع في كتاب واحد نادر في فعل المؤلفين وهو حسن يجعل المشتغل في فقه العبادات والمعاملات على علم بالفقه الأكبر الذي هو العقيدة على طريقة السلف. وهي مع وجازتها وقلة ألفاظها تبين بوضوح العقيدة السليمة المطابقة للفترة المبنية على نصوص الكتاب والسنة وهي شاهد واضح للمقولة المشهورة: إن كلام السلف قليل كثير البركة وكلام المتكلمين كثير قليل البركة.

أمر مقرر في صدورهم دون الحاجة إلى تدوينه، فالعربي بسليقته ذكي القلب يفهم ما يتنزل من التشريع، «لأنه نزل بلغته العربية وفق نظمها البيانية المعلومة لدى أهلها كما أنه جاء على أعلى مستويات البيان في هذه اللغة باعتراف أتباعه وكثير من أعدائه، مما يجعله أوضح كلام في اللغة العربية لدى العارفين بها»^(١)، وقبل ذلك فطرته المشرقة التي تنطبع فيها تجليات معرفة الخالق من خلال عيشه في بيئة بسيطة تتراءى له فيها صنعة الحكيم العليم، والخالق المبدع، ولم يعرف الصدر الأول للتصنيف سبيلاً لا سيما في أمر مسلم من أمور الاعتقاد وما ورد لديهم من تساؤلات كانوا يطرحونها للنبي ﷺ فيجيبهم إجابة شافية تزيح عن قلوبهم دخان الشكوك وتفرغ عليها برد اليقين، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال «أوقد وجدتموه» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان»^(٢).

وروى أبو داود بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: فَقَالَ: إِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي الشَّيْءَ، لَأَنْ أَكُونَ حُمَمًا أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَاسَةِ»^(٣).

إضافة إلى أنه كان رضي الله عنه ينهاهم عن الخوض بعقولهم فيما لا طاقة لهم

(١) انظر مناهج البحث في العقيدة الإسلامية للدكتور عبدالرحمن بن زيد الزيندي (ص ٤١٦ ط/دار إشبيلية).

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان الباب الستون (١١٩/١) وأبو داود (٥١١١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٥/١) (٢٠٩٧) وأبو داود (٥١١٢)، وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٦٧)، قال الألباني: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الصحيح على ضعف يسير في حماد وهو ابن أبي سليمان الأشعري مولاهم الكوفي الفقيه من شيوخ أبي حنيفة رحمه الله تعالى والحديث أخرجه أبو داود وأحمد وعن زر بن عبد الله الهمداني عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس به قلت (الألباني): وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. انظر ظلال الجنة حديث رقم (٦٥٨).

به، ولا إحاطة لأفكارهم القاصرة به كقصور العين عن استيعاب أشعة الشمس المتدفقة فقد قال «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا»^(١)؛ ونهاهم عن التناظر في القدر، وغضب ﷺ غضباً شديداً من فعلهم^(٢).

«وقد كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن أمر العبادات وما يتعلق بها مما لله تعالى فيه أمر أو نهي كما سأله عن أحوال القيامة والجنة والنار، ولم يكن أحدهم يسأله عن معنى ما وصف الله به نفسه في كتابه وبما أوحى إليه من الصفات الإلهية، كما أن أحداً منهم لم يفرّق في الصفات بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا لله تعالى صفات أزلية تليق بجلال الله تعالى وعظمته، فأطلقوا ما أطلقه الله تعالى على نفسه الكريمة مع نفي مماثلة المخلوقين، ولم يتعرّض أحد منهم إلى تأويل شيء من هذا.

ولم يكن أحد منهم يستدلّ على وحدانية الله تعالى وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ بغير كتاب الله تعالى، وما عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا المناهج الفلسفية المتأخرة»^(٣).

ويقول طاش كبري زادة: «الصحابة رضوان الله عليهم كانوا زمن النبي ﷺ على عقيدة واحدة؛ لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام، وهكذا إلى زمن انقراض الصحابة ﷺ»^(٤).

وقد تتبع المقرئ - رحمه الله - نشأة هذه البدع ورصد سيرها منذ حدوث القول بالقدر وتبرؤ عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - من أصحاب هذه

(١) صححه في السلسلة الصحيحة ١٧٨٨/٤.

(٢) كما في صحيح مسلم (٢٠٥٣/٤).

(٣) انظر الخطط المقرئية (٣٠٩/٣ - ٣١٠)، وإعلام الموقعين (٤٩/١) مفتاح السعادة: ١٤٣/٢ التفكير الفلسفي في الإسلام ص (١١٩ - ١٢٦).

(٤) مفتاح السعادة الكبرى لطاش كبري زادة (١٤٣/٢). نقلاً عن مناهج البحث في العقيدة الإسلامية (٤٤١).

البدعة، وحدث أيضاً في زمنهم: مذهب الخوارج وقد ناظرهم ابن عباس رضي الله عنه وأقام عليهم الحجة.

وحدث في زمنهم مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والغلو فيه، وقام في زمنه عبدالله بن سبأ وأحدث القول بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بالإمامة من بعد ما ابتدع القول بالرجعة بعد موته... ومنه تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة.

وإن سلم أحد من الناس من فتنة الابتداع في الدين فما هم إلا تلاميذ محمد صلى الله عليه وسلم الذين يجب الاقتداء بهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في إرشاده أمته عند افتراق الأمة وتعدد الفرق؛ فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ما أنا عليه وأصحابي» رواه الترمذي^(١)، وقال كما في حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبو داود^(٢). وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «من كان مُسْتَنَّاً فَلْيَسْتَنَّ بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة. أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»^(٣).

وقال الشافعي رحمه الله تعالى عن الصحابة والتابعين: «هم فوقنا في

(١) الترمذي (٢٦٤١)، قال الألباني: (حسن) انظر حديث رقم: ٥٣٤٣ في صحيح الجامع.

(٢) أبو داود [رقم: ٤٦٠٧] والترمذي [رقم: ٢٦٧٦] وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه ابن عبدالبر في الجامع (١٨١٠/٩٤٧/٢) والهروي في ذم الكلام (ص ١٨٨) عن قتادة عن ابن مسعود رضي الله عنه ولم يسمع منه فهو منقطع، ورواه رزين وانظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي - تحقيق التركي والأرناؤوط (٥٤٦/٢).

كلّ علم وعقل ودين وفضل، وكلّ سبب ينال به علم أو يدرك به هدى،
ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا».

ثمّ حدث بعد عصر الصحابة مذهب جهم بن صفوان في نفي الصفات
وإثارة الشكوك والشبهات.

وفي أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال، وكانت بينهما مناظرات وفتن
كثيرة متعددة أزمتها^(١).

وقيل أنّ أوّل من تكلم في الصفات الحارث المحاسبي، فأنكر عليه
الإمام أحمد رحمهما الله تعالى، قال أبو بكر الصيرفي فيما نقله عنه غير
واحد من العلماء: «كانت المعتزلة رافعي رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري،
فحجرهم في أقماع السمسم»^(٢).

وما دخل القرن الثالث حتى كان أهل البدع قد صار لهم نفوذ سلطوي
في بعض بلاد الإسلام، ودونت كتب ومؤلفات في نصر المعتقدات المخالفة
لسلف الأمة.

فما كان لأهل السنة والجماعة من المذاهب السنية إلا أن يبينوا معتقد
السلف الصالح، ويردوا على أهل البدع والفلاسفة، وتعددت مسميات كتبهم
بحسب ما يبين المقصد الأسنى من معرفة صفات الله تعالى وأسمائه
الحسنى، مع مبدأ الاتباع والتسليم الذي كان عليه الرعيل الأول والرد على
الفرق الضالة، فألف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) كتابه «الإيمان»،
ورد عبدالله الجعفي شيخ البخاري (ت ٢٢٨هـ) على الجهمية، وألف ابن أبي
شيبه (ت ٢٣٥هـ) كتاب الإيمان، والإمام أحمد (ت ٢٤١هـ) كتاب السنة والرد
على الجهمية، والبخاري (ت ٢٥٦هـ) كتاب خلق أفعال العباد، وفي القرن

(١) الخطط المقرزية: ٣/٣١٠ - ٣١٣، ومقدمة أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١٧/١ - ٣٧، وانظر مقالاً لعثمان جمعة ضميرية في مجلة البيان عدد [٥١].

(٢) تبیین کذب المفتری لابن عساکر (٩٤) دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٤. وانظر الفكر السامي للحجوي (١٠٦/٢ - ١٠٧).

الرابع ألف ابن خزيمة (ت ٣١١هـ) كتابه الجليل وسماه التوحيد وألف أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة (٣٢١هـ) عقيدته المشهورة بـ (العقيدة الطحاوية)، وكان من أتباع أبي حنيفة رحمهما الله تعالى، والآجري (ت ٣٦٠هـ) كتاب الشريعة، وابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) مقدمة الرسالة في اعتقاد السلف، وصدر كتابه الجامع بنبذة من اعتقاد السلف وكلاهما مطبوعان، والعكبري ابن بطة (ت ٣٩٥هـ) كتاب الإبانة، وظهر أبو الحسن الأشعري الشافعي - بعد رجوعه عن عقيدة الاعتزال ومروره على عقيدة شيخه الذي كان أقرب إلى أهل السنة في الصفات عبد الله بن سعيد القطان المعروف بابن كلاب^(١)، وأظهر رجوعه عن مذهب الاعتزال والكلابية إلى منهج السلف وذلك فيما ألفه من كتب كـ (الإبانة في أصول الديانة) ومقالات الإسلاميين.

وإليك أسماء من ألف في الاعتقاد السني مقابل البدعي باسم السنة على ترتيب الوفيات ليكون عندك تصور عن تسلسل وقوف العلماء السنيين أمام المد المبتدع، ويطلق السلف: «السنة» على أصول الدين وفرائض الإسلام وأمور الاعتقاد، والأحكام القطعية في الدين، وعلى هذا جرى الإمام أحمد وغيره في تصنيفهم كتب الاعتقاد باسم السنة^(٢)، وعلى هذا فالسنة تطلق عندهم على: «ما سلم من الشبهات في الاعتقادات، خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي مسائل القدر، وفضائل الصحابة»^(٣).

وقد تطلق السنة باصطلاح أعم فتشمل التوحيد وغيره، وهو: «طريقة النبي ﷺ وأصحابه علماء وعملاً، اعتقاداً وسلوكاً، خلقاً وأدباً، وهي السنة

(١) انظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (٢٩٨) وقال عنه الذهبي في السير: «إنه أقرب المتكلمين إلى أهل السنة»، انظر السير (١١/١٧٤) ... عاش إلى ما قبل منتصف القرن الثالث الهجري حوالي ٢٤٠هـ ...

(٢) المدخل لدراسة العقيدة د. إبراهيم البريكان ص ١٢ وعنه صاحب كتاب «مدخل إلى علم العقيدة».

(٣) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة لابن رجب الحنبلي (ص ٢٦ - ٢٨).

التي يجب اتباعها، ويحمد أهلها، ويذم من خلفها»^(١). ويشهد لهذا المعنى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

ومن الكتب في ذلك:

(كتاب السنة) لابن أبي شيبة (٢٣٥هـ)، كتاب السنة للإمام أحمد (٢٤١هـ)، وللإمام ابن هانئ تلميذ الإمام أحمد (٢٧٣هـ)، ولأبي علي حنبل بن إسحاق (٢٧٣هـ)، ولأبي داود السجستاني صاحب السنن (٢٧٥هـ)، ولابن أبي عاصم (٢٨٧هـ)، وعبدالله ابن الإمام أحمد بن حنبل (٢٩٠هـ)، وللمرزوي (٢٩٢هـ).

وممن كتب في العقيدة تحت عنوان (السنة) في القرن الرابع الهجري: أبو بكر الخلال (٣١١هـ)، والطحاوي (٣٢١هـ)، والعسأل الأصفهاني (٣٤٩هـ)، والطبراني (٣٦٠هـ)، وأبو الشيخ الأصبهاني (٣٩٦هـ)، وابن شاهين (٣٨٥هـ)، ومحمد بن نصر المروزي (٣٩٤هـ)، ومحمد بن إسحاق بن منده (٣٩٦هـ)، واللالكائي (٤١٨هـ).

وهذه المصنفات ألفت للحض على اتباع السنة والعمل بها وترك ما حدث بعد الصدر الأول من البدع والضلالة والأهواء مع بيان أصول العقيدة الإسلامية أو جوانب منها^(٣).

ثم ألفت بعد ذلك كتب كان عنوان غالبها «التوحيد» لقباً لهذا العلم، ووجدنا عدداً من العلماء كتب فيه تحت هذا العنوان مثل: (كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب - ﷻ - لابن خزيمة (٣٠٦هـ) و(التوحيد ومعرفة أسماء الله - ﷻ - وصفاته على الاتفاق والتفرد) لابن منده (٣٩٥هـ) و(الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة) للحافظ قوام السنة الأصبهاني (٥٣٥هـ) و(التمهيد لقواعد التوحيد) لأبي المعين النسفي

(١) مباحث في عقيدة أهل السنة د. ناصر العقل ص ١٣.

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) انظر: نموذج من الأعمال الخيرية لمحمد منير الدمشقي ص ٢٥٩.

(٥٠٨هـ)، وهكذا وضعت كتب بهذا العنوان في عصور تالية لن نستقصيها ونحدث عنها لأن ذلك يخرج بنا عما أردناه من إيجاز.

وكذلك ألف باسم العقيدة، وممن ألف في ذلك: وأقدم من عرف ممن استعمل هذه الكلمة عنواناً لما كتبه هو الإمام الحافظ اللالكائي (٤١٨هـ) في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة). ويقع الكتاب في ثمانية أجزاء طبعت بتحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان. وفي القرن نفسه كتب الإمام أبو عثمان الصابوني (٤٤٩هـ) رسالته باسم (عقيدة السلف أصحاب الحديث).

وكتب الجويني (٤٧٨هـ) كتابه (الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد).

وقد سبق كتاب (الحجة في ترك المحجة وشرح عقيدة التوحيد) للحافظ قوام السنة الأصفهاني، وهناك كتب كثيرة تحت هذا العنوان نكتفي بما ذكرناه منها^(١).

وكانوا يقسمون الشريعة إلى أصول وفروع فمن ذلك نشأ مسمى علم التوحيد «بأصول الدين» و«الفقه الأكبر» وقد استخدمه الإمام أبو حنيفة^(٢)، والشافعي في كتابه (الفقه الأكبر) ولم يشتهر وقتها. مقابل «فقه العبادات والمعاملات» وغير ذلك من الكتب لغيرهم، وهكذا تنوعت المسميات والمعنى واحد.

وقد كان الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة على منهج واحد في الاعتقاد وإن اختلفوا في الفروع الفقهية لاختلاف المدارس الاجتهادية، قال الإمام تاج الدين السبكي في مفيد النعم ومبيد النقم: «إن هؤلاء الحنافية

(١) وانظر دراسات بعنوان: العقيدة الإسلامية تاريخ النشأة وعوامل التدوين لعثمان جمعة ضميرية في أعداد من مجلة البيان.

(٢) على أن هناك من زعم أن أبا حنيفة لم يؤلف كتاب الفقه الكبير وإنما ألفه: أبو مطيع البلخي الحكم بن عبدالله وهو ضعيف بل متهم بالوضع في الحديث.

والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة يد واحدة كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون بطريقة شيخ السنة أبي الحسن الأشعري». وقال: «وبالجملة عقيدة الأشعري هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها علماء المذاهب بالقبول، ورضوها عقيدة»^(١).

وقال في طبقات الشافعية الكبرى: «أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل، وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد رحمه الله تعالى واحدة لا شك في ذلك ولا ارتياب»^(٢).

ومن نعمة الله على أهل السنة والاعتقاد السليم أن الله قيض الأشعري الذي كان أخبر الناس بطرق أهل الكلام، فقد قال أبو بكر الصيرفي فيما نقله عنه غير واحد من العلماء: كانت المعتزلة رافعي رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري، فحجرهم في أقماع السمسم»^(٣).

وهل أفصح الأشعري أنه على معتقد السلف؟ نعم، لقد قال في كتابه الإبانة في أصول الديانة^(٤): «قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا ﷺ وسنة نبينا ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم.

(١) مفيد النعم ومبيد النقم (٦٣) المكتبة العصرية سنة ١٤٢٨ - ٢٠٠٧. صيدا بيروت لبنان...

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٤٦).

(٣) الفكر السامي للحجوي (٢/١٠٦ - ١٠٧).

(٤) الإبانة (٢١). وانظر نقل ابن عساكر في تبیین كذب المفتری (١٥٨) باب ما وصف من مجانبيه لأهل البدع وجهاده وذكر ما عرف من نصيحته للأمة وصحة اعتقاده.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاؤوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله ﷻ إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدأ، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق.

وأن الجنة والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (١)، ... وأن له سبحانه وجهاً بلا كيف، كما قال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢).

وأن له سبحانه يدين بلا كيف، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ (٣)، وكما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (٤)، وأن له سبحانه عينين بلا كيف، كما قال سبحانه: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ (٥).

وهذا مطابق لقول الإمام أحمد (٦): (أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله - ﷺ - والافتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة).

وقد نظم ذلك شيخنا العلامة محمد سالم ولد عبدالودود الملقب (ولد عدود) الشنقيطي في بداية نظمه لمختصر سيدي خليل (٧) رحمهما الله تعالى فقال:

(١) الآية (٥) من سورة طه.

(٢) الآية (٢٧) من سورة الرحمن.

(٣) الآية (٧٥) من سورة ص.

(٤) الآية (٦٤) من سورة المائدة.

(٥) الآية (١٤) من سورة القمر.

(٦) رواه اللالكائي في: «شرح أصول أهل السنة». طبقات الحنابلة لأبي يعلى (١/٢٤١ - ٢٤٦).

(٧) وهو نظم رائع للمختصر أوصله إلى ما يزيد عن عشرة آلاف بيت وشرحه ولا زال =

ولست ذاكراً سوى المتفق عليه من قبل نشوء الفرق
مما إليه الأشعري قد رجع متبعاً أحمد نعم المتبع
لا ما يقول من ذا أو ذا انتمى زعماً ولم يسر على ما رسماً

تلك هي العقيدة التي مشت عليها القرون المباركة فماذا جنى ابن
تومت بدعوته على المالكية بل على أهل السنة جميعاً:

تذكر المصادر أن المالكية كغيرهم من أهل السنة والجماعة كانوا على
معتقد السلف ولا أدل على ذلك من كتبهم المدونة قبل دولة الموحدين
البدعية، ولا شاهد أعظم من دولة المرابطين السنية المالكية التي كانت على
معتقد السلف ولكن ما إن تغلب الموحدون على المرابطين، وغر الناس
اسمهم البراق حتى هوت تلك العقيدة بين يدي هؤلاء، لكن من هؤلاء؟:

لقد ظهرت دويلات بعد أن ضعفت قبضة الخلافة الإسلامية بالشرق
على الشمال الأفريقي فظهر هناك العديد من الدول الإسلامية التي أعلن
بعضها استقلالها عنها بينما بقي البعض منها موالياً لها ولاءً صورياً وقد
تباينت اتجاهات ومشارب تلك الدول حيث انقسمت إلى أربعة اتجاهات
رئيسة هي:

١ - الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيرية
الصنهاجية في آخر عمرها.

٢ - الاتجاه الخارجي ويمثله دولتا الرستميين والمدرارين.

= ينقحه منذ عرفنا الشيخ قبل خمس عشرة سنة وفقه الله وسدده ويسر طبعه والنفع به
وقد بدأه الشيخ بعقيدة السلف وهي الأخرى منظومة رائعة. (ولقد انتقل الشيخ إلى
رحمة الله رحمه الله تعالى)؛ وللعلامة الشيخ محمد المامي بن البخاري الباركي
الشنقيطي نظم على مختصر خليل مطبوع، وللشيخ العلامة خليفة القماري الجزائري
نظم على مختصر خليل سمعت أن الشيخ العلامة أحمد باي بلعالم الجزائري يشرحه.
(وقد كتبت هذا الكلام قبل وفاة الشيخ رحمه الله تعالى ثم التقيت به في مكة
شرفها الله تعالى فأخبرني أنه وضع عليه شرحاً فجزاه الله خيراً).

٣ - الاتجاه الرافضي ويمثله دولة العبيديين.

٤ - الاتجاه الاعتزالي ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

وبالإضافة إلى هذه الاتجاهات الرئيسية فقد كان هناك اتجاه خامس هو اتجاه دولة الموحدين والذي كان يجمع بين هذه الاتجاهات وغيرها من الاتجاهات الفكرية الأخرى، إذ أن محمد بن تومرت مؤسس هذه الدولة استقى من جميع هذه المشارب بل زاد عليها ما يرى أنه يخدم ميوله وأهدافه ولهذا جاءت الأسس الفكرية لهذه الدولة خليطاً مضطرباً، ودولة الموحدين أول من وضع أسسها الفكرية هو محمد بن عبدالله بن تومرت الصنهاجي ولد في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري ببلاد المغرب الأقصى وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة مولده.

ادعى ابن تومرت النسب القرشي وأنه من سلالة الرسول ﷺ وقد أقر بعض المؤرخين هذا الادعاء، لكن طائفة أخرى من المؤرخين أنكرت هذا الادعاء وقالت: إن ابن تومرت دعوى فيه فهو من هرغة إحدى قبائل المصامدة البربرية، حيث عرف بمحمد بن تومرت الهرغي كما قال بهذا الرأي من الكتاب المحدثين محمد عبدالله عنان - رحمه الله - إذ يرى أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة وثوب مستعار قصد من ورائها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي التي انتحلها أيضاً شعاراً لإمامته ورياسته.

ولا يشك المتتبع لتاريخ ابن تومرت في كذبه بهذا الادعاء وأنه إنما قال به ليتخذه جسراً يصل عن طريقه لأغراضه وطموحاته، ويتأكد هذا إذا علمنا أن معظم المؤرخين الذين أثبتوا له هذا النسب إنما هم من تلاميذه، أو من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها، وبتأثير من نزعتهم العقديّة الباطلة.

وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته، حيث شرع بتدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة ومن خلال تلك الدروس بث أفكاره بين تلاميذه، وأخذ يعدهم

إعداداً خاصاً فألف لهم كتاباً سماه [كتاب التوحيد] بلسانهم البربري قسمه إلى سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع، وأمرهم بقراءة حزب واحد منه في كل يوم بعد صلاة الصبح، ويحتوي هذا الكتاب على معظم أفكار ابن تومرت والأسس العقيدية لدعوته، ولهذا يذكر ابن أبي زرع أن ابن تومرت قال لتلاميذه: «من لا يحفظ هذا (التوحيد) فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز».

وهكذا كَفَّر ابن تومرت من لا يتعلم مبادئ دعوته، ويعمل بها، ولا شك أن هذا الشطط والمغالاة جعلت الكثير من أتباعه ينصرفون عن الأسس الإسلامية الصحيحة إلى ما يقول به ويدعو إليه، فغالوا في تعظيمه لدرجة العبودية - والعياذ بالله - ومن هنا كانت شرارة تغيير العقيدة من سلفية إلى أشعرية اعتزالية، لا أشعرية سلفية مات عليها مصنفها ومؤلفها^(١).

وظل ابن تومرت مدة عشر سنوات (٥٠٥ - ٥١٥ هـ) ينتقل بين أقاليم ومدن المغرب الأقصى لعرض دعوته على الناس ونشر أفكاره بينهم، فكثر أنصاره ومؤيدوه وذاع صيته بينهم وتعارف الناس به فأضحى خطره يهدد كيان دولة المرابطين حينئذ استدعاه السلطان علي بن يوسف وسأله: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ فأجابه ابن تومرت في قوة بأنه يطلب الآخرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن هذه مسؤولية الحاكم قبل غيره، ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان علي بن يوسف حين سمع ذلك أطرق برأسه إلى الأرض ملياً ثم أمر الفقهاء بمناظرته واختباره، فلما ناظره تبين لهم حقيقة ما يحمله ابن تومرت من آراء ومعتقدات تخالف طريقة أهل السنة والجماعة، فأوصوا السلطان بسجنه سداً للذريعة ودرءاً للفتنة، لكن أحد المرابطين شفع فيه فأمر السلطان بإخراجه من مراكش ولم يسجنه.

وقد تقدم أن ابن أبي زيد ما دون في كتبه إلا عقيدة الأشعري التي

(١) انظر حقيقة دعوة ابن تومرت د. حمد بن صالح السحبياني البيان العدد (١٧) سنة (١٩٨٩) وانظر كلاً من: المراكشي: المعجب ٢٤٥ ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٧٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥٣/٥ ابن السراج: الحلل السندسية ٩٨٥/١.

تلقاها عن أحد تلامذته وهو أبو بكر ابن عبدالمؤمن تلميذ ابن مجاهد البصري الذي بدوره هو تلميذ أبي الحسن، فجاءت هذه العقيدة المباركة نسيجاً متلاحماً أثبت فيه المصنف عقيدة القرون المزكاة.

شرح عنوان كتاب المعتقد:

بدأ المصنف رحمه الله تعالى بهذا الباب العظيم الذي من أصول الدين فقال: (باب) والباب في اللغة هو: فرجة بين شيئين يتوصل به من الداخل إلى الخارج أو العكس، ومن الكتاب: هو عبارة عن قسم يجمع تحته بعض المسائل من جنس واحد، وهذا الباب الذي بدأ به هو:

(ما تنطق به الألسنة) أي في بيان الأمور التي يجب أن تجري على ألسنة الموحدين لله رب العالمين، وأتباع سيد الأولين والآخرين الذي جاءنا بالعقيدة الصافية والشريعة الشافية الكافية، ولم يتركنا في لجج الهوى نتخبط ولا في غياهب ظلمات الشك والشرك نتردد، وأن من لم ينطق به وهو قادر على ذلك فليس بمسلم لأن النبي ﷺ اشترط في دخول الإسلام: النطق بالشهادتين فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويسيروا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(١). وفي لفظ لهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا ودبخوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» إلا أن مسلماً لم يذكر إلا بحق الإسلام، (و) هو الذي يجب أن (تعتقده الأفتدة) أي تنطوي عليه القلوب من أمور الاعتقاد.

معنى لفظ العقيدة:

قال ابن فارس^(٢): (عقد - العين والقاف والذال أصل واحد يدل على

شدٌّ وشدَّةٌ وثوقٌ.

(١) متفق عليه.

(٢) في (معجم مقاييس اللغة) [١٠].

وإليه ترجع فروع الباب كلها.

من ذلك: عقد البناء والجمع أعقاد وعقود... وعقدت الحبل أعقده عقداً، وقد انعقد وتلك هي العقدة، وعاقده مثل عاهدته. وهو العقد، والجمع عقود.

والعقد: عقد اليمين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾^(١).

وعقدة كل شيء: وجوبه وإبرامه.

وعقد قلبه على كذا فلا ينزع عنه.

واعتقد الشيء: صُلب.

واعتقد الإخاء: ثَبَّتَ (...).

وقال الراغب في (المفردات): (العقد: الجمع بين أطراف الشيء).

ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء.

ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع والعهد وغيرهما، فيقال: عاقده وعقدته وتعاقدا وعقدت يمينه (...).

وفي (المصباح المنير): (اعتقدت كذا: عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل: العقيدة ما يدين به الإنسان. وله عقيدة حسنة: سالمة من الشك).

ومن هذه النصوص اللغوية نلاحظ أن مدار كلمة (عقد) على الوثوق والثبات والصلابة في الشيء.

ومن هنا جاء تعريف العقيدة والاعتقاد - كما في المعجم الوسيط - حيث قال: (العقيدة): الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده.

ومن هذا المعنى اللغوي أخذ تعريف العقيدة في الاصطلاح الشرعي:

(١) الآية (٨٩) من سورة المائدة.

(هي الأمور التي يجب أن يصدق بها قلبك وتطمئن إليها نفسك وتكون يقيناً عندك لا يمازجه ريب ولا يخالطه شك)^(١).

فهي إذن اعتقاد جازم مطابق للواقع لا يقبل شكاً ولا ظناً فما لم يصل العلم بالشيء إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة.

وإذا كان الاعتقاد غير مطابق للواقع والحق الثابت ولا يقوم على دليل، فهو ليس عقيدة صحيحة سليمة، وإنما هو عقيدة فاسدة، كاعتقاد النصارى بالتثليث وبألوهية عيسى - ﷺ - .

والناس في هذا الاعتقاد يتفاوتون، وهم في العقيدة على مراتب، كما أن آثار هذه العقيدة تختلف من شخص لآخر حسب ما يقوم به بنفسه منها، واستيقانه بها وفهمه لها وتفاعله معها.

قوله: (من واجب أمور الديانات) الواجب: في اللغة: الساقط والحكم الوجوب أي سقوط الشيء لازماً محلّه، كسقوط الشخص ميتاً فإنه يسقط لازماً محلّه لانقطاع حركته بالموت^(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾^(٣)، أي: سقطت ميتة لازمة محلّها.

ومن ذلك، قوله ﷺ: «فإذا وجب فلا تبكين باكية»^(٤).

ومنه قول الشاعر:

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم عن السلم حتى كان أول واجب^(٥)

ولذلك سمي الواجب واجباً للزومه للمكلف، ويرادفه الفرض

(١) الشيخ حسن البنا - رحمه الله - في تعريف العقائد.

(٢) مذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى ص (١٢).

(٣) الآية (٣٦) من سورة الحج.

(٤) مالك في الموطأ (٩٧/٢)، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (١٣/٤).

(٥) انظر مادة - وجب - في لسان العرب لابن منظور (٢١٦/١٥).

والمحتوم والمكتوب. قال صاحب المراقي: (١)

..... والفرض والواجب قد توافقا
كالحتم واللازم مكتوب

وربما أطلق بعضهم الواجب على السنة المؤكدة، كما سيأتي في كلام
المصنف رحمه الله تعالى.

وإليه أشار صاحب المراقي بقوله:

وبعضهم سمى الذي قد أكدّا منها بواجب فخذ ما قيّدا (٢)

واصطلاحاً: ما أمر الشارع بفعله أمراً جازماً، يثاب فاعله ويستحق العقاب تاركه، إن وجدت الشروط وانتفت الموانع، وذلك كالوضوء والصلاة، وما إلى ذلك من الفرائض المقطوع بفرضيتها ومن أعظمها أمور الاعتقاد، التي داننا الله بها ولذلك قال من أمور الديانات، فذلك فرض على المسلم أن يدين الله تعالى بما سيذكره المصنف من أمور الاعتقاد الجازم.

والديانات: مفردها ديانة وهي ما يُتَعَبَدُ به، ودان بالإسلام ديناً بالكسر، وتَدَيَّنَ به كذلك فهو دَيِّنٌ.

والدين هو حقيقة خارجية جاءت إلى الإنسان من خالقه سبحانه، لتهديه سبيل الرشاد الذي تعجز فطرته - وحدها - عن الاهتداء إليه في مسالك الحياة، والدين من حيث هو تعاليم تتضمن تصورات حقيقية عن الوجود ومنهجاً في التعبد والصلة بالله (٣).

ويشمل الدين أقساماً ثلاثة أخبر بها النبي ﷺ: وهي الإسلام،

(١) انظر نشر الورود للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (١/٥٣).

(٢) نفس المرجع السابق (٢/٥٦).

(٣) مناهج البحث في العقيدة الإسلامية للشيخ عبدالرحمن الزيندي (٤٨٠).

والإيمان والإحسان، كما في حديث جبريل في الصحيح: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١).

الفقرة الأولى:

أصل أصول الإيمان هو توحيد الله تعالى:

قال المصنف رحمه الله تعالى: (من ذلك: الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له).

قال الناظم:

وَيَجِبُ الْإِيْمَانُ بِالْفُؤَادِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ بِاسْتِشْهَادِ
أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ قَدِيرٌ لَيْسَ لَهُ شِبْهُ وَلَا نَظِيرٌ
وَجَلَّ عَنِ صَاحِبَةٍ وَعَنْ وَلَدٍ وَوَالِدٍ وَعَنْ شَرِيكِ انْفَرَدَ

الشرح: قوله:

(من ذلك) أي الواجب (الإيمان) وهو في اللغة: كما قال ابن فارس في مادة (أ م ن): (الهمزة والميم والنون: أصلان متقاربان أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب والآخر: التصديق ومنه قول الله تعالى): ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾^{(٢)(٣)}، وقال ابن منظور: الإيمان: التصديق^(٤) (يعني في اللغة) أما في الاصطلاح الشرعي فذكر كلاماً آخر. ويطلق الإيمان لغة على: الأمن ضد الخوف.

(١) أخرجه أحمد ٢٨/١ (١٩١) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٦) و«مسلم» ٢٨/١

(١) و«أبو داود» ٤٦٩٥ و«الترمذي» (٢٦١٠).

(٢) الآية (١٧) من سورة يوسف.

(٣) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة انظر مادة: أم ن.

(٤) ابن منظور: لسان العرب انظر مادة: أم ن.

وأما في الاصطلاح فإن: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وثبت إجماعهم على ذلك. وهو قول المصنف في الرسالة كما سيأتي، وفي الجامع حيث قال: وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية اهـ^(١). والقصد من قولهم: (قول وعمل) أي: أرادوا قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وقد عقد الإمام البخاري في كتابه الصحيح الجامع، كتاباً باسم الإيمان وافتتحه بقوله: باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس... وهو قول وفعل يزيد وينقص)^(٢)... وقد ورد لفظ الإيمان ومشتقاته في (٨١١) موضعاً من القرآن الكريم، وفي هذا دلالة على أهمية هذا الأصل العظيم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]. وجاء في السياق القرآني في صور ومعانٍ متعددة، منها أنه ورد فيها الإيمان في (٧٨١) موضعاً: أنه قول وعمل، وهو الإيمان الشرعي.

ولذلك فإن الإيمان قول وعمل بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح.

وعليه فقد نوه المصنف أن الإيمان (بالقلب) أي: التصديق الجازم المتيقن الذي لا يخالطه شك بالقلب، ويستقر استقراراً ثابتاً لا يزعزعه ريب، (و) ولا يكفي هذا الاعتقاد القلبي حتى يكون بمعية (النطق باللسان) أي: النطق بالشهادتين، فإن قلت أين العمل في قول المصنف؟، فالقول إنه «لا يُقال: إنه لم يذكر الأعمال فيشابه مرجئة الفقهاء»^(٣)؛ لأنه قد ذكر في

(١) كتاب الجامع لابن أبي زيد القيرواني ص (١٤٢).

(٢) انظر الجامع الصحيح للبخاري كتاب الإيمان ٧/١ - ٢٠ والجامع الصحيح لمسلم (شرح النووي) كتاب الإيمان ١/١٤٥ - ٢٤٤ ، و ٢/٢ - ٢٣٣.

(٣) هناك من سمي من الفقهاء بمرجئة أهل السنة وهم أهل الكوفة كأبي حنيفة - رحمه الله - وأصحابه وأول من قال بأن الأعمال غير داخلية في مسمى الإيمان هو حماد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة، وأبو حنيفة له روايتان في حد الإيمان. الأولى: أنه تصديق القلب وقول اللسان، وهذه الرواية عليها أكثر أصحابه. والثانية: أن الإيمان هو تصديق القلب فقط وأما قول اللسان فهو ركن زائد خارج عن مسمى الإيمان. وعلى =

هذه المقدمة أنَّ الإيمانَ يكون بالقلب واللسان والعمل^(١)؛ وهذا هو مسمى الإيمان كما تقدم عند أهل السنة والجماعة، وقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» بإسناده إلى عمرو بن عثمان الرقي قال: «قيل لابن عيينة: إن قوماً يقولون الإيمان كلام، فقال: كان هذا قبل أن تنزل الأحكام، فأمر الناس أن يقولوا (لا إله إلا الله) فلما علم صدقهم أمرهم بالصلاة ففعلوا، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار... فذكر الأركان، إلى أن قال: فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٢) فمن ترك شيئاً من ذلك كسلاً أو مجوناً أدبناه عليه، وكان ناقص الإيمان، ومن تركها جاحداً كان كافراً^(٣). «ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمناً إيماناً ثابتاً في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ولا يؤدي الزكاة، ولا يحج إلى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق وزندقة لا مع إيمان صحيح»^(٤). فلذلك يجب في رأس أعمال المؤمن بالله أن يعتقد (أن الله) جل جلاله (إله واحد) في كل شيء، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وهذا هو توحيد الباري، وفي اللغة كما قال ابن فارس^(٥): (وحد - الواو والحاء والذال أصل واحد يدل على الانفراد، من ذلك: الوحدة. وهو واحد قبيلته إذ لم يكن فيهم مثله. قال الشاعر: يا واحد العرب الذي ما في الأنام له نظير.

= هذه الرواية يوافق قول الماتريدية أن الإيمان هو تصديق القلب فقط. وجمهور أهل السنة يقولون: العمل من الإيمان وهو جزء منه فالأعمال واجبة وهي من الإيمان، ومرجئة الفقهاء يقولون: الأعمال واجبة وليست من الإيمان، ولهذا قال من قال بأن الخلاف بينهم وبين جمهور أهل السنة خلاف لفظي، وقال بهذا شارح الطحاوية والصواب أنه ليس لفظياً. (أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر، المؤلف: عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي).

(١) قطف الجنى الداني للشيخ عبدالمحسن الداني (٥٥) ط/دار الفضيلة.

(٢) الآية (٣) من سورة المائدة.

(٣) نقلاً عن الحافظ في الفتح (١٠٣/١).

(٤) كما في مجموع الفتاوى (٦١١/٧).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٩٠/٦ - ٩١).

ولقيتُ القومَ مَوْحِدَ مَوْحِدٍ، ولقيتهُ وحده. ولا يضاف إلا في قولهم: نسيجٌ وحده، وعييرٌ وحده... والواحد: المنفرد...). وقال الراغب الأصفهاني^(١): (الوحدة: الانفراد. والواحد - في الحقيقة - هو الشيء الذي لا جزء له البتة. ثم يطلق على كل موجود، حتى إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به... فالواحد لفظ مشترك يطلق على ستة أوجه) وذكر هذه الوجوه. وقال ابن منظور^(٢): (قال ابن سيده: والله الأوحِد المتوحد وذو الوحدانية. ومن صفاته: الواحد الأحد. والفرق بينهما - كما قال الأزهري وغيره -: أن (الأحد) بني لنفي ما يُذكر معه من العدد، و(الواحد) اسم بني لمفتتح العدد... ولا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى. والتوحيد على وزن التفعيل، وهذا النوع من الفعل يأتي متعدياً، إلا أحرفاً جاءت لازمة، كقولهم: رَوَّضَ الرَّوْضُ إذا تمَّ حسنه ونضارته... وهذه الصيغة لها معنيان؛ أحدهما: تكثير الفعل وتكريره والمبالغة فيه، كقولهم: كَسَّرَتِ الإِنَاءَ، وغَلَّقَتِ الأبوابَ. والوجه الثاني: وقوعه مرة واحدة كقولهم: غَدَّيْتُ فلاناً وعَشَّيْتَهُ. ومعنى وحَّدته: جعلته منفرداً عما يشاركه أو يشبهه في ذاته وصفاته. والتشديد فيه للمبالغة، أي: بالغت في وصفه بذلك... وقولهم: وحَّدت اللهُ، أي علمتُه واحداً منزهاً عن المثل في الذات والصفات. وقال بعض العلماء: التوحيد نفي التشبيه عن ذات الله وصفاته وألوهيته. قال الحافظ في الفتح: وأما أهل السنة ففسروا التوحيد بنفي التشبيه والتعطيل، ومن ثم قال الجنيد فيما حكاه أبو القاسم القشيري: التوحيد أفراد القديم من المحدث؛ وقال أبو القاسم التميمي في كتاب الحجَّة^(٣): التوحيد مصدر وحَّد يوحد، ومعنى وحدت اللهُ اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيهه.

وقيل: معنى وحدته علمته واحداً، وقيل سلبت عنه الكيفية والكمية فهو واحد في ذاته لا انقسام له، وفي صفاته لا شبيه له في ألوهيته، وملكه

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (٥١٤ - ٥١٥).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٤٥٠/٣ - ٤٥١).

(٣) (٤٥٠/٣ - ٤٥١) (٩٠/٦ - ٩١). وانظر: التعريفات للجرجاني ص (٩٦)، الحجَّة في

بيان الحجَّة للأصفهاني: (٣٠٥/١ - ٣٠٦).

وتدبيره لا شريك له ولا رب سواه ولا خالق غيره. اهـ^(١) قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢)، قال ابن كثير: يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله^(٣)؛ وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَجِدٌ﴾^(٤).

وورد لفظ التوحيد في أحاديث يحسن الوقوف عليها لئلا يشك أن هذا مصطلح مبتدع فمنها: ما أخرجه الإمام أحمد عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعذب ناسٌ من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا حُمماً، ثم تدركهم الرحمة فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة، قال: فيرش عليهم أهل الجنة الماء فينبتون كما ينبت القثاء في حمالة السيل ثم يدخلون الجنة»^(٥). وجاء في صحيح مسلم وغيره في كتاب الحج عن جابر - ﷺ -: «... فأهلٌ بالتوحيد...»^(٦). وأخرج أبو داود وغيره، وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه النووي والعسقلاني؛ أن النبي ﷺ قال لبعض النسوة: «عليكنَّ بالتسبيح والتهليل والتقديس، ولا تغفلن فتنسين التوحيد (وفي رواية: الرحمة)، واعقدن بالأنامل؛ فإنهنَّ مسؤولات ومستنطقات»^(٧).

وحديث عائشة ﷺ كما في صحيح البخاري أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٨)، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر (٣٤٥/١٣).

(٢) الآية (١) من سورة الإخلاص.

(٣) تفسير ابن كثير عند تفسيره سورة الإخلاص.

(٤) الآية (١٦٣) من سورة البقرة.

(٥) أخرجه أحمد (٣٩١/٣)، والترمذي، رقم ٢٥٩٧، وقال: حديث حسن.

(٦) أخرجه مسلم، رقم ١٢١٨.

(٧) أخرجه أبو داود، في كتاب الوتر، ٢٤، والترمذي في الدعوات، ٧١، وانظر:

السلسلة الضعيفة (١/١٨٦)، المعارف.

(٨) أي بسورة الإخلاص.

فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله يحبّه»^(١). وقد أتى المصنف بالاسم الأعظم في كلمة التوحيد تنبيهاً على أنه هو الذي يقع به الإسلام لا غير فلا يجزي أن تقول لا إله إلا العزيز وغير ذلك من الأسماء، وإنما لا بد من لفظ الشهادة بالاسم الأعظم وهي: لا إله إلا الله لقول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»^(٢)، ومن حُتِم له بها فقد فاز فوزاً عظيماً فعن معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٣)، لأنها مفتاح الجنة، فحياة العبد المسلم الصادق أولها لا إله إلا الله، وآخرها لا إله إلا الله، ثبتني الله وإياك عليها، وقوله (لا إله غيره) تأكيد لقوله إله واحد وهذا معنى كلمة التوحيد التي لا يصح إسلام عبد إلا بالنطق بها:

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناظرات	بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك ^(٤)

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد (٧٣٧٥).

(٢) أخرجه أحمد ١٩/١ (١١٧) و«البخاري» ١٣١/٢ (١٣٩٩ و ١٤٠٠) و«مسلم» ٣٨/١ (٣٢).

(٣) من حديث معاذ رضي الله عنه في سنن أبي داود والترمذي ومسنند أحمد، والحاكم في المستدرک وصححه، وذكر في المعرفة قصة أبي زرعة لما حضرته الوفاة، وذكرها الخليلي في كتابه الإرشاد في معرفة علماء الحديث فقال: عن محمد بن مسلم بن وارة يقول: حضرت أنا وأبو حاتم عند وفاة أبي زرعة الرازي، (وأبو زرعة عبيد الله بن عبدالكريم بن يزيد بن فروخ الرازي الإمام) - فقلنا: كيف نلقن مثل أبي زرعة؟ فقلت أنا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل ثم أمسكت، فقال أبو حاتم: حدثنا بندار في آخرين، قالوا: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدالحميد بن جعفر، ففتح أبو زرعة عينيه، وقال: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبدالحميد بن جعفر، حدثنا صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله» وخرج روحه معه.

(٤) الأبيات لأبي نواس.

(و) الله جل جلاله (لا شبيه له، ولا نظير له) الشبيه والنظير: مترادفان على معنى واحد وهو نفي المماثل أي لا مثل له، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)، قال القاضي عبدالوهاب رحمه الله تعالى: فنفي أن يكون له مثل، ولأن المتماثلين ما سدّ أحدهما مسدّ صاحبه، وناب منابه، وجاز عليه الوصف ما يجوز عليه، وفي امتناع وجوب من يجوز أن يكون إلهاً ربّاً خالقاً رازقاً سواه، دليل على فسادها، ولأن كل موجود في هذا العالم خلق له، فلو كان فيهم مشبه له، لم يخل الشبه أن يكون في الجنس أو في الصورة، وكل هذه سمات حدث لا يجوز إلا على محدث، والقديم تعالى عن ذلك^(٢) اهـ، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٣) أي: لم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثل شيء، قال في الصحاح للجوهري: «والكفيء: النظير. وكذلك الكُفء والكُفُو. والمصدر الكفاءة. وتقول: لا كفاءة له بالكسر، وهو في الأصل مصدر، أي لا نظير له وكل شيء ساوى شيئاً حتى يكون مثله فهو مُكافئٌ له»^(٤). وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٥)، قال غير واحد من السلف: هل تعلم له مثلاً، أو شبيهاً؟

وليحذر العبد من تشبيه الخالق بالمخلوق فمن شبه الله بخلقه كفر، قال شيخ الإسلام نعيم بن حماد شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى»^(٦).

(١) الآية (١١) من سورة الشورى.

(٢) شرح القاضي لعقيدة ابن أبي زيد (١٦٢).

(٣) الآية (٤) من سورة الإخلاص.

(٤) الصحاح في اللغة للجوهري، وانظر مختار الصحاح للرازي.

(٥) الآية (٦٥) من سورة مريم.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٩١٢/٢).

(ولا ولد له) قال تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾^(٢)، وقال جل جلاله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) «أي قل يا محمد ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك، لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، ولكن هذا ممتنع^(٤). وقال سبحانه منكرأ على النصرارى، ومنبهاً أن الأمر فيه من ارتكاب حماقة التي لا يصدقها عقل، ولا تقوم لها حجة من نسبتهم الولد لمن ليس له صاحبة، وقد نزه نفسه عن ذلك كله فقال: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۗ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّوا عُجَالًا هَذَا ۗ﴾^(٥) «أَنْ دَعَوْا الرَّحْمَنَ وَلَدًا ۗ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ﴾^(٦) «إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ﴾^(٧)؛ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب، وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات مؤسسات على توحيد، وأنه لا إله إلا هو، أنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفؤ له، بل هو الأحد الصمد... ولا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كفؤ له من خلقه؛ لأن جميع الخلق عبيد له اهـ^(٨).

وروى الإمام أحمد والشيخان من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولد، وهو يعافيههم ويدفع عنهم، ويرزقهم»، وروى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أنني لا

(١) الآية (٣) من سورة الإخلاص.

(٢) الآية (٩١) من سورة المؤمنون.

(٣) الآية (٨١) من سورة الزخرف.

(٤) تفسير ابن كثير (٢٠٩٩/٤).

(٥) الآيات (٨٨ إلى ٩٣) من سورة مريم.

(٦) تفسير القرآن العظيم (١٤٧٤/٣) ط/ مؤسسة الريان طبع وزارة الأوقاف القطرية.

أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقولته: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا».

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وإنما كثرت الآيات في نفي الولد لأن أكثر من كفر بالله من النصارى وغيرهم هو بسبب نسبتهم إلى الله الولد، فقد نسب مشركو العرب لله البنات فرد عليهم الرب سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١)، وقال: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ أَلَبَنَاتُ لَهُمْ أَلْبَنُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَتْهُمْ اللَّهُ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ﴾ (٣). (ولا والد) قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ (ولا صاحبة) أي لا زوجة لأن هذا شأن المحتاج وهو الغني المطلق، قال تعالى على لسان الجن لما آمنوا وأسلموا ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٤)، الجدة: العظمة، أي أنه تعالت عظمة ربنا، وقال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ (٥) (ولا شريك له) تأكيد وبيان لما قاله من قبل، فإن الله جلت قدرته وعظم سلطانه لا شريك له لا في ربوبيته، ولا ألوهيته، ولا في أسمائه، ولا صفاته، ولا أفعاله، وما ورد من تشابه في ذلك فهو في اللفظ لا في المعنى، وقد نفى الله الشريك في أكثر من آية قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٦) ولذلك كان أعظم ذنب يرتكبه المخلوق هو الشرك بالله، ومن نجا من الشرك فقد أريد له النجاة، قال الشيخ

(١) الآية (١٠٠) من سورة الأنعام.

(٢) الآية (١٤٩) من سورة الصافات.

(٣) الآية (٣٠) من سورة التوبة.

(٤) الآية (٣) من سورة الجن.

(٥) الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

(٦) الآية (٢٢) من سورة الأنبياء.

محمد الأمين الشنقيطي^(١): وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك. وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره جل وعلا هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضاً في شأن الرسل على الجميع صلوات الله وسلامه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ اهـ^(٢)، وقال تعالى ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِن السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(٣)، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾^(٤)، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٥)، والآيات في التحذير من الشرك كثيرة، ومن الأحاديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من عمل»^(٦).

«وما جاء في كلام ابن أبي زيد رحمته الله من نفي الشبيه والنظير والوالد والولد والصاحبة هو نفي على طريقة السلف، وهو نفي متضمن إثبات كمال الله عز وجل، فنفي الشبيه والنظير متضمن إثبات كمال أحديته، ونفي الوالد والولد والصاحبة متضمن إثبات كمال غناه، وكل ما جاء في القرآن من نفي شيء عن الله فإنه يتضمن إثبات كمال ضد ذلك المنفي، مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزُنَّ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾^(٧) فإنه دال على كمال قدرته، ... ومثل قوله: ﴿وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٨) دال على كمال عدله، وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٤/٤٢٣).

(٢) الآية (٦٥) من سورة الزمر.

(٣) الآية (٣١) من سورة الحج.

(٤) الآية (٧٢) من سورة المائدة.

(٥) الآية (٣٦) من سورة النساء.

(٦) أخرجه أحمد ٥/٣١٣ (٢٣٠٥١) و«الْبَحَارِي» ٤/٢٠١ (٣٤٣٥) و«مسلم» ٤٢/١ (٤٩).

(٧) الآية (٤٤) من سورة فاطر.

(٨) الآية (٤٩) من سورة الكهف.

فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾،
فهو دال على إثبات كمال علمه. وهذا بخلاف النفي عند أهل الكلام ﴿٢﴾.

**لا أولية لوجود الله تعالى ولا أخرية، ووجوب التفكير في خلقه،
وامتناع التفكير في ذاته:**

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(ليس لأوليئِهِ ابتداءً، ولا لآخرِيئِهِ انقضاءً، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ
الواصفون، ولا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ، يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بآيَاتِهِ، ولا يَتَفَكَّرُونَ
فِي مَا هِيَ ذَاتُهُ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢٥٥﴾) ﴿٣﴾.

قال الناظم:

لَيْسَ لِأَوْلِيئِهِ ابْتِدَاءٌ وَلَا لِآخِرِيَّةِ انْقِضَاءٌ
لَمْ يَدْرِ كُنْهَ وَصْفِهِ مُخْبِرٌ وَلَمْ يُحِطْ بِأَمْرِهِ مُفَكِّرٌ
ذُو الْفِكْرِ يَعْتَبِرُ فِي آيَاتِهِ وَمَالَهُ تَفَكُّرٌ فِي ذَاتِهِ
فَهُوَ كَمَا فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ سُبْحَانَهُ مِنْ مَالِكٍ عَلِيٍّ

(ليس لأوليئِهِ ابتداءً) أي ليس وجوده مفتوحاً بأولية فيكون له أول ولا
منقضيّاً بأخرية فيكون له آخر ف﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ﴿٤﴾ وقد كان
من دعاء المصطفى ﷺ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقُولُ
إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ

(١) الآية (٦١) من سورة يونس.

(٢) قطف الجنى الداني بتصرف يسير (٦٤).

(٣) الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٤) الآية (٣) من سورة الحديد.

فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، أَفْضِلْ عَنَّا الدِّينَ وَأَعِينَنَا مِنَ الْفَقْرِ»^(١)؛ ولا يتنافى مع بقاء الجنة والنار، لأن لهما ابتداء فهو خالقهما وكذلك فإن الله تعالى هو الذي قضى بعدم فنائهما، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعالى: «وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما».

(لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوَاصِفُونَ)، كنه الشيء، قال في القاموس: الكنه بالضم، جوهر الشيء، وغايته، وقدره، ووقته، ووجهه^(٢)، ولعل الوقت المراد به هنا هو: التحديد فتكون المعاني مترادفة أو متقاربة، والله أعلم.

وقال في المصباح: كنه الشيء حقيقته، ونهايته، وعرفته (كنه) المعرفة.

حقيقته وماهيته أي لا تُدْرِكُ حقيقة صفته، وبالأولى حقيقة ذاته، وإن كان معنى الصفات معلوم في لغة العرب، وإلا لما قال مالك رحمه الله تعالى «الاستواء معلوم»، ولما كان أول من يحتج كفار قريش عن هذا الذي يزعم أن القرآن عربي وهو آتٍ بما لا يفهمونه، ولذلك فإن أهل السنة المتبعون لنبيهم ﷺ يقتصرون على وصف الله بما وصف به نفسه دون الخوض في الكيفية التي هي من علم علام الغيوب، ولذلك «فإن الحقائق الواقعية التي تضمنتها آيات القرآن - والتي هي شيء وراء المعنى الذي يدركه الذهن عند سماع الخطاب - نوعان:

- نوع يمكن إدراكه، وهو حقائق ما جاء في القرآن مما يتعلق بالإنسان والكون المحيط به ذواتاً وأفعالاً، مثل ذلك قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

(١) أحمد ٣٨١/٢ (١٩٤٧) و«البخاري» في «الأدب المفرد» ١٢١٢ و«مسلم» (٦٩٨٨).

(٢) القاموس في باب الهاء فصل الكاف، وقد أنكر المحشي أن يكون الكنه بمعنى الحقيقة، وقول صاحب المصباح يرد عليه.

بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾^(١)، ففي الآية ذكر للرسول ووصف له بأنه رؤوف ورحيم، ومن نزل فيهم الوحي يعرفون معاني هذه الكلمات الثلاث، كما أنهم يدركون واقعها وهو الرسول نفسه محمد ﷺ ورأفته ورحمته المتمثلتان في تصرفاته معهم.

- نوع لا يمكن إدراكه، وهو حقائق الوجود الغيبي سواء كانت حقائق ذات الله وصفاته من حيث كونها وكيفيتها، أو حتى حقائق العالم الغيبي مثل ما أعد الله للناس من ألوان النعيم والعذاب. فقولُه سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(٢)، يدرك القارئ العربي للقرآن معاني هذه الآية، مما يذكره الله فيها من صنوف مشروبات أهل الجنة: ماء ولبناً وخمراً وعسلاً بصفاتها المتميزة، لكن عقله يقف عند المعنى ولا يستطيع تصور حقيقة هذه المشروبات، لأنها ليست في عالمه الذي يعيشه فيعرفها بالملاحظة والتجربة، ولا يمكن فيها القياس على ما لديه، لأنها من عالم آخر تختلف حقائقه عن حقائق هذا العالم الذي يعيش فيه^(٣).

(ولا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ الْمُتَفَكِّرُونَ) الأمر: أمران كوني قدرتي وشرعي، والأمر هنا أعم منهما، والأمر: الشأن، أي مهما تفكر المتفكرون في حقيقة أمر الله جل شأنه، فلا يمكن الإحاطة به، لأن المخلوق عاجز أن يحيط بحقيقة نفسه، فكيف بأمره جل شأنه؛ ومحاولته معرفة الحكيم التي خلقت من أجلها الأشياء، أو شرعت لسببها الأحكام، لا يؤهله للإحاطة بأمره،

(١) الآيتان (١٢٨ - ١٢٩) من سورة التوبة.

(٢) الآية (١٥) من سورة محمد.

(٣) مناهج البحث في العقيدة الإسلامية للدكتور عبدالرحمن الزبيدي (٤١٠ - ٤١١).

وإن ذهبنا إلى أنه لا يخلو أمر أو نهي من حكمة، علمه من علمه، وجهله من جهله قال صاحب المراقي:

لم تلف في المعللات علة خالية من حكمة في الجملة وربما يعوزنا اطلاع لكنه ليس به امتناع^(١)

والله جل جلاله قد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٢)؛ والعباد لا يمكنهم البتة الإحاطة بعلمه وحكمه قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٣)، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٤) والله جل جلاله وتقدست أسماؤه ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٥) أي الملك والتصرف، فلذلك لا يجوز لعبد أن يجعل لغير الله الأمر والنهي في التشريع، والتصرف في الملك كما يزعم ذلك بعض الملاحدة من أن الله تعالى لا يفعل شيئاً حتى يشاور بعض خلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهل شاورهم الله في خلقهم أنفسهم، روى ابن جرير بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح، وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً، فقد كفر بما أنزل على أنبيائه»^(٦).

(يَعْتَبِرُ الْمُتَفَكِّرُونَ بِآيَاتِهِ) الاعتبار: الاتعاظ، وسمي اعتباراً لأن الناظر والمتأمل في الأشياء يعبّر بالنتيجة المستخلصة إلى مواطن أخرى ليستفيد مما رآه أو قرأه، وتقول العرب: عبّر الوادي بكسر العين وفتحها وسكون

(١) البيتان من المراقي لسيدى عبدالله بن الحاج إبراهيم، انظر نثر الورود للأمين الشنقيطي (٤٦٧/٢).

(٢) الآية (٩٨) من سورة طه.

(٣) الآية (١١٠) من سورة طه.

(٤) الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٥) الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

(٦) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وضعف الحديث، وأورده ابن كثير في تفسيره عند تفسيره الآية (٩١٢/٢).

الموحدة، شاطئه، وناحيته^(١). وفي الذكر الحكيم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي
الْأَبْصَارِ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

التفكر: هو حركة النفس في المعقولات، وأما حركتها في
المحسوسات فتخييل.

والآيات جمع آية ولها معان عدة: الآية: العلامة، والأمانة وفي
الحديث الشريف: «آية المنافق ثلاث...» الحديث، والآية العبرة: وفي
القرآن الكريم: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾^(٤).

والآية: المعجزة؛ وفي الكتاب المجيد ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً
وَوَدَّعْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٥). والآية: البناء العالي، وفي
التنزيل العزيز: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾^(٦). ومن القرآن الكريم:
جملة، أو جمل، أثر الوقف في نهايتها، وفي الكتاب العزيز: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا
آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكُّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾^{(٧)(٨)}، أي: يتعظ المتأملون بالعلامات التي نصبها جل جلاله
دالة على باهر قدرته، وعظيم صنعته، وسطر أحرفها في الآفاق، فتراها
القلوب الحية، والأحداق المبصرة، وسطرها في كتابه المجيد من نور لا
يفنى ولا يبید، منه بدأ وإليه يعود، ودعانا جلت قدرته للتفكر في آياته
للدكرى والاعتبار، وأثنى الله على عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات
والأرض؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) القاموس باب الرءاء فصل العين.

(٢) الآية (٢) من سورة الحشر.

(٣) الآية (١١١) من سورة يوسف.

(٤) الآية (٩٢) من سورة يونس.

(٥) الآية (٥٠) من سورة المؤمنون.

(٦) الآية (١٢٨) من سورة الشعراء.

(٧) الآية (١٠١) من سورة النحل.

(٨) انظر القاموس الفقهي لسعدي أبو جيب.

لَا يَلْتَمِسُ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴿١﴾. وآيات الله تعالى في خلقه كثيرة عجيبة سواء ما كان منها في السماوات من أبراج وأفلاك ومجرات، أو ما كان منها على الأرض من عجائب النبات والحيوان والبحار والسهول والجبال، أو ما كان منها في خلق الإنسان من أجزاء جسده الكثيرة، وتعقيداتها الدقيقة قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿٢﴾ ولو نظرنا في الأرض وما فيها من عجائب المخلوقات من كبير وصغير، وقليل وكثير لتملكننا العجب من كثرتها وتنوعها واختلافها وتسخير بعضها لبعض، ولو حاول الإنسان أن يظهر نسبته من بين المخلوقات التي يراها على الأرض لعلم أنه لا يكاد يذكر، وأنه ذرة صغيرة من بين تلك المخلوقات. ثم لو قدر له أن يطلع على ما في الكون من أفلاك ومجرات، وأنجم وبروج ومجموعات لهاله الأمر، ولأيقن أن هذه الأرض العظيمة ببحارها وجبالها ونباتها وما فيها ومن عليها لا يكاد يساوي ذرة في هذا الكون العظيم، وما لا يعلمه البشر ولم يكتشفوه من خلق الله تعالى أعظم وأكثر، فيا لله! ما أعظم خلقه، وما أدق صنعه!! وما عظمة المخلوق إلا أكبر برهان على عظمة الخالق سبحانه وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿٣﴾.

ولك أن تقف مشدوهاً ومسبحاً ربك، أمام هذا الخلق العجيب الذي خلقه الله جل جلاله من أجلك أيها الإنسان للتفرغ لعبادته، وتعال نقف أمام آية عظيمة من آيات الكون التي لا تغيب عن المؤمن والكافر، لعلك تسبح لعظمة الصانع، هذه الآية هي الشمس:

لقد بينت الدراسات الفلكية الحديثة ضخامة الشمس بالنسبة للأرض؛

(١) الآيتان (١٩٠ - ١٩١) من سورة آل عمران.

(٢) الآيات (٢٠ - ٢٢) من سورة الذاريات.

(٣) الآية (١٤) من سورة المؤمنون.

حيث قدر الفلكيون أن قطر الشمس يبلغ (٨٦٥٣٨٠) ميلاً بينما قطر الأرض (٧٩١٣) ميلاً؛ فهي أكبر من الأرض بنحو مليون وثلاثمائة ألف مرة، وكتلتها تعادل (٣٣٣٠٠٠) مرة من كتلة الأرض وتعادل جاذبيتها ضعف جاذبية الأرض (٢٨) مرة، وتتكون من غازين أساسيين هما: الهيدروجين والهليوم ونسبتهما (٩٨٪) وما بقي (٢٪) غازات مختلفة يتجاوز عددها سبعين عنصراً، ويقدر الهيدروجين بنسبة ٨٠٪ والهليوم (١٨٪) ويتحول الهيدروجين باندماج نووي إلى هليوم وتتحرق طاقة هائلة على شكل حرارة وأشعة وضوء، ويتحول (٤٠٠) مليون طن من الهيدروجين إلى هليوم، في كل ثانية، وتفقد في الدقيقة الواحدة (٢٥٠) مليون طن من المادة لتتحول إلى طاقة^(١). وإذا كان ما سبق من أرقام أمراً عجباً فإن ما هو أعجب منه حرارة الشمس التي لا نطيقها في الصيف ونتظلل منها وتبرد، ونهرب منها إلى المناطق الباردة؛ هذه الحرارة الشديدة تقطع مسافة طويلة تقدر بخمسة وتسعين مليون ميل أي (١٥٠) مليون كم وهي المسافة التي بين الأرض والشمس، ولا يصل إلى الأرض من حرارة الشمس إلا واحد على مليار (١/١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) فقط وهي النسبة المطلوبة للحياة، وما يزيد على ذلك ينكسر ويرتد بفعل الغلاف الجوي المحيط بالأرض. وللشمس نواة من الهليوم تتجاوز درجة حرارتها (٢٥) مليون درجة مئوية، تحيط بها منطقة إشعاع درجة حرارتها (١٥) مليون درجة مئوية، وتصل حرارة سطح الشمس إلى (١٠) ملايين درجة مئوية. ولإدراك معنى هذه الأرقام الهائلة لا بد من التذكير بأن الحديد الصلب لا يحتاج إلى أكثر من (١٥٠٠) درجة مئوية ليتحول إلى سائل يجري كالماء^(٢) ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ

(١) ظواهر كونية في القرآن، لمحمد فيض الله الحامدي (١١٤). نقلاً عن مقال «الشمس آية من آيات الله عظمتها، وتسخيرها، ومنافعها ومصيرها» إبراهيم بن محمد الحقييل، مجلة البيان العلمية عدد (١٥٢).

(٢) القرآن وعلوم العصر، لإبراهيم فواز عراجي (٣٩) وانظر كتاب: مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي (١٤٦) والعالم الفلكي لسيمون (٣١٥).

لَا يُؤْمِنُونَ^(١) قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذراً فيها من دوابٍ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر] مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه» اهـ^(٢).

قال بشر بن الحارث: لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله. وقال ابن منده في كتاب الإيمان: والعباد يتفاضلون في الإيمان على قدر تعظيم الله في القلوب والإجلال له، والمراقبة لله في السر والعلانية^(٣). ﴿سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣)^(٤).

(ولا يَتَفَكَّرُونَ في مَاهِيَةِ ذَاتِهِ) الماهية: أي المعبر عنه بما هو؟ قال ابن حمادة: مائية ذاته، المائية: حقيقة الشيء وذاته، والمائية أيضاً السؤال بما أي ما هو؟ فكأنه قال: لا يتفكرون في كيفية ذاته، ويقال مائية وماهية. اهـ^(٥)، أي فلا يجوز شرعاً أن يتفكر المتفكرون في ما هي ذاته؟ فالمتفكر

(١) الآية (١٠١) من سورة يونس.

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٢٩٩/٤) تحقيق سامي بن محمد سلامة، / دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩.

(٣) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، ص ٤٨.

(٤) الآية (٥٣) من سورة فصلت.

(٥) غرر المقالة في شرح غريب الرسالة مطبوع بحاشية الرسالة تحقيق أبي الأجنان والهادي حمو (ص ٧٥).

في ذلك لا طائل من وراء تفكيره إلا الحيرة والضياع، والخيبة والهلاك، فقول المصنف رحمه الله تعالى: إنه إذا جاز أن يتفكر المتفكرون، ويعتبر المعترفون، فإنما ذلك مقصور على الخلق لا التطاول على مقام الخالق، ولا يزال الشيطان بالناس حتى يحدثهم بأن يتفكروا فيما نهوا عنه، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله»^(١) وفي لفظ «فتهلكوا»^(٢)، قال المناوي في فيض القدير: يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبواب، مما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرورع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذراً فيها من دوابٍ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه...

ألا ترى إلى نصبه السماء ذات الطرائق، ورفع الفلك فوق رؤوس الخلائق، وإجرائه الماء بلا سائق، وإرساله الريح بلا عائق؟ فالسماوات تدل على نعته والفلك يدل على حسن صنعته والرياح نشر من نسيم رحمته،

(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه وحسنه، انظر حديث رقم: [٢٩٧٦] في صحيح الجامع. وقد تقدم.

(٢) قال السيوطي في الجامع الصغير: أخرجه أبو الشيخ عن أبي ذر رضي الله عنه، وقال البيهقي: هذا إسناد فيه نظر قال الحافظ العراقي: قلت فيه الوزاع بن نافع متروك. وقال الهيثمي في المجمع (١/٢٥٤): فيه الوزاع متروك، شيخه العراقي: سنده ضعيف جداً قال: ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه أصح من هذا، وقال السنخاوي: هذه الأحاديث أسانيدُها كلها ضعيفة لكن اجتماعها يكسب قوة.

والأرض تدل على تمام حكمته، والأنهار تفجرت بعذوبة كلمته، والأشجار تخبر بجميل صنعته، . . . وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد (ولا تفكروا في الله) فإنه لا تحيط به الأفكار، قالوا: كان الرجل من بني إسرائيل إذا تعبد ثلاثين سنة أطلته سحابة ففعله رجل فلم تظله فشكى لأمه فقالت: لعلك أذنبت قال: لا قالت: فهل نظرت إلى السماء فرددت طرفك غير مفكر فيها قال: نعم قالت: من هاهنا أتيت، فعلى العاقل أن لا يهمل التفكير، ومن الجوائز أن تروح غدا مع الجائز، فالحازم لا يترك مسارح النظر ترقد ولا تكرر إلا وهو يقظان الفكر، نهار يحول، وليل يزول، وشمس تجري، وقمر يسري، وسحاب مكفهر، وبحر مستطر، وخلق تمور، ووالد يتلف، وولد يخلف، ما خلق الله هذا باطلاً، وأن بعد ذلك أثواباً وأحقاباً وحشراً ونشراً وثواباً وعقاباً.

وقال الروزباري: التفكير على أربعة أنحاء: فكرة في آيات الله، وفكرة في خلقه وعلامتها تولد المحبة، وفكرة في وعد الله بثواب وعلامتها تولد الرغبة، وفكرة في وعيده بالعذاب وعلامته تولد الرهبة، وفكرة في جفاء النفس مع إحسان الله وعلامتها تولد الحياء من الله اهـ^(١).

دواء الوسوسة:

إن وجد المسلم شيئاً من وساوس الشيطان الذي لا ينفك ينفث في صدور الناس الموحدين، ويشككهم في خالقهم، فمن وجد من ذلك شيئاً فدواءه أن يقول:

أمنت بالله، وبرسله، ولينقل عن يساره، ثم ليتعوذ بالله العظيم، وليقل: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾، وليتوقف عن التفكير فيما لا يمكن إدراكه.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال هذا؛ خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من

(١) فيض القدير (٣/٣٤٧).

ذلك شيئاً، فليقل آمنت بالله» وزاد في أخرى و«رسله»^(١) ولأبي داود والنسائي من الزيادة فقولوا: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ السورة «ثم ليتفل عن يساره ثم ليستعد»^(٢) ولأحمد من حديث عائشة «فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله» فإن ذلك يذهب عنه^(٣)، ولمسلم في رواية أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه نحو الأول وزاد: «فبينما أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب»^(٤) فذكر سؤالهم عن ذلك وأنه رماهم بالحصى وقال: «صدق خليلي» وفي البخاري نحوه بلفظ: «فليستعد بالله ولينته»^(٥).

قال الثَّووي رحمه الله تعالى: فمعناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل، والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه.

قال الإمام المازري رحمته الله: ظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها، والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها، قال: والذي يقال في هذا المعنى أن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة، فكأنه لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها. اهـ^(٦).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: قال الخطابي: وجه هذا الحديث أن الشيطان إذا وسوس بذلك فاستعاذ الشخص بالله منه وكف عن

(١) أحمد ٢٨٢/٢ (٧٧٧٧) ومسلم (٢٦٤).

(٢) أبو داود (٤٧٢٢)، و«النسائي» في «الكبرى» (١٠٤٢٢).

(٣) أحمد (٢١٨٦٧). قال شعيب الأرنؤوط: متن الحديث صحيح لكن تفرد به عبدالله بن لهيعة وهو سبى الحفظ.

(٤) مسلم (١٣٥).

(٥) البخاري (٣٢٧٦).

(٦) شرح النووي لصحيح مسلم (١٥٣/٢). بيان الوسوسة من الإيمان وما يقول من وجدها. ط/دار إحياء التراث العربي - بيروت.

مطاولته في ذلك اندفع، قال: وهذا بخلاف ما لو تعرض أحد من البشر بذلك فإنه يمكن قطعه بالحجة والبرهان، قال: والفرق بينهما أن الآدمي يقع منه الكلام بالسؤال والجواب والحال معه محصور، فإذا راعى الطريقة وأصاب الحجة انقطع، وأما الشيطان فليس لوسوسته انتهاء، بل كلما أزم حجة زاغ إلى غيرها إلى أن يفضي بالمرء إلى الحيرة، نعوذ بالله من ذلك، قال الخطابي: على أن قوله من خلق ربك كلام متهافت ينقض آخره أوله لأن الخالق يستحيل أن يكون مخلوقاً، ثم لو كان السؤال متجهاً لاستلزم التسلسل وهو محال، وقد أثبت العقل أن المحدثات مفتقرة إلى محدث، فلو كان هو مفتقراً إلى محدث لكان من المحدثات. انتهى.

وقال: قال الطيبي: إنما أمر بالاستعاذة والاشتغال بأمر آخر ولم يأمر بالتأمل والاحتجاج لأن العلم باستغناء الله جل وعلا عن الموجد أمر ضروري لا يقبل المناظرة، ولأن الاسترسال في الفكر في ذلك لا يزيد المرء إلا حيرة، ومن هذا حاله فلا علاج له إلا الملجأ إلى الله تعالى والاعتصام به^(١). اهـ

ومعلوم أن العدو اللعين إذا عجز عن رد المسلم إلى الكفر فإنه يجتهد مع جنده في التشكيك، والوسوسة ولم يسلم من ذلك حتى صحابة النبي ﷺ ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخّر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال: فقال النبي ﷺ: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»^(٢).

(١) الفتح لابن حجر (٣٩٢/٦). ط/دار الريان للتراث.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٥/١) (٢٠٩٧) وأبو داود (٥١١٢)، وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٦٧)، قال الألباني إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الصحيح على ضعف يسير في حماد وهو ابن أبي سليمان الأشعري مولاهم الكوفي الفقيه من شيوخ أبي حنيفة رحمهما الله تعالى والحديث أخرجه أبو داود وأحمد وعن ذر بن عبد الله الهمداني عن عبد الله بن شداد عن ابن عباس به قلت (الألباني): وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. انظر ظلال الجنة حديث رقم (٦٥٨).

وفي رواية أبي داود عن ابن عباس، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ أحدنا يجد في نفسه - يُعرضُ بالشَّيءِ - لأنَّ يكونَ حُممةً أحبَّ إليه من أن يتكلَّم به. فقال: «الله أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ الحمدُ لله الَّذي ردَّ كيدهُ إلى الوسوسةِ». قال ابنُ قدامة: ردَّ أمره مكانَ ردِّ كيدهُ»^(١).

بل جعل النبي ﷺ عدم البوح بما يتلجلج في الصدر، مما ينزغ به الشيطان من شأن التفكير في ذات الله العلي، والامتناع عن النطق بذلك هو صريح الإيمان وزبدته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما أخرجه مسلم أنه رضي الله عنه قال: «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به، قال: وقد وجدتموه! قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان»^(٢)، وأخرج بعده من حديث ابن مسعود «سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال: تلك محض الإيمان»^(٣).

قال المهلب: قوله صريح الإيمان، يعني الانقطاع في إخراج الأمر إلى ما لا نهاية له، فلا بد عند ذلك من إيجاب خالق لا خالق له لأن المتفكر العاقل يجد للمخلوقات كلها خالقاً لأثر الصنعة فيها والحدث الجاري عليها، والخالق بخلاف هذه الصفة، فوجب أن يكون لكل منها خالق لا خالق له فهذا هو صريح الإيمان، لا البحث الذي هو من كيد الشيطان المؤدي إلى الحيرة، وقال ابن بطال: فإن قال الموسوس فما المانع أن يخلق الخالق نفسه، قيل له هذا ينقض، بعضه بعضاً، لأنك أثبت خالقاً وأوجبت وجوده ثم قلت: يخلق نفسه فأوجبت عدمه، والجمع بين كونه موجوداً معدوماً فاسد لتناقضه، لأن الفاعل يتقدم وجوده على وجود فعله فيستحيل كون نفسه فعلاً له، وهذا واضح في حل هذه الشبهة وهو يفضي إلى صريح الإيمان. انتهى^(٤).

(١) أبو داود (٥١١٤) قال الألباني: صحيح.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مسلم (١٣٣).

(٤) فتح الباري للحافظ ابن حجر (٢٧٣/١٣). كتاب الاعتصام والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه.

وقال ابن منظور في لسان العرب: «والصريحُ: الخالص من كل شيء، وهو ضدُّ الكناية؛ يعني أنَّ صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في قلوبكم حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم، ولا تظمننَّ إليه نفوسكم؛ وليس معناه أنَّ الوسوسة نفسها صريح الإيمان لأنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله فكيف تكون إيماناً صريحاً؟^(١)»، وقد هوّن السلف من شأن خواطر السوء هذه، وعدّوها أمراً عادياً لا تستحق الوقوف عندها؛ فقد سأل أبو زحيل عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال: ما شيء أجدّه في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله ما أتكلّم به، قال: فقال لي: شيء من شك؟ قال: وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، فقال لي: إذا وجدت من نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣) [الحديد: ٣]»^(٢).

وما أحسن قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

كيفية المرء ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار في القدم؟
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدعاً فكيف يدركه مستحدّث النّسم؟

وقال رضي الله عنه: «إن العقل لإقامة رسوم العبودية، لا لإدراك الربوبية».

وقال:

العجز عن درك الإدراك إدراك والبحث عن ذات السرّ إشراك
وفي سرائر همّات الورى همم عن الذي عجزت جنّ وأملاك

وقال: «من عجز عن معرفة نفسه، فهو عن معرفة خالقه أعجز»^(٣).

(١) انظر لسان العرب (مادة صرح).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٠) وسنده جيد.

(٣) شرح نهج البلاغة لمحمد عبده (٢٩٢/٢) ط/دار الفكر.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥) (١).

أورد المصنف الآية عقب كلامه عن التفكير في الخلق ومنعه في حق الخالق، وهي جزء من أعظم آية في القرآن الكريم لما تضمنته من أسماء الله الحسنی، ولثلا يتفكر الناس في ذاته وصفاته، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله ﷻ وأطلععه عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (٢). ولعل القول الأخير هو موضع الاستدلال.

وسع كرسية قال ابن جرير في تفسيره: «عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس ؓ، في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسي موضع القدمين».

وذكر ابن أبي زمنين في تفسيره عن يحيى بن سلام في تفسير القرآن عن المعلی بن هلال عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: «إن الكرسي الذي وسع السماوات والأرض لموضع القدمين، ولا يعلم قدر العرش إلا الذي خلقه» (٣).

وقال المصنف في الجامع: وأن له كرسياً كما قال سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وبما جاءت به الأحاديث أن الله سبحانه يضع كرسية يوم القيامة لفصل القضاء. وقال مجاهد: «كانوا يقولون: ما السماوات

(١) الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٥٢/١) والآية الأخيرة من سورة طه (١١٠).

(٣) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٨٢/٢)، ورواه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (٦١)، وروى نحوه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في كتاب العظمة وانظر تخريجه في فتح الجواد الكريم في اختصار وتحقيق تفسير ابن كثير لأخينا أبي عبدالرحمن محمد عطية (٣٥٢/١).

والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة» اهـ^(١).

فإذا كانت هذه عظمة مخلوق من خلق الله ﷻ لا ندرك سعته، ولا نحيط به علماً، فكيف بك أيها المخلوق المسكين الذي لا تعرف نفسك التي هي بين جنبيك، تريد أن تعرف كيفية صفات الخالق وتتفلسف حول ذاته، فالحذار الحذار!!

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يثقله ولا يكرهه^(٢) حفظ السماوات والأرض، ومن فيهما، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت... وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾^(٣) وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، أمروها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه اهـ^(٣).

قول المصنف (العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه).

قال الناظم:

وَهُوَ الْخَبِيرُ وَالْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ وَهُوَ السَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ وَالْكَبِيرُ^(٤)
وَهُوَ فَوْقَ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ بذاته جلّ عن التّديدِ

ذكر المصنف ثمانية من أسماء الله جل وعلا بعد ذكره لاسمين من

(١) الجامع لابن أبي زيد (١٤١).

(٢) قال في اللسان: كرت: كرتة الأمر يكرهه ويكرهه كرتاً، وأكرهه: ساءه واشتدّ عليه، ويبلغ منه المشقة.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٥٣/١).

(٤) «بعلمه جل عن التقييد» إن المصنف قال: «وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه»، والناظم جانف قول المصنف وليته حافظ عليه وقال رأيه بعد ذلك، وأبو محمد معتقده أسلم من معتقد من حرف اللفظ، والله يغفر لنا ولمشايعنا ومن علمنا وعلمهم.

أسمائه في آية الكرسي، وقد أتى بهذه الأسماء كما جاءت مقترنة بعضها ببعض في كتاب الله جل وعلا، خلا[المدير] فلم يرد في القرآن، وأما التقدير فبكثره، وجلها أسماء دلت صيغها على المبالغة خلا المدير.

قوله: (العالم الخبير) «العليم الخبير اسمان من أسماء الله يدلان على صفتي العلم والخبرة، وهما متقاربان في المعنى، والعليم المحيط بكل شيء: بالواجبات، والممكنات، والمستحيلات، وجاء في بعض النسخ: (العليم) بدل (العالم)، (العليم) أولى لأمرين:

الأول: أن (العليم) جاء في القرآن كثيراً مطلقاً غير مقيد، وأما (العالم) فيأتي في القرآن مقيداً بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢) ...

والثاني: أنه يأتي في القرآن كثيراً اقتران اسم (العليم) باسم (الخبير) مع تقدم اسم (العليم) كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣)، وقال: ﴿مَنْ أُنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٤)(٥)، وجاء مقترنا في السنة باسم الله «الحليم» كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي - ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العليم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم».

والخبير من أسمائه الحسنی العظيمة، فعيل من الخبر كالعليم من العلم، وهو بمعنى العليم، أتى به للمبالغة.

(١) الآية (١٨) من سورة التغابن.

(٢) الآية (٢٦) من سورة الجن.

(٣) الآية (١٣) من سورة الحجرات.

(٤) الآية (٣) من سورة التحريم.

(٥) قطف الجنى الداني للشيخ عبدالمحسن العباد (٧٢).

(المُدَبِّرُ) هو المبرم للأشياء على علمه بأدبارها أي عواقبها، وما يؤول إليه أمرها^(١)، قال الحليمي: ومعناه مصرف الأمور على ما يوجب حسن عواقبها، واشتقاقه من الدبر، فكان المدبر هو الذي ينظر إلى دبر الأمور، فيدخل فيه على علم به والله جل جلاله عالم بكل ما هو كائن قبل أن يكون، فلا يخفى عليه عواقب الأمور، وهذا الاسم فيما يؤثر عن نبينا ﷺ، قد روينا في حديث عبدالعزيز بن الحصين^(٢)، وقد جاء وصف الله بالتدبير في القرآن الكريم، ولم يأت منه اسم الفاعل المدبر، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾^(٤)، وورد اسم المدبر في بعض روايات حديث عدد أسماء الله الحسنى، كما أخرج ذلك السيوطي في الجامع الصغير من رواية الحاكم وأبي الشيخ في التفسير، وابن مردويه في التفسير، وأبي نعيم في الأسماء الحسنى، عن أبي هريرة رضي الله عنه وضُعم الحديث^(٥). وسيأتي مزيد من الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

(والقَدِيرُ)، لفظ مبالغة من قادر، قال الحليمي: «والقدير التام القدرة لا يلبس قدرته عجز بوجه»^(٦).

(السَّمِيعُ البَصِيرُ)، بوب البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه فقال: باب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٧).

(١) شرح الرسالة لزروق (٢٧).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (١٢٨/١) باب: جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون غيره.

(٣) الآية (٥) من سورة ألم السجدة.

(٤) الآية (٣) من سورة يونس.

(٥) قال الألباني: (ضعيف) انظر حديث رقم: ١٩٤٦ في ضعيف الجامع.

(٦) الأسماء والصفات للبيهقي (١١٣/١) باب: جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون غيره.

(٧) الآية (١٣٤) من سورة النساء.

قال الغنيمان^(١): «يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين - السمع والبصر - ثابتتان لله بالكتاب والسنة، وإجماع أتباع الرسل، وبالعقل، والفطرة، وبيان أن الله - تعالى - لم يزل بصفاته، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضل عن كتاب الله، وسنة رسوله، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل».

قال القسطلاني: «وقد علم بالضرورة من الدين، وثبت في الكتاب والسنة، بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله، أن الباري - تعالى - حي سميع بصير، وانعقد إجماع أهل الأديان - بل جميع العقلاء - على ذلك»^(٢).

قلت - والقائل الغنيمان -: الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله - تعالى - والقياس الفاسد؛ حيث قاسوا ذلك على ما يعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل.

قالوا: هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام.

فيقال لهم: هذه صفة أسمعكم وأبصاركم، أما رب العالمين فصفاته تابعة لذاته، وذاته ليس لها نظير أو شبيه، فكذلك صفاته تعالى.

وكيفية صفاته - تعالى - مجهولة للخلق، ويكفينا أن نعلم أنه - تعالى - متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة، وأنه في ذلك ليس له مثل، كما قال - تعالى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

قال الحافظ: «قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال: إن معنى «سميع بصير» عليم، قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء، ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن

(١) في كتابه (شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري) تأليف الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان (١٥٩/١ - ١٦٠).

(٢) «إرشاد الساري» (٣٧٠/١٠).

في الناس أصواتاً، ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر، أدخل في صفة الكمال، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر.

فصح أن كونه سميعاً بصيراً، يفيد قدراً زائداً على كونه عليمًا.

وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً، وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السنة قاطبة^(١).

وقال البيهقي: «السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، وكل منهما في حق الباري صفة قائمة بذاته»^(٢).

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله - تعالى - ومن سنة رسوله - ﷺ - على إثبات السمع والبصر صفتين لله - تعالى - حقيقتين على ما يليق بعظمته - تعالى - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣)، ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٤)، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٥)، ﴿إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٦)، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٧)، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٨)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٩)، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١٠)، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

(١) «الفتح» (٣٧٣/١٣).

(٢) «الاعتقاد» (ص ٥٨).

(٣) الآية (٥٨) من سورة النساء.

(٤) الآية (١٣٤) من سورة النساء.

(٥) الآية (٦١) من سورة الحج.

(٦) الآية (١) من سورة الإسراء.

(٧) الآية (٧٥) من سورة الحج.

(٨) الآية (٢٠) من سورة غافر.

(٩) الآية (١١) من سورة الشورى.

(١٠) الآية (٥٦) من سورة غافر.

يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾.

فمن ذلك ما رواه أبو داود بسنده على شرط مسلم، عن أبي هريرة أنه قرأ قول الله - تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢) فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه، وقال: «رأيت رسول الله - ﷺ - يقرأ ويضع إصبعيه»^(٣). قال البيهقي عقب روايته لهذا الحديث: «والمراد بالإشارة في هذا الخبر: تحقيق الوصف لله - ﷻ - بالسمع والبصر، فأشار إلى محل السمع والبصر من إثبات صفة السمع والبصر لله - تعالى -، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير، له سمع وبصر، لا على معنى أنه عليم، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب؛ لأنه محل العلوم منا»^(٤).

ثم ذكر البيهقي لحديث أبي هريرة هذا شاهداً، من حديث عقبة بن عامر، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر: «إِنَّ رَبَّنَا سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنَيْهِ»^(٥) قال الحافظ: سنده حسن^(٦)، وروى اللالكائي عن ابن عباس أنه قرأ قوله - تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ فأشار بيده إلى عينيه^(٧).

قال ابن خزيمة: «نحن نقول: لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى، وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات، وما بينهما من صغير وكبير، لا يخفى عليه خافية، فهو تعالى يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه»^(٨).

(١) الآية (١) من سورة المجادلة.

(٢) الآية (١٣٤) من سورة النساء.

(٣) انظر: «سنن أبي داود» (٩٧/٥).

(٤) «الأسماء والصفات» (ص ١٧٩) ملخصاً.

(٥) هذا الحديث لم أجده في «الصفات» المطبوع، فيكون في النسخة التي نقل منها الحافظ.

(٦) «الفتح» (٣٧٣/١٣).

(٧) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤١١/٢).

(٨) كتاب «التوحيد» (ص ٥٠).

وما أجمل قول أبي العلاء المعري^(١):

يا من يرى مدّ البعوضِ جناحها
ويرى مناطَ عُروِقِها في نَحْرِها
ويرى خريزَ الدَّمِ في أوداجِها
ويرى وُضُولَ عَدَى الجنينِ ببطنها
ويرى مكانَ الوطاء من أقدامها
ويرى ويسمع حسّاً ما هو دونها
أُمْتُن علي بتوبة تمحو بها

في ظلمة الليل البهيم الأليل
والمخّ من تلك العظام النحل
متنقلاً من مفصل في مفصل
في ظلمة الأحشاء بغير تمقل
في سيرها وحشيّتها المستعجل
في قاع بحر مظلم متهول
ما كان مني في الزمان الأول

علو العلي الغفار:

(العَلِيُّ) على خلقه علو ذات، وقهر، وقدر، فإن من لوازم العلي العلو المطلق بكل اعتبار، ومن جميع الوجوه.

قال الأزهري: «وتفسير هذه الصفات لله - تعالى - يقرب بعضها من بعض، فالعلي: الشريف، فعيل من علا يعلو، وهو بمعنى العالي، وهو الذي ليس فوقه شيء، ويقال: هو الذي علا الخلق فقهرهم بقدرته».

وأما المتعالي: «فهو الذي جل عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين، وقد يكون المتعالي بمعنى العالي».

والأعلى هو الله الذي أعلى من كل عال، واسمه الأعلى، أي: صفته أعلى الصفات»^(٢).

وقد دل الكتاب والسنة والإجماع والفطر السليمة على علوه على خلقه جل جلاله، ومن قال غير ذلك فقد كابر، وأنكر معلوماً من الدين بالضرورة.

(١) وممن نسبها إليه القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى والآخرة (٢١٣) وابن كثير في البداية والنهاية (٧٥/١٢) ط/مكتبة المعارف بيروت.

(٢) «تهذيب اللغة» (١٨٦/٣).

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى﴾ (١٦) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠).

وقوله ﴿عَلِيهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ (٦).

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

والآيات كثيرة ومن الأحاديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» (٢).

وأنت أعلم بالصعود إلى أي جهة يكون.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة فافروا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾» الآية (٣).

والنزول أنت أعلم أنه من عل.

(١) متفق عليه، أخرجه مالك «الموطأ» (١٢٣)، وأحمد ٤٨٦/٢ (١٠٣١٤) والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (١٣٧٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه مالك «الموطأ» (٦١٥)، والبخاري (١٣٤٤)، ومسلم (١٠١٤).

(٣) الحديث متفق عليه، رواه البخاري (٢١٠٩)، وأخرجه مسلم (رقم ١٥٥).

وجاء التصريح بأنه سبحانه في السماء فقال جل شأنه: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ (١٧) (١).

فالسماء جنس للعالي يتناول كل ما سما كالسموات والكرسي والعرش، فقوله في السماء أي في العلو، دون السفلى، فهو سبحانه العلي الأعلى، ولذلك جاء من أسمائه الظاهر فليس فوقه شيء، وهو فوق كل شيء، ولا يستلزم كونه في السماء أن يكون في شيء موجود، و(في) بمعنى (على) كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطَعْنَ أَيديكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصَقْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١) ﴿أي: على، ولم يقل أحد فيما نعلم أنه أراد أن يصلبهم داخل النخل لما يلزم منه المشقة وعدم وقوع الشيء مطابقاً للوعيد الذي وعدهم إياه فرعون اللعين.

قال ابن مالك في ألفيته:

على للاستعلاء، ومعنى في، وعن بعن تجاوزاً عني من قد فطن

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً» رواه البخاري (٢).

والسؤال عنه بأيّن مما يدل على أنه ليس في كل مكان فوجب أن يكون في العلو ومن الأدلة على ذلك: حديث معاوية بن الحكم ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن جارية كانت لي ترعى غنماً لي فحجتها وقد فقدت شاة من الغنم، فسألتها عنها، فقالت: أكلها الذئب، فأسفت عليها، وكنت من بني آدم، فلطمت وجهها، وعلي رقبة أفأعتقها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» فقالت: في السماء، فقال: «من أنا؟» فقالت: أنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أعتقها». رواه مالك في

(١) الآيتان (١٦ - ١٧) من سورة الملك.

(٢) البخاري في كتاب المغازي (١١٠/٥) ط - المكتبة الإسلامية إستانبول.

الموطأ^(١). وفي رواية مسلم^(٢) «... قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «اتنني بها؟» فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء قال: «من أنا؟» قالت أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

وهذا رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول لأصحابه: «وأنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ثم قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد...» رواه مسلم^(٣).

قال زروق: وفي أجوبة عز الدين بن عبدالسلام لما سئل عن قول الشيخ «وأنه فوق عرشه المجيد بذاته» هل يفهم منه القول بالجهة أم لا؟ وهل يكفر معتقدها أم لا؟ فأجاب: بأن ظاهر ما ذكره القول بالجهة، وأن الأصح أن معتقد الجهة لا يكفر^(٤).

قلت: إن هذا لشيء عجاب!!! فهذا رسول الهدى، والعارف بربه وصفاته ما لا يعلمه أحد من الثقلين، يقول بالجهة أي في العلو، ويقرّ الجارية، فهل يختلف أيضاً في صحة اعتقاده؟، فهذا الطالب العزيز، يجب عليك أن تفكر فيما ينجيك عند ربك، وتتبع آثار السلف في الاعتقاد السليم الذي جاء على لسان نبيه الكريم، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

بعض الآثار المروية عن السلف التي تبين علو الله، وفوقيته على خلقه، واستوائه على عرشه، وهو ما فهمه الصحابة والتابعون والأئمة المهديون المتبعون، فأثبتوا لله العلو المطلق، فمن أقوال الصحابة:

قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد

(١) الموطأ (١٤٦٨).

(٢) مسلم (٥٣٧).

(٣) مسلم (١٢١٨).

(٤) انظر شرح زروق على الرسالة (ص ٢٨) ط/دار الفكر ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

مات، ومن كان يعبد الله فإن الله في السماء حي لا يموت» رواه الدارمي^(١).
 قول عمر رضي الله عنه^(٢): لما مر بعجوز فاستوقفته فوقف معها يحدثها
 فقال رجل: يا أمير المؤمنين حبست الناس بسبب هذه العجوز؟ فقال:
 ويلك أتدري من هذه؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات
 هذه خولة التي أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي
 إِلَى اللَّهِ﴾.

وروي عن عثمان رضي الله عنه^(٣) أنه خطب في الناس الخطبة التي لم يخطب
 بعدها فقال: «الحمد لله الذي دنا في علوه، ونأى في دنوه، لا يبلغ شيء
 مكانه، ولا يمتنع عليه شيء أراده».

وغيرهم من الصحابة كثير ومنهم شاعر النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن رواحة رضي الله عنه
 فعن عبدالعزيز ابن أخي الماجشون: بلغنا أنه كانت لعبدالله بن رواحة جارية
 يَسْتَسِرُّهَا عن أهلها، فبصرت به امرأته يوماً، قد خلا بها فقالت: لقد اخترت
 أمتك على حرّتك؟ فجاحدها ذلك قالت: فإن كنت صادقاً فاقراً آية من
 القرآن؟ فقال:

شهدت بأن وعد الله حقّ وأن النّار مشوى الكافرينا
 وأن العرش فوق الماء طاف
 وتحمله ملائكة كرام
 ملائكة الإله مقرّبيننا
 وفوق العرش ربّ العالمينا

فقالت: آمنت بالله، وكذبت البصر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه
 فضحك ولم يغير عليه.

وعن ابن وهب حدثني أسامة بن زيد: أن نافعاً حدثه قال: كانت لابن
 رواحة امرأة وكان يتقيها، وكانت له جارية فوقع عليها، فقالت له؟ فقال:
 سبحان الله! قالت: اقرأ عليّ إذأ فإنك جنب؟ فقال:

(١) في الرد على الجهمية (٢٦).
 (٢) وأثره في الرد على الجهمية للدارمي (٢٦).
 (٣) المرجع السابق (٢٨).

شهدت بإذن الله أن محمداً رسول الذي فوق السماوات من عل وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما له عمل من ربه متقبَّل (١)

ومن أقوال بعض التابعين :

قول مقاتل: في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) (الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والظاهر فوق كل شيء، والباطن أقرب من كل شيء، وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه وهو بكل شيء عليم) (٢).

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال: (هو فوق العرش، وعلمه معهم أين ما كانوا).

وروى البيهقي عن الأوزاعي قال:

(كنا والتابعون متوافرون، نقول أن الله ﷻ ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته) (٣).

ومن أقوال الأئمة الأربعة :

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى:

من قال: «لا أعرف الله أفي السماء أم في الأرض فقد كفر. قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٤)، فإن قال أقول بهذه الآية ولكن لا

(١) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب من وجوه صحيحة كما قال، وانظر سير أعلام النبلاء في ترجمة ابن رواحة (١/٢٣٨).

(٢) البيهقي في الأسماء والصفات (٤٣٠).

(٣) رواه البيهقي بإسناد صحيح، انظر الأسماء والصفات (٤٨٠).

أدري أين العرش في السماء أم في الأرض فقد كفر أيضاً»^(١).

وقال إمامنا مالك رحمه الله تعالى: (الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان)^(٢) أي علمه.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم... الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء)^(٣).

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل قيل لأبي: ربنا تبارك وتعالى فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه، وقدرته وعلمه بكل مكان. قال: (نعم لا يخلو شيء من علمه)^(٤).

قال ابن جزى في التسهيل: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ حيث وقع، حملة قوم على ظاهره منهم ابن أبي زيد وغيره، وتأوله قوم بمعنى قصد كقوله ثم استوى إلى السماء ولو كان كذلك لقال ثم استوى إلى العرش، وتأولها الأشعرية أن معنى استوى استولى بالملك والقدرة. قال: والحق الإيمان به من غير تكييف فإن السلامة في التسليم، والله در مالك بن أنس في قوله للذي سأله عن ذلك: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة.

وقد روي مثل قول مالك عن أبي حنيفة وجعفر الصادق والحسن البصري ولم يتكلم الصحابة ولا التابعون في معنى الاستواء، بل أمسكوا عنه

(١) الرسائل السبع في العقائد شرح الفقه الأكبر للماتريدي (١٤).

(٢) ترتيب المدارك لعياض (٤٣/٢). إثبات صفة العلو لابن قدامة (٢٨).

(٣) العلو للذهبي (١٢٠).

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٣٥).

ولذلك قال مالك: السؤال عنه بدعة^(١).

(الكبيرُ)، سبحانه وجاء اسما العلي والكبير مقترنان في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٣) وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾^(٤)، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾^(٥) وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الأوجاع كلها ومن الحمى: «باسم الله الكبير نعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار وشر حر النار»^(٦).

ثم قال البيهقي: «قال الحلبي في معنى الكبير: إنه المصروف عباده على ما يريد من غير أن يروه، وكبير القوم هو الذي يستغني عن التبذل لهم ولا يحتاج في أن يطاع إلى إظهار نفسه، والمشافهة بأمره ونهيه، إلا أن ذلك في صفة الله تعالى جده إطلاق حقيقة، وفيمن دونه مجاز لأن من يدعى كبير القوم قد يحتاج مع بعض الناس وفي بعض الأمور إلى الاستظهار على المأمور بإبداء نفسه له ومخاطبته كفاحاً لخشية أن لا يطيعه إذا سمع أمره من غيره، والله سبحانه وتعالى جل ثناؤه لا يحتاج إلى شيء ولا يعجزه شيء، قال أبو سليمان: الكبير الموصوف بالجلال وكبر الشأن، فصغر دون جلاله كل كبير ويقال: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين»^(٧).

(وأنه) تعالى، جل جلاله، وتقدست أسماؤه، وتنزهت صفاته، (فوق)

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٣٥٦) في تفسيره لسورة الأعراف.

(٢) الآية (٢٣) من سورة سبأ.

(٣) الآية (٦٢) من سورة الحج.

(٤) الآية (١٢) من سورة غافر.

(٥) الآية (٣٤) من سورة النساء.

(٦) رواه البيهقي.

(٧) الأسماء والصفات للبيهقي (١٠٠/١) باب: جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع نفي

التشبيه عن الله.

عرشه المجيد، بذاته).

قلت: إن قول المصنف فوق عرشه المجيد، لئن يكون المجيدُ صفةً للعرش أو للرب أولى من أن نجعله استثناءً، هروباً من فوقية الله تعالى على عرشه بذاته كما يليق بجلاله، لأن الوصف وارد في القرآن لكل واحد منهما أعني العرش والرب على القراءتين.

ثم الذي يؤكد قصد المصنف أنه اعتاد نزع فقهه في الرسالة من نصوص الكتاب والسنة، فلمَ الفرار من أمر قد قرر شرعاً إلى تأويلات بعيدة، والأمر الذي يؤكد مذهب المصنف في هذا هو قوله في كتابه الجامع عند الكلام على تكليم الله لموسى عليه السلام قال: وأن الله كلم موسى بذاته، وأسمعه كلامه، لا كلاماً قام في غيره. اهـ^(١)، ونقل ابن القيم عن المصنف من كلامه في مختصر المدونة قوله: وأنه تعالى فوق عرشه بذاته فوق سبع سماواته دون أرضه.

ثم قال عليه السلام: ما كان أصله في السنة وأقومه بها^(٢).

قلت: فعلى أيهما يحمل المحقق لشرح القاضي عبدالوهاب كلام المصنف هنا، على شرحه الذي يهواه، أم على قصد المصنف الذي أودعه كتبه. وطالع أقوال المفسرين لتكون على بينة من حمل المجيد على إحدى القراءتين، ولا يجوز ترجيح إحداهما على الأخرى كما هو معلوم عند أهل الفن^(٣).

(١) كتاب الجامع لابن أبي زيد القيرواني ص (١٤٠) تحقيق عبدالمجيد تركي.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية في غزو الجهمية والمعتلة.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م - المحرر الوجيز لابن عطية (٥ ٤٣٥). الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٩٦/١٩). تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٣٧٢/٨) وغيرهم.

قال الأشعري في مقالات الإسلاميين:

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش كما قال عَلَيْكَ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى عَلَيْكَ﴾، ولا نقدم بين يدي الله في القول بل نقول استوى بلا كيف وأنه نور كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأن له وجهاً كما قال الله: ﴿وَبَعَثْنَا وَجْهَ رَبِّكَ﴾ وأن له يدين كما قال: ﴿خَلَقْتُ يَدَيْ﴾ وأن له عينين كما قال: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا عَلَيْكَ﴾ وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء في الحديث ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقالت المعتزلة أن الله استوى على عرشه بمعنى استولى^(١).

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى: وقد تأول المسلمون في هذه الآية (أي في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى عَلَيْكَ﴾) - تأويلات أربعة أحدها قول المجسمة وقد أبنا بحول الله فسادها والآخر قالت المعتزلة وهو أن معناه استولى وأنشدوا قد استوى بشر على العراق قال أبو محمد وهذا فاسد لأنه لو كان ذلك لما كان العرش أولى بالاستيلاء عليه من سائر المخلوقات ولجاز لنا أن نقول الرحمن على الأرض استوى لأنه تعالى مستول عليها وعلى كل ما خلق وهذا لا يقوله أحد فصار هذا القول دعوى مجردة بلا دليل فسقط. اهـ^(٢)، وإن كان أيضاً لأبي محمد ابن حزم أقوال فاسدة هو الآخر في الاعتقاد كما نبه عليه غير واحد من العلماء.

ولما ذكر المصنف رحمه الله تعالى بعض أسماء الله عَلَيْكَ ومنها العلي الكبير، ناسب أن يذكر أن علو الله جل جلاله فوق عرشه ليس علو قهر فقط، وإنما هو علو بالذات كما أنه علو بالقدر والقهر، ولذلك أورد كلمة (ذاته) للتأكيد مما حاول المؤولون الفرار منه، وهي من الألفاظ التي استعملها بعض علماء أهل السنة والجماعة اضطراراً في الرد على أهل

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري (٢١١) دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة.

(٢) الفصل في الملل لابن حزم (٩٧/١) مكتبة الخانجي - القاهرة.

البدع، لما أولوا استواءه على عرشه بأنه ليس بذاته، فاضطر العلماء للتأكيد على أن الاستواء هو استواء الله جل في علاه بذاته حقيقة.

وهنا مسائل أولها: أن ورود الفوقية في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وكلام السلف، ثابتة، قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ أَلْفَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، ومما انتقده القاضي عبدالوهاب على ابن أبي زيد هو إيراده فوق بدل على لأن الوارد في النصوص «على عرشه» فقال: «هذه العبارة الآخرة التي هي قوله (على العرش) أحب إلي من الأولى التي هي قوله «وأنه فوق عرشه المجيد بذاته» لأنّ قوله على عرشه هو الذي ورد به النص، ولم يرد النص بذكر فوق، وإن كان المعنى واحداً، وكأنّ المراد بذكر الفوق في هذا الموضع أنه بمعنى على، إلا أنّ ما طابق النص أولى بأن يستعمل» اهـ^(١).

قال إمام الحرمين أبو محمد الجويني رحمه الله تعالى في آخر رسالة (الاستواء والفوقية) في تقريب هذه المسألة إلى الأفهام بمعنى من علم الهيئة والفلك لمن عرفه قال: «لا ريب أن أهل العلم حكموا بما اقتضته الهندسة وحكمها صحيح، لأنه ببرهان لا يكابر الحسّ فيه بأن الأرض في جوف العالم العلوي وأن كرة الأرض في وسط السماء كبطيخة في جوف بطيخة، والسماء محيطة بها من جميع جوانبها، وأن سفلى العالم هو جوف كرة الأرض وهو المركز، وهو منتهى السفلى والتحت وما دونه لا يسمّى تحتاً، بل لا يكون تحتاً ويكون فوقاً بحيث لو فرضنا خرق المركز وهو سفلى العالم إلى تلك الجهة لكان الخرق إلى جهة فوق، ولو نفذ الخرق جهة السماء من تلك الجهة الأخرى لصعد إلى جهة فوق، وبرهان ذلك أنا لو فرضنا مسافراً سافر على كرة الأرض من جهة المشرق إلى جهة المغرب، وامتد مسافراً، لمشى مسافراً على الكرة إلى حيث ابتدأ بالسير وقطع الكرة مما يراه الناظر أسفل منه وهو في سفره هذا لم يبرح الأرض تحته والسماء فوقه، فالسماء التي يشهدها الحسّ تحت الأرض هي فوق الأرض لا

(١) شرح عقيدة ابن أبي زيد للقاضي عبدالوهاب (١٧٤). وذكر نحو هذا الكلام الفاكهاني في التحرير والتحبير في شرح الرسالة مخطوط.

تحتها، لأن السماء فوق الأرض بالذات فكيف كانت السماء كانت فوق الأرض من أي جهة فرضتها.

قال: (وإذا كان هذا جسم وهو السماء - علوها على الأرض بالذات فكيف من ليس كمثلته شيء وعلوه على كل شيء بالذات كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وقد تكرر في القرآن المجيد ذكر الفوقية ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾... لأن فوقيته سبحانه وعلوه على كل شيء ذاتي له فهو العلي بالذات، والعلو صفته اللائقة به كما أن السفول والرسوب والانحطاط ذاتي للأكوان عن رتبة ربوبيته وعظمته وعلوه. والعلو والسفول حد بين الخالق والمخلوق يتميز به عنه هو سبحانه علي بالذات، وهو كما كان قبل خلق الأكوان وما سواه مستقل عنه بالذات، وهو سبحانه العلي على عرشه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج الأمر إليه، فيحيي هذا، ويميت هذا، ويمرض هذا، ويشفي هذا، ويعز هذا، ويذل هذا، وهو الحي القيوم القائم بنفسه وكل شيء قائم به». اهـ^(١).

المسألة الثانية: كلمة العرش: لقد وردت مادة: (عرش) بجميع صيغها في ثلاث وثلاثين موضعاً، في كتاب الله مختلفة الصيغ والأبنية، وتتفق في معنى مشترك وهو العلو والارتفاع.

قال القرطبي: (وأصل التعريش: الرفع، يقال: عرش يعرش، إذا بنى وسقف)^(٢).

وقوله: ﴿وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ الواردة في البقرة والكهف والحج معناها:

خلت من السكان، وتهدمت، وسقطت سقوفها.

العرش: سقف البيت.

والعروش: الأبنية المسقفة بالخشب.

(١) الاستواء والفوقية للجويني (٧٨) دار طويق - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨،

تحقيق: أ. أحمد معاذ بن علوان حقي.

(٢) الجامع للقرطبي (٢٧٢/٧).

يقال: عرش الرجل يعرش: إذا بنى وسقف بخشب.

والعرش سقف البيت.

قال القرطبي: (وكل ما يتهياً ليظل أو يكنّ فهو عريش، ومنه عريش الدالية)^(١)، يقصد عريش الكرم وهو شجر العنب؛ فيكون المعنى: سقط السقف، ثم سقطت الحيطان عليه؛ واختاره ابن جرير الطبري.

وهذه الصفة في خراب المنازل من أحسن ما يوصف به.

وقريب من هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] معروشات: ما يحتاج أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه وهو الكرم وما يجري مجراه.

وجاء في القرآن معنى آخر للعرش يؤول إلى الأول وهو عبارة عن السرير الذي يجلس عليه الملك للحكم: أي سرير المملكة ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

«وقال الليث: العرش: السرير للملك، والعرش، والعريش: ما

يستظل به.

قال: وعرش الرجل: قوام أمره، فإذا زال قوام أمره، قيل: ثل عرشه»^(٢).

وقال الجوهري: «العرش: سرير الملك، وعرش البيت: سقفه، والعرش، والعريش: ما يستظل به، وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها، وفيه الأصابع، وعرش البئر: طيها بالخشب، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة، فذلك الخشب هو العرش، والجمع عروش.

وعرش يعرش ويعرش عرشاً، أي: بنى بناء من خشب»^(٣).

(١) الجامع للقرطبي (٣/٢٩٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (١/٤١٣).

(٣) «الصحاح» (٣/١٠١٠).

ويظهر مما ذكره أهل اللغة: أن العرش اسم للسرير المرتفع العظيم، الذي يجلس عليه الملك، ويطلق على السقف وعرش الرب - جل وعلا - له المعنيان فهو محل استوائه تعالى، وهو سقف المخلوقات.

حقيقة العرش: وإذا عرفنا معنى العرش في الاستعمال اللغوي واللسان العربي: فما حقيقته هنا في الآيات السبع التي سنسردها لتسوقنا إلى المعنى الصحيح، وفي غيرها مما كان مضافاً إلى الله ﷻ؟

١ - قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ﴿١﴾.

٢ - وقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ في الأعراف، ويونس، والرعد، والفرقان، والسجدة، والحديد.

الجواب: لا نعلم ذلك ولا يجوز لنا أن نقيسه على الأول؛ لأن الأول من عالم الشهادة وهو محسوس وملموس ومضاف إلى البشر، والثاني من عالم الغيب ومضاف إلى الله ﷻ والله ﷻ امتدح ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٢).

وطريقنا الوحيد في ذلك: أن نتلمس بعض الأوصاف عند الذين اصطفاهم الله وأعلمهم بذلك؛ كما بين ذلك القرآن فقال ﷻ: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢٧) ﴿٣﴾.

ولذلك فإننا نتلمس أوصاف العرش من القرآن ومن السنة فنقول: ثبت في القرآن أن العرش على الماء: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (٤)، وأن المؤولين للعرش بأنه الملك قد وقعوا فيما لا يستطيعون رده ولا تأويله، فهل معنى الآية وكان ملكه على الماء، الإجابة عندهم!!...

(١) الآية (٥) من سورة طه.

(٢) الآية (٣) من سورة البقرة.

(٣) الآيتان (٢٦ - ٢٧) من سورة الجن.

(٤) الآية (٧) من سورة هود.

وثبت أن للعرش قوائم تحمله الملائكة حافين حوله يسبحون بحمد ربهم؛ فقد قال تعالى: ﴿وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾^(١)، وقال في وصفه أيضاً: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٢)، وقال أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٣)، ثم نترج إلى وصف من هو أعلم الخلق بربه؛ إذ قال: «إن عرشه على سماواته لهكذا» وقال بأصابعه: (مثل القبة... الحديث)^(٤).

وثبت في وصفه أنه فوق الفردوس كما في صحيح البخاري عن النبي ﷺ:

«إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٥).

قال ابن خزيمة: «فالخبر يصرح أن عرش ربنا - جل وعلا - فوق جنته، وقد أعلمنا - ﷺ - أنه مستوٍ على عرشه، فخالقنا عالٍ فوق عرشه، الذي هو فوق جنته»^(٦).

وذكر بسنده، عن عبدالله بن مسعود: «قال: ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله على العرش، ويعلم أعمالكم»^(٧).

(١) الآية (١٧) من سورة الحاقة.

(٢) الآية (٧٥) من سورة الزمر.

(٣) الآية (٧) من سورة غافر.

(٤) جزء من حديث رواه أبو داود، ٣٦٩/٤ وضعفه الألباني انظر حديث رقم: ٦١٣٧ في ضعيف الجامع.

(٥) انظر فتح الباري، ٣٤٩/١٣.

(٦) كتاب «التوحيد» (ص ١٠٤).

(٧) كتاب «التوحيد» لإمام الأئمة ابن خزيمة رحمه الله تعالى (ص ١٠٥).

وذكر له طرقاً عدة، وهو صحيح، ورواه البيهقي عن أبي ذر، قريباً من لفظه^(١).

وقال عبدالله بن المبارك: «وقالوا: اتفق المسلمون، واليهود، والنصارى، على أن الله - تعالى - فوق العرش، وقالت الجهمية: ليس الله فوق العرش»^(٢).

وقال الشوكاني في بيان صفة العرش: «وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما»^{(٣)(٤)}، واتضح لك بعد استعراضنا لهذه النصوص أن نستنتج أن العرش: سرير ذو قوائم، تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات على الصفة التي تليق بعرش الله.

وحينئذ لا يجوز لنا أن نتجاوز الوصف الذي حدده الله في القرآن وبينه النبي - ﷺ - في السنة.

ووصف المصنف العرش بالمجيد كما ورد تماماً في سورة البروج على إحدى القراءتين قال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قال ابن كثير: فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب ﷻ، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح اهـ^(٥).

قال البخاري في الصحيح: المجيد: الكريم.

المسألة الثالثة:

البحث فيمن أورد كلمة (ذاته) أي بذاته على العرش من أئمة المذاهب

(١) رواه البيهقي مرفوعاً، انظر «الأسماء والصفات» (ص ٤٠١).

(٢) «نقض التأسيس» (١/١٢٧).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢/٢١١).

(٤) انظر مقالاً لشيخنا الأستاذ أحمد بن أحمد شرشال الجزائري بعنوان (المنهج السديد في عرض مادة التوحيد تجربة ذاتية لتدريس مادة العقيدة) مجلة البيان العلمية عدد (١٢٢).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/٢٧٢).

الأربعة رحمهم الله تعالى، وليس ابن أبي زيد مبتدعاً فيها، وإن كان تركها أولى كما قال بعض أهل العلم^(١)، وهو الذي كان يقول: «إذا لم يكن لك فيما تقول به سلف فلا تقل به»:

قال أبو منصور السجزي المتوفى سنة (٤٤٤هـ) رحمة الله تعالى :-

«وأئمتنا كالثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن زيد، والفضيل، وأحمد، وإسحاق، متفقون على أنّ الله فوق العرش بذاته، وأن علمه بكل مكان» انتهى.

وأبو إسماعيل الهروي المتوفى سنة (٤٨١هـ) رحمه الله تعالى - لما صرح في كتبه بلفظ (الذات) قال: «ولم تزل أئمة السلف تُصرح بذلك» انتهى.

فهذان نقلان يفيدان إطلاق هذا اللفظ لدى السلف من غير نكير.
ومن أفرادهم كما في معجم المناهي اللفظية^(٢):

- ابن أبي شيبة: أبو جعفر محمد بن عثمان الكوفي المتوفى سنة (٢٩٧هـ).
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت ٣١٠هـ).
- أبو الحسن الأشعري، ت سنة (٣٢٤هـ).
- أبو سليمان الخطابي، ت سنة (٣٨٨هـ).

(١) «يجد الناظر في كلام جماعة من السلف في إثبات صفة الاستواء لله تعالى على عرشه كما يليق به سبحانه، قولهم: «مستو بذاته على عرشه، بائن من خلقه». ومنه قول ابن الزاغوني ت سنة ٥٢٧ هـ - رحمه الله تعالى - في قصيدة له: عالٍ على العرش الرفيع بذاته سبحانه عن قول غاوٍ ملحد قال الذهبي رحمه الله تعالى بعده: (قد ذكرنا أن لفظ «بذاته» لا حاجة إليها، وهي تشغب النفوس، وتركها أولى، والله أعلم) اهـ. معجم المناهي اللفظية (٥٩/٢).

(٢) نقلاً عن اجتماع الجيوش الإسلامية، وكتاب العلو للعلي الغفار للذهبي. وانظر معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر بن عبدالله (٥٩/٢).

- أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي، ت سنة (٣٨٦هـ) كما في الموضوع الذي نشرحه، وقال في الجامع «كلم موسى بذاته، وأسمعه كلامه لا كلاماً قام في غيره»^(١).
 - أبو عمرو الطلمنكي المالكي، ت سنة (٣٩٩هـ).
 - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلازي المالكي، ت سنة (٤٠٣هـ).
 - محمد بن الحسن بن فورك، ت سنة (٤٠٦هـ).
 - محمد بن موهب القبيري المالكي تلميذ ابن أبي زيد وأحد شراح الرسالة، المتوفى سنة (٤٠٦هـ).
 - يحيى بن عمار السجزي، ت سنة (٤٢٢هـ).
 - القاضي عبدالوهاب بن نصر المالكي، ت سنة (٤٢٢هـ)، ولم يعلق عليها مما يقتضي ارتضاؤها.
 - سعد بن علي الزنجاني الشافعي، ت سنة (٤٧١هـ).
 - أبو إسماعيل عبدالله الأنصاري الهروي، ت سنة (٤٨١هـ): قال في «اجتماع»: (ص/٢٧٩)، قال: «بذاته». وفي: «المختصر»: (رقم ٢٥٥)، قال: «على العرش بنفسه».
 - إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي، ت سنة (٥٣٥هـ).
 - عبدالقادر الجيلاني الولي السني الحنبلي العارف المعروف، ت سنة (٥٦١هـ).
 - محمد بن فرج القرطبي المالكي، ت سنة (٦٧١هـ). وغيرهم كثير^(٢).
- قال المصنف: (وهو في كل مكان بعلمه).
- قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا

(١) كتاب الجامع لابن أبي زيد القيرواني ص (١٤٠).

(٢) انظر عقيدة السلف للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد.

هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾^(١)، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه، واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] أي من سر ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ [التوبة: ٧٨] وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه بهم محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧] وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم^(٢).

ولهذا حكى غير واحد الإجماع، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

المسألة الرابعة: الاستواء في اللغة، وفي القرآن:

ونعود مرة أخرى إلى كتاب الله ناظرين في معنى قوله: ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ وبيان وجوه استعمالها في القرآن. حقيقة الاستواء في اللغة: التساوي واستقامة

(١) الآية (٧) من سورة المجادلة.

(٢) انظر الرد على الجهمية والزندقة للإمام أحمد بن حنبل (١٣٥ - ١٤١) وتفسير ابن كثير (عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾)، والدارمي عثمان بن سعيد الشافعي في الرد على الجهمية (١٨ - ٢٠).

الشيء واعتداله. وورد في كلام العرب على معان اشترك لفظه فيها؛ فيكون بمعنى الاستقرار، ويكون بمعنى القصد، ويأتي بمعنى العلو والركوب؛ ويأتي بمعنى المماثلة والمساواة كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَتَوَىٰ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^(١)، وجاء بهذا المعنى في سبع عشرة موضعاً^(٢). ومنها ما يكون بمعنى بلوغ القوة العقلية والبدنية وكمالهما؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُمُ وَأَسْتَوَىٰ﴾^(٣) أي بلغ مبلغاً يؤهله لقبول العلم والحكمة. ومنها: ما يجيء بمعنى الاستقرار والرسو نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾^(٤)، وجاءت بمعنى الركوب على الدابة وعلى الفلك كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ﴾^(٥)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾^(٦)، وجاء هذا الفعل هنا متعدياً بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ الذي فيه معنى الاستعلاء والركوب. قال ابن كثير: (لستوا متمكنين مرتفعين)^(٧)، فتكون هنا بمعنى: علا على الدابة والفلك واستعلى على ظهرها متمكناً منها. وجاء هذا الفعل متعدياً بـ [إلى] في موضعين في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾^(٨)، وفي الآية ١١ من سورة فصلت. قال أبو العالية: استوى ارتفع. وقال مجاهد: استوى علا. وقد فسرها الطبري بالعلو بعد أن ذكر أقوالاً كثيرة حيث قال: (وأولى المعاني في قوله ﴿عَلَى﴾: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ علا تبارك وتعالى عليهن، ودبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سماوات)^(٩).

(١) الآية (١٦) من سورة الرعد

(٢) انظر محاسن التأويل للقاسمي، (٢٧٠٤/٧).

(٣) الآية (١٤) من سورة القصص.

(٤) الآية (٤٤) من سورة هود.

(٥) الآية (٢٨) من سورة المؤمنون.

(٦) الآيات (١٢ - ١٣) من سورة الزخرف.

(٧) تفسير ابن كثير (٤/١٣٠).

(٨) الآية (٢٩) من سورة البقرة.

(٩) تفسير الطبري (١٧٥/١).

وقال ابن عبد البر: «الاستواء: الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله - ﷻ - فقال: ﴿وَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾^(١)، وقال: ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَىٰ الْفُلْكِ﴾^(٢).

وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: استولى؛ لأن النجم لا يستولي.

وقد ذكر النضر بن شميل^(٣) - وكان ثقة مأموناً، جليلاً في علم الديانة، واللغة - قال: «حدثني الخليل - وحسبك بالخليل - قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال لنا: استووا، فبقينا متحيرين، ولم ندر ما قال؟ قال: فقال لنا أعرابي إلى جنبه، إنه أمركم أن ترتفعوا، قال الخليل: هو من قول الله - ﷻ -: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(٤)، فصعدنا إليه، فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاماً، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابي: إنه سألكم متاركة لا خير فيها، ولا شر، قال الخليل: هو من قول الله - ﷻ -: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾^(٥)»^(٦). اهـ.

قال البغوي: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ قال الكلبي، ومقاتل: استقر.

وقال أبو عبيدة: صعد.

ثم قال: «وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة،

(١) جزء من الآية (٤٤) من سورة هود.

(٢) الآية (٢٨) من سورة المؤمنون.

(٣) انظر ترجمته الزاهرة في سير أعلام النبلاء (٣٢٩/٩).

(٤) الآية (١١) من سورة فصلت.

(٥) الآية (٦٣) من سورة الفرقان.

(٦) «التمهيد» (١٣١/٧، ١٣٢).

فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، يجب على العبد الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله - وَعَلَيْكُمْ (١)(٢).

وذكر ابن حجر في تفسير: ﴿أَسْتَوَى﴾ أقوالاً عديدة ثم قال: (وأما تفسير ﴿أَسْتَوَى﴾ علا فهو صحيح وهو المذهب الحق وقول أهل السنة؛ لأن الله تبارك وتعالى وصف نفسه بالعلو^(٣). أما الحافظ ابن كثير: فقد جعل الفعل ﴿أَسْتَوَى﴾ متضمناً لمعنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّي بـ: (إلى) أي قصد إلى السماء^(٤)، وهنا يجب علينا أن نتوقف ونقارن بين هذه الآيات التي كان الاستواء فيها: على الدابة، وعلى الفلك، بالآيات السبع السابقة التي كان الاستواء فيها على العرش وإلى السماء؛ وكلها تعدت بحرفي الجر: [عَلَى] و[إِلَى] فهل يتفق هذا الاستواء بذاك؟ اللهم! لا؛ لأن استواء البشر العاجز الفاني لا يشابه استواء الكامل المتفرد بألوهيته وربوبيته؛ فيكون استواء الله على عرشه يليق بجلاله وسلطانه، واستواء البشر على مركوبه يليق بفقره وعجزه. وقد يتماثل اللفظان ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه؛ فالقرآن حكى وصف الهدهد لعرش بلقيس فقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) وبين القرآن وصف عرش الرحمن فقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٦) كلاهما وصف بالعظمة وبينهما من البون ما لا يعلمه إلا الله؛ فعرش بلقيس عظيم بين عروش الملوك مثلها، وعرش الرحمن أعظم؛ فلا بد من اعتبار المقام في فهم الكلام. وهنا يجب أن يتوقف دور العقل والتوهم والتخيل وإفساح المجال للسمع والنقل وحده؛ وهو الكفيل بضمان عدم الوقوع في الردى وهو التشبيه والتأويل. فاستواء البشر على الفلك والأنعام معقول المعنى محسوس مشاهد، واستواء الله على عرشه لا

(١) «تفسير البغوي» (٢/٢٣٧).

(٢) انظر (شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان) (١/٣٠٣).

(٣) فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٣/٤٠٦).

(٤) تفسير ابن كثير (١/٧٢).

(٥) الآية (٢٣) من سورة النمل.

(٦) الآية (٢٦) من سورة النمل.

تدرکه العقول؛ لأن الأول مضاف إلى البشر، والثاني مضاف إلى الواحد الأحد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

وما دمت لا تدرك الذات فما عليك إلا أن تؤمن يقيناً أنك لا تدرك الصفات.

قال شيخنا العلامة الحافظ محمد سالم بن عبدالودود الملقب (ولد عدود) الشنقيطي رحمه الله تعالى:

وما نقول في صفات قدسيه فرع الذي نقوله في نفسه
فإن يقل جهميهم: كيف استوى؟ كيف يجي؟ فقل له: كيف هو؟
لا فرق بين ما سميّه يُعدّ وصفاً لنا ك (علم) أو جزء ك (يد)
الباب في الجميع واحد فلا تكن معطلاً ولا ممثلاً^(٢)

منهج السلف في مثل ذلك: وهذا هو منهج السلف في إثبات الاستواء لله على وجه يليق بجلاله وكماله من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل^(٣).

أما منهج أهل البدع فعن أشهب بن عبدالعزيز قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «إياكم والبدع؟ قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسمائه وصفاته، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون»^(٤). ولهذا قال الإمام مالك رحمته الله: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة)^(٥). قال الحافظ الذهبي في كتاب العلو بعد

(١) الآية (١١) من سورة الشورى.

(٢) عقيدة السلف من مقدمة التكميل في نظم مختصر سيدي خليل رحمه الله تعالى لشيخنا العلامة اللغوي الفقيه فريد عصره وحافظ دهره محمد سالم ولد عبدالودود الشنقيطي رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه.

(٣) انظر معارج القبول للحافظ الحكمي (١٠٩/١).

(٤) رواه الصابوني في عقيدة السلف (٥٤)، والأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (١٠٣/١ - ١٠٤) وعنهما الدعجان في كتابه عقيدة الإمام مالك (٤٥).

(٥) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٣٣) واللالكائي (٦٦٤)، وأخرجه البيهقي عن عبدالله بن وهب وجود إسناده، وأخرجه ابن عبدالبر في التمهيد وغيرهم كثير.

ذكره لقول مالك: وهو قول أهل السنة قاطبة: أنّ كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجعلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به: لا نتمق، ولا نتحدلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيّاً ولا إثباتاً؛ بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون؛ ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه؛ ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته ولا في استوائه ولا في نزوله سبحانه وتعالى^(١). وأصل الشبهة التي حملت القوم على التأويل زعمهم أن لفظ استوى يؤدي إلى التشبيه، فحرفوا الكلمة وزادوا لها لاماً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، وزعموا أنها توهم غير اللائق، وكلمة استولى هي المنزهة اللائقة بالله مع أنه لا يعقل تشبيهه أشنع من تشبيهه استيلاء الله على عرشه المزعوم باستيلاء بشر بن مروان على العراق.

وهل كان أحد يغالب الله على عرشه، حتى غلبه على العرش، واستولى عليه؟

وهل يوجد شيء إلا والله مستول عليه، فالله مستول على كل شيء، وهل يجوز أن يقال إنه تعالى استوى على كل شيء غير العرش؟ فافهم...

وما فزوا منه وقعوا فيه، فهل نزهوه حينما شبهوا استواءه (باستيلاء) بشر بن مروان على العراق، لأن تشبيهه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشر من أفضح أنواع التشبيه، وليس بلائق قطعاً، إلا أن يقولوا: إنّ الاستيلاء المزعوم منزه عن مشابهة استيلاء الخلق، مع أنه ضرب له المثل باستلاء بشر على العراق، والله يقول ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

أيها المؤول أيّ الكلمتين أحقّ وأليق بالتنزيه؟ أكلمة جاءت من الحقّ

(١) انظر محاسن التأويل للقاسمي (٢٧٠٤/٧).

(٢) الآية (٧٤) من سورة النحل.

بالحق، أم كلمة لا يدري من قائلها، ولا سند لها في كتاب ولا سنة ولا قول عربي فصيح^(١).

بل نقل أئمة عظام اتفاق العلماء على أن معنى الاستواء هو ما أشار إليه مالك رحمه الله تعالى، مثل الإمام إسحاق بن راهويه، والحافظ ابن عبدالبر وغيرهم، بل ورد المعنى موقوفاً على أمنا أم سلمة رضي الله عنها كما قال الحافظ في الفتح: أخرج أبو القاسم اللالكائي في كتاب السنة من طريق الحسن البصري عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر»؛ ومن طريق ربيعة بن أبي عبدالرحمن أنه سئل كيف استوى على العرش؟ فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، وعلى الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلىنا التسليم»^(٢).

ثم لنا سؤال لا بد من أن نطره وهو:

ما مدى صحة البيت المزعوم في حق بشر بن مروان؟

والجواب على هذا التساؤل: إن هذا البيت ذكر أهل التحقيق أنه غير موجود في دواوين العرب، وهو مصنوع لا غير!! وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَيْمَةِ اللُّغَةِ أَنْكَرُوهُ وَقَالُوا: إِنَّهُ بَيْتٌ مَصْنُوعٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ اِخْتَجَّ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَحْتِاجِ إِلَى صِحَّتِهِ فَكَيْفَ بَيَّنَّتْ مِنَ الشُّعْرِ لَا يُعْرَفُ إِسْنَادُهُ وَقَدْ طَعَنَ فِيهِ أَيْمَةُ اللُّغَةِ؛ وَذَكَرَ أَبُو الْمُظَفَّرِ فِي كِتَابِهِ «الإفصاح» عَنْ الْخَلِيلِ (تصحيح) كَمَا ذَكَرَهُ قَالَ: سُئِلَ الْخَلِيلُ هَلْ وَجَدْتَ فِي اللُّغَةِ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى؟ فَقَالَ: هَذَا مَا لَا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ؛ وَلَا هُوَ جَائِزٌ فِي لُغَتِهَا وَهُوَ إِمَامٌ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا عُرِفَ مِنْ حَالِهِ فَحَيْثُ دَحْمَلُهُ عَلَى مَا لَا يُعْرَفُ حَمَلٌ بَاطِلٌ.

(١) انظر الإقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد للشيخ الحجة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى (٤٦).

(٢) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر (باب وكان عرشه على الماء) (٤٠٦/١٣).

أضف إلى ذلك أننا نعلم جميعاً أن أكثر المؤولين قالوا: نحن لا نثبت أمور الغيبيات بأحاديث الآحاد لأنها في زعمهم ولو كانت ثابتة سنداً إلا أنها ظنية الدلالة! فنقول لهم: كيف أجزتم لأنفسكم أن تستشهدوا ببيت لا يعرف قائله؟! وتستدلوا به على تفسير صفة من صفات الله الثابتة في القرآن والسنة وإجماع صدر هذه الأمة، ضاربين عرض الحائط بأحاديث صحاح رواها أئمة ثقات، وبتفسير الراسخين من أهل العلم كالصحابه والتابعين والأئمة المتبعين الأزكياء المتقين.

ثم تنزلاً لو كان البيت صحيحاً، وقد عرفنا قائله النصراني والمعنى صحيحاً في البيت وثبت جدلاً أنه بمعنى استولى، لكان أولى بإطلاق الوصف عليه هو عبدالملك بن مروان لأنه الخليفة. ولذلك قال الياضي: «استولى عبدالملك على العراق وما يليها، فأقر أخاه بشراً على العراق، وبعث الأمراء على الأعمال، وجهاز الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة لحرب ابن الزبير، قلت: في ولاية بشر المذكور ينشد البيت المشهور:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهران
اهـ (١).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى في البداية والنهاية:

في ترجمة بشر بن مروان «وقد امتدحه الفرزدق والأخطل، والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهران
وليس فيه دليل، فإن هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة، وقد كان الأخطل نصرانياً» (٢).

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان للياضي أخبار سنة ثنتين وسبعين (٦٧/١) ...

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/٩).

وقال أيضاً في البداية والنهاية:

وحكى نبطويه أن جريراً دخل يوماً على بشر بن مروان وعنده الأخطل، فقال بشر لجرير: أتعرف هذا؟ قال: لا، ومن هذا أيها الأمير؟ فقال: هذا الأخطل، فقال الأخطل، أنا الذي قذفت عرضك، وأسهرت ليلك، وأذيت قومك، فقال جرير: أما قولك شتمت عرضك، فما ضرّ البحر أن يشتمه من غرق فيه، وأما قولك وأسهرت ليلك، فلو تركتني أنام لكان خيراً لك، وأما قولك وأذيت قومك، فكيف تؤذي قوماً أنت تؤذي الجزية إليهم؟

وكان الأخطل من نصارى العرب المنتصرة، قبّحه الله وأبعد مثواه، وهو الذي أنشد بشر بن مروان قصيدته التي يقول فيها:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهران

وهذا البيت تستدلّ به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك، ولا أراد الله ﷻ باستوائه على عرشه استيلاءه عليه، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً.

فإنه إنما يقال استوى على الشيء إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه، كاستيلاء بشر على العراق، واستيلاء عبدالملك على المدينة بعد عصيانها عليه، وعرش الرب لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً، حتى يقال استوى عليه، أو معنى الاستواء الاستيلاء، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية، حتى أداهم الإفلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح وليس فيه حجة والله أعلم. اهـ^(١).

قلت: وليس الأعجب في قول الجهمية والمعتزلة واستدلالهم، ولكن العجب فيمن قلدهم من أهل السنة الفضلاء، تجاوز الله عنا وعنهم.

(١) البداية والنهاية (٢٩٠/٩).

وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم قال: لما استخلف عمر بن عبدالعزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم... فلما بلغه خبرهم من طريق حَيوة بن شريح سأله من بالباب؟ فذكرهم واحداً واحداً حتى أتى على ذكر الأخطل وكان بالباب، فقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى ورضي عنه قال:

أوليس هو الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً
ولست بزاجر عيسا بكور
ولست بزائر بيتاً بعيداً
ولست بقائم كالعير أَدعو
ولكني سأشربها شمولاً
ولست بأكل لحم الأضاحي
إلى بطحاء مكة للنجاح
بمكة أبتغي فيه صلاحي
قبيل الصبح حي على الفلاح
وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يدخل عليّ وهو كافر أبداً. اهـ.

ثم لو فرضنا أن البيت صحّ، وأنه يستدل بشعره كما استدلّ بشعر من كفر قبله لكان ينبغي أن يحمل اللفظ على ما اتفق من معانيه لا أن يخترع له معنى لا يعرفه المبرّزون في اللغة كابن الأعرابي، والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهم، وكل أهل فن أدري بما فيه قال تعالى: ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في تفسيره^(١): ... وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية. وقد شدّ قوم فقالوا: العرش بمعنى الملك. وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز، مع مخالفة الأثر؛ ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(٢)، أترأه كان الملك على

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ في سورة الأعراف (٤٩٣/٢).

(٢) الآية (٧) من سورة هود.

الماء؟ وكيف يكون الملك ياقوتة حمراء؟ وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى؛ ويحتج بقول الشاعر:

حتى استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق
ويقول الشاعر أيضاً:

هما استويا بفضلهما جميعا على عرش الملوک بغير زور
وهذا منکر عند اللغويين^(١).

قال ابن الأعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم (أي الفرية والكذب). قالوا: وإنما يقال استولى فلان على كذا، إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه؛ والله سَعَى لم يزل مستولياً على الأشياء؛ والبيتان لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوي؛ ولو صحا، فلا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستولياً. نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة اهـ.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَيَعْلَمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرِكُهَا وَلَا يَبْسُطُ وَلَا يَكْبِتُ وَلَا يَأْتِي إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وما توسوسُ به نفس المريد يعلمه، أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ)، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٣٣٩) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والبيت مصنوع.

(٢) الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾^(١) وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿٤﴾^(٢)، فالإنسان مخلوق والله الخالق، وبين سبحانه مادة خلق الإنسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿٤﴾^(٣)، والإنسان من الناس اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والواحد والجمع، واختلف في اشتقاقه مع اتفاقهم على زيادة النون الأخيرة؛

فقال البصريون: من الأُنْسِ فالهمزة أصلية ووزنه فعلان.

وقال الكوفيون: مشتق من النسيان فالهمزة زائدة ووزنه إفعان على النقص، والأصل إنسيان على وزن إفعلان، ولهذا يرد في التصغير إلى أصله (أَنِّيْسِيَان)، قلت: وهذا الذي نسمع تكراره على ألسنة كثير وهو أن اشتقاق الإنسان من النسيان:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه وما القلب إلا لأنه يتقلب

وهل يجوز إطلاق لفظ خلق بمعنى الإيجاد أو الصنع لغير الله تعالى؟

قال الألوسي رحمه الله تعالى: «والخلق بمعنى التقدير وهو وصف يطلق على غيره تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾^(٤)، وقول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وفي معنى ذلك تفسيره بالصنع كما فعل ابن عطية، ولا يصح تفسيره بالإيجاد عندنا إذ لا خالق بذلك المعنى غيره تعالى إلا أن يكون على الفرض والتقدير. والمعتزلة يفسرونه بذلك لقولهم: بأنَّ العبد خالق لأفعاله وموجد لها استقلالاً، فالخالق الموجد متعدد عندهم، وقد تكفلت الكتب

(١) الآيات (١ - ٣) من سورة الرحمن.

(٢) الآية (٤) من سورة التين.

(٣) الآية (١٤) من سورة الرحمن.

(٤) الآية (١١٠) من سورة المائدة.

الكلامية بردهم» اهـ^(١).

وهو سبحانه يعلم الإنسان (وَيَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) لأنه خالقه وصانعه، فهو محيط سبحانه علمه بكل شيء، قال القرطبي في تفسيره: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني الناس، وقيل آدم. ﴿وَنَعَلْنَا مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾ أي: ما يختلج في سره وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفي بها. ومن قال: إن المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة، ثم هو عام لولده. والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفي.

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ والوسوسة: الصوت الخفي. والوسوسة: حديث النفس؛ يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا (بكسر الواو). والوسواس (بالفتح): اسم، مثل الزلزال. ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلي: وسواس.

قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

والوسواس: اسم الشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (٤) (٢) (٣).

والوسوسة: هي ما يجول في الصدر من الخواطر، والأفكار السيئة والمشغلة للعبد عن ربه، والبعد به عن صراط الله المستقيم، وهي أقسام ودركات، أشنعها ما تقدم معنا في وسوسة الشيطان اللعين في التفكير في شأن الخالق، وقدمنا العلاج في ذلك، ثم منها ما يتعلق بالعبادات والمعاملات ومخالطة الناس، نعوذ بالله من شر الوسواس الخناس.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي. (عند تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾).

(٢) الآية (٤) من سورة الناس.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥٨/٧).

(وهو أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)، وكلّ هذا الذي أورده المصنف منتزع من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١) قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: الملائكة، أقرب إلى الإنسان، من حبل وريده، ومن تأوله على العلم؛ فإنما فر لثلا يلزم حلول، أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢)، يعني: ملائكته، وكما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٣) فالملائكة نزلت بالذكر، وهو القرآن، بإذن الله - ﷻ - وكذلك الملائكة، أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، بإقدار الله لهم على ذلك. اهـ (٤).

إلا أن المصنف اقتبس من الآية، وجعل الضمير مفرداً مما يدل على عوده على الله فيكون قربه جل جلاله قرب علم وإحاطة بالعبد ظاهراً وباطناً قال تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥) وقال على لسان خليله عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّناً إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعَلِّنُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٦) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٧). فالله جلّ وعزّ علمه بكلّ شيء محيط ما كان منه وما لم يكن أن لو كان كيف يكون وقد قال سبحانه عن ذلك ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ... الآية [الأنعام: ٢٧] أمر لا

(١) الآية (١٦) من سورة (ق).

(٢) الآية (٨٥) من سورة الواقعة.

(٣) الآية (٩) من سورة الحجر.

(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٤/٢١٩٠).

(٥) الآية (٣) من سورة سبأ.

(٦) الآية (٣٨) من سورة إبراهيم.

(٧) الآية (٥) من سورة آل عمران.

يكون أن لو كان كيف يكون من كذبهم حتى لو ردوا فإنهم لا يستقيمون على الهدى؛ ثم أورد رحمه الله تعالى قول الله تعالى دليلاً على أن كل ما هو كائن في هذا الوجود من حركة أو سكون قد سبق علم الله به.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ فقدت حياتها وأصابها الذبول والفناء؛ وقد أصابها السقوط والانحدار، من علو إلى سفلى، ومن حياة إلى اندثار ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ قد بزغت ونمت، وانبتت من الغور إلى السطح، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق، فأزهرت وأثمرت قال تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾^(١) ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢) فلا يغيب عن علم الله من ذلك شيء جملة وتفصيلاً ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

قال القرطبي: (وقيل: المعنى «وما تسقط من ورقة» أي: من ورقة الشجر إلا يعلم متى تسقط، وأين تسقط، وكم تدور في الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت، وكم تنبت، ومن يأكلها، «وظلمات الأرض» بطونها وهذا أصح) اهـ^(٤)؛ والآية من أعظم الأدلة على أن الذي يعلم الغيب إنما هو الله الخالق البارئ، ومن ادعى علم الغيب فهو كافر.

فصل في استواء الرب على العرش، وذكر ما يتعلق بأسمائه الحسنی:

قال المصنف رحمه الله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥) وَعَلَى الْمُلْكِ اِحْتَوَى، وله الأسماء الحُسنى والصفات العُلى، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقةً، وأسمائه مُحدثةً.

(١) الآية (٤٧) من سورة فصلت.

(٢) الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٣) الآية (٣) من سورة سبأ.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/٧).

(٥) الآية (٥) من سورة طه.

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْعَيْبِ حَوَى
وَهُوَ لَهُ الْمُلْكُ وَالْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
وَلِصِفَاتِهِ وَلِلْأَسْمَاءِ
صِفَةٌ عِلْمٌ مِّنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى
وَبِالْصِّفَاتِ الْعَالِيَّاتِ يُسْنَى
حَقِيقَةُ الْقِدَمِ وَالْبَقَاءِ

﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١) وقد تقدم الكلام عن هذه الصفة المباركة وهي صفة الاستواء، ونضيف هنا ما قاله ابن كثير وما نقله، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك (فبدأ بإمامنا) والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢) بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ^(٣).

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى في الإبانة^(٤): «وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥)، أنه استولى وملك وقهر، وأن الله تعالى في كل

(١) الآية (٥) من سورة طه.

(٢) الآية (١١) من سورة الشورى.

(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٩١٢/٢).

(٤) الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (١٠٨) دار الأنصار - القاهرة الطبعة الأولى، ١٣٩٧ تحقيق: د. فوقية حسين محمود.

مكان، وجحدوا أن يكون الله ﷻ مستو على عرشه، كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة» وذكر البراهين والأدلة على ما ذهبوا إليه فانظره في الإبانة تستفد، وقد سلف بيان ذلك فارجع إليه.

(وعلى المُلْكِ اِحْتَوَى)، قال في القاموس: احتواه واحتوى عليه: جمعه، وأحزره؛ وفي النهاية: تَحَاوَتْ عَلَيْكَ الْفُضُولُ، هي تفاعلت، من حَوَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا جَمَعْتَهُ^(١). فالمراد باحتوى في كلام المصنف: الإحاطة، والله أعلم...

قال الشيخ العباد: ولما قال المصنف: على العرش استوى قال عقبه «وعلى الملك احتوى وكأنه يشير بذلك إلى إبطال قول المتكلمين: استوى بمعنى استولى؛ لأن الله عز وجل مالك كل شيء: العرش وغير العرش، والله وحده الخالق، ومن سواه مخلوق، والذي تفرّد بالخلق والإيجاد هو المتفرّد بالملك، قال الله عز وجل: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِنَّ مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾^(٤).

أسماء الله وصفاته:

قوله: (له الأسماء الحُسنَى والصفات العُلَى لم يزل بِجَمِيعِ صفاته وأسمائه تعالى أن تكون صفاته مخلوقةً وأسمائه مُحدثةً).

(له الأسماء الحسنَى) قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٥) وقال جل في علاه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٦).

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١٠٩١) باب الحاء مع الواو.

(٢) الآية (١) من سورة الملك.

(٣) الآية (١١١) من سورة الإسراء.

(٤) الآية (٢٢) من سورة سبأ.

(٥) الآية (١٨٠) من سورة الأعراف.

(٦) الآية (٢٤) من سورة الحشر.

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨) (١)، والأسماء: جمع اسم وهو مأخوذ من السمة وهي العلامة، أو من السمو وهو العلو والرفعة، ووصفها بالحسنى لدلالاتها على أشرف المعاني وأفضلها، قال القرطبي: سمي الله سبحانه أسماء بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله.

والحسنى مصدر وصف به؛ ويجوز أن يقدر «الحسنى» فعلى، مؤنث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكبر والحسن. اهـ.

يقول قوام السنة الأصفهاني (ت ٥٣٥ هـ): (قال بعض العلماء: أول فرض فرضه الله على خلقه: معرفته، فإذا عرفه الناس عبده، قال الله تعالى): ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها؛ فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامل رجلاً: طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، فالله الذي خلقنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته، ونخاف من سخطه، أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها» (٢). وفقه أسماء الله تعالى وصفاته يوجب تحقيق الإيمان والعبادة لله وحده، وإفراده - سبحانه - بالقصد والحب والتوكل وسائر العبادات، كما بيّن ذلك أهل العلم. ولذا: يقول العز بن عبدالسلام: «فهم معاني أسماء الله (تعالى) وسيلة إلى معاملته بثمراتها من: الخوف، والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات» (٣). ويقول أيضاً: «ذكرُ الله بأوصاف الجمال موجب للرحمة، وبأوصاف الكمال موجب للمهابة، وبالتّوحد بالأفعال موجب للتوكل، وبسعة الرحمة موجب للرجاء، وبشدة النعمة موجب للخوف، وبالتفرد بالإنعام موجب للشكر، ولذلك قال (سبحانه): ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤). ويقول ابن

(١) الآية (٨) من سورة طه.

(٢) الحجة في بيان المحجة، (١/١٢٢).

(٣) شجرة المعارف والأحوال (ص ١).

(٤) الآية (٤١) من سورة الأحزاب.

القيم في هذا الصدد: «لا يستقرّ للعبد قدم في المعرفة بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الربّ (جلّ جلاله) ويعرفها معرفة تخرج عن حدّ الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتعرّفها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان... (١) ... والله جلّ جلاله، وتقدست أسماؤه، وتزهت صفاته، له كلّ نعوت الكمال والجلال والجمال، لذلك يحب المدح ويثيب عليه قال ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْيَرَ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ». رواه أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن مسعود ﷺ (٢).

وقد ورد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلاّ واحداً، من أحصاها دخل الجنّة، وهو وتر يحب الوتر» أخرجاه في الصحيحين (٣)، [ومعنى أحصاها: حفظها، لورود رواية مرجحة بلفظ «حفظها» كما ذهب إلى ذلك البخاري رحمه الله تعالى] (٤)؛ والحديث أيضاً أخرجه الترمذي (٥) في جامعه عن الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله «يحبّ الوتر: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار، القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط، الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير، الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور، الشكور العليّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم،

(١) مدارج السالكين (٣/٣٤٧).

(٢) أخرجه أحمد ٣٨١/١ (٣٦١٦) والبخاري ٤٥/٧ (٥٢٢٠) و١٤٧/٩ (٧٤٠٣) و«مسلم» ١٠٠/٨ (٧٠٩١).

(٣) أحمد ٢٥٨/٢ (٧٤٩٣) و«البخاري» (٢٧٣٦ و٧٣٩٢)، و«مسلم» (٦٩٠٦).

(٤) ولمعنى الإحصاء تفسيرات أخرى منها: الإحاطة بجميع معانيها، ومنها: العمل بها حيث إذا قال الحكيم سلم الأمر لله في جميع ما يصيبه ويخطئه، وإذا قال الرحيم اتسم بصفة الرحمة وهكذا. انظر الفتح، والعقيدة في الله للأشقر.

(٥) «الترمذي» (٣٥٠٨).

الرقيب المجيب الواسع الحكيم، الودود المجيد الباعث الشهيد الحق، الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد، المحيي المميت، الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد، الفرد الصمد، القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر، الظاهر الباطن الوالي المتعالي، البر التواب المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني، المانع الضار النافع، النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور» ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ابن كثير: ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به.

وقد رواه ابن ماجه في سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً فسر الأسماء كنحو مما تقدم بزيادة ونقصان، والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن. كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم.

وقد جمع العلامة المحدث عبدالمحسن العباد في كتابه قطف الجنى تسعة وتسعين مع أدلتها رأيت إيرادها، وكنت أودُّ سَوِّقَ شرحها أيضاً لكن رأيت أن ذلك يثقل الكتاب وسأشير إلى بعض من شرحها. قال حفظه الله تعالى:

لم يثبت في سرد الأسماء حديثٌ، وقد اجتهد بعضُ العلماء في استخراج تسعة وتسعين اسماً من الكتاب والسُّنَّة، منهم الحافظ ابن حجر فقد جمع هذا العدد في كتاب فتح الباري^(١)، وفي التلخيص الحبير^(٢)، ومنهم الشيخ محمد بن عثيمين في كتابه القواعد المثلى^(٣)، وهذه الكتب

(١) فتح الباري (٢١٥/١١).

(٢) التلخيص الحبير (١٧٢/٤).

(٣) القواعد المثلى (ص ١٥ - ١٦).

الثلاثة متَّفَقَةٌ في أكثر الأسماء، ويوجد في أحدها ما لا يوجد في الآخر.

وأسْرُدُ فيما يلي تسعة وتسعين من أسماء الله الحسنى، مرتَّبةً على حروف الهجاء، ومع كلِّ اسم دليله من الكتاب أو السنَّة، وفيها زيادة على ما في الكتب الثلاثة اسمًا: (الستير، والديان).

١ - الله: يُطلق على هذا الاسم لفظ الجلالة، ويأتي مراداً به المسمَّى مبتدأ، ويُخبر عنه بالأسماء، مثل: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥] ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وتنسب له الأسماء كما قال عَجَلان: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢، ٣، ٤، ٥ - الأول، والآخر، والظاهر، الباطن: ودليله قوله تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

٦ - الأكرم: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣].

٧ - الأحد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

٨ - الصمد: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢].

٩ - الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١،

٢٢، ٢٣ - البارئ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيِّمُنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ: ودليلها:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [١٧]

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُنُ الْعَزِيزُ

الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٣] ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٢٤]

[الحشر: ٢٢-٢٤].

٢٤، ٢٥ - الغفور، الرحيم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

٢٦ - البرُّ: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

٢٧، ٢٨ - السميع، البصير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: ١١].

٢٩، ٣٠ - الخلاق، العليم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٦﴾ [الحجر: ٨٦].

٣١ - الحكيم: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم: ٢].

٣٢ - التواب: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

٣٣ - الجميل: دليله حديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» رواه مسلم^(١).

٣٤ - الحافظ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

٣٥ - الحق: ﴿ذَلِكَ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦].

٣٦ - الحسيب: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

٣٧ - الحليم: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

٣٨ - الحميد: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

٣٩، ٤٠ - الحي، القيوم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٤١، ٤٢ - الحيي، الستير: «إِنَّ اللَّهَ وَجَدَكَ حَيِي سَتِيرًا، يَحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ» رواه أبو داود^(٢).

٤٣ - الخبير: ﴿تَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣].

٤٤ - الديان: دليله قول رسول الله ﷺ: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ - أَوْ قَالَ:

الناس - عُرَاةً غُرْلًا بُهُمَا، قَالَ: قَلْنَا: مَا بِهِمَا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَّانُ» الحديث، أخرجه الحاكم في المستدرک، والذهبي، والحافظ في الفتح، والألباني في صحيح الأدب المفرد^(٣).

٤٥ - الحكم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» رواه أبو داود^(٤) وغيره.

(١) مسلم (١٤٧).

(٢) أبو داود (٤٠١٢)، وإسناده حسن.

(٣) الحاكم في موضعين (٤٣٨/٢)، و(٥٧٤/٤)، وصححه وأقره الذهبي، وحسنه الحافظ (١٧٤/١)، والألباني (٧٤٦).

(٤) أبو داود (٤٩٥٥) وإسناده حسن.

- ٤٦ - الحفيظ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هؤود: ٥٧].
- ٤٧، ٤٨ - الرزاق، المتين: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].
- ٤٩، ٥٠ - القدير: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ [المثلك: ١].
- ٥١ - القوي: ﴿بِرُّزُقٍ مِّنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].
- ٥٢ - القريب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].
- ٥٣ - الشكور: ﴿إِن رَّبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].
- ٥٤ - الشاكر: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].
- ٥٥ - الغني: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].
- ٥٦ - الفتح: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾ [سبأ: ٢٦].
- ٥٧ - الكبير: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿١٢﴾ [الحج: ٦٢].
- ٥٨ - الكريم: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿٦﴾ [الانفطار: ٦].
- ٥٩ - الكفيل: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [التحل: ٩١].
- ٦٠ - اللطيف: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المثلك: ١٤].
- ٦١ - الممين: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [الثور: ٢٥].
- ٦٢ - المتعال: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ﴿٩﴾ [الزهد: ٩].
- ٦٣ - المجيب: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هؤود: ٦١].
- ٦٤ - المجيد: ﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ﴾ [هؤود: ٧٣].
- ٦٥ - المحسن: ودليله: «إن الله محسن يحب المحسنين» رواه ابن أبي عاصم في الديات، وأبو نعيم في أخبار أصبهان^(١).

(١) ابن أبي عاصم (ص ٥٦)، وأبو نعيم (١١٣/٢) وإسناده حسن كما قال الألباني في الصحيحة (٤٧٠) وانظر صحيح الجامع الصغير (١٨١٩) و(١٨٢٠).

- ٦٦ - المحيط: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].
- ٦٧ - الوكيل: ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].
- ٦٨ - الواسع: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].
- ٦٩ - الحق: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [الثور: ٢٥].
- ٧٠ - المقتدر: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].
- ٧١، ٧٢ - المقدم، المؤخر: دليلهما حديث: «أنت المقدم، وأنت المؤخر» رواه البخاري ومسلم^(١).
- ٧٣ - المقيت: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ [النساء: ٨٥].
- ٧٤ - المليك: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].
- ٧٥ - المنان: دليله حديث: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان» رواه أبو داود^(٢).
- ٧٦ - المعطي: دليله حديث: «والله المعطي وأنا القاسم» رواه البخاري^(٣).
- ٧٧، ٧٨ - المولى، النصير: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].
- ٧٩، ٨٠ - الواحد، القهار: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].
- ٨١ - الوتر: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا» رواه البخاري، ومسلم^(٤).
- ٨٢ - الودود: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البُرُوج: ١٤].
- ٨٣ - الولي: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ﴾ [الشورى: ٩].
- ٨٤ - الوهاب: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].
- ٨٥ - السيد: «السيد الله تبارك وتعالى» رواه أبو داود^(٥).

(١) البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٧١).

(٢) أبو داود (١٤٩٥) بإسناد حسن.

(٣) البخاري (٣١١٦).

(٤) البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٥) أبو داود (٤٨٠٦) وإسناده حسن.

- ٨٦ - الشافي: «اشف أنت الشافي» رواه البخاري، ومسلم^(١).
- ٨٧ - الشهيد: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].
- ٨٨ - الطيب: «إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً» رواه مسلم^(٢).
- ٨٩ - العفو: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].
- ٩٠ - الغالب: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].
- ٩١ - الرفيق: «إن الله رفيق يحب الرفق» رواه البخاري، ومسلم^(٣).
- ٩٢، ٩٣ - السبوح، والقدوس: «سبوح، قدوس رب الملائكة والروح» رواه مسلم^(٤).
- ٩٤ - الغفار: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [توح: ١٠].
- ٩٥ - الهادي: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].
- ٩٦ - الوارث: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣].
- ٩٧ - الإله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].
- ٩٨ - الرب: ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].
- ٩٩ - الرؤوف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحل: ٧].

ثم ليعلم القارئ الكريم أن أسماء الله الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم عن عبدالرحمن عن أبيه، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن

(١) البخاري (٥٧٤٢)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) مسلم (١٠١٥).

(٣) البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

(٤) مسلم (٤٨٧).

تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً» فقل يا رسول الله: أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»^(١) وقد أخرج الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر العربي أحد أئمة المالكية في كتابه عارضة الأحوزي في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم اهـ^(٢)

وقد بحث الحافظ ابن حجر - في الفتح - مسألة الأسماء بحثاً قيماً ينبغي أن ينظر في «باب لله مائة اسم غير واحد»^(٣).

ضوابط تتعلق بالأسماء الحسنى:

الضابط الأوّل:

أنّ أسماء الله تعالى توقيفية بمعنى تحتاج إلى دليل مخبر أن هذا اسم من أسمائه الحسنى^(٤)، وهو مذهب الجمهور كما أشار إليه زروق في شرح الرسالة^(٥).

الضابط الثاني:

ليس كل فعل يمكن اشتقاق اسم منه لله كما ذهب إلى ذلك أبو بكر ابن العربي رحمه الله تعالى حيث عد من أسمائه الفاعل والزارع أخذاً

(١) أحمد (٣٧١٢) وانظر (مجمع ١٣٦/١٠ ١٨٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٢/٩٦٥).

(٣) فتح الباري للحافظ ابن حجر، كتاب الدعوات (٢١٨/١١)، وألف الإمام المفسر القرطبي كتاباً سماه الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى، - ولأبي نعيم الأصبهاني (طرق حديث الأسماء الحسنى) مطبوع.

(٤) قاله الأشعري. انظر زروق (٢٦)، والقواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد بن صالح العثيمين (١٣)، وانظر بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٦٢).

(٥) شرح زروق (ص ٣٣).

من قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، ومن قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤) (١). وزاد ابن العربي اجتهاداً منه: رابع ثلاثة، وخامس أربعة، وسادس خمسة أخذاً من قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، والحق أن هذه ليست أسماء لله تعالى.

إذ لا يطلق على الله جل وعلا أسماء نشتقها من أوصاف جاءت في ذكر الجزاء والعدل والمساكلة، وهي فيما سقت فيه مدح وكمال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ وقوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ وقوله: ﴿تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ﴾ فلا يطلق على الله سبحانه: مخادع، وماكر، وناس، ومستهزئ، ولا يقال: الله يستهزئ، ويخادع، ويمكر وينسى على سبيل الإطلاق وإنما يجب ذكر ذلك مقيداً كما ورد في الذكر الحكيم (٢).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى: نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه: من باب المقابلة كقوله: ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ (٣)، وقوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (٤)، وهو في اللغة، كقول القائل، لما سئل عن أي الطعام يريد، وهو عارٍ يريد كسوة.

قالوا: اختر طعاماً نجد لك طبخه قلت: اطبخوا لي جبّة وقميصاً

وقد اتفق السلف، أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد، لأنه في

(١) معارج القبول للحافظ الحكمي (١/٧٧).

(٢) انظر معارج القبول، والعقيدة في الله تعالى للأستاذ عمر الأشقر (٢٠٨).

(٣) الآية (٥٤) من سورة آل عمران.

(٤) الآيتان (١٤ - ١٥) من سورة البقرة.

غير المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة، والكيـد أصله المعالجة للشيء بقوة» اهـ^(١) . . .

واعلم أن من أسماء الله تعالى ما لا يطلق إلا مقترناً بمقابله، لأنه إن أطلق وحده أوهم نقصاً فمن ذلك: المانع، الضار، القابض، المذل، الخافض، فلا تطلق إلا مقترنة بما يقابلها: فيقال: القابض الباسط، المعز المذل، الضار النافع، الخافض الرافع.

ومن ذلك المنتقم، لم يأت في القرآن إلا مضافاً إلى: (ذو) كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٢)، أو مقيداً بالمجرمين كقوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾^(٣).

الضابط الثالث:

اسم الله الأعظم: لقد جاءت أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ تشير أن لله تعالى اسماً أعظم من بين أسمائه، من دعا به أعطي سؤله، ونال أمله، وأجيبت دعوته فمن تلك الأحاديث: حديث بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»، فقال: «دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب». رواه مسلم وأبو داود والترمذي^(٤).

وحديث أنس رضي الله عنه قال كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد، ورجل يصلي فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم

(١) أضواء البيان للأمين (١٤٦/٩).

(٢) الآية (٤٧) من سورة إبراهيم.

(٣) الآية (٢٢) من سورة السجدة.

(٤) أخرجه أحمد ٣٤٩/٥ (٢٣٣٤٠) و«مسلم» ١٩٢/٢ (١٨٠١) و«أبو داود» ١٤٩٣ والترمذي «٣٤٧٥» و«ابن ماجه» ٣٨٥٧.

أسألك»، فقال النبي ﷺ: «دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى». رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه^(١).

وقوله ﷺ: «اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث في [البقرة] و[آل عمران] و[طه]». الألباني^(٢).

قال القاسم أبو عبد الرحمن فالتمست في البقرة فإذا هو في آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾﴾ وفي آل عمران فاتحتها ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

(فائدة) «قول القاسم: إن الاسم الأعظم في آية ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ من سورة «طه»، لم أجد في المرفوع ما يؤيده فالأقرب عندي أنه في قوله في أول السورة ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا...﴾ فإنه الموافق لبعض الأحاديث الصحيحة فانظر الفتح، وصحيح أبي داود^(٣).

ورجح بعض العلماء أن الاسم المقصود هو اسم الجلالة (الله) لوروده في جميع النصوص التي أخبر النبي ﷺ أنه موجود بها، وأنه تكرر في القرآن (٢٦٩٧) سبعا وتسعين وستمئة وألفين^(٤).

وقد ادعى بعض الناس أن لكل اسم من أسماء الله خواصاً وأسراراً، وفتح باباً للخرافات والقول على الله بغير علم، وقام سوق المتاجرة بإعطاء هذا ومنع ذلك من الاسم الأعظم، وأن فلاناً ربّما يصل به الحال إلى أنه

(١) الحديث صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧٢/١٠) (٢٩٣٥٢) و٣١/١٤ (٣٥٥٩٧). و«أحمد» ١٢٠/٣ (١٢٢٢٩) وأبو داود (١٤٩٧). والترمذي (٣٥٤٤) وابن ماجه (٣٨٥٨) وأخرجه الضياء في الأحاديث الجياد (١٨٨٤) وقال: إسناده حسن، وابن حبان في صحيحه (٨٩٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٢) قال الألباني: حسن، رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وللطحاوي «مشكل الآثار» (٦٣/١).

(٣) الفتح (١١/٢٢٥)، وصحيح أبي داود (١٣٤١). وقاله الشيخ الألباني رحمه الله تعالى السلسلة الصحيحة (٣٧١/٢).

(٤) انظر العقيدة في الله تعالى (٢١٢) وقال حسب المعجم المفهرس للقرآن الكريم.

يحيي ويميت به، وخلاصة الأمر أنّ ذلك ضحك من الشيطان على قوم صُدُّوا عن اتباع السنن الصحيحة، والشريعة الواضحة الفصيحة «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١).

الضابط الرَّابِع:

اعلم أنّ معرفة أسماء الله جل وعلا تزيد المؤمن إيماناً واطمئناناً، وتأخذ بيده إلى الاستعانة به ودعائه بأسمائه التي أمرنا أن ندعو بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وكان من هدي المصطفى ﷺ الدعاء بها والحث على تعلمها وتعليمها كما مر قريباً في حديث «أسألك بكل اسم هو لك . . .» الحديث. وحري بالعبد الموحد أن يلجأ إلى الله بما شرع في كتابه وهدي رسوله ﷺ، ويتعد عن المحدثات التي تهدم دينه وعقيدته.

فالدعاء هو أكد العبادات وأعظمها؛ أو الدعاء هو العبادة كما أخبر المصطفى، وهو لا ينفك عن إثبات وفقه أسماء الله (تعالى) وصفاته. ويشير ابن عقيل إلى هذه الصلة بقوله: (قد ندب الله (تعالى) إلى الدعاء، وفي ذلك معانٍ: أحدها: الوجود، فإن من ليس بوجود لا يُدعى. الثاني: الغنى، فإنّ الفقير لا يُدعى. الثالث: السَّمْع، فإنّ الأصمّ لا يُدعى. الرابع: الكرم، فإنّ البخيل لا يُدعى. الخامس: الرحمة، فإنّ القاسي لا يُدعى. السادس: القدرة، فإنّ العاجز لا يُدعى)^(٢).

وتأخذ معرفتها وفقها إلى التوكل على الله، والثقة بالرزق، فمن عرف اسم الرازق قطع الأطماع عن الخلائق، وارتجى الله وتلك مراتب عظيمة، لا ينالها إلا المتجردون عن الأغيار يقول قوام السنة الأصفهاني أثناء حديثه عن اسم الله (تعالى) (الرازق): (الرازق: المتكفل بالرزق، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها، وَسِعَ الخلقَ كلهم رزقُه، فلم يخص بذلك مؤمناً دون كافر، ولا ولياً دون عدو، ويرزق مَنْ عبده وَمَنْ عبد غيره، والأغلب

(١) أخرجه أحمد (٧٣/٦)، والبخاري (٢٤١/٣)، و«مسلم (١٣٢/٥).

(٢) شرح الطحاوية، (٦٧٨/٢).

من المخلوق أن يرزق فإذا غضب منع، حكى أن بعض الخلفاء أراد أن يكتب جِراية لبعض العلماء، فقال: لا أريده، أنا في جِراية من إذا غضب عليّ لم يقطع جِرايته عني، قال الله (تعالى): ﴿وَكَيْفَ تَتَذَكَّرُ إِلَّا نَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾^(١)، والمخلوق إذا رزق، فإنه يفنى ما عنده فيقطع عطاؤه عمن أفضل عليه، فإن لم يفن ما عنده فني هو وانقطع العطاء، وخزائن الله لا تنفذ وملكه لا يزول...^(٢). ولما ذكر القرطبي من أسماء الله (تعالى) (الحفيظ) محتجاً بقوله (تعالى): ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾^(٣)، قال: (يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله هو الحافظ لجميع الممكنات، وأعظم الحفظ: حفظ القلوب وحراسة الدين عن الكفر والتفارق وأنواع الفتن وفنون الأهواء والبدع؛ حتى لا يزل عن الطريقة المثلى، قال (تعالى): ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾^(٤). ويجب علينا حفظ حدوده، وحفظ ما وجب علينا من حقوقه، فيدخل في ذلك: معرفة الإيمان والإسلام وسائر ما يتعين علينا علمه...^(٥).

الضابط الخامس:

أن أسماء الله كلها مشتقة تدل على صفات عُلَى، وليس فيها اسم جامد.

(والصفات العُلَى) جمع صفة وهي المعنى القائم بالوصوف كالقدرة والإرادة والعلم، والحياة. والعلى جمع العليا تأتيث الأعلى أي المرتفعة عن كل نقض ونقص، والصفات قسمان: صفات ذات، وصفات فعل.

(١) الآية (٦٠) من سورة العنكبوت.

(٢) الحجة في بيان المحجة، ج ١، ص ١٣٨، وانظر: الأسنى للقرطبي، (٢٨٤/١).

(٣) الآية (٦) من سورة الشورى.

(٤) الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.

(٥) الأسنى، شرح أسماء الله الحسنى، (٣١١/١).

فصفات الذات: هي ما اتصفت بها الذات العلية أولاً وأبداً، كالعلم والحياة والقدرة والوجه واليد ونحوها، وصفات الفعل هي ما تعلق بمشيئة الله وإرادته، كالخلق والرزق والإحياء، وهذا النوع من الصفات نوعها قديم؛ وآحادها حادثة كما بيّن ذلك المحققون^(١)، فمثلاً: صفة الخلق باعتبار نوعها صفة أزلية من صفات الخالق، وحدثها يتجدد مع أمره للشيء (كن فيكون)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)، والصفات منها أيضاً ما اتصف الله جل وعلا به مرة كالاستواء، ومنها ما يتكرّر على الكيفية التي يعلمها جلّ جلاله كالنزول.

والله جل وعلا (لَمْ يَزَلْ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مَخْلُوقَةً وَأَسْمَاؤُهُ مُحَدَّثَةً) أي: لم يزل متصفاً بجميع صفاته، ومسمى بجميع أسمائه فهو الخالق قبل أن يكون مخلوق، والرازق قبل أن يوجد مرزوق، والمحيي والمميت قبل أن يكون أحد من خلقه، تعالى أن تكون أسمائه محدثة، أو صفاته مخلوقة.

الكلام صفة من صفات الله العظيم، وأتته تعالى كلم موسى تكليماً:

قال المصنف رحمه الله تعالى: (كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ ذَاتِهِ، وَلَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ).

قال الناظم رحمه الله تعالى^(٣):

كَلَّمَ مُوسَى بِكَلَامِهِ الَّذِي صِفَّتُهُ لَا خَلْقُهُ فَاتَّخِذْ
وَلَا تَكَيِّفْ، وَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ فَصَارَ دَكًّا مِنْ جَلَالِ اللَّهِ جَلْ

(١) انظر قطف الجنى الداني (٩٣).

(٢) الآية (٨٢) من سورة يس.

(٣) قدم الناظم في نظمه الكلام عن القرآن ومحله التأخير عند المصنف فاجتزأت ما يطابق الكلام عند المصنف.

الشرح:

كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(٢)، فالرَّبُّ هو المتكلم، وموسى المتلقِّي لكلام الله جلّ وعلا، فأكد الله في الآية الأولى الكلام بالمصدر المثبت النافي للمجاز، وأنه كلام الله حقاً لا غيره، ولا خلق كلامه في غيره، ولا عبارة عن كلامه، بلا كيفية منه بدا وإليه يعود، وقد قال بعض المعتزلة الضالين لأبي عمرو ابن العلاء - أحد القراء السبعة - رحمه الله تعالى: أريد أن تقرأ (وكلم الله موسى) بنصب اسم الجلالة الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله! فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾^(٣) فبهت المعتزلي!. وكم من دليل في الكتاب والسنة على تكلم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم^(٤).

قال الخلال: «وأخبرنا المروزي: سمعت أبا عبد الله، وقيل له: إن عبد الوهاب قد تكلم، وقال: من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله، وعدو للإسلام: فتبسم أبو عبد الله، وقال: ما أحسن هذا، عافاه الله»^(٥).

وقال الخلال في «السنة»: أخبرنا علي بن عيسى أن حنبلاً حدثهم، قال: إن أبا عبد الله يقول: من زعم أن الله لم يكلم موسى، فقد كفر بالله، وكذب القرآن وردّ على رسول الله ﷺ أمره، يُستتاب من هذه المقالة، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

(١) الآية (١٦٤) من سورة النساء.

(٢) الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

(٣) الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

(٤) والقصة نسبها أيضاً ابن كثير لأبي بكر ابن عياش المقرئ (١/٦٥٩)، وانظر شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي (١٣١ - ١٣٢).

(٥) «شرح الأصفهانية»، رسالة دكتوراه (ص١٩٣).

قال: وسمعت أبا عبد الله قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى، ثم قال يؤكد كلامه: ﴿تَكْلِيمًا﴾^(١).

وما أجمل ما فعله الأمير خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسطة - رحمه الله تعالى وبيض وجهه يوم تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدع - وذلك في أوائل المائة الثانية حيث ضحى بالجعد بن درهم الذي ابتدع في الإسلام بدعة تعطيل الكلام عن الرب، فخطب خالد في الناس يوم الأضحى فقال: «أيها الناس ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً»^(٢).

قوله: (وَتَجَلَّى لِلجَبَلِ فِصَارٌ دَكًّا مِنْ جَلَالِهِ).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾﴾^(٣)، قال ابن جرير الطبري: «فلما أطلع الرب للجبل، جعل الله الجبل دكاً، أي: مستویاً بالأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، أي: مغشياً عليه»^(٤).

وقال القرطبي: «وتجلى معناه ظهر، من قولك: جلوت العروس أي أبرزتها»^(٥). وفي زاد المسير لابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ أي: ثبت ولم يتضعض.

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/٢٩٦).

(٢) انظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات لمروعي بن يوسف الكرمي المقدسي (٢٣٩) / مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٦ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وشرح العقيدة الطحاوية (١/٢٩٣).

(٣) الآية (١٤٣) من سورة الأعراف.

(٤) تفسير الطبري (٩٧/١٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ قال الزجاج: ظهر، وبان. وقال أنس بن مالك في قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾: ساخ الجبل^(١).

لقد طلب موسى ﷺ من ربه ما يعتقد أنه ممكن وإلا لكان معتدياً في السؤال، فاستجاب الله لطلبه لأنه في حيز الممكن كما يشاء الرب جل وعلا، وجعل لذلك علامة إن تحققت أمامه فإنه سيراه في الدنيا وإلا فإنه لا يطبق الرؤية، فتجلى للجبل فاندك الجبل وساخ في الأرض ولم يتحمل، فصعق موسى ﷺ من ذلك وعلم أنه غير مهياً في هذه الحياة لرؤية الرب جل وعلا، وعدم رؤيته في الدنيا بقوله ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ ليس نفياً للرؤية في الآخرة كما فهمه المعتزلة وبعض أهل البدع، وأنكروا الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة، والآيات الفصيحة المتكاثرة، التي أخبرت عن رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة وفي جنات النعيم^(٢)؛ قال القرطبي: «قال علي بن مهدي الطبري: لو كان سؤال موسى مستحيلاً ما أقدم عليه مع معرفته بالله، كما لم يجر أن يقول له يا رب ألك صاحبة وولد»^(٣). نسأل الله ألا يحرمننا من رؤيته يوم الدين.

القرآن كلام الله جل وعلا:

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وليس بمخلوقٍ فَيَبِيدُ، ولا صفة لمخلوقٍ فينفد).

قال الناظم:

أَمَّا الْقُرْآنُ فَكَلَامُ اللَّهِ لَا مَخْلُوقٌ أَوْ وَصْفٌ لِمَخْلُوقٍ الْبَلَا

الشرح:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ

(١) زاد المسير (٣/٢٥٦).

(٢) وسيأتي الكلام عن رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/٢٧٩).

أَبْلَغُهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾^(١) فسماه كلامه، وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله، والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله، والأصل الحقيقة وقال النبي ﷺ - : «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي» رواه أبو داود وغيره^(٢).

وقال: «زيناوا القرآن بأصواتكم»^(٣)، وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٤)، وقال أبو نصر السجزي: «فأما الله - تعالى - فإنه متكلم فيما لم يزل، ولا يزال، إذا شاء ذلك، ويكلم من يشاء تكليمه بما يعرفه [المخاطب] ولا يجله، وكلامه أحسن الكلام، وفيه سور، وآي، وكلمات، وكل ذلك حروف، وهو المسموع منه على الحقيقة سماعاً يعقله الخلق، وجائز وجود أعداد من المكلمين يكلمهم في حال واحدة، بما يريد من كل واحد منهم، من غير أن يشغله تكليم هذا عن تكليم هذا».

وقال أيضاً: «لما وجدنا أحكام الشريعة المتعلقة بالكلام منوطة بالنطق الذي هو حرف وصوت، دون ما في النفس، علمنا أن حقيقة الكلام هو الحرف والصوت».

فلو حلف امرؤ أنه لا يتكلم ساعة من النهار، فأقام في تلك الساعة يحدث نفسه بأشياء، ولا ينطق بها، كان باراً، غير حانث.

ولو كان الكلام هو ما في النفس، حنث في أول ما يحدث به نفسه»^(٥).

(١) الآية (٦) من سورة التوبة.

(٢) أبو داود في «السنن» (٣٢٤/٤).

(٣) «سنن أبي داود» (٩٩/٢)، والنسائي (١٣٩/٢)، وابن ماجه (٢٤٦/٢)، والدارمي (٤٧٤/٢)، وأحمد في «المسند» (٢٨٣/٤، ٢٨٥).

(٤) أحمد ١٧٢/١ (١٤٧٦) والبخاري (٧٥٢٧) وأبو داود (١٤٦٩).

(٥) (الرد على من أنكر الحرف والصوت) لأبي نصر، رسالة ماجستير (ص ١٧٦) وعنه الغنيمان في شرح كتاب التوحيد مع النصوص التي تقدم ذكرها...

وقال أيضاً: «فالله - تعالى - قد بين في كتابه ما كلامه، وبين ذلك الرسول ﷺ واعترف به الصدر الأول والسلف الصالح، فقال الله - تعالى -: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا نَسَرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، والمستجير لا يسمع إلا كلاماً ذا حروف، والقارئ لا يقرأ إلا كلاماً ذا حروف.

ولما سمى تعالى هذا القرآن كلامه، علم أن كلامه حروف، وقد أكد ذلك بذكر الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كَهَيَّصَ﴾ ونحوها.

فمن زعم أن هذه الحروف ليست من القرآن فهو كافر، ومن قال: إنها من القرآن، والقرآن ليس كلام الله، فهو كافر، ومن زعم أنها عبارة عن الكلام الذي لا حروف فيه، فهو جهل وغباء؛ لأن ذلك لا يعرف، والنبى ﷺ قال: «من قرأ القرآن، فله بكل حرف عشر حسنات، لا أقول: (ألم) حرف، ولكن ألف حرف، وميم حرف، ولام حرف»^(١)، وبهذا يتبين أن القرآن سور، وآيات، وحروف، وهكذا كلام الله.

وقال أيضاً: «الأصل الذي يجب أن يعلم: أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسمين بها، فنحن إذا قلنا: إن الله موجود، رؤوف، واحد، حي، عليم، سميع، بصير، متكلم، وقلنا: إن النبي ﷺ كان موجوداً، حياً، عالماً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، لم يكن ذلك تشبيهاً، ولا خالفنا به أحداً من السلف، والأئمة.

وقد قال شيخنا العلامة محمد سالم ولد عبدالودود - رحمه الله تعالى -
ناظماً بعض ما تقدم:

وَيَتَكَلَّمُ مَتَى شَاءَ بِمَا شَاءَ كَمَا شَاءَ لَوْ أَنَّ الْكَلِمَا
مَدَادُهُ الْبَحْرُ بِسَبْعَةِ أُمِدِّ وَشَجَرُ الْأَرْضِ قِلَامٌ مَا نَفِذُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، وانظر الموضوع إن أمكن في رسالة: «الرد على من أنكر الحرف والصوت» (ص ١٨٦)، رسالة ماجستير.

ورحمةً سَكَتَ عن أشياء
أحاطَ بالناس وأينما يُوَلِّ
قد استوى إلى السماء واستوى
وليس كاستوائنا نحنُ على الذ
وحاملِيه، وإلى دُنْيَا السَمَا
يَنْزِلُ مخلوقٌ بإخلاقٍ حَيِّزٍ
وهو العَلِيُّ، لا تحُدُّه جِهَةٌ
قد اصطفى من مَلَكٍ ومن بَشَرٍ
والكُتُبُ التي على رِسْلِ البَشَرِ
قولُهُمُ: القرآنُ قد دَلَّ على الـ
بل بالحروفِ والمعاني وَرَدَا
ولا تَقُلْ ذَا الصَوْتِ عن تَمَوِّجٍ
أو حَرْفِهِ كِيفِيَّةً تحدثُ لَهُ
بقارئٍ بصوته أو حَرْفِهِ
فنحنُ حين نُنشِدُ الآن (قِفا
لسْنَا بِمُجْتَرِي هَوَاءٍ نَفَثَهُ
بالضَّغَطِ من كِيفِيَّةٍ إِذْ صَرَفَهُ
لا تضربوا الله الأمثال، ولا
كَلَّمَ موسى بكلامه، اتَّخَذُ
فَاللَّهُ لم يَسْكُتْ على ما أَوْهَمَا
مراده بقوليه: (مَرِضْتُ
أَسْمَاؤُهُ الحَسَنِي على الصِّفَاتِ
فَأَثْبِتُوا مِنْ وَصْفِهِ ما السَّلَفُ

من غير نسيانٍ - على ما جاء -
مستقبلٌ فثَمَّ وَجَهُ اللهُ - جَلَّ -
بعدُ على العرشِ بِخُلْفِ المُحتوى
فلكِ والأنعامِ، بل العرشِ حَمَلُ
يَنْزِلُ كل ليلةٍ، لا مِثْلَ ما
منه وشَغَلِ حَيِّزٍ - فمَيِّزٍ -
- ضَلَّ المعطلة والمشبَّهة -
رُسلًا فأدَّوا عنه ما به أَمْرُ
أَنْزَلَ من كلامه - جَلَّ - فَذَرُ
كَلَامٍ أو على الذي الكلامُ دَلَّ
واللهُ بالصوتِ يُكَلِّمُ غدا
هواءٍ أو تَخَلَّخِلِ فيه يَجِي
بالضَّغَطِ - جَلَّ اللهُ - أن نمثله
كلُّ وما لاقَ به من وصفِهِ
نَبِكِ) وقد أودى بمنشئها العفا
أو مُحَدِّثين عينَ ما قد أحدثه
ما بين حَلْقٍ وَلَهَاةٍ وشَفَه
تُضَعُّوا لمن عَطَّلَ أو من مِثْلَا
خليلاً إبراهيمَ - من أوَّلِ شَذُ -
حدوثاً أو نقصاً له بل أفهمَا
فلم تَعُدْني) وكذا في (جُعْتُ)
دَلَّتْ، فذَلَّتْ أوجه النفاة
أَثْبَتَتْ، وانفُوا ما نفى، ثُمَّ قَفُوا

والقرآن في الأصل مصدر، فتارة يذكر ويراد به القراءة كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١)، وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٢)، وتارة يذكر ويراد به المقروء قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

قوله: (وليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد) بالنصب في جواب النفي. وقد تقدم الكلام على ذلك بحمد الله تعالى.

وحاصل المعنى أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد أي يفنى، ولا صفة لمخلوق فينفد أي يذهب، قال الطحاوي رحمه الله تعالى: «وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصَلِّبُ سَفَرًا﴾^(٦)، فلما أوعده الله بسقر لمن قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^(٧) - علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر»^(٨).

وقال الإمام ابن خزيمة: «القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن قال إن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم لا تقبل شهادته، ولا يعاد إن مرض،

-
- (١) الآية (٧٨) من سورة الإسراء.
(٢) «سنن أبي داود» (٩٩/٢)، والنسائي (١٣٩/٢)، وابن ماجه (٢٤٦/٢)، والدارمي (٤٧٤/٢)، وأحمد في «المسند» (٢٨٣/٤، ٢٨٥).
(٣) الآية (٩٨) من سورة النحل.
(٤) الآية (٢٠٤) من سورة الأعراف.
(٥) الآية (٢٦) من سورة فصلت.
(٦) الآية (٢٦) من سورة المدثر.
(٧) الآية (٢٥) من سورة المدثر.
(٨) شرح العقيدة الطحاوية (٣٤/١).

ولا يصلى عليه إن مات، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ويستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه»^(١).

ومعلوم أن كلام الله صفة من صفاته فلا ينفد، وقد بين سبحانه أنه لو كان شجر الأرض كله أقلام، والبحر يمدّه سبعة أبحر، فإنّ كلمات الله لا تنفذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

الإيمان بالقضاء والقدر:

القضاء والقدر: أما القضاء في اللغة: الحكم والفصل.

وشرعاً: هو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير.

والقدر لغة: التقدير، يقال: قدر الشيء يقدره قدراً وقدراً من باب (ضرب)، إذا أحاط بمقداره، وفي الاصطلاح: هو ما قد عرفه به المصنف، وقيل هو: جزئيات ذلك الحكم القضائي، وهو إيجاد الأشياء بمعنى أن الله علم مقادير الأشياء قبل إيجادها، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته.

وقيل القضاء: إحكام الشيء وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(والإيمانُ بالقدرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ، حُلُوهُ وَمُؤْرُهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْرُهُ اللَّهُ رَبُّنَا، وَمَقَادِيرُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ، وَمَصْدَرُهَا عَنْ قَضَائِهِ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَوَاجِبٌ إِيْمَانُنَا بِالْقَدْرِ خَيْرٌ وَشَرُّهُ كَمَا فِي الْخَبْرِ

(١) رسالة الصابوني ضمن الرسائل المنيرية (١/١٠٨).

(٢) الآية (٢٧) من سورة لقمان.

وَالْكُلُّ قَدْ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَلَا
عَلِمَ كُلًّا قَبْلَ كَوْنِهِ وَلَا
يَعْلَمُ رَبُّ خَلْقًا
يَضْدُرُّ إِلَّا عَن قَضَائِهِ عَلا
يَجْهَلُ قَوْلًا لِّلْوَرَى وَعَمَلًا
وَهُوَ اللَّطِيفُ وَالْخَبِيرُ مُطْلَقًا

الشرح:

أي: ومما يجب اعتقاده أن جميع الأشياء بتقدير الله لا يخرج منها شيء عن إرادته تعالى أن يقع في ملكه إلا ما أَرَادَهُ من خير وشر، والأدلة على القضاء والقدر كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع: فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾^(٣).

وفي حديث جبريل عليه السلام في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره»^(٤)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدْرَ، مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنَ إِلَى الْأَبَدِ» رواه أبو داود والترمذي^(٥)، وفي «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ قال: وعرشه على الماء» رواه مسلم^(٦).

(كتب الله مقادير الخلائق) قال العلماء: «المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير فإن ذلك أزلي لا أول له

(١) الآية (٣٨) من سورة الأحزاب.

(٢) الآية (٩٦) من سورة الصافات.

(٣) الآية (٤٩) من سورة القمر.

(٤) أخرجه أحمد ٢٨/١ (١٩١) و«البخاري» في «خلق أفعال العباد» ٢٦ و«مسلم» ٢٨/١ (١).

(٥) أبو داود (٤٧٠٢)، والترمذي (٣٣١٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب وفيه عن ابن

عباس رضي الله عنه، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٦) مسلم (٢٦٥٣).

(وعرشه على الماء) أي قبل خلق السماوات والأرض».

مراتب القدر:

قسم أهل السنة القدر إلى أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة العلم: وهي أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن الله تبارك وتعالى بكل شيء عليم، وأنه علم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وأنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض جملة وتفصيلاً، سواء كان ذلك من فعله أو من فعل المخلوقات، وأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء قال تعالى: ﴿لِنَعْلَمَوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدْداً﴾^(٢)، وقال: ﴿وَإِنَّمَا أَعِنتُمْ عَلَى بَعْدِكُمْ عِيوناً مُبِينَةً لِيُتَمَدَّ إِلَيْكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ الْحِسَابِ﴾^(٣).

وقال ﷺ لما سئل عن أولاد المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين» رواه البخاري^(٤)، وغيرها من الأحاديث الدالة على ذلك.

وأما المرتبة الثانية: فهي مرتبة الكتابة: وهي أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، وقد جمع الله بين هاتين المرتبتين في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٥)، فبدأ بالعلم وقال: إن ذلك في كتاب، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ كما جاء في الحديث عن

(١) الآية (١٢) من سورة الطلاق.

(٢) الآية (٢٨) من سورة الجن.

(٣) الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٤) البخاري في القدر (١٣١٧)، [٦٢٢٤]، باب الله أعلم بما كانوا عاملين، ومسلم (ح٢٦٥٩).

(٥) الآية (٧٠) من سورة الحج.

رسول الله - ﷺ - : «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّي، مَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَاتِنٌ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه أبو داود والترمذي تقدم قريباً.

ولهذا سئل النبي ﷺ: عما نعمله، أشيء مستقبل أم شيء قد قضي وفرغ منه. فقال: «إِنَّهُ قَدْ قَضِيَ» قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَاتِمًا مَنَّ أَعْطَى وَانْفَى ۝ (٥) وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ ۝ (٦) فَسَيَسِّرُهُ لِّلْيَسْرِ ۝ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۝ (٩) فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى ۝ (١٠)﴾ (١).

ويدخل في هذه المرتبة خمسة تقادير:

أ - التقدير الأولي: قبل خلق السماوات والأرض قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ (٢٢)﴾ (٢). وفي الصحيح: قال النبي ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء» (٣)، وقال ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» (٤)، وقال ﷺ: «يا أبا هريرة جف القلم بما هو كائن» (٥).

ب - كتابة الميثاق يوم ألت بربكم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ (١٧٦) أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا

(١) الآيات (٥ إلى ١٠) من سورة الليل. والحديث أخرجه أحمد ٨٢/١ (٦٢١) والبخاري ١٢٠/٢ (١٣٦٢) و٢١٢/٦ (٤٩٤٨) و«مسلم» ٤٦/٨ (٦٨٢٤).

(٢) الآية (٢٢) من سورة الحديد.

(٣) رواه مسلم (القدر/١٦)، وأحمد (١٦٩/٢)، والترمذي (٢١٥٦).

(٤) صحيح رواه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وابن أبي عاصم (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وسكت عنه أبو داود، وقد صححه الشيخ الألباني.

(٥) رواه البخاري (٥٠٧٦).

مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ (١).

ت - التقدير العمري عند تخليق النطفة في الرحم: فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها، أجلها، ورزقها، وشقي أو سعيد. كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَائِلَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيره؛ فَأَتَى رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُقَالُ لَهُ حُدَيْفَةُ بْنُ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَدَّكَرُ أَمْ أُنْثَى، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلِكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ» رواه مسلم (٢).

ث - التقدير الحولي: في ليلة القدر قال تعالى: ﴿حَمِّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ سورة الدخان (٣). قال ابن كثير: قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتابة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقوله: «حكيم» أي: محكم لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال: «أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا» أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوجهه بأمره وإذنه وعلمه. اهـ وقال عند قوله تعالى: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾، قال قتادة وغيره:

(١) الآيتان (١٧٢، ١٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) مسلم (٢٦٤٥).

(٣) الآيات (١ - ٥).

(٤) الآية (٤) من سورة القدر.

تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٤) ﴿١﴾.

ج - التقدير اليومي: وهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٩) ﴿٢﴾ وقد روي في آثار ضعيفة أن النبي ﷺ سئل عن الشأن فقال: «يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين» (٣).

قال الحافظ: «يقال إنَّ عبدالله بن طاهر أمير خراسان للمأمون سأل الحسين بن الفضل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مع هذا الحديث، فأجاب: هي شؤون يديها لا شؤون يبتديها؛ فقام إليه وقبل رأسه» (٤).

قال الحافظ الحكمي رحمه الله تعالى: ثم هذا التقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي والحوالي تفصيل من التقدير العمري عند تخليق النطفة والعمري تفصيل من التقدير العمري الأول يوم الميثاق وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين والإمام المبين هو من علم الله ﷻ وكذلك منتهى المقادير في آخريتها الى علم الله ﷻ فانتهد الأوائل إلى أوليته وانتهد الأواخر إلى آخريته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (٤٦) ﴿٥﴾.

(١) الآية (٤) من سورة الدخان.

(٢) الآية (٢٩) من سورة الرحمن.

(٣) رواه ابن ماجه برقم (٢٠٢) من طريق هشام بن عمار به. قال البوصيري في الزوائد (٨٨/١): «هذا إسناد حسن لتناصر الوزير - بن صبيح - عن درجة الحفظ والإتقان» وانظر تفسير الطبري (٧٩/٢٧) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٤٠١) «مجمع البحرين» والبزار في مسنده برقم (٢٢٦٦) «كشف الأستار» من طريق عمرو بن بكر السكسكي - وهو متروك - عن الحارث بن عبدة به. قال ابن كثير في تفسيره: قلت: وقد روي موقوفاً، كما علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء، فالله أعلم. انظر صحيح البخاري (٦٢٠/٨) «فتح»، ورواه البيهقي في شعب الإيمان موصولاً برقم (١١٠٢) من طريق إسماعيل بن عبدالله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفاً.

(٤) فتح الباري (٥٠٠/١١).

(٥) الآية (٤٢) من سورة النجم. انظر معارج القبول (٩٣٩/٣) فالمراتب ملخصة منه.

أما المرتبة الثالثة: فهي مرتبة المشيئة: بمعنى: أن الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أو معدوم في السموات أو في الأرض، فما وجد موجود إلا بمشيئة الله، ولا عدم معدوم إلا بمشيئة الله، وهذا ظاهر في القرآن الكريم، وقد أثبت الله تعالى مشيئته في فعله، ومشيئته في فعل العباد؛ فقال الله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾^(٢)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٤)، فبين تعالى أن فعل الناس كائن بمشيئته، وأما فعله تعالى فتعليقه بالمشيئة كثير، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾^(٥)، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٦).

إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى، فإذا لا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن مشيئة الله عامة وشاملة لكل موجود أو معدوم فما من معدوم إلا وقد شاء الله عدمه، وما من موجود إلا قد شاء الله تعالى وجوده ولا يمكن أن يقع شيء في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق: أي أن نؤمن بأن الله تعالى خالق كل شيء فما من موجود في السموات والأرض إلا الله خلقه، حتى الموت يخلقه الله تبارك وتعالى، وإن كان هو عدم الحياة، يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٧)، فكل شيء في السموات أو في

(١) الآيتان (٢٨، ٢٩) من سورة التكوير.

(٢) الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٣) الآية (١٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) الآية (٢٥٣) من سورة البقرة.

(٥) الآية (١٣) من سورة السجدة.

(٦) الآية (١١٨) من سورة هود.

(٧) الآية (٢) من سورة الملك.

الأرض فإن الله تعالى خالقه، ولا خالق إلا الله، وكلنا يعلم أن ما يقع من فعله تعالى فإنه مخلوق له، فالسماوات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح كلها نعرف أنها مخلوقة من مخلوقات الله، وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات وتقلبات أحوال كلها مخلوقة لله ﷻ، ولكن قد يشكل على المرء كيف يصح أن نقول في فعلنا وقولنا الاختياري: إنه مخلوق لله ﷻ، نقول: نعم، يصح أن نقول ذلك؛ لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرين، أحدهما: القدرة، والثاني: الإرادة، فإذا كان فعل العبد ناتجاً عن إرادته وقدرته، فإن الذي خلق هذه الإرادة، وجعل قلب الإنسان قابلاً لهذه الإرادة هو الله ﷻ، وكذلك أيضاً الذي خلق فيه القدرة هو الله ﷻ، ويخلق السبب التام الذي يتولد عنه المسبب، نقول: إن خالق السبب التام خالق للمسبب.

أي أن خالق المؤثر خالق للأثر، خالق السبب خالق للمسبب، فوجه كونه تعالى خالقاً لفعل العبد نقول: إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرين هما: الإرادة، والقدرة؛ لولا الإرادة لم يفعل، ولولا القدرة لم يفعل؛ لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل، وإذا كان قادراً ولم يرد لم يكن الفعل، فإذا كان الفعل ناتجاً عن إرادة جازمة وقدرة كاملة، فالذي خلق الإرادة الجازمة والقدرة الكاملة هو الله، وبهذا الطريق عرفنا كيف يمكن أن نقول: إن الله تعالى خالق لفعل العبد، وإلا فالعبد هو الفاعل في الحقيقة فهو المتطهر، وهو المصلي، وهو الصائم، وهو المزكي، وهو الحاج، وهو المعتمر، وهو العاصي، وهو المطيع، ولكن هذه الأفعال كلها كانت وجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله ﷻ، وبهذا علم كيف يكون الإنسان، وكيف يكون فعل الإنسان مخلوقاً لله ﷻ.

النهى عن الخوض في القدر:

نهى النبي ﷺ عن المرء والجدال في القدر، وحذر من الخوض فيه، لأن القدر هو سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، بل حجبه الله عن الخلق كلهم، فالخائض فيه مدّع للاطلاع

على أمر اختصّ الله تعالى به، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزح بآية وهذا ينزح بآية، فكأنما فُقيء في وجهه حبُّ الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه، وما نهيتم عنه فانتهوا». وفي رواية: «يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به» وفي رواية: «فإن الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا، وإن المرء في القرآن كفر»^(١) . . .

كما سمي منكري القدر مجوس هذه الأمة، لأن المجوس اتخذوا خالقين من دون الله تعالى، والقدرية جعلوا الخلق أيضاً لخالقين.

أقوال الأئمة في القدر:

أخرج أبو نعيم عن ابن وهب^(٢) قال: (سمعت مالكا يقول لرجل: سألتني أمس عن القدر؟ قال: نعم، قال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣)، فلا بد أن يكون ما قال الله تعالى^(٤) .

وأخرج ابن أبي عاصم عن سعيد بن عبد الجبار قال: سمعت مالك بن

-
- (١) الحديث أخرجه أحمد في المسند (١٩٦/٢). ورجاله ثقات، وأخرج ابن ماجه نحوه في المقدمة، باب في القدر، الحديث رقم (٨٥)، (٣٣/١)، وقال صاحب الزوائد في حديث ابن ماجه: «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات». وفي الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، حديث رقم (٢١٣٣)، (٤٤٣/٤) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب يفرد بها لا يتابع عليها.
- (٢) هو عبدالله بن وهب القرشي مولا هم المصري قال عنه ابن حجر: (الفقيه ثقة حافظ عابد مات سنة ١٩٧هـ) تقريب التهذيب (٤٦٠/١).
- (٣) الآية (١٣) من سورة السجدة.
- (٤) البيان والتحصيل (٥٠٣/١٧)، والحلية ٣٢٦/٦.

أنس يقول: «رأيت فيهم أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قتلوا - يعني القدرية»^(١). وأخرج البيهقي عن الربيع بن سليمان، قال: سئل الشافعي عن القدر فقال:

ما شئتَ كان وإن لم أشأُ وما شئتُ إن لم تشأَ لم يكن
خلقتَ العباد على ما علمتَ ففي العلم يجري الفتى والمُسننُ
على ذا مَننتَ وهذا خذلت وهذا أعنتَ وذا لم تُعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن^(٢)

وجاء في كتاب السنة للإمام أحمد قوله: «والقدر خيره وشره وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومُمرّه، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره من الله قضاء قضاءه على عباده وقدر قدره، ولا يعدو واحد منهم مشيئة الله عزّ وجل ولا يجاوز قضاءه»^(٣).

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله تعالى: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وإِنَّا لَمُوفُونَهم نَصِيهِمَ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾^(٤)، قال: ما قدر لهم من خير وشر؛ وجملة القول في القدر أنه سر الله لا يدرك بجَدال ولا نظر، ولا تشفي منه خصومة ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يقوم شيء دون إرادته ولا يكون شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر كله، لا شريك له، نظام ذلك قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٥)، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٦)، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم، فمن رد على الله تعالى خبره في الوجهين (أو في أحدهما كان عناداً وكفراً)، وقد ظهرت الآثار في التسليم للقدر والنهي عن الجدال فيه

(١) السنة لابن أبي عاصم (١٧/١ - ٨٨)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٣٢٦/٦).

(٢) مناقب الشافعي (٤١٢/١ - ٤١٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٠٢/٢).

(٣) السنة (ص ٦٨).

(٤) الآية (١٠٩) من سورة هود.

(٥) الآية (٣٠) من سورة الإنسان.

(٦) الآية (٤٩) من سورة القمر.

والاستسلام له والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مقدره وحكمته، وفي نقض عزائم الإنسان برهان فيما قلنا وتبيان والله المستعان^(١).

الله خالق العباد وأعمالهم:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهِ فَجَرَى عَلَى قَدَرِهِ، لَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ إِلَّا وَقَدْ قَضَاهُ وَسَبِقَ عِلْمُهُ بِهِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) ﴿٢﴾).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

عَلِمَ كُلًّا قَبْلَ كَوْنِهِ وَلَا يَجْهَلُ قَوْلًا لِنُورِي وَعَمَلًا
وَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ رَبُّ خَلْقًا وَهُوَ اللَّطِيفُ وَالْخَبِيرُ مُطْلَقًا

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) ﴿٣﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٥)؛ وقال سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿٦﴾.

عن طاوس أنه قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر؛ قال وسمعت عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز» رواه مسلم^(٧).

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٣/١٤٠) في شرحه لأحاديث ربيعة بن أبي عبدالرحمن.

(٢) سورة الملك آية (١٤).

(٣) الآية (٤٩) من سورة القمر.

(٤) الآية (٣٨) من سورة الأحزاب.

(٥) الآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

(٦) الآية (٩٦) من سورة الصافات.

(٧) أخرجه مالك «الموطأ» ٢٦١٩، وأحمد ١١٠/٢ (٥٨٩٣) و«البخاري» في خلق (أفعال

العباد) ١٧، و«مسلم» ٥١/٨ (٦٨٤٥).

وعن جابر رضي الله عنه قال رضي الله عنه: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه» رواه الترمذي (١).

قال النووي رحمه الله تعالى: «وَأَعْلَمَ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَقِّ إِثْبَاتِ الْقَدْرِ وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ فِي الْقِدَمِ، وَعَلِمَ - سُبْحَانَهُ - أَنَّهَا سَتَقَعُ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ عِنْدَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَعَلَى صِفَاتٍ مَخْصُوصَةٍ فَهِيَ تَقَعُ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَأَنْكَرَتْ الْقَدْرِيَّةُ هَذَا وَزَعَمَتْ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَمْ يُقَدِّرْهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمَ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا، وَأَنَّهَا مُسْتَأْنَفَةٌ الْعِلْمِ أَيْ إِنَّمَا يَعْلَمُهَا سُبْحَانَهُ بَعْدَ وَقُوعِهَا وَكَذَبُوا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَجَلَّ عَنْ أَقْوَالِهِمُ الْبَاطِلَةُ عُلُوءًا كَبِيرًا. وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْفِرْقَةُ قَدْرِيَّةً لِإِنْكَارِهِمُ الْقَدَرَ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَقَدْ يَحْسَبُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ مَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ إِجْبَارُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَبْدَ وَقَهْرُهُ عَلَى مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَتَوَهَّمُونَهُ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: الْإِخْبَارُ عَنِ تَقَدُّمِ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَكُونُ مِنْ اِكْتِسَابِ الْعَبْدِ وَصُدُورِهَا عَنْ تَقْدِيرٍ مِنْهُ وَخَلَقَ لَهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا.

وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَدِلَّةُ الْقَطْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ الْحِلِّ وَالْعُقَدِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى إِثْبَاتِ قَدْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَدْ أَكْثَرَ الْعُلَمَاءُ مِنَ التَّصْنِيفِ فِيهِ وَمِنْ أَحْسَنِ الْمُصَنِّفَاتِ فِيهِ وَأَكْثَرُهَا فَوَائِدُ كِتَابِ الْحَافِظِ الْفَقِيهِ أَبِي بَكْرٍ الْبَيْهَقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ قَرَّرَ أَيْمَتُنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ذَلِكَ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ بِدَلَالِهِمُ الْقَطْعِيَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ» اهـ (٢).

(١) الترمذي (٢١٤٤) وقال الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٥٨٥ في صحيح الجامع.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٣٠ - ١٣١).

قال المصنف رحمه الله تعالى :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ فَيُخَذُّهُ بِعَدْلِهِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَيُؤَفِّقُهُ بِفَضْلِهِ
فَكُلُّ مُيَسَّرٍ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِلْمِهِ وَقَدَرِهِ مِنْ شِقْيَى أَوْ سَعِيدٍ).

قال الناظم رحمه الله تعالى :

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ نَعْمَ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ
كُلُّ مُيَسَّرٍ إِلَى مَا سَبَقَا فِي عِلْمِهِ مِنْ سَعَدًا أَوْ ذِي شَقَا

الشرح:

لقد جاءت الآيات والأحاديث مبينة تسيير العبد من قبل الرب، وأن لا فعل يفعله إلا بإذن المولى جل في علاه، ففي حديث الكُرب الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ»^(١).

فَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ كُلَّ قَضَائِهِ فِي عِبْدِهِ عَدْلٌ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ. وَيُقَالُ: أَطَعْتُكَ بِفَضْلِكَ وَالْمِنَّةُ لَكَ، وَعَصَيْتُكَ بِعِلْمِكَ - أَوْ بِعَدْلِكَ - وَالْحُجَّةُ لَكَ، فَأَسْأَلُكَ بِوُجُوبِ حُجَّتِكَ عَلَيَّ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي إِلَّا مَا غَفَرْتَ لِي.

قال القاضي عبدالوهاب رحمه الله تعالى: وهذا الذي قاله - المصنف -

لا خلاف فيه بين المسلمين وسلف الدين، أن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه لا يهتدي أحد إلا بهدأيته، ولا يضل إلا بإضلاله وزعمت القدرية أن الله تعالى لا يضل أحداً، وأنه قد هدى الخلق كلهم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من لم يهتد وضل باختياره وعدوله عن طرق الهداية، وسوء نظره لنفسه، لا أن الله أضله؛ قالوا لأن الله تعالى لو فعل ذلك لكان جائراً في حكمه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. اهـ^(٢).

(١) أخرجه أحمد ٣٩١/١ (٣٧١٢) و٤٥٢/١ (٤٣١٨).

(٢) شرح عقيدة الرسالة للقاضي (٢٢٠) ط/دار إحياء التراث العربي.

ولو كان أحد بيده هداية التوفيق من البشر لهدى نبينا ﷺ عمه الذي مات على الكفر وقد حاول النبي ﷺ أن ينقذه فقال له الرب جل وعلا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، اللهم اهدنا فيمن هديت، فالهداية والضلال بيد ذي العزة والجلال، وقد قال الله على لسان أوليائه الذين أنعم عليهم في دار كرامته ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْبًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٥).

وكل من الهداية والضلال، والتوفيق والخذلان، والكفر والإيمان داخل تحت مشيئة الله وإرادته قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٦) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٧)، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٨)، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾^(٩)، فلا يعترض على قضاء الله وقدره إلا جاهل، ولا يترك العمل إلا مفرط متساهل.

(١) الآية (٥٦) من سورة القصص.

(٢) الآية (٤٣) من سورة الأعراف.

(٣) الآية (٢١) من سورة النور.

(٤) الآية (١٧) من سورة الحجرات.

(٥) الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٦) الآيتان (٢٩ - ٣٠) من سورة الأعراف.

(٧) الآية (٩٣) من سورة النحل.

(٨) الآية (٢٣) من سورة الأنبياء.

فَعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيَلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشْيَاءَ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ مَا سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَتَبَّتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ.

قَالَ: فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَرَعَا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ وَمَلَكَ يَدِهِ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أَرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَخْزَرَ عَقْلِكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، «أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشْيَاءَ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَتَبَّتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «لَا بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ وَتَصَدِّقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾»^(١)، رواه مسلم^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وفيه قوله له: أيكون ذلك ظلماً؟ فقال: لا كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل. قال عياض: أورد عمران على أبي الأسود شبهة القدرية من تحكيمهم على الله، ودخولهم بأرائهم في حكمه، فلما أجابه بما دل على ثباته في الدين قواه بذكر الآية وهي حد لأهل السنة، وقوله كل خلق الله وملكه يشير إلى أن المالك الأعلى الخالق الأمر لا يعترض عليه إذا تصرف في ملكه بما يشاء، وإنما يعترض على المخلوق المأمور اهـ^(٣).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، خالقاً

(١) الآيتان (٧ - ٨) من سورة الشمس.

(٢) أخرجه أحمد ٤/٤٣٨ (٢٠١٧٨) و«مسلم» ٤٨/٨ (٦٨٣٢).

(٣) فتح الباري (٥٠١/١١).

لكل شيء، ألا هو ربُّ العباد، وربُّ أعمالهم، والمُقدِّرُ لِحركاتهم
وَأَجَالِهِمْ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَا يُرِيدُهُ وَمَا خَلَقَ كُلَّ الْخَلْقِ وَالْأَعْمَالَ
لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَا فَعَمَّمَا وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ وَالْأَجَالَ

قال الغني الحميد الفعّال لما يريد في كتابه المجيد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ
الْمَلِكِ قُوَّةِي الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ
تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي
الْأَيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٢٧﴾﴾ (١)، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (٢)، لا يكون في ملكه شيء لا يريد،
فهو الخالق للخلق وما يعملون من خير وشر، ورشد ومكر، ذكر القاضي
أن أهل الثقل أوردوا أثراً عن ابن عباس رضي الله عنه أنه جاءه رجل فقال: أنت
تزعم أن الله أراد أن يعصى؟ قال: نعم، فقال: ما أراد أن يعصى، فقال ابن
عباس: ويحك فما أراد الله؟ قال: أراد أن يطاع ولا يعصى، قال ابن
عباس: ويحك فمن حال بين الله وبين ما أراد؟ فكأنما ألقمه حجراً.

قال: ومثله قول غيلان لربيعة: «أترى الله يريد أن يعصى؟ فقال
ربيعة: «أترى الله يعصى قسراً؟ فكأنما ألقمه حجراً» (٣). وقال ابن مسعود،
وعمر بن عبدالعزيز: «لو شاء الله أن لا يعصى؛ ما خلق إبليس» (٤).

وعن علي رضي الله عنه: «أن رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، أياحب ربنا أن
يعصى؟ قال: أفيعصى قهراً؟ قال: أرايت إن منعني الهدى، ومنعني الردى،
أأحسن إلي أم أساء؟ قال: إن منعك حقك فقد أساء، وإن منعك فضله،

(١) الآيتان (٢٦ - ٢٧) آل عمران.

(٢) الآية (١٠٧) من سورة هود.

(٣) القدر للفريابي (٢٧٨/١). وانظر شرح القاضي عبدالوهاب للرسالة.

(٤) شرح القاضي عبدالوهاب للرسالة (٢٢٦ - ٢٢٧).

فهو فضله يؤتیه من یشاء، ثم تلا الآیة ﴿لَا یُسْتَلُ عَمَّا یَفْعَلُ وَهُمْ یُسْتَلُونَ﴾ [الأنبیاء: ۲۳] (۱).

قال العباد: وقد أورد شیخنا الشیخ محمد الأمين الشنقيطی - رحمه الله تعالى - فی كتابه دفع إیهام الاضطراب عن آیات الكتاب فی سورة الشمس حکایتین توضّحان فسادَ مذهب المعتزلة فی باب القضاء والقدر، فقال: «ولمّا تناظر أبو إسحاق الإسفرايينی مع عبدالجبار المعتزلی، قال عبدالجبار: سبحان من تنزّه عن الفحشاء، وقضه أن المعاصي كالسرقة والزنى بمشيئة العبد دون مشیئة الله؛ لأنّ الله أعلى وأجلّ من أن یشاء القبائح فی زعمهم، فقال أبو إسحاق: كلمة حقّ أريد بها باطل، ثم قال: سبحان من لا یقع فی ملكه إلا ما یشاء، فقال عبدالجبار: أترأه یخلقه ویعاقبني علیه؟ فقال أبو إسحاق: أترأك تفعله جبراً علیه؟ أنت الرّبّ وهو العبد؟! فقال عبدالجبار: رأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى عليّ بالرّدی، أترأه أحسن إليّ أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك منه مُلكاً لك فقد أساء، وإن كان له: فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبُهِت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله! ما لهذا جواب!...

وجاء أعرابيٌّ إلى عمرو بن عبید وقال: ادعُ الله لي أن یردّ عليّ حمارةً سُرقت مني، فقال: اللهمّ إن حمارته سُرقت ولم تُردّ سرقتها فاردّها عليه، فقال الأعرابيُّ: يا هذا! كفّ عني دُعاءك الخبيث؛ إن كانت سُرقت ولم یردّ سرقتها، فقد یريد ردها ولا تُردّ» (۲).

الإيمان بالأنبياء والرّسل عليهم الصلاة والسلام:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(الباعثُ الرّسل إليهم لإقامة الحجّة عليهم.

ثمّ ختم الرّسالة والنّذارة والنّبوة بمحمد نبيّه ﷺ فجعله آخر المرسلين،

(۱) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (۲۷۹/۱۱).

(۲) قطف الجنى الداني للشيخ عبدالمحسن العباد (۱۰۸).

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ،
وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَبَعَثَ الرَّسُولَ إِلَى الْعِبَادِ لِحُجَّةِ تَقَامٍ فِي الْمِعَادِ
وَبِرَسُولِنَا الَّذِي اخْتَارَهُ خَتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالنَّذَارَةَ
فَجَاءَ آخِرَهُمْ بِشِيرًا وَدَاعِيًا وَقَمْرًا مُنِيرًا
عَلَيْهِ أَنْزَلَ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ ثُمَّ بِهِ شَرَحَ دِينَهُ الْقَوِيمَ
وَقَدْ هَدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

الرسالة: السَّفارة بين الله وعباده بوحيه لتقرير أحكامه ونحوها^(١).
والنذارة: النذارة (بكسر النون) قال صاحب القاموس: «النذير: الإنذار
كالنذارة، بالكسر». «الإنذار الإبلاغ والإعلام، ولا يكاد يكون إلا في تخويف
يتسع زمانه للاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن
إنذاراً، قال الشاعر:

أُنذرتِ عَمْرًا وَهُوَ فِي مَهْلٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ فَقَدْ عَصَى عَمْرُو
وَتَنَازَرِ بَنُو فُلَانٍ هَذَا الْأَمْرَ إِذَا خَوْفُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٢).

النبوة: ^(٣) من النبأ وهو الإخبار، وقيل من التنبؤ: وهي المكان العالي
المرتفع، ولا شك أنه مخبر من العلي الحكيم، فصارت له الرفعة بذلك.

الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام من أركان الإسلام التي لا يقبل
إيمان عبد إلا بها، ولا يجوز أن يفرق المؤمن بين نبي وآخر بل عليه

(١) شرح الرسالة لزروق (٥٩/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨٤/١).

(٣) انظر مبحثاً قيماً عن النبي ومما اشتق منه في تفسير شيخ المفسرين الإمام الجليل ابن
جرير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن بتحقيق: أحمد محمد شاكر/ ط/ مؤسسة
الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

الإيمان بلا تفریق، ويجب عليه بما ذكر على وجه الإجمال إجمالاً، وعلى التفصيل تفصيلاً وامثالاً؛ قال تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٨٥﴾﴾، وقال جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكِتَابَ وَالنَّبِيِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ أَصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٢)، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٣)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾^(٤)، ولقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدَّ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾^(٥).

وجاء في حديث جبريل أنه سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»^(٦) وهو في صحيح مسلم من حديث عمر رضي الله عنه.

(١) الآية (٣٣) من سورة آل عمران.

(٢) الآية (١١) من سورة إبراهيم.

(٣) الآية (١٢٤) من سورة الأنعام.

(٤) الآية (٩٥) من سورة الإسراء.

(٥) الآيات (٢٦ - ٢٨) من سورة الجن.

(٦) تقدم تخريجه قريباً.

والرسل عليهم الصلاة والسلام منهم من قصصهم الله علينا، ومنهم من لم يقصصهم امتحاناً لنا ليختبر المؤمن من الكافر، وذكر منهم خمسة وعشرين نبياً؛ وقال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾^(١)، ومن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع قال تعالى: ﴿لَا تَفْرُقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(٢)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٣) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾^(٤)، والرسل هم حجة الله وشهوده، أنبأهم الله بوحيه، وأرسلهم لتبليغه لخلقه، ليعرفوهم به، وبشره، وينبهوهم الى آياته ويذكروهم بإنعاماته وييسروهم بالسعادة والنجاة إذا اتبعوهم، ويخوفوهم من الشقاوة والهلاك إذا خالفوهم، فقامت بهم - لما بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة - حجة الله على خلقه، وكانوا وهم العدول الأمانة الصادقون شهداء عليهم يوم لقائه لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^(٥) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾^(٦)، ولقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٧)، واختارهم من جنس الرجال لقدرتهم على تحمل المتاعب والمشاق، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ

(١) الآية (١٦٤) من سورة النساء.

(٢) الآية (٢٨٥) من سورة البقرة.

(٣) الآيات (١٥٠ - ١٥٢) النساء.

(٤) الآيات (١٦٣ - ١٦٥) من سورة النساء.

(٥) الآية (٤١) من سورة النساء.

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾^(١)، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري، رَحِمَهُ اللهُ، الإجماع على ذلك، فدل على أن مريم عليها السلام وأم موسى وسارة أم إسحاق لسن نبيات، كما زعم ذلك ابن حزم وغيره، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، ويقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ١٧]^(٢).

وقد ذكر الله منهم في القرآن خمسة وعشرين رسولاً، ذكر في سورة الأنعام منهم ثمانية عشر هم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَىٰ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾^(٣).

وذكر في مواضع أخرى من كتابه العزيز السبعة الباقين وهم: آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وإدريس، وسيد الأولين والآخرين سيدنا ونبينا محمد ﷺ. وقد جمع ذلك في بيتين:

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر، ويبقى سبعة وهم
إدريس، هود، شعيب صالح وكذا ذو الكفل، آدم، بالمختار قد ختموا

والعرب منهم أربعة وهم: شعيب، وهود، وصالح، محمد عليهم الصلاة والسلام؛ ويرمز لهم: شهصم.

(١) الآية (١٠٩) من سورة يوسف.

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٧٥٧/٢) ط/وزارة الأوقاف القطرية.

(٣) الآيات (٨٣ - ٨٦) من سورة الأنعام.

وأولو العزم خمسة وهم: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى
قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ
أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(٢).

وللبزار عن قتادة رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: «خيار ولد آدم خمسة نوح
وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رضي الله عنه»^(٣).

عدد الرسل والأنبياء:

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟
قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيراً» وفي رواية: «كم وفاء الأنبياء؟ قال:
مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا
غفيراً»^(٤).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبيأ كان آدم؟ قال:
«نعم، معلم مكلم» قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عشر قرون» قال: كم
بين نوح وإبراهيم؟ قال: «عشر قرون» قالوا: يا رسول الله، كم كانت
الرسل؟ قال: «ثلاثمائة وخمس عشرة جمًّا غفيراً» رواه أحمد والحاكم^(٥).

وقد نظم الشيخ العلامة عبدالرحمن بن محمد بلال الجملي الشنقيطي:

يا سائلاً عن عدّ كلّ الأنبياء ففكّد من الألوف فادرياً
والرسل منهم سيّج أو سيّد أو سيّيه والأوّل المعتمد

(١) الآية (٣٥) من سورة الأحقاف.

(٢) الآية (٧) من سورة الأحزاب.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (٤٥٨/٨): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه أحمد وصحح إسناده الألباني كما في مشكاة المصابيح بتحقيقه (١٢٢/٣).

(٥) في المستدرک على الصحيحين (١٦٧/٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم،
ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وانظر زاد المعاد لابن القيم (٤٣/١). والجم: الكثير،
غفيراً: كثيراً.

أشار إلى العدد بأرقام الحروف، فالقاف مائة والكاف عشرون والذال أربعة، وهذا العدد من الألف، أي عددهم كما تقدم مائة وأربعة وعشرون ألفاً.

وسيج فالسين ثلاثمائة والياء عشرة والجيم ثلاثة، فيكون الجميع ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل ثلاثمائة وأربعة عشر، وأشار إليها ب (سيد) فالذال أربعة، وقيل خمسة عشر بعد الثلاثمائة وإليها أشار ب (سيه) فالهاء خمسة^(١).

واقصر ابن عاشر رحمه الله تعالى في نظمه المرشد المعين على القول الثاني فقال: أبياته أربعة عشر تصل مع ثلاثمائة عدّ الرسل.

وأول الأنبياء والرسل آدم ﷺ، (ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ وَالنَّذَارَةَ وَالنُّبُوَّةَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ﷺ فَجَعَلَهُ آخَرَ الْمُرْسَلِينَ، بِشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) فقال وهو أصدق القائلين ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ختم الله به النبوة، وقرأ عاصم: (خاتم) بفتح التاء على الاسم، أي: آخرهم، وقرأ الآخرون بكسر التاء على الفاعل، لأنه ختم به النبيين فهو خاتمهم^(٢).

قال ابن كثير: «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول [بعده] بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة»^(٣).

وفي صحيح البخاري^(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) تبين المسالك شرح تدريب السالك إلى أقرب المسالك للشيخ العلامة محمد الشيباني الشنقيطي رحمه الله تعالى (٦٩/١).

(٢) تفسير البغوي (٣٥٨/٦). حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع / الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٣) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٥٩٥/٣) دار الفكر.

(٤) البخاري (٣٣٤٢).

«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْتَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْتَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبْتَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»، وفي مسلم^(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ يَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا بَيْتَانَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِلَّا هَذِهِ اللَّبْتَةُ فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبْتَةُ».

«فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان؟ قلت: معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبا أحد بعده، وعيسى ممن نُبئ قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، مصلياً إلى قبلته، كأنه بعض أمته»^(٢).

«وقد أجمع الصحابة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل والأنبياء، وعُرف ذلك وتواتر بينهم وفي الأجيال من بعدهم، ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي، فصار معلوماً من الدين بالضرورة فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفاً بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله للناس كلهم.

ولذلك لا يتردد مسلم في تكفير من يُثبت نبوءة لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وفي إخراجهم من حظيرة الإسلام، ولا تعرف طائفة من المسلمين أقدمت على ذلك إلا الباطنية والبهائية وهما نحلتان مشتقة ثانيتهما من الأولى»^(٣).

«وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً»، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾^(٤).

(١) مسلم (٢٢٨٦).

(٢) الكشف للزمخشري (٥٥٤/٣). دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبدالرزاق المهدي.

(٣) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور (٣٥١/١١). وانظر الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (٩٢/١).

(٤) الآيتان (٤٥ - ٤٦) من سورة الأحزاب.

«قال العلامة شيخ الإسلام الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: «ذكر له هنا خمسة أوصاف هي: شاهد. ومبشّر. ونذير. وداع إلى الله. وسراج منير. فهذه الأوصاف ينطوي إليها، وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة.

والشاهد: المخبر عن حجة المدعي المحقّ ودفع دعوى المبطل، فالرسول ﷺ شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ويشهد ببطلان ما ألصق بها وينسخ ما لا ينبغي بقاءه من أحكامها بما أخبر عنهم في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وفي حديث الحشر: «يُسأل كل رسول هل بلغ؟ فيقول: نعم. فيقول الله: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته»^(١). الحديث.

ومحمد ﷺ شاهد أيضاً على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة في حياته وشاهد عليهم في عرصات القيامة، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فهو شاهد على المستجيبين لدعوته وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدّل. وفي حديث الحوض: «ليردّن عليّ ناسٌ من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي. فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول تباً وسحقاً لمن أحدث بعدي»^(٢) يعني: أحدثوا الكفر وهم أهل الردة كما في بعض روايات الحديث: «إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(٣). فلا جرم كان وصف الشاهد أشمل هذه الأوصاف للرسول ﷺ بوصف كونه رسولاً لهذه الأمة، وبوصف كونه خاتماً للشرائع ومتمماً لمراد الله من بعثة الرسل.

(١) البخاري (٣١٦١ - ٤٢١٧، ٦٩١٧).

(٢) أخرجه أحمد ١٤٠/٣ (١٢٤٤٥) و«البخاري» ١٤٩/٨ (٦٥٨٢). و«مسلم» ٧٠/٧ (٦٠٦٢).

(٣) أخرجه أحمد ٢٢٣/١ (١٩٥٠) و٢٢٩/١ (٢٠٢٧) و«البخاري» ١٦٩/٤ (٣٣٤٩) و٧٠/٦ (٤٦٢٦) و«مسلم» ١٥٧/٨ (٧٣٠٣).

والمبشر: المخبر بالبشرى والبشارة. وهي الحادث المسرّ لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبى ﷺ مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم. وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل.

وقدمت البشارة على النذارة لأنّ النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

والنذير: مشتق من الإنذار وهو الإخبار بحلول حادث مسيء أو قُرب حلوله، والنبى عليه الصلاة والسلام منذر للذين يخالفون عن دينه من كافرين به ومن أهل العصيان بمتفاوت مؤاخذتهم على عملهم.

وجيء في جانب النذارة بصيغة فعيل دون اسم الفاعل لإرادة الاسم فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم. ومن الأمثال: أنا النذير العريان، أي الآتي بخبر حلول العدو بديار قوم. والمراد بالعريان أنه ينزع عنه قميصه ليشير به من مكان مرتفع فيراه من لا يسمع نداءه، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حلّ بهم وكأنّ المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير، ولذلك كثر في القرآن الوصف بالنذير وقلّ الوصف بمنذر. وفي الصحيح: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ: «يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ» لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَفُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟»، قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ

بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ^(١). فهذا يشير إلى تمثيل الحالة التي استخلصها بقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. وما في ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ﴾ من معنى التقريب.

وشمل اسم النذير جوامع ما في الشريعة من النواهي والعقوبات وهو قسم الاجتناب من قسمي التقوى فإن المنهيات متضمنة مفسد فهي مقتضية تخويف المُقدمين على فعلها من سوء الحال في العاجل والآجل.

والداعي إلى الله: هو الذي يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله ويدعوهم إلى اتباع ما يأمرهم به الله. وأصل دَعَاهُ إلى فلان: أنه دعاه إلى الحضور عنده، يقال: ادْعُ فلاناً إليَّ. ولما عَلِمَ أن الله تعالى منزّه عن جهة يحضرها الناس عنده تعين أن معنى الدعاء إليه الدعاء إلى ترك الاعتراف بغيره (كما يقولون: أبو مسلم الخراساني يدعو إلى الرَضَى من آل البيت) فشمل هذا الوصف أصول الاعتقاد في شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله لأن دعوة الله دعوة إلى معرفته وما يتعلق بصفات الدُّعاة إليه من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم.

قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ تشبيه بليغ بطريق الحالية وهو طريق جميل، أي أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان. وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبي ﷺ من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله في الأديان من مسالك للتبديل والتحريف فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يشبّه بالنور فناسبه السراج المنير. وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التي وصف بها أنفأ فهو كالفذلكة وكالتذليل.

ووصف السراج بـ ﴿مُنِيرًا﴾ مع أن الإنارة من لوازم السراج هو كوصف الشيء بالوصف المشتق من لفظه في قوله: شعر شاعر، وليل أليل

(١) أخرجه أحمد ٣٣٣/٢ (٨٣٨٣)، والبخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٤٢١).

لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف به الخاص فإن هدى النبي ﷺ هو أوضح الهدى، وإرشاده أبلغ إرشاد.

روى البخاري في كتاب «التفسير» من صحيحه في الكلام على سورة الفتح عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأُميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكّل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يغفو ويصفح (أو ويغفر) ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح (أو يفتح) به أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلفاء»^(١). اهـ^(٢).

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْحَكِيمَ، وَشَرَحَ بِهِ دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهُدَى بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتَنَا اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]...، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

(١) البخاري (٤٨٣٨).

(٢) من تفسير شيخ الإسلام الطاهر بن عاشور المسمى بالتحريير والتنوير (٥٥/٢٢)، وحقاً فإنه تحرير لأقوال المفسرين وتنوير لعقول المستبصرين. وللشيخ ترجمة وافية كتبها عنه فضيلة الشيخ العلامة الحبيب بن خوجة في مقدمة تحقيق كتاب المقاصد للشيخ الطاهر.

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنَّا بَعْدَ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٩﴾﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

الإيمان بأن الساعة حق وبالبعث والنشور:

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ، كما بدأهم يعودون).

وَأَنَّهُ لَا رَيْبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَعَثَ مَنْ يَمُوتُ بِالْعَلَامَةِ

ما هي الساعة التي وعد الله بقيامها؟ ومن الذي عنده علم الساعة؟ وما أشراتها الكبرى؟

أما الساعة فهي فناء العوالم كلها وانتهاء هذه الحياة الدنيوية، قال الخازن في تفسيره: وسميت القيامة ساعة: لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تبارك وتعالى.

وقيل: سميت ساعة لسرعة الحساب فيها لأن حساب الخلائق يوم القيامة يكون في ساعة أو أقل من ذلك^(١). والساعة هي اليوم الآخر من أيام الدنيا لاختلال نظام أيام الدنيا بأكثر الأشراف وأظهرها وهو شروق الشمس من المغرب.

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، أبي الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي (١٢٨/٢) دار النشر: دار الفكر - بيروت / لبنان - ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

والذي عنده علم الساعة هو الله تعالى فإنه لم يطلع عليها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فكيف يمكن لمشعوذ أن يعلم وقت قيامها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) ﴿١﴾، وقال سبحانه: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨٧) وقال جل من قائل: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ مَا تَأْتِيكُمُ وَاللَّيْلِ وَمَا تَدْرِي بِالسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَجٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧) [النحل: ٧٧].

والآيات كثيرة في شأن قيام الساعة والرد على المكذبين، ومما جاء عن النبي ﷺ كما في حديث جبريل عليه السلام أنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأَحْدِثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا، إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُقَافَةَ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَنِيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) ﴿٢﴾.

ومنها حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة آدم فقال: «اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان» (٣) يأخذ فيكم كقصاص الغنم» (٤)، ثم استفاضة المال

(١) الآية (٣٤) من سورة لقمان.

(٢) الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم، وقد تقدم تخريجه.

(٣) موتان: بضم الميم وسكون الواو هو الموت كثير الوقوع النهاية في غريب الحديث (٣٧٠/٤).

(٤) قعاص الغنم: القعاص بالضم: هو داء يصيب الدواب، فيسيل من أنوفها شيئاً فتموت فجأة. النهاية في غريب الحديث (٨٨/٤).

حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخناً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر^(١) فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية^(٢)، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً^(٣).

وكان النبي ﷺ يذكر الساعة كل ليلة في صلاة التهجد، وأنها حق ستقوم ولا بد كما أخبر الباري جل جلاله، فيقول في استفتاح صلاته كما في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(٤).

وأشراط الساعة كبرى وصغرى، والتي ظهرت وتظهر الآن في وقتنا كثير من الأشراط الصغرى، قال البيهقي في صفة يوم القيامة: «أما انتهاء الحياة الأولى فإن لها مقدمات تسمى أشراط الساعة، وهي أعلامها منها

(١) بنو الأصفر: هم الروم، وسبب تسميتهم بذلك قولان كما حكاهما القرطبي، الأول: أن جيشاً من الحبشة غلبوا على ناحيتهم في بعض الدار، فوطئوا نساءهم فولدن أولاداً صفراً، قاله ابن الأنباري. والثاني: أنهم نسبوا إلى الأصفر بن الروم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم قاله ابن إسحاق. وقال القرطبي: وهذا أشبه من القول الأول. التذكرة للقرطبي (٦٨٩/٢). النهاية في غريب الحديث (٣٧/٣).

(٢) الغاية: الراية، سميت بذلك لأنها غاية المتبع إذا وقفت وقف، وروي بالباء الموحدة وهو الأجمة، كأن كثرة الرماح شبهت بالأجمة، قال القرطبي: والصحيح: الأول، وقد جاء في بعض الروايات: كلمة «الراية» بدل «الغاية». التذكرة (٦٨٩/٢) النهاية في غريب الحديث (٤٠٤/٣)، وفتح الباري لابن حجر (٢٧٨/٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجزية والموادعة (٦٨/٤).

(٤) أخرجه مالك «الموطأ» ١٥٠ و«البخاري» ٦٠/٢ (١١٢٠) و«مسلم» ١٨٤/٢ (١٧٥٨).

خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام وقتله الدجال، ومنها خروج يأجوج ومأجوج، ومنها خروج دابة الأرض، ومنها طلوع الشمس من مغربها فهذه هي الآيات العظام، وأما ما تقدم هذه: من قبض العلم، وغلبة الجهل واستعلاء أهله، وبيع الحكم، وظهور المعازف، واستفاضة شرب الخمر، واكتفاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، وإطالة البنيان، وإمارة الصبيان، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وكثرة الهرج وغير ذلك فإنها أسباب حادثة، ورواية الأخبار المنذرة بها بعدما صار الخبر عياناً تكلف». اهـ^(١).

قلت: ومن أهم ما ظهر من العلامات العظيمة الدالة على قربها، ووشوك الوقوع، وإن كانت من الأشراف الصغرى بعثة النبي ﷺ حيث قال وهو الصادق المصدوق كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» قال: وضم السبابة والوسطى. رواه الشيخان^(٢).

قال القرطبي رحمته الله وهو يتحدث عن أشراط الساعة أولها النبي ﷺ، لأنه نبي آخر الزمان وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي^(٣).

وقال الحافظ ابن رجب - رحمته الله - وقد فسر قوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» فقرن بين السبابة والوسطى، بقرب زمانه من الساعة كقرب السبابة من الوسطى، وبأن زمن بعثته تعقبه الساعة من غير تخلل نبي آخر بينه وبين الساعة كما قال في الحديث الصحيح: «أنا الحاشر يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب...»^(٤).

ومنها ظهور انشقاق القمر في عهده ﷺ آية مصدقة لنبوته قال تعالى:

(١) شعب الإيمان (١/٥٢٩).

(٢) أخرجه البخاري ١٣١/٨ (٦٥٠٤) و«مسلم» ٢٠٨/٨ (٧٥١٥).

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص (٧٣٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المناقب (٤/١٦٢). ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل (٤/١٨٢٨).

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ﴿١﴾ في الصحيحين - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: أَنْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَشْهَدُوا»^(١)، وفي رواية: «أَنْشَقَّ الْقَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنَى فَقَالَ: أَشْهَدُوا وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ نَحْوَ الْجَبَلِ».

ومنها نار عظيمة تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، روى البخاري في الصحيح المسند عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»^(٢). قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال القرطبي في «التذكرة»: قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت، وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومآذن، وترى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهدت النار إلى قرب المدينة، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر، وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى.

وقال التّووي: تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام. وقال أبو شامة في «ذيل الروضتين»: وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصحيحين، فذكر هذا الحديث، قال: فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوءها الكتب، ...

(١) البخاري ٢٥١/٤ (٣٦٣٦) و«مسلم» ١٣٢/٨ (٧١٧٣) و«التّرمذي» (٣٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري ٧٣/٩ (٧١١٨) و«مسلم» ١٨٠/٨.

ومن ذلك أن في بعض الكتب: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد.

وفي كتاب آخر: انبجست الأرض من الحرّة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة وهي برأي العين من المدينة، وسال منها واد يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربع أميال يجري على وجه الأرض ويخرج منه مهاد وجبال صغار. وفي كتاب آخر: ظهر ضوءها إلى أن رأوها من مكة، قال: ولا أقدر أصف عظمها، ولها دوي. قال أبو شامة: ونظم الناس في هذا أشعاراً، ودام أمرها أشهراً، ثم خمدت اهـ^(١). وتدافع الناس إلى المسجد النبوي الشريف والتزموا الروضة المنيفة وكثر البكاء والعيول، والذكر والاستغاثة واللجوء إلى الله الكبير، وجعل الله فيها خاصية أنها تضيء ولا تحرق رغم هديرها، وعظمتها، وقيل أحرقت الحجارة، ولم تحرق الشجر^(٢).

قلت: ومن سلك الطريق الذاهب من المدينة ناحية الربرة إلى الشمال الشرقي، يظهر له أثر هذه النار - والله أعلم - كأن الحمم كتل من معدن مذاب على هيئة أكوام بركانية، وحمم متدافعة لا زالت آثارها شاهدة، وبالرغم من أنني تجولت في كثير من تلك المناطق إلا أنني لم أر مثل ذلك المنظر إلا في تلك الأماكن، فلهذا الأمر من قبل ومن بعد، وصدق رسول الهدى ﷺ.

وأما الآيات الكبرى فقد أخبر النبي ﷺ أنها إذا أذن الله تعالى بظهور واحدة منها تتابعت كحبات خرز انقطع سلكها، فقال ﷺ: «الآيات خرزات منظومات في سلك فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً» رواه أحمد

(١) فتح الباري (١٣/٨٠).

(٢) كما ذكر ذلك الياضي في كتابه (مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان) في حوادث سنة أربع وخمسين وستمائة. وانظر التذكرة للقرطبي (٧٤٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣/١٨٧).

والحاكم^(١)، وثبت ذكرها في أحاديث صحيحة منها حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال أطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟». قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» رواه مسلم^(٢).

ما هي أول الأشرار الكبرى ظهوراً:

لقد اختلف العلماء في أولية علامات الساعة لاختلاف ظاهر الأحاديث الواردة في أوليتها ففي حديث أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فاتاه فقال: «إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول أشرار الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خبرني بهن أنفاً جبريل» قال: فقال عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما أول أشرار الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب... الحديث» رواه البخاري^(٣).

وأما في حديث حذيفة بن أسيد في ذكر أشرار الساعة ففي آخره أنها

(١) قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٣٦١/٤: [أخرجه الحاكم (٤٧٣/٤ - ٤٧٤) وأحمد (٢١٩/٢) من طريقين عن خالد بن الحويرث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذكره. قلت: «إسناده ضعيف خالد بن الحويرث ليس بالمشهور، قال ابن معين: «لا أعرفه» وذكره ابن حبان في الثقات». لكن للحديث شاهد من رواية أنس بن مالك مرفوعاً به إلا أنه قال: «الأمارات خرزات...». أخرجه الحاكم (٥٤٦/٤) وقال: «صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي، وهو كما قال.]

(٢) «أحمد» ٦/٤ (١٦٢٤٠) ومسلم» ١٧٨/٨ (٧٣٨٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد ١٠٨/٣ (١٢٠٨٠) و«البخاري» ١٦٠/٤ (٣٣٢٩).

آخر شرط من أشراتها قال ﷺ: «كُنَّا فُعُودًا نَتَحَدَّثُ فِي ظِلِّ غُرْفَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا السَّاعَةَ فَازْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ تَكُونَ أَوْ لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَالذَّجَالُ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَالذُّخَانُ وَثَلَاثَةُ حُسُوفٍ خَسَفَ بِالْمَغْرِبِ وَخَسَفَ بِالْمَشْرِقِ وَخَسَفَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ الْيَمَنِ مِنْ قَعْرِ عَدَنِ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ» ﷺ: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم»، وفي رواية: «نار تخرج من قعره عدن ترحل الناس»^(١).

وفي الجمع بين الحديثين ومحاولة رفع التضارب قال الحافظ: «والجمع بين ما جاء أن هذه النار هي آخر أشرط الساعة الكبرى، وما جاء أنها أول أشرطها بأن يقال: إن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات الواردة معها في حديث حذيفة، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً، بل يقع بانتهاء هذه الآيات النفخ في الصور بخلاف ما ذكر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة، فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا»^(٢).

وأما في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أُنْسَهُ بَعْدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَى وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتَيْهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرَهَا قَرِيبًا» رواه مسلم^(٣).

قال ابن كثير: «وقد حكى البيهقي عن الحاكم أنه قال: أول الآيات ظهوراً خروج الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم، ثم فتح يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها، قال: لأنها إذا طلعت من مغربها آمن من عليها، فلو كان نزول عيسى بعدها لم يكن كافراً»، قال ابن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشرط الساعة (٤/٢٢٢٥، ٢٢٢٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١٣/٨٦).

(٣) مسلم (٧٥٧٠).

كثير: وهذا الذي قاله فيه نظر لأن إيمان أهل الأرض يومئذ لا ينفع جميعهم ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فمن أحدث إيماناً أو توبة يومئذ لم تقبل حتى يكون مؤمناً أو تائباً قبل ذلك، وكذلك قوله تعالى في قصة نزول عيسى في آخر الزمان: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

أي قبل موت عيسى وبعد نزوله يؤمن جميع أهل الكتاب به إيماناً ضرورياً بمعنى أنهم يتحققون أنه عبد الله ورسوله، فالنصراني يعلم كذب نفسه في دعواه فيه الربوبية والنبوة، واليهودي يعلم أنه نبي رسول من الله لا ولد ريبه كما كان المجرمون منهم يزعمون ذلك، فعليهم لعائن الله وغضبه المدرك^(١).

وقد رجح القرطبي ما ذهب إليه الحاكم: «من أنّ أول الآيات الدجال ثم نزول عيسى، ثم فتح يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس»^(٢).

والمدة بين الآيات معظمها متقاربة قال ابن بطال رحمه الله تعالى: روى حماد بن سلمة عن أبي المهزم يزيد بن سفيان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خروج الآيات كلها في ثمانية أشهر» أبو المهزم ضعيف، وقال أبو العالية: الآيات كلها في ستة أشهر.

وما يهّم المؤمن بعد سرد هذه الآيات هو الإيمان بها، وكثرة اللجوء إلى الله عز وجل في حفظ إيمانه له وأن يجنبه مضلات الفتن، اللهم إنا نعوذ بك من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن آمين.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وأن الله يبعث من يموت، كما بدأهم يعودون).

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (١٠/١)... تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز، الناشر: دار الجيل بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) التبصرة والتذكرة للقرطبي (٧٦٤ - ٧٦٦).

قال الناظم:

وَأَنَّهُ لَا رَيْبَ فِي الْقِيَامَةِ وَبَعَثَ مَنْ يَمُوتُ بِالْعَلَامَةِ

البعث والنشور: يجب الإيمان بالبعث والنشور، فما هو البعث؟

البعث هو إحياء المخلوقات بعد فنائها، للحساب والجزاء، من خير
وشر قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ ﴿٣١﴾
[النجم: ٣١].

وقال ابن حجر: «أصل البعث: إثارة الشيء وتحريكه عن سكون،
والمراد به هنا إحياء الأموات وخرجهم من قبورهم ونحوها»^(١).

وقد دل على البعث الكتاب والسنة والإجماع والعقل، قال تعالى:
﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ
الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ
سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ
بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥ - ٤٠].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ
الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَبِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾
[القمر: ٦ - ٨].

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُوكُ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولٰئِنَا
مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا
وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥١ - ٥٤].

إن الله تعالى في القرآن قرر إثبات البعث بأدلة منطقية سهلة، يفهمها
أدنى من له مسكة عقل، وضرب الأمثال بواقع يعيشه المخلوق يومياً، وبنى
ذلك على أسس وبراهين تقطع الشك وتزيل الريب فمن ذلك قوله تعالى:

(١) فتح الباري (١١/٣٩٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٧﴾ [الروم: ٢٧]، فبداية الشيء بالنسبة للإنسان أصعب، والإعادة أهون، كمن صنع جهازاً لاسلكياً أو غيره لا يستحيل عليه أن يصنع ما هو أفضل منه وأحسن بدليل الواقع المحسوس؛ والله تعالى له المثل الأعلى فهو سبحانه عبر في الآية بأهون «اسم تفضيل، وموقعه موقع الكلام الموجّه، فظاهره أن ﴿أَهْوَتْ﴾ مستعمل في معنى المفاضلة على طريقة إرخاء العنان والتسليم الجدلي»^(١)، وإلا فإن الله ﷻ الكل عنده تحت أمر «كن» فيكون، فالمفاضلة على غير بابها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ١٩ - ٢١].

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

ومن أعظم البراهين على إعادة الإنسان وإحيائه مرة أخرى هذا النوم الذي يسلط على الإنسان فيسلب منه شعوره وإدراكه وإذا به جثة هامدة، ثم يأذن الله للروح فتعود مرة أخرى، وهو لا يدري كيف نام ولا كيف استيقظ، كآلة انقطع عنها التيار الكهربائي فانطفأت وعاد إليها فسرت فيها الحركة من جديد. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ

(١) انظر التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور (١٢/٨٣).

فِي مَنَامِهَا فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾. وقد كان النبي ﷺ من دعائه إذا استيقظ من النوم يقول: «الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور» من حديث حذيفة رضي الله عنه (١).

وضرب برهاناً بالأرض الميتة التي خمدت فيها حركة الحياة، واندثرت من سطحها النباتات فإذا بالماء ينزل من السماء مباركاً طهوراً، فتتهز الأرض، وتكسى حلاًلاً من الخضرة اليانعة ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَيْكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّؤُوقُ وَاخْرَاجُكُمْ مِّن يُّرْدُ إِلَيْكُمْ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ أَنْ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ [الحج: ٥ - ٦].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

وكذلك من البراهين على إعادة الخلق آدم عليه السلام الذي خلقه الله تعالى من تراب بعد أن ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١].

ومن البراهين على خلق الناس بعد الموت وإحيائهم، إحياء الله بعض الأنفس في هذه الحياة إما من باب المعجزة كإحياء الله تعالى القاتل من بني إسرائيل على يد عبده ورسوله موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْفُونَ ﴿٧٦﴾ فَقُلْنَا أضرِبُوهُ بِعَصَاكَ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢ -

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣، ٥٩٥٥، ٥٩٦٥، ٦٩٥٩)، ومسلم ٧٨/٨ (٦٩٨٦).

[٧٣]، وعلى يد عيسى عليه السلام الموتى ﴿وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى يَأْذَنُ اللَّهُ وَأُتْبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وإحياء الله للألوف المؤلفة من بني إسرائيل بعد إِمَاتِهِ إِيَاهُمْ ﴿وَإِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وإحياء الله العزيز، ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى جَمْرِكَ وَانْجَعَلْكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٥٩]، وإحيائه الطير لإبراهيم عليه السلام ليزداد اطمئناناً ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمْتُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والذي قدر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء الجميع.

ووردت أحاديث كثيرة في إثبات البعث منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبني، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني، أما تكذبه إياي فقلوله: لن يعيدني كما بدأتي. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقلوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(١).

والبعث والنشور لعرض الأعمال على الله وحساب الناس، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٧٤) من طريق شعيب عن أبي الزناد به، وفيه: «ولم يكن لي كفواً أحد».

وقال ﷺ فيما يربويه عن رب العزة سبحانه: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم^(١).

ومنها حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه^(٢).

كرم الله بمضاعفة الحسنات، وتكفير السيئات:

قال المصنف: [وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ وَصَفَحَ لَهُمْ بِالتَّوْبَةِ عَنْ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ وَعَفَّرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنَ الْكِبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣).

وَمَنْ عَاقَبَهُ اللَّهُ بِنَارِهِ أَخْرَجَهُ مِنْهَا بِإِيمَانِهِ فَأَدْخَلَهُ بِهِ جَنَّتَهُ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٤) وَيُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ].

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَثُرَا
وَقَدْ تَجَاوَزَ لَهُمُ بِالتَّوْبَةِ
صَغِيرَةٌ تُغْفَرُ بِاجْتِنَابِ
وَفِي الْمَشِيئَةِ الَّذِي لَمْ يَتَّبِعِ
وَمَنْ يُعَاقَبُ مِنْ ذَوِي الْإِيمَانِ
لِلْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ مُخْبِرَا
عَنِ الْكِبَائِرِ وَكُلِّ حَوْبَةٍ
كِبَائِرٍ بِالتَّنْصِيهِ فِي الْكِتَابِ
مِنَ الْكِبَائِرِ وَذُو الشَّرْكِ أَبِي
يَخْرُجُ مِنَ النَّيِّرَانِ لِلْجَنَانِ

(١) مسلم (٦٧٣٧).

(٢) أخرجه أحمد ١٣٣/١ (١١١٢) و«الترمذي (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١).

(٣) الآية (٤٨) من سورة النساء.

(٤) الآية (٧) من سورة الزلزلة.

وَبِشْفَاعَةِ النَّبِيِّ يَخْرُجُ أَهْلُ الْكِبَائِرِ فَفِيهَا الْفَرَجُ

قوله: [وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَسَنَاتِ].

أي أنه مما يجب اعتقاده أن الله تعالى يضاعف الحسنات لعباده المؤمنين بقدر الإخلاص، والمتابعة للنبي ﷺ وعلى حسب درجات الخشوع والإخبات، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٢٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقي الله ﷻ»^(١). فالتضعيف يرتقي من عشر إلى سبعمائة بل إلى غاية عظيمة لا يعلمها إلا واسع العطاء سبحانه، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٦) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠) [النمل: ٨٩ - ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) [القصص: ٨٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فمن هم بالحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة، ومن عملها كتب الله له بها عشرًا إلى سبعمائة ضعف وأضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتب الله له بها حسنة كاملة، ومن هم بها فعلمها كتب الله عليه سيئة واحدة» رواه الشيخان^(٢)، وكلمة خير في الآية نكرة تفيد الإطلاق الذي لا يقيد بقيد ولا يحصى بعد.

والحسنة ما يحمد عليها شرعاً عكس السيئة وهي ما يذم عليها شرعاً، وحَسَنْتُ الشيءَ تَحْسِينًا: زَيَّنْتَهُ. وَأَحْسَنْتُ إِلَيْهِ وَبِهِ. وَهُوَ يُحْسِنُ

(١) أخرجه أحمد ٣١٧/٢ (٨٢٠١). و«البخاري» ١٧/١ (٤٢) و«مسلم» (٨٢/١) في

الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب.

(٢) أخرجه أحمد ٢٢٧/١ (٢٠٠١) و«البخاري» ١٢٨/٨ (٦٤٩١) و«مسلم» ٨٣/١ (٢٥٦).

الشيء، أي يعمله. وَيَسْتَحْسِنُهُ: يعدهُ حَسَنًا. وَالْحَسَنَةُ: خلاف السيئة. وَالْمَحَاسِنُ: خلاف المساوي^(١).

قال حسان بن ثابت:

من يفعل الحسنات، الله يشكرها والشّرّ بالشرّ عند الله مثلان

(وَصَفَحَ لَهُم بِالتَّوْبَةِ عَنْ كِبَائِرِ السَّيِّئَاتِ)^(٢) وهو مما تفضل الله به على عباده المؤمنين أنّ من اقترف منهم شيئاً من كبائر السيئات ثم تاب وأصلح أنّه يتجاوز عنه ويعفو على سبيل الفضل والكرم؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَرَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، قال الشوكاني: «قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

وقيل: إنّ السيئات تبدل بحسنات، وبه قال جماعة من الصحابة، ومن بعدهم. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران أي: يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات. وقيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها من التبديل^(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى^(٤): «القول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى - وهذا سياق الحديث - قال الإمام أحمد:

(١) مختار الصحاح للرازي (٦٦).

(٢) الكلام على التوبة جاء مستوفى في الباب الجامع لجملة من الفرائض والسنن من هذا الشرح المبارك إن شاء الله تعالى.

(٣) فتح القدير للشوكاني (٤/١٢٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٣/٣٩٨) دار الفكر.

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يؤتى برجل فيقول: نَحُوا كِبَارِ ذُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا، قَالَ: فَيَقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ - لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكَرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا - يُقَالُ: فَإِنْ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةٌ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، عَمِلْتَ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا». قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ» وانفرد به مسلم ^(١) وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(١١)، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على [عمل] شيء ثم أفلح عنه، ورجع وأتاب، فإن الله يتوب عليه ^(٢)»، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ^(٨٢) [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ^(١١٠) [النساء: ١١٠] والآيات في هذا كثيرة جدا.

اجتناب الكبائر سبب في تكفير الصغائر:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَعَفَرَ لَهُمُ الصَّغَائِرَ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ) مصداقاً لقول الغفور الرحيم ﴿إِن جَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ^(٣١) [النساء: ٣١]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ^(٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمِنِ اتَّقَى﴾ ^(٣٢) [النجم: ٣١ - ٣٢]، قال الألوسي رحمه الله تعالى: «وقد اختلفوا في حد الكبيرة على أقوال: الأول:

(١) المسند (١٧٠/٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤٣٤/٣).

أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة، وإليه ذهب بعض الشافعية، والثاني: أنها كل معصية أوجبت الحد، وبه قال البغوي وغيره، والثالث: أنها كل ما نصب الكتاب على تحريمه أو وجب في جنسه حد، والرابع: أنها كل جريرة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة وبه قال الإمام، والخامس: أنها ما أوجب الحد أو توجه إليه الوعيد، وقال شيخ الإسلام البارزي: التحقيق أن الكبيرة كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن بنص كتاب أو سنة، أو علم أن مفسدته كفسدة ما قرن به وعيد أو حد أو لعن أو أكثر من مفسدته، أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لو قتل معصوماً فظهر أنه مستحق لدمه، أو وطئ امرأة ظاناً أنه زان بها فإذا هي زوجته أو أمته، وقال القاضي عبدالوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر عند اجتناب الكبائر، ويوافق هذا القول ما رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه لكنه منقطع أنه ذكر عنده الكبائر فقال: «كل ما نهى الله تعالى عنه فهو كبيرة»، وفي رواية «كل ما عصي الله تعالى فيه فهو كبيرة» قاله العلامة ابن حجر وذكر أن جمهور العلماء على الانقسام، وأنه لا خلاف بين الفريقين في المعنى، وإنما الخلاف في التسمية، والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصي ما يقدر في العدالة، ومنها ما لا يقدر فيها وإنما الأولون فروا من التسمية فكرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله تعالى وشدة عقابه وإجلالاً له وَعَبَّأ عن تسمية معصيته صغيرة لأنها إلى باهر عظمته تعالى كبيرة وأي كبيرة. ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم بل قسموها إلى قسمين كما يقتضيه صرائح الآيات والأخبار لا سيما هذه الآية وكون المعنى: إن تجتنبوا كبائر ما نهيتم عنه في هذه السورة من المناكح الحرام وأكل الأموال وغير ذلك مما تقدم نكفر عنكم ما كان من ارتكابها فيما سلف». انتهى بتصرف^(١).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألويسي (١٧/٥) دار إحياء التراث العربي - بيروت.

عدد الكبائر: أما في عد الكبائر فقد روى عبدالرزاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: هل الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب، وروى ابن جبير أنه قال له: هي إلى السبعمئة أقرب منها إلى السبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار. وقد أورد ابن كثير في تفسيره عند الآية كثيراً من أحاديث الكبائر فلتنظر هناك.

وقد خرَّج ابن جرير من رواية الحسن: أن قوماً أتوا عمر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله لا يُعْمَلُ بها، فقال لرجل منهم: أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم، قال: فهل أحصيته في نفسك؟ قال: اللهم لا، قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أترك؟ ثم تتبَّعهم حتَّى أتى على آخرهم، ثم قال: ثكَلتَ عمرَ أمِّه، أتكلّفونه أن يُقيمَ على النَّاسِ كتابَ الله؟ قد علم ربُّنا أنَّه سيكون لنا سيئات ^(١)، قال: وتلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ^(٢).

وبإسناده عن أنس بن مالك: أنه قال: لم أرَ مثلَ الذي بلغنا عن ربِّنا تعالى، ثم لم نخرُجْ له عن كلِّ أهلٍ ومالٍ، ثم سكت، ثم قال: والله لقد كلَّفنا ربنا أهونَ من ذلك، لقد تجاوزَ لنا عمَّا دونَ الكبائر، فمالنا ولها، ثم تلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ^(٣) وخرَّجه البزار في «مسنده» مرفوعاً، والموقوف أصحُّ ^(٣).

ثم قال رحمه الله تعالى: (وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْكِبَائِرِ صَائِرًا إِلَى مَشِيئَتِهِ) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ^(٤).

(١) أخرجه: الطبري في «تفسيره» (٧٣١٣).

(٢) الآية (٣١) من سورة النساء.

(٣) الرواية الموقوفة أخرجها: البزار كما في «كشف الأستار» (٢٢٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٧٣١٤)، وطبعة التركي ٦/٦٥٩ قال المعلق على جامع العلوم والحكم: ولم أقف على الرواية المرفوعة لفظاً.

(٤) الآية (٤٨) من سورة النساء.

أي أن من اقترف شيئاً من كبائر السيئات من المؤمنين ومات غير تائب فأمره موكولٌ إلى مشيئة الله إن شاء عفا عنه فضلاً وإن شاء عاقبه عدلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهيداً بدماءً وهو أحد الثقباء لئلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه: «بأيعوبي على أن لا تُشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتانٍ تقترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروفٍ فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبأيعناه على ذلك»^(١).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا معشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا نشك في قاتل النفس، وأكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فأمسكنا عن الشهادة.

وفي الدر المنثور^(٢): «أخرج ابن الضريس، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن عدي - بسند صحيح، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقال: إني ادخرت دعوتي، شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، ثم نطقنا بعد ورجونا». وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد^(٣)، وقال: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير حرب بن سريج، وهو ثقة»^(٤).

قال ابن جرير: وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي

(١) أحمد ٣١٤/٥ (٢٣٠٥٤) و«الْبُخَارِي» ١١/١ (١٨) و١٠٤/٥ (٣٩٩٩) و٩٩/٩ (٧٢١٣) و«مسلم» ١٢٦/٥ (٤٤٨١).

(٢) الدر المنثور (١٦٩/٢).

(٣) مجمع الزوائد (٥/٧).

(٤) انظر تعليق الشيخ أحمد محمد شاكر على تفسير ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى.

مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرة شركاً بالله». وذلك لأن الكبائر لا يكفر بها أهل السنة والجماعة مرتكبها إلا أن يكون مستحلاً لها.

قال المصنف: (ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧)).

أي ومما يجب التصديق به أن عصاة المؤمنين إن أراد الله تعذيبهم في دار العقاب يكون العقاب بقدر ما جنوا على أنفسهم من السيئات ثم تتغمدهم الرحمة فيخرجون من دار العقاب إلى دار السلام، لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ - أَوْ الْحَيَاةِ شَكِّ مَالِكٍ - فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْجَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً» رواه البخاري (٢). وفي لفظ آخر من حديث أبي سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال: «... وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيَحْرِمُ اللَّهُ صَوْرَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَأَقْرُؤُوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا﴾ فَيَشْفَعُ التَّيَّبُونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الْجَبَّارُ

(١) الآية (٧) من سورة الزلزلة.

(٢) البخاري (٢٢، ٦١٢٩) ومسلم في الإيمان باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار رقم (١٨٤).

بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَاماً قَدْ امْتَحَشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيُخْرِجُونَ كَأَنَّهُمُ اللَّوْلُؤُ فَيَجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْحَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عَتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ فَيُقَالُ لَهُمْ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ» البخاري (١).

ولا يخلد في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فالإيمان سبب في عدم الخلود في النار، وسبب في دخول الجنة إلا أن مسببية الإيمان في دخول الجنة مع عفو الله ورحمته ﴿فِيذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وما ورد من خلود بعض أهل المعاصي كقاتل النفس المؤمنة بغير حق، ومن انتحر بحديدة أو خنق أو سم ونحو ذلك فهو خلود نسبي يدل على طول بقاء لا يعلمه إلا الله تعالى ثم يعفى عنهم ويصيرون إلى الجنة بمشيئة الله وعفوه، والله أعلم.

شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(ويُخْرِجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ شَفَعَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ).

أي ومما يجب التصديق به ثبوت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ ولغيره أيضاً وإنما خصّه بالذكر لكونه أول شافع.

والشفاعة هي: قال أبو جعفر: «الشفاعة» مصدر من قول الرجل:

«شفع لي فلان إلى فلان شفاعة وهو طلبه إليه في قضاء حاجته. وإنما قيل للشفيح «شفيح وشافع» لأنه ثنى المستشفع به، فصار به شفعاً فكان ذو الحاجة - قبل استشفاعه به في حاجته - فرداً، فصار صاحبه له فيها شافعاً، وطلبه فيه وفي حاجته شفاعة. ولذلك سمي الشفيح في الدار وفي الأرض

(١) رواه البخاري (٧٠٠١).

«شفيعاً» لمصير البائع به شفعا^(١). والشفاعة يوم القيامة هي طلب الأنبياء والمرسلين والملائكة والشهداء والصالحين أن يشفعوا فيمن استحقوا العذاب، أو غير ذلك مما سيأتي من أنواع الشفاعة.

إذن فمن هو الذي يملك الشفاعة؟

إن الشفاعة لله ﷻ ملك له ليس لأحد فيها شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وما دام أنه يملكها سبحانه فقد أخبرنا أنها لا تكون إلا بإذنه قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢)، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، ﴿وَكَرَّمْنَا مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فلا شفاعة إلا بعد إذن الله ورضائه.

وتكون لأوليائه المرتضين الأخيار الذين أذن لهم في الشفاعة كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]. ولا يأذن أن يشفع إلا لمن ارتضى كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

أنواع الشفاعة:

وسيد الشافعين هو نبينا محمد ﷺ فَإِنَّ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّهَا تَأْتِي إِلَيْهِ لِيَشْفَعَ لَهَا مِنْ شِدَّةِ الْمَوْقِفِ وَهِيَ أَعْظَمُ الشَّفَاعَاتِ، قال النووي: قوله ﷺ: «وأعطيت الشفاعة»^(٣)، هي الشفاعة العامة التي تكون في المحشر بفرع الخلائق إليه لأن الشفاعة في الخاصة جعلت لغيره أيضاً، وهو المقام المحمود الذي وعده الله إياه كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٣٢/١).

(٢) الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه أحمد ٣/٣٠٤ (١٤٣١٤)، و«الْبَحَارِي (٣٣٥)، و«مسلم» ٦٣/٢ (١٠٩٩).

مَحْمُودًا ﴿ [الإسراء: ٧٩]، وذلك أن الناس إذا ضاق بهم الموقف، وطال المقام، واشتد القلق، وألجمهم العرق، التمسوا الشفاعة في أن يفصل الله بينهم فيأتون آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ابن مريم وكلهم يقول: نفسي إلى أن ينتهوا إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: «أنا لها»^(١)، كما جاء مفصلاً في الصحيحين وغيرهما. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تُعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصْرَ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِأَدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغْنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى

(١) كما في البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (الإيمان/٣٢٢، ٣٢٦).

النَّاسِ اشْفَعْنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ
اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ
أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ
مِنْهُ وَكَلَّمَتِ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ
فَيَقُولُ عِيسَى إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَلَنْ
يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكَرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى
مُحَمَّدٍ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ غَفَرَ
اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ
فِيهِ فَأَنْطَلِقْ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ
مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ازْفَعْ
رَأْسَكَ سَلِّ تَعْطَهُ وَاشْفَعْ تَشْفَعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ
أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ
الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ثُمَّ قَالَ
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصْرَاعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمَيْرَ
أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»^(١).

وقال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٢) وأنه قال: «ليس من نبي
إلا وقد أعطي دعوة، وإني اختبأت دعوتي شفاعنة لأمتي، وهي نائلة إن
شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً»^(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «يخرج قوم من النار بشفاعنة محمد ﷺ

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) حديث صحيح، ذكره السيوطي في الجامع الصغير، ونسبه لأحمد، وأبي داود،
والترمذي، وابن حبان، والحاكم - عن أنس. والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان،
والحاكم - عن جابر. انظر شرح المناوي الكبير، رقم ٤٨٩٢ (٤/١٦٣).

(٣) ومعناه ثابت صحيح، من حديث أنس بن مالك، رواه البخاري، ومسلم. انظر
الترغيب والترهيب (٤/٢١٣).

فيدخلون الجنة يسمون الجَهَنَّمِيِّين»^(١) والأحاديث في ذلك كثيرة متواترة، وقد نص بعض أهل العلم على تواترها كابن أبي عاصم في السنة^(٢)، والقاضي عياض كما في شرح مسلم^(٣) وغيرهما).

وذكر الأشعري الإجماع في رسالته إلى أهل الثغر^(٤) فقال: «وأجمعوا على أنّ شفاعَةَ النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته وعلى أن يخرج من النار قوم من أمته بعدما صاروا حُمَمًا»، وخالفهم المعتزلة والخوارج^(٥).

وأما الشفاعة الثانية: فهي في استفتاح باب الجنة، وأول من يستفتح بابها نبينا محمد ﷺ، وأول من يدخلها من الأمم أمته.

الثالثة: الشفاعة في أقوام قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

الرابعة: في من دخلها من أهل التوحيد أن يخرجوا منها فيخرجون قد امتحشوا وصاروا فحمًا، فيطرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

الخامسة: الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة وهذه الثلاث ليست خاصة بنبينا ﷺ ولكته هو المقدم فيها ثم بعده الأنبياء والملائكة والأولياء والأفراط يشفعون ثم يخرج الله تعالى برحمته من النار أقواماً بدون شفاعَة لا يحصيهم إلا الله فيدخلهم الجنة.

السادسة: الشفاعة في تخفيف عذاب بعض الكفار، وهذه خاصة لنبينا محمد ﷺ في عمه أبي طالب كما في مسلم وغيره.

الجنة دار كرامة لأولياء الله تعالى، والنار دار غضبه لأعدائه:

قال المصنف رحمه الله تعالى: «وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ

(١) البخاري (٤٢٥/١١) ح ٦٥٦٦ في الرقاق، باب صفة الجنة والنار، من حديث أبي رجاء عن عمران مرفوعاً.

(٢) السنة (٣٨٥/٢).

(٣) شرح مسلم (٣٥/٣).

(٤) الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر (ص ٩٧).

(٥) [انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص (٢٥٨)].

فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِأَوْلِيَائِهِ، وَأَكْرَمَهُمْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمَ نَبِيَّهُ وَخَلِيفَتَهُ إِلَى أَرْضِهِ بِمَا سَبَقَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ.

وَخَلَقَ النَّارَ فَأَعَدَّهَا دَارَ خُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَالْحَدَّ فِي آيَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَجَعَلَهُمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ رُؤْيَيْتِهِ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَالْجَنَّةُ الَّتِي أُعِدَّتْ مَخْلَدًا وَأَتَتْهُ أَكْرَمَهُمْ بِالنَّظَرِ وَهِيَ الَّتِي أَهْبَطَ مِنْهَا آدَمًا وَالنَّارُ دَارُ مَخْلَدٍ لِمَنْ كَفَرَ وَهُمْ عَنِ الرُّؤْيَا مَحْجُوبُونَ

لِلْمُؤْمِنِينَ حَتَّمُ أَنْ تَعْتَقِدَا فِيهَا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ الْمُسْفِرِ نَبِيَّهُ بِسَابِقِ اللَّذِّ عِلْمًا بِهِ وَالْحَدَّ بِمَا مِنْهُ ظَهَرَ وَمِثْلَهَا فِي الْعُظْمِ لَنْ يَكُونَ

الجنة والنار:

إنَّ مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادَهُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ فِي عِلَاهِ قَدْ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَأَعَدَّهَا دَارًا لِأَهْلِ كِرَامَتِهِ وَنَزَلَ لِلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَخَلَقَ النَّارَ وَأَعَدَّهَا لِمَنْ كَتَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ مِمَّنْ كَفَرَ وَالْحَدَّ فِي آيَاتِهِ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

والجنة والنار مخلوقتان لهما بداية، وليست لهما نهاية، وهما موجودتان منذ خلقهما الباري سبحانه لا تبيدان ولا تفنيان، والأدلة من الكتاب والسنة على الجنة والنار متواترة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١). وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ أَكُلُوهَا ذَائِمًا وَظُلُمُوهَا ﴾ (٣)، وقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [البينة:

(١) الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

(٢) الآية (١٧) من سورة السجدة.

(٣) الآية (٣٥) من سورة الرعد.

[٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال: ﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكْفُفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَن تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقال سبحانه عن النار: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِّنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال: ﴿لَا يُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩] وقوله تعالى: ﴿فَأَنْقَرُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١١﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، والآيات في ذكر الجنة والنار كثيرة جداً... وأهل الجنة منعمون خالدون فيها أبداً وأهل النار يعذبون كل بحسب ذنبه، فالكافر والمشرك خالدون فيها أبداً، وأما الفجار من أهل الملة فيطهرون وينقون ثم يدخلون الجنة كما تقدم بيان ذلك والحمد لله.

ومن الأحاديث: فعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»^(٣).

والجنة هي دار الثواب لمن أطاع الله أعدها نزلاً لأهل كرامته من أصفياؤه، وموضعها في السماء السابعة عند سدرة المنتهى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٢﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣ -

(١) الآية (٢٤) من سورة البقرة.

(٢) الآيتان (١٢ - ١٣) من سورة المزمل.

(٣) صحيح البخاري برقم (٢٧٩٠).

[١٥]، والجنة مائة درجة بين كل درجة والأخرى كما بين السماء والأرض كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(١).

وأعلى الجنة الفردوس الأعلى وفوقه العرش ومنه تتفجر أنهار الجنة كما جاء في حديث أبي هريرة السابق عن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»^(٢). وللجنة ثمانية أبواب قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ فادخلوها خالدين﴾^(٣) وجاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون»^(٤)، وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء»^(٤)، أما الأبواب الأخرى فقد ذكرت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله، دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصلاة دعي من باب الريان» فقال أبو بكر، رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دُعي، من أيها دُعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٦٥)، وصحيح مسلم برقم (٨٧١).

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٥/٢ (٨٤٠٢) و«البخاري» ١٩/٤ (٢٧٩٠).

(٣) صحيح البخاري برقم (٣٢٥٧).

(٤) أخرجه أحمد ١٤٥/٤ (١٧٤٤٧) و«مسلم» ١٤٤/١ و«أبو داود» (١٦٩).

رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم» رواه أحمد والبخاري ومسلم^(١)، من حديث الزهري، بنحوه.

قال القاضي عياض: ذَكَرَ مُسْلِمٌ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ أَرْبَعَةً، وَزَادَ غَيْرَهُ بَقِيَّةَ الثَّمَانِيَّةِ، فَذَكَرَ مِنْهَا بَابَ التَّوْبَةِ، وَبَابَ الْكَاطِمِينَ الْعَيْظِ، وَبَابَ الرَّاضِينَ، وَالْبَابَ الْأَيْمَنَ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ^(٢)، «قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي التَّذَكِرَةِ: ذَكَرَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ فَعَدَّ أَبْوَابًا غَيْرَ مَا ذَكَرَ. قَالَ: فَعَلَى هَذَا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ أَحَدٌ عَشَرَ بَابًا. وَقَالَ عِيَاضُ: وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ عِدَّةَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ بَابًا»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل أهل عمل باب من أبواب الجنة يدعون بذلك العمل، ولأهل الصيام باب يدعون منه يقال له الرِّيَانُ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هل أحد يدعى من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(٤).

وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من التعميم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فعن أسامة بن زيد قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا مُشَمَّرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، نُورٌ يَتَلَأَلُ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطْرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ، فِي مَقَامٍ أَبَدًا، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ فِي دُورٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ» قَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمَّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) أخرجه مالك «الموطأ» ٢٩٠ و«البخاري» ١٨٩٧ و«مسلم» ٩١/٣ و«الترمذي» (٣٦٧٤).

(٢) وسماه ابن بطال رحمه الله تعالى بباب المتوكلين قال: ويمكن أن يكون الباب الباقي، باب المتوكلين الذين يدخلون الجنة في سبعين ألفاً من باب واحد، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم كالبدر: الذين لا يسترقون، ولا يكتون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، من شرح ابن بطال شرح حديث من أنفق زوجين.

(٣) التذكرة للقرطبي (٤٤٠) ط/دار السلام القاهرة. وانظر النهاية لابن كثير (٢/٢٢٩)، وفتح الباري (٧/٢٨)، وزهر الربا على المجتبي للسيوطي (٧/٥ - ٨).

(٤) أخرجه مالك «الموطأ» ٢٩٠ و«أحمد» ٢٦٨/٢ (٧٦٢١) و«البخاري» ١٨٩٧ و«مسلم» ٩١/٣ و«الترمذي» (٣٦٧٤)، وانظر الحافظ في الفتح (٧/٢٨).

قَالَ: «قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ ذَكَرَ الْجِهَادَ وَحَضَّ عَلَيْهِ» رواه ابن ماجه في السنن^(١)، وابن حبان.

والإيمان بالجنة والنار يتحقق بثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد الجازم بأنهما حق وأن الجنة دار المتقين والنار دار الكافرين والمنافقين.

الثاني: اعتقاد وجودهما الآن.

الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما وأنهما لا تفتيان ولا يفنى من فيهما.

وقد أشار المصنف رحمه الله تعالى أن الجنة المذكورة في القرآن هي التي أهبط منها آدم عليه السلام وهو قول من ثلاثة أقوال رجح المصنف ما ذكره قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾، ﴿قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ فِيهَا نَحْيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ - ٢٥].

وقد سبق في علم الله تعالى خروج آدم من الجنة وهبوطه الأرض ليعمرها قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَمْسُحُ بِمِخْدِكَ وَقُنْدُسٌ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

روى مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ لَهُ مُوسَى:

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢) قال في حاشية السندي على السنن قال: في الزوائد في إسناده مقال والضحاك المعافري الدمشقي ذكره ابن حبان في الثقات وقال الذهبي في طبقات التهذيب: مجهول وسليمان بن موسى الأموي مختلف فيه وباقي رجال الإسناد ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه، وقد ضعفه الألباني كما في التعليق الرغيب (٢٥٣/٤)، الضعيفة (٣٣٥٨).

أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَعْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفْتَلَوْمُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ» مالك في الموطأ والبخاري ومسلم^(١). وفي لفظ: «قَالَ: احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى؛ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوْنَا خَيْبَتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلَوْمُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلَاثًا».

نظر المؤمنين في الجنة الى وجه الله الكريم:

ان من أعظم النعيم، وأطيب الهبات والتفضل من رب البريات على أهل الجنة، أن يكشف الرب الجليل لهم عن وجهه الكريم فما أعطوا نعمة ولا فضلاً ولا كرمًا أفضل مما يرون يومئذ اللهم لا تحرمننا النظر إلى وجهك الكريم يا كريم، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. وقال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِيٍّ وَزِيَادَةٌ﴾^(٢) هو النظر إلى وجهه الكريم، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِيٍّ وَزِيَادَةٌ﴾، قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزْكُمْوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ نُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَبُيِّضَ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجْزَنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ»^(٣). وَرَوَاهُ غَيْرُهُ بِأَسَانِيدٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَالْفَاطِظُ آخِرُ، مَعْنَاهَا أَنَّ الزِّيَادَةَ: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكَذَلِكَ فَسَّرَهَا الصَّحَابَةُ ﷺ. رَوَى

(١) أخرجه مالك «الموطأ» ٥٦٠ و«البخاري» ١٥٧/٨ (٦٦١٤) و«مسلم» ٤٩/٨ (٦٨٣٦).

(٢) الآية (٢٦) من سورة يونس.

(٣) أخرجه أحمد ٣٣٢/٤ (١٩١٤٣) و١٥/٦ (٢٤٤٢١) و«مسلم» ١١٢/١ (٣٦٨) والترمذي «٢٥٥٢ و٣١٠٥ و«ابن ماجه» ١٨٧ و«النسائي» في «الكبرى» (٧٧١٨).

ابْنُ جَرِيرٍ ذَلِكَ. عَنْ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه؛ وَحُدَيْفَةُ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾﴾. احتج الشافعي رضي الله عنه وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي. وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا^(١). وقال شيخ الإسلام أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة في أصول الديانة ما نصه: أفضل لذات الجنة رؤية الله تعالى ثم رؤية نبيه صلى الله عليه وسلم، فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين وملائكته المقربين وجماعته المؤمنين والصدّيقين النظر إلى وجهه صلى الله عليه وسلم. انتهى^(٢).

مجيء الرب جل وعلا للفصل بين العباد:

قال المصنّف رحمه الله تعالى: (وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، لِعَرْضِ الْأُمَمِ وَحِسَابِهَا وَثَوَابِهَا).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَجَاءَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا لِعَرْضِ وَالْحِسَابِ مَنْ لَا يَخْفَى

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد الخدري

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية (١/١٨٨).

(٢) الإبانة في أصول الديانة (٣٥).

الطويل: «حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله أتاهم رب العالمين»^(١). هكذا ثبت في السمع أن الله يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفاً ولا يسعنا إلا التصديق بذلك ونكلُ علمه إلى صاحب الشرع. قال شيخ الإسلام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى: «وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٢) وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء في الحديث، ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ اهـ»^(٢).

وقال ابن كثير: قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النبوة إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»^(٣). فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة «سبحان» فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً^(٤).

وأن مجيء الله جل جلاله ليس كمجيء أحد، كما أن ذاته سبحانه ليست كذات أحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، قال القنوجي رحمه الله تعالى: وهذه صفة من الصفات الفعلية التي يفعلها الله تعالى إذا شاء، وأهل السنة لم يشبهوا مجيء الله بمجيء الخلق كما فعلت المشبهة، وكذلك لم يؤولوا ويحرفوا كما فعلت المعطلة^(٥).

(١) الحديث متفق عليه، رواه البخاري (٤٣١/١٣) ح ٧٤٣٩ في التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة، ومسلم (١٦٧/١) ح ١٨٣ في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، كلاهما من حديث عطاء عن أبي سعيد مرفوعاً.

(٢) مقالات الإسلاميين (٢١١).

(٣) أخرجه البخاري ١٧٩/٩ (٧٥١٠) و«مسلم» ١٢٥/١ (٣٩٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٤/٦٢٠) دار الفكر.

(٥) [عقيدة السلف أصحاب الحديث ص (٢٧)].

قلت: ومن فسر مجيء الرب بمجيء أمره، أو ملائكته، فإنه يعجزه تفسير قوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فذكر مجيء الملائكة وحده، ومجيئه سبحانه وحده، ومجيء آياته ففصل.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠].

قال شيخنا العلامة محمد سالم ولد عبدالودود رحمه الله تعالى:

وما نقول في صفات قدسيه	فرع الذي نقوله في نفسه
فإن يقل جهميهم: كيف استوى؟	كيف يجي؟ فقل له: كيف هوا؟
لا فرق بين ما سميئه يعد	وصفا لناك (علم) أو جزءك (يد)
الباب في الجميع واحد فلا	تكن معطلا ولا ممثلا
يأتي، يجي، يكشف عن ساق يضع	قدمه على جهتم، يسع
بفضله الخلق يدها بالعطا	مبسوطتان، كيف شاء بسطا
كلتاها في يمينها يمين	فهو بذا من خلقه يبين

ويأتي الرب جل جلاله والملائكة (لِعَرْضِ الْأُمَّمِ وَحِسَابِهَا وَثَوَابِهَا) متعلق بيجيء يعني أن جميع الأمم تعرض للنظر في أحوالها والحساب على أعمالها، وهو أن يعدد على من أحضر للحساب كل ما فعل من حسنة ومن سيئة فيحاسب المؤمن بالفضل، والمنافق والكافر بالحجة والعدل.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: (وَتُوَضَّعُ الْمَوَازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١) وَتُوْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصَلُّونَ سَعِيرًا).

(١) الآية (١٠٢) من سورة المؤمنون.

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَالْوَزْنَ لِلْأَعْمَالِ بِالْمِيزَانِ حَقٌّ وَأَقْلَحَ ذُؤُ الرُّجْحَانِ
وَصُحُفُ الْأَعْمَالِ بِالْيَقِينِ فَآتَيْنَا اللَّهُمَّ بِالْيَمِينِ

العرض والحساب:

ما هو العرض والحساب؟: هو جمع الخلائق في صعيد واحد لفصل القضاء، فيعرض الناس على ربهم ويعرض على كل واحد عمله من حسن وسوء ثم يحاسب على ذلك، ويخلو المولى جلّ وعلا بعبده المؤمن فيقرّره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأمّا الكفّار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنّه لا حسنات لهم، ولكن تعدّ أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقرّرون بها.

والعرض والحساب ثابتان في الكتاب والسنة وأجمع أهل الإسلام على ذلك، قال السفاريني ذاكراً لإجماع أهل العلم: (وهو حق ثابت ورد به الكتاب والسنة وانعقد عليه الإجماع وهو يوم القيامة)^(١)، وهذا أيضاً ما قرره الحافظ أبو بكر الإسماعيلي في كتابه اعتقاد أئمة أهل الحديث^(٢) حيث قال: (والحساب حق).

وكذا الصابوني في كتابه عقيدة السلف أصحاب الحديث^(٣) وغيرهم كثير. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَذُوقُ وَعْتِ الْأَوَاقِعُ﴾ (١٥) وَأَشَقَّتْ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ (٤).

وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَيِّئًا ﴿٨﴾ وَيُنْفَلِجُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

(١) لواعم الأنوار (١/٣٩٤).

(٢) اعتقاد أئمة أهل الحديث ص (٦٨).

(٣) ص (٦).

(٤) الآيات (١٥ - ١٨) من سورة الحاقة.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَاهُ ظَهْرَهُ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴿٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَمَرَ تَكْفُرًا إِنَّا نَعْتَلِيٰ عَلَيْكُمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِرِينَ ﴿١٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصْرِينَ ﴿١٤﴾ ذَلِكَم بِأَنكُمْ أَخَذْتُمُ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُولًا وَعَزَّيْتُمْ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَبُونَ ﴿١٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾﴾ ﴿٢﴾.

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك» فقلت يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ ﴿٣﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب» ﴿٤﴾».

وعن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَعَرَضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرٌ، وَعَرَضَةٌ تَطَايُرِ الصُّحُفِ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَحُوسِبَ حِسَابًا يَسِيرًا، دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ

(١) الآيات (٦ - ١٥) من سورة الانشقاق.

(٢) الآيات (٢٧ - ٣٧) من سورة الجاثية

(٣) الآيات (٧ - ٨) من سورة الانشقاق.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٧٢).

أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، دَخَلَ النَّارَ»^(١).

وكان من دعائه ﷺ: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً» فعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ «اللَّهُمَّ حَاسِبِي حِسَاباً يَسِيراً» فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا الْحِسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: «أَنْ يَنْظَرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوفِيَ الْحِسَابَ يَوْمَئِذٍ يَا عَائِشَةُ هَلْكَ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ يُكْفِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَةُ تَشُوْكَهُ»^(٢).

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: أَنَّهُ أَنْشَدَ فِي ذَلِكَ شِعْراً:

وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي مُنْشَرَةً فِيهَا السَّرَائِرُ وَالْأَخْبَارُ تُطْلَعُ
فَكَيْفَ سَهْوُكَ وَالْأَتْبَاءُ وَاقِعَةٌ عَمَّا قَلِيلٍ، وَلَا تَدْرِي بِمَا تَقَعُ
أَفِي الْجَنَانِ وَفَوْزٌ لَا انْقِطَاعَ لَهُ أَمْ الْجَحِيمِ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدْعُ
تَهْوِي بِسَاكِنِهَا طَوْرًا وَتَرْفَعُهُمْ إِذَا رَجَوْا مَخْرَجًا مِنْ غَمِّهَا قُمِعُوا
طال البكاء فلم يرحم تضرعهم فيها، ولا رقية تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا^(٣)

فالمؤمن يخلو به ربه فيقول الله سبحانه وتعالى له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك يوم القيامة. والكافرون يحاسبون على رؤوس الأشهاد وينادى بهم ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

قوله رحمه الله تعالى:

(وَتُوَضَّعُ الْمَوَازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) رواه الترمذي (٢٤٢٥) عن الحسن عن أبي هريرة وقال: لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه ابن ماجه وقال في الزوائد: رجال الإسناد ثقات إلا أنه منقطع والحسن لم يسمع من أبي موسى قاله على بن المدني وأبو حاتم وأبو زرعة. وقد قال الشيخ الألباني: ضعيف.

(٢) رواه أحمد ٤٨/٦ والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ٢٥٥/١.

(٣) حلية الأولياء (٩٤/٢).

الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ أي تنصب الموازين لإظهار العدل قال تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
أَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنَ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [الأعراف: ٨ - ٩]
﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ
﴿١١٤﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٤]، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
هِيَ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ [القارعة: ٦ - ١١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٤﴾﴾
[النساء: ٤٠] ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

والموازين جمع ميزان، والميزان هو: عبارة عن الآلة التي توزن بها
أعمال العباد من خير أو شر، ويكون ذلك بعد الحساب، لأن الوزن
للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال،
والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها، وهو ميزان حقيقي له لسان
وكفتان، توزن به أعمال العباد^(٢).

روى البخاري في صحيحه وهو آخر حديث في الصحيح عن أبي
هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي
الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ
وَبِحَمْدِهِ»^(٣).

(١) الآية (١٠٢) من سورة المؤمنون.

(٢) التذكرة للقرطبي (٣٧٣)، والنهاية لابن كثير (٥٦/٢).

(٣) البخاري (٦٠٤٣، ٦٣٠٤، ٧١٢٤) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب فضل
التهليل والتسييح والدعاء رقم (٢٦٩٤).

وقال ﷺ عن ساقِي ابن مسعود ﷺ في قصة له وقعت مع الصحابة لما صعد يجني عيدان سواك فضحكوا من حموشة ساقيه فقال عليه الصلاة والسلام: «أتعجبون من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»^(١)، وقال ﷺ: «إنه ليؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» - وقال -: «اقروا»: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾^(٢)، وغير ذلك من الأحاديث.

قال الإمام النووي وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها^(٣).

وقال الحافظ ابن حجر: «قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ أَجْمَعَ أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْمِيزَانِ وَأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ لِسَانٌ وَكِفَّتَانِ وَيَمِيلُ بِالْأَعْمَالِ، وَأَنْكَرَتْ الْمُعْتَزَلَةُ الْمِيزَانَ وَقَالُوا: هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْعَدْلِ فَخَالَفُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَضَعُ الْمَوَازِينَ لِوِزْنِ الْأَعْمَالِ لِيَرَى الْعِبَادَ أَعْمَالَهُمْ مُمَثَّلَةً لِيَكُونُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَاهِدِينَ، وَقَالَ ابْنُ فُورَكٍ أَنْكَرَتْ الْمُعْتَزَلَةُ الْمِيزَانَ بِنَاءِ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّ الْأَعْرَاضَ يَسْتَحِيلُ وَزْنُهَا إِذْ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا، قَالَ وَقَدْ رَوَى بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْلِبُ الْأَعْرَاضَ أَجْسَامًا فَيَزِينُهَا». اِنْتَهَى^(٤).

قلت وحديث البطاقة شاهد على ذلك:

فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ

(١) رواه أحمد (٤٢٠/١، ٤٢١)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، ورواه أبو يعلى (٥٣١٠/٩)، وإسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة، قال الهيثمي في المجمع (٢٨٩/٩): رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري والطبراني من طرق (وذكر بعض ألفاظه) وأمثلة طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقيّة رجال أحمد وأبو يعلى رجال الصحيح. اهـ.

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (الجنة والنار/١٨).

(٣) شرح مسلم للنووي (١٠١/٣).

(٤) فتح الباري (٥٣٨/١٣).

وَتَسْعِينَ سِجِلًا كُلُّ سِجِلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ لَا يَا رَبَّ فَيَقُولُ أَفَلَاكَ عُدْرٌ فَيَقُولُ لَا يَا رَبَّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ احْضُرْ وَزَنْكَ فَيَقُولُ يَا رَبَّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَاتِ فَقَالَ إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ قَالَ فَتَوَضَّعَ السِّجِلَاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَاتُ وَثَقَلَتْ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ^(١).

بل إنه يقع القصاص بين السادة والعبيد، وحتى بين الحيوانات العجماء، فما بالك الإنسان المكلف كثير الذنوب والعصيان فمن الأول ما روت أمنا الصديقة بنت الصديق عليها السلام وعن أبيها: أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ، يُكَذِّبُونِي، وَيَخُونُونِي، وَيَعْصُونِي، وَأَسْتَمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ، قَالَ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوَكَ وَكَذَّبُوكَ وَعَقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَرَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ»، قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتَفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ ﴿وَضَعُ الْمُوزِنِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾»^(٢) قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَزْوَانَ وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَزْوَانَ هَذَا الْحَدِيثَ^(٣).

(١) أخرجه أحمد ٢١٣/٢ (٦٩٩٤) و«الترمذي» ٢٦٣٩ قَالَ أَبُو عِيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، و«ابن ماجه» (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه أحمد ٢٨٠/٦. و«الترمذي» (٣١٦٥).

(٣) و«عبد الرحمن من صغار أتباع التابعين، توفي: ١٨٧ هـ، روى له: (البخاري - أبو داود =

وعن عبدالله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان»، لفظ البخاري وقال: ويذكر عن جابر، عن عبدالله بن أنيس؛ وزاد أحمد والحاكم: «لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده مظلمة حتى أقصه منه، حتى اللطمة. قلنا: يا رسول الله كيف وإنما نحشر حفاة عراة؟ قال: بالسيئات والحسنات»^(١).

ومن الثاني: ما جاء في صحيح مسلم من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَتَوَدََّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(٢).

تطير الصحف:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَيُؤْتُونَ صَحَائِفَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَأُولَئِكَ يَصَلُّونَ سَعِيرًا).

يختلف الناس في أخذ صحفهم يوم القيامة فأخذ يمينه ومن أمامه، وأخذ بشماله ومن وراء ظهره، وعلى حسب الإعطاء تكون السعادة والشقاوة، والفوز والخسران، والحزن والاطمئنان، فيا فوز من سعدت يمينه بأخذ كتابها، وستر ذنبها، وقربها من ربها، اللهم يمن كتابنا، ويسر حسابنا، وألهمنا صوابنا.

= - الترمذي - النسائي) رتبته عند ابن حجر: ثقة له أفراد، وأما رتبته عند الذهبي: يحفظ، وله ما ينكر، وثقه علي، والحديث رواه أحمد (٢٨٠/٦).

(١) أخرجه أحمد ٤٩٥/٣ (١٦١٣٨) و«البخاري» في (الأدب المفرد) ٩٧٠ قال: حدثنا موسى. وفي (خلق أفعال العباد) ٥٩ وانظر فتح الباري (٣٧١/٧) باب القصاص.

(٢) أخرجه أحمد ٢٣٥/٢ (٧٢٠٣) و«مسلم» (٢٥٨٢)، و«البخاري» في (الأدب المفرد) (١٨٣).

قال تعالى ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَّا طَعْمَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (١٦) قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، قد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْمِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويُبَيِّضُ وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا - أو: من شر هذا - اللهم لا تأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه فيقول: أبعدم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا». ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه^(١). وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْفُوا بِكَيْبِئِي﴾ (١٦) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسِيبَةٌ﴾ (١٧) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (١٨) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (١٩) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ﴾ (٢٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنُنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّةً﴾ (٢١) ﴿وَلَوْ أَدْرَاكَ مَا حِسَابِيَّةً﴾ (٢٢) ﴿يَلَيِّنُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ (٢٣) ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٤) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً﴾ (٢٥) ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٢٦) ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ﴾ (٢٧) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٢٨) ﴿إِنَّكُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩) ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (٣٠) ، وقال جل من قائل ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلْقِيهِ﴾ (٣١) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٣٢) ﴿وَيُنْفَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ (٣٣) ﴿وَأَمَّا مَنْ

(١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٣٦) من طريق عبدالله بن عبدالرحمن، عن

عبيدالله بن موسى به، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

أَوْ فِي كَيْبِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٢﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ
 فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا
 ﴿١٥﴾ .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وَأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ يَجُوزُهُ الْعِبَادُ بِقَدْرِ
 أَعْمَالِهِمْ فَنَاجُونَ مُتَفَاوِثُونَ فِي سُرْعَةِ النَّجَاةِ عَلَيْهِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَقَوْمٌ أُوْبِقَتْهُمْ
 فِيهَا أَعْمَالُهُمْ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَحَقُّ الصِّرَاطِ كُلُّ جَائِزٍ بِحَسَبِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ الْفَائِزُ
 تَفَاوَتْهُوا بِسُرْعَةِ النَّجَاةِ وَقَوْمٌ أُوْبِقُوا بِالسَّيِّئَاتِ

الإيمان بالصراط:

ما هو الصراط؟: في اللغة الطريق، والمراد هنا جسر على متن
 جهنم.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات الصراط، وهو جسر - بفتح
 الجيم وكسرها - ممدود على جهنم ليعبر المسلمون عليه إلى الجنة، وهو
 أحد من السيف وأدق من الشعر، وهو ممر خطير، وطريق عسير كما وصفه
 البشير النذير ﷺ فقال: كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه
 عن رسول الله ﷺ: «... قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحض
 مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها
 السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير،
 وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في
 نار جهنم...»^(١). وهو ثابت بالكتاب والسنة، فمن السنة ما تقدم ومن
 الكتاب ذهب أكثر المفسرين إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا
 كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ [مريم: ٧١]، فسرها عبدالله بن مسعود وفتادة

(١) مسلم (١٨٣).

وزيد بن أسلم (بالمرور على الصراط)، قال ابن أبي العز: (والأظهر أنه المرور على الصراط، وفسرها جماعة منهم ابن عباس بالدخول في النار لكن ينجون منها)^(١).

وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه باب (الصراط جسر جهنم) ذكر فيه حديث أبي هريرة الطويل وفيه: «يُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدَعَاءُ الرَّسُولِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَبِهِ كَلَالِبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ»^(٢) الحديث، وأنكره بعض المعتزلة.

قال ابن كثير: ثم ينتهي الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف، إلى الظلمة التي دون الصراط وهي على جسر جهنم كما تقدم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «هم في الظلمة دون الجسر»^{(٣)(٤)}. وفي هذا الموضع يفترق المؤمنون والمنافقون، بعد أن يعطوا جميعاً من النور، لكن يتخلف أهل النفاق وينطفأ نورهم، ويبقى لأهل الإيمان نورهم يضيء كما كان يضيء في قلوبهم في الدنيا رغم الابتلاءات والمحن، لا ينطفأ ولا يخبو، فيسبق أهل الإيمان للجنان والنور من بين أيديهم وعن أيمنهم، ويبدأ الصراخ من أهل النفاق، ألم نكن معكم، فلا يلتفت لهم لأنهم كانوا في الصفوف فلم يلبثوا أن زادوها خبالاً واضطراباً وتدابيراً وانقطاعاً فيجزون بما يستحقون من جزاء مناسب،

(١) [انظر: تفسير البغوي (٢٤٦/٥)].

(٢) البخاري (٦٢٠٤).

(٣) النهاية في الملاحم والفتن لابن كثير (٢/٢٦٥). والحديث جزء من حديث ثوبان برقم (١٨٢)، والمكدوس.

(٤) رواه مسلم (٧٤٢) والمكدوس: المدفوع. وتكدر الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط. ويروى بالشين المعجمة من الكدش. وهو السوق الشديد. والكدش: الطرد والجرح أيضاً. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: كدس.

واسمع إلى الآيات وهي تصور الموقف الرهيب الذي يخشى فيه المؤمن في هذه الحياة أن يكون من أهل النفاق والعياذ بالله قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَلْزِمُنَا الْمَنَافِقُ وَالْمُنَافِقَاتُ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (١).

ويصور سيد قطب رحمه الله تعالى في الظلال تلك اللامسات حول ظلال الآيات فيقول: فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهداً عجيباً؛ هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم. فهذه الشخص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها... إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات. والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها، أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه، ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها! ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَلْزِمُنَا الْمَنَافِقُ وَالْمُنَافِقَاتُ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾...

ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف اللطيف... إن هناك

(١) الآيات (١٢ - ١٥) من سورة الحديد.

المنافقين والمنافقات، في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال. وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾... فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف. ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صوتاً مجهولاً يناديهم: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾... ويبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا. إلى ما كنتم تعملون. ارجعوا فالنور يلتمس من هناك. من العمل في الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور!

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات. فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لِمُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾... ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت. فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾... فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا معكم هنا في صعيد واحد؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كان الأمر كذلك. ﴿وَلَا كُنَّا فَنَنْتَهُ أَنْفُسَكُمُ﴾... فصرفتموها عن الهدى. ﴿وَتَرَبَّصُّمُ﴾. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة. ﴿وَأَزْتَبْتُمْ﴾... فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزيمة الأخيرة. ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيُّ﴾. الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها! ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾... وانتهى الأمر. ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾... وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم.

ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتقرير، كأنما هم أصحاب الموقف المحكومون فيه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أم لعلها كلمة الملائة الأعلى، أو نطق الله الكريم^(١).

(١) في ظلال القرآن (١٣١/٧).

ثم يكون بعد الصراط القنطرة وهي بين الجنة والنار بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام وأمان من الوقوع في النار عندئذ يوقفون على القنطرة، فينقون ويهذبون من كل ما بينهم من التبعات والحقوق لبعضهم البعض، ثم يؤذن لهم بعد ذلك في الدخول إلى الجنة، قال البخاري رحمه الله تعالى حَدَّثَنِي الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ ﴿وَرَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾.

قَالَ حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدَهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» قَالَ الْحَافِظُ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْقِصَاصَ لَا يَسْتَنْفِدُ حَسَنَاتِهِمْ. قُلْتُ - ابن حجر -: وَلَعَلَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ مِنْهُمْ عَلَى الْقَوْلِ الْمُرَجَّحِ آتِفًا، وَخَرَجَ مِنْ هَذَا صِنْفَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ وَمَنْ أُوْبِقَهُ عَمَلُهُ^(١).

ثم قال الحافظ: و«الصراط جسر موضوع على متن جهنم، وأن الجنة وراء ذلك فيمرّ عليه الناس بحسب أعمالهم، فمنهم الناجي وهو من زادت حسناته على سيئاته أو استويا أو تجاوز الله عنه، ومنهم الساقط وهو من رجحت سيئاته على حسناته إلا من تجاوز الله عنه، فالساقط من الموحدين يعذب ما شاء الله ثم يخرج بالشفاعة وغيرها، والناجي قد يكون عليه تبعات وله حسنات توازيها أو تزيد عليها فيؤخذ من حسناته ما يعدل تبعاته فيخلص منها. واختلف في القنطرة المذكورة فقليل هي من تنمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل إنهما صراطان، وبهذا الثاني جزم القرطبي». اهـ.

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر (٣٩٩/١١) باب القصاص يوم القيامة [كتاب الرقاق].

الحوض:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(والإيمان بحوض رسول الله ﷺ تردُّه أمته لا يظمأ من شرب منه ويُذادُ عنه من بدَّلَ وغَيَّرَ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَحَوْضُهُ تَرِدُهُ الْأُمَّةُ لَا يَظْمَأُ مَنْ شَرَبَ مِنْهُ مُسْجَلًا
وَإِنَّمَا يُذَادُ عَنْهُ كُلُّ مَنْ بَدَّلَ أَوْ غَيَّرَ سِرًّا أَوْ عَلَنُ

الحوض: ما هو الحوض؟ وهل يختص الحوض بنبينا ﷺ؟ أم لكل نبي حوض؟ ومن الذين سيردونه ومن سيتردون عنه؟ وهل هو قبل الصراط أم بعده؟

الحوض: في اللغة: مجمع الماء، وجمعه حياض وأحواض.

وشرعاً: هو حوض النبي ﷺ الذي أكرمه الله تعالى به، وهو في عرصات يوم القيامة قبل الميزان وخوض الناس الصراط.

الإيمان بالحوض: يجب الإيمان بالحوض لأنه من الإيمان باليوم الآخر، الذي هو ركن من أركان الإيمان الستة التي لا يتم إيمان عبد إلا بها إجمالاً في المجمل وتفصيلاً فيما فصل.

الأدلة على وجود الحوض:

قال الإمام النووي نقلاً عن عياض رحمه الله تعالى: أَحَادِيثُ الْحَوْضِ صَحِيحَةٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ فَرَضٌ، وَالتَّصَدِيقُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَهُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، لَا يُتَأَوَّلُ، وَلَا يُخْتَلَفُ فِيهِ. ثم قال الْقَاضِي: «وَحَدِيثُهُ مُتَوَاتِرٌ الثَّقَلُ، رَوَاهُ خَلَائِقُ مِنَ الصَّحَابَةِ».

وقال ابن حجر: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «الْمُفْهِمِ» تَبَعًا لِلْقَاضِي عِيَاضٍ فِي غَالِيهِ: مِمَّا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَهُ وَيُصَدِّقَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ خَصَّ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَوْضِ الْمُصْرَحِ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ وَشَرَابِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي يَحْضُلُ بِمَجْمُوعِهَا الْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ، إِذْ رَوَى ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الصَّحَابَةِ نَيْفَ عَلَى الثَّلَاثِينَ، مِنْهُمْ فِي الصَّحِيحِينَ مَا يُنْفِ عَلَى الْعِشْرِينَ وَفِي غَيْرِهِمَا بَقِيَّةُ ذَلِكَ مِمَّا صَحَّ نَقْلُهُ وَاشْتَهَرَتْ رَوَاتُهُ، ثُمَّ رَوَاهُ عَنِ الصَّحَابَةِ الْمَذْكُورِينَ مِنَ التَّابِعِينَ أَمْثَالَهُمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ أَضْعَافُ أَضْعَافِهِمْ وَهَلُمَّ جَرًّا، وَأَجْمَعَ عَلَى إِثْبَاتِهِ السَّلْفُ وَأَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْخَلْفِ، وَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَأَحَالُوهُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَعَلَوْا فِي تَأْوِيلِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحَالَةٍ عَقْلِيَّةٍ وَلَا عَادِيَّةٍ تَلْزَمُ مِنْ حَمَلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، وَلَا حَاجَةَ تَدْعُو إِلَى تَأْوِيلِهِ، فَخَرَقَ مَنْ حَرَفَهُ إِجْمَاعَ السَّلْفِ وَفَارَقَ مَذْهَبَ أُمَّةِ الْخَلْفِ»، ثُمَّ عَقِبَ الْحَافِظُ فَقَالَ: قُلْتُ: أَنْكَرَهُ الْخَوَارِجُ وَبَعْضُ الْمُعْتَرِزَةِ، وَمِمَّنْ كَانَ يُنْكِرُهُ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ أَحَدُ أَمْرَاءِ الْعِرَاقِ لِمُعَاوِيَةَ وَوَلَدِهِ، وَلَمَا تَلَيْتَ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثَ رَجَعَ عَنِ ذَلِكَ وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ الْحَوْضَ حَقٌّ^(١).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: والأحاديث المشهورة المتعددة من الطرق الماثورة الكثيرة المتضافرة وإن رغمت أنوف كثير من المبتدعة المكابرة القائلين بجحوده المنكرين لوجوده وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده كما قال بعض السلف: من كذب بكرامة لم ينلها، ولو اطلع المنكر للحوض على ما سنورده من الأحاديث قبل مقالته لم يقلها. اهـ

وحوض النبي ﷺ الذي أكرمه الله تعالى به، وهو في عرصات يوم القيامة قبل الميزان وحوض الناس الصراط، وصنيع البخاري في صحيحه يفهم أنه بعد الصراط كما قال الحافظ، وهو غير الكوثر، بل الكوثر يكون مدداً له.

(١) فتح الباري (١١/٤٦٧).

وقد جاء وصفه في الأحاديث المتواترة منها أنه طوله: مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن والورق، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وريحه أطيب من المسك، وكيسانه كنجوم السماء وهو في غاية الاتساع، ترد عليه أمة محمد ﷺ، وهو فرطهم عليه، من شرب منه فلا يظماً بعده أبداً^(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «والحوض في العرصات، قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجازون الصراط، كما سيرد من طرق متعددة، وقد جاء مصرحاً به أنه في العرصات».

هل الحوض قبل الصراط أم بعده؟:

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في نهاية الكلام عن الحوض: «إن قال قائل: فهل يكون الحوض قبل الجواز على الصراط أو بعده قلت: إن ظاهر ما تقدم من الأحاديث يقتضي كونه قبل الصراط، لأنه يذاد عنه أقوام يقال عنهم إنهم لم يزالوا يرتدون على أعقابهم منذ فارقتهم، فإن كان هؤلاء كفاراً فالكافر لا يجاوز الصراط، بل يكب على وجهه في النار قبل أن يجاوزه، وإن كانوا عصاة فهم من المسلمين فيبعد حجبتهم عن الحوض لا سيما وعليهم سيما الوضوء، وقد قال ﷺ: «أعرفكم غراً محجلين من آثار الوضوء، ثم من جاوز لا يكون إلا ناجياً مسلماً فمثل هذا لا يحجب عن الحوض فالأشبه والله أعلم أن الحوض قبل الصراط»^(٢).

(١) كما في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما وأحاديث الحوض من المتواتر...

(٢) النهاية في الفتن والملاحم - لابن كثير الدمشقي (١٨٨/١) دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م الطبعة: الأولى تحقيق: الأستاذ عبده الشافعي.

وقال العلامة أبو عبدالله القرطبي في التذكرة أيضاً واختلف في كون الحوض قبل الميزان، قال أبو الحسن القاسبي: والصحيح أن الحوض قبل، قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدم، فيقدم على الميزان والصراط، قال أبو حامد الغزالي في كتاب علم كشف الآخرة: حكى بعض السلف من أهل التصنيف: أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله، قال القرطبي: هو كما قال، ثم أورد حديث منع المرتدين على أعقابهم القهقري عنه، ثم قال: وهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط، لأن الصراط من جاز عليه سلم، كما سيأتي، قلت: وهذا التوجيه قد أسلفناه ولله الحمد. اهـ^(١).

قلت: والذي بسببه أشكل على الجميع ممن قال أن الحوض بعد الصراط هو حديث أنس رضي الله عنه فقد أخرج أحمد والترمذي من حديث الثوري بن أنس عن أنس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي، فقال: «أنا فاعل»، فقلت: أين أطلبك؟ قال: «أطلبني أول ما تطلبني على الصراط». قلت: فإن لم ألقك؟ قال: «أنا عند الميزان». قلت: فإن لم ألقك؟ قال: «أنا عند الحوض»^(٢).

وقد عالج الحافظ ابن حجر نوع معالجة للإشكال فقال: وقد أسس شكلاً كون الحوض بعد الصراط بما سيأتي في بعض أحاديث هذا الباب أن جماعة يدفعون عن الحوض بعد أن يكادوا يردون ويذهب بهم إلى النار، ووجه الإشكال أن الذي يمر على الصراط إلى أن يصل إلى الحوض يكون قد نجا من النار فكيف يرد إليها؟ ويمكن أن يحمل على أنهم يقربون من الحوض بحيث يرونه ويرون النار فيدفعون إلى النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط».

(١) التذكرة للقرطبي (٣٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨/٣)، رقم (١٢٨٤٨)، والترمذي (٦٢١/٤)، رقم (٢٤٣٣) وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضاً: الضياء (٢٤٦/٧)، رقم (٢٦٩١).

ثم قال: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذَكِرَةِ»: ذَهَبَ صَاحِبُ «الْقُوتِ» وَغَيْرِهِ إِلَى أَنَّ الْحَوْضَ يَكُونُ بَعْدَ الصَّرَاطِ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى الْعَكْسِ، وَالصَّحِيحُ، أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَوْضَيْنِ أَحَدَهُمَا فِي الْمَوْقِفِ قَبْلَ الصَّرَاطِ وَالْآخَرُ دَاخِلَ الْجَنَّةِ وَكُلُّ مِنْهُمَا يُسَمَّى كَوْثَرًا. قُلْتُ: وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ الْكَوْثَرَ نَهْرٌ دَاخِلُ الْجَنَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَيَأْتِي، وَمَاؤُهُ يُصَبُّ فِي الْحَوْضِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْحَوْضِ كَوْثَرٌ لِكَوْنِهِ يُمَدُّ مِنْهُ، فَعَايَةَ مَا يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِ الْقُرْطُبِيِّ أَنَّ الْحَوْضَ يَكُونُ قَبْلَ الصَّرَاطِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَرُدُّونَ الْمَوْقِفَ عَطَاشَى فَيَرِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْحَوْضَ وَتَتَسَاقَطُ الْكُفَّارُ فِي النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا عَطِشْنَا، فَتُرْفَعُ لَهُمْ جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ فَيُقَالُ: أَلَا تَرُدُّونَ؟ فَيَطُتُونَهَا مَاءً فَيَتَسَاقَطُونَ فِيهَا.

وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ: أَنَّ الْحَوْضَ يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ^(١)، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْقُرْطُبِيِّ لَا لَهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّرَاطَ جِسْرٌ جَهَنَّمَ وَأَنَّهُ بَيْنَ الْمَوْقِفِ وَالْجَنَّةِ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَمْرُونَ عَلَيْهِ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَلَوْ كَانَ الْحَوْضُ دُونَهُ لَحَالَتْ النَّارُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الَّذِي يُصَبُّ مِنَ الْكَوْثَرِ فِي الْحَوْضِ، [قلت: وكون الكوثر يحال بينه وبين الحوض وجود النار دخول في إحالة القدرة، فهذان النهران اللذان أخبر عنهما النبي ﷺ أنهما من الجنة الفرات والنيل من أين يستمدان ماءهما مع أن اعتقادنا أن الجنة في السماء فليفهم المراد] قال: وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ الْحَوْضَ بِجَانِبِ الْجَنَّةِ لِيُنْصَبَ فِيهِ الْمَاءُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي دَاخِلَهَا، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ أَحْمَدَ «وَيُفْتَحُ نَهْرُ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ»^(٢) وَقَدْ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ: ظَاهِرُ قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الْحَوْضِ «مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٣)،

(١) مسلم (٢٣٠٠).

(٢) مسند أحمد (٣٧٨٧) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف.

(٣) أحمد الحديث المتقدم.

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّرْبَ مِنْهُ يَقَعُ بَعْدَ الْحِسَابِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ، لِأَنَّ ظَاهِرَ حَالِ مَنْ لَا يَظْمَأُ أَنْ لَا يُعَذَّبَ بِالنَّارِ، وَلَكِنْ يَحْتَمِلُ أَنْ مَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ التَّعْذِيبُ مِنْهُمْ أَنْ لَا يُعَذَّبَ فِيهَا بِالظَّمِّ بَلْ بغيرِهِ. قُلْتُ: وَيَدْفَعُ هَذَا الْإِحْتِمَالَ أَنَّهُ وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي عَاصِمٍ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ: «وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ لَمْ يُرَوْ أَبَدًا»، وَعِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ فِي زِيَادَاتِ الْمُسْنَدِ فِي الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ عَنْ لَقِيطِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ «وَفَدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُوَ وَنَهِيكَ بْنُ عَاصِمٍ، قَالَ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ عِنْدَ انْسِلَاخِ رَجَبٍ فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ انْصَرَفَ مِنْ صَلَاةِ الْعِدَاةِ» الْحَدِيثِ بِطَوِيلِهِ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالْبَعْثِ وَفِيهِ «تُعْرَضُونَ عَلَيْهِ بَادِيَةٌ لَهُ صَفْحَاتُكُمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَيَأْخُذُ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَيَنْضِجُ بِهَا قِبْلَكُمْ فَلَعَمْرُ إِلَيْهِ مَا يُخْطِئُ وَجَهَ أَحَدِكُمْ قَطْرَةً، فَأَمَّا الْمُسْلِمُ فَتَدْعُ وَجْهَهُ مِثْلَ الرِّيطَةِ الْبَيْضَاءِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَتَخْطِمُهُ مِثْلَ الْخِطَامِ الْأَسْوَدِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ نَبِيَّكُمْ وَيَنْصَرِفُ عَلَى أَثَرِهِ الصَّالِحُونَ فَيَسْلُكُونَ جِسْرًا مِنَ النَّارِ، يَطَأُ أَحَدُكُمْ الْجَمْرَةَ فَيَقُولُ: حَسٌّ، فَيَقُولُ رَبِّكَ أَوَانُهُ إِلَّا، فَيَطْلِعُونَ عَلَى حَوْضِ الرَّسُولِ عَلَى أَطْمَاءٍ وَاللَّهُ نَاهِلَةٌ رَأَيْتَهَا أَبَدًا مَا يَبْسُطُ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدَهُ إِلَّا وَقَعَ عَلَى قَدْحِ» الْحَدِيثِ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَّةِ وَالطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْحَوْضَ قَبْلَ الصَّرَاطِ» اهـ^(١).

قلت: ولعله وهم فالذي يدل عليه الحديث أنه بعد الصراط. والله

أعلم.

قلت: والشواهد على أن الحوض قبل الصراط كثيرة وأرجح من الأخرى والله أعلم منها: «سَيَلِي أُمْرَاءُ ظَلَمَةٌ خَوْنَةٌ فَجَرَةٌ. فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ. وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعْنَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ. وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضُ»، فكيف يقول النبي ﷺ لمن صدق أمراء السوء، وأعانهم على

(١) أخرجه الطبراني (٢١١/١٩)، (رقم ٤٧٧)، والحاكم (٦٠٥/٤)، رقم (٨٦٨٣).

ظلمهم أنه لا يرد عليه الحوض لو لم يكن قبل الصراط فأما بعده فلا معنى لكلام النبي ﷺ والله أعلم.

ومنها حديث ما في الصحيحين عن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار خلا برسول الله ﷺ فقال: ألا تستعملني كما استعملت فلاناً؟ فقال: إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض^(١)، ويلقوه على الحوض لماذا؟ ليأخذ لهم حقهم ممن ظلمهم وبغى عليهم.

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ليردن علي الناس من أصحابي، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول: أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»^(٢)، والذين يختلجون دونه هم ممن غيروا وبدلوا سنته، وانحرفوا عن شرعته، والحقيقة أن الأحاديث كثيرة في إثبات الحوض وإثبات تقدمه عن الصراط والله أعلم. وانظر في ذلك النهاية في الفتن والملاحم، والحوض والكوثر لبقلي بن مخلد وغيرهما.

واعلم أنه لكل نبي حوض ولكن أعظمها حوض نبينا ﷺ، فعن سمرّة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةٌ وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً» رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب^(٣).

أما من الذين سيردونه، ومن سيطرده عنه: فسيرده المؤمنون المتبعون

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٢٠/٧)، رقم (٣٧٠٠١)، وأحمد (٤٢/٤)، رقم (١٦٥١٧)، والبخاري (١٥٧٤/٤)، رقم (٤٠٧٥)، ومسلم (٧٣٨/٢)، رقم (١٠٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٠٧/٥)، رقم (٦٢١٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٢٨/٤)، رقم (٢٤٤٣)، وقال: غريب، وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي - ﷺ - مرسلًا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح. والطبراني (٢١٢/٧)، رقم (٦٨٨١).

لهدي خير البرية، وسيذاد عنه أقوام بدلوا وغيروا دين رب العالمين، وحاربوا سنة سيد الأولين والآخرين، فالويل لمن حيل بينه وبينه، وهنيئاً لمن كانت له شربة منه، اللهم لا تحرمنا بسبب ذنوبنا ورود حوض المصطفى ﷺ فقد أخرج مسلم^(١) في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ليردن على الحوض رجال ممن صاحبني. حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ، اختلجوا دوني. فلأقولن: أي رب أصيحابي. أصيحابي. فليقالن لي إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك»، وأخرج مسلم في صحيحه^(٢) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين. وإنا إن شاء الله، بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا. قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة. بين ظهري خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء. وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً»^(٣).

قال التّووي رحمه الله تعالى: (هذا ممّا اختلف العلماء في المراد به على أقوال: أحدها: أنّ المراد به المنافقون والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتّحجيل فيناديهم النبي ﷺ للسيما التي عليهم، فيقال: ليس هؤلاء ما وعدت بهم، إن هؤلاء بدلوا بعدك، أي لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ (٤/١٨٠٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتّحجيل، (١/٢١٨). ورواه مالك بنحوه، كتاب الطهارة، باب جامع الوضوء، (١/٢٨).

(٣) شرح مفردات: اختلجوا: اقتطعوا وانتزعوا... دهم بهم: أي سود لم يخالط لونها لون آخر. الفرط: هو الذي يتقدم القوم ويسبقهم ليرتاد لهم الماء ويهيئ لهم الدلاء والأرشية. سحقاً سحقاً: أي بعداً بعداً. وهذا دعاء عليم بالطرّد والإبعاد.

- والثاني: أن المراد من كان في زمن النبي ﷺ ثم ارتد بعده فيناديهم النبي ﷺ وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء، لما كان يعرفه ﷺ في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك.

- والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام.

وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين يذادون بالنار، بل يجوز أن يذادوا عقوبة لهم، ثم يرحمهم الله سبحانه وتعالى فيدخلهم الجنة بغير عذاب.

قال أصحاب هذا القول: ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل، ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي ﷺ وبعده لكن عرفهم بالسيما^(١).

وقال ابن عبد البر^(٢): (كل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله فهو من المطرودين عن الحوض وأشدّهم من خالف جماعة المسلمين كالخوارج والروافض وأصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق، والمعلنون بالكبائر، فكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بهذا الخبر)^(٣).

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: «فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبتعدين منه المسودي الوجوه، وأشدّهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (٣/١٣٦ - ١٣٧).

(٢) هو أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، (٣٦٨ هـ - ٤٦٤ هـ). إمام الأندلس وعالمها، من كبار حفاظ الحديث. فقيه. أديب. من تصانيفه: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الكافي في الفقه المالكي، شرح مذاهب علماء الأمصار، جامع بيان العلم وفضله وغيرها. انظر: نفع الطيب، ٢٩/٤ - ٣١، والأعلام، (٨/٢٤٠).

(٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١٩٥٩م، ٦٥/١.

المسلمين وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، كل يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بالآية، والخبر كما بينا، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

وقد قال ابن القاسم: وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء» اهـ^(١).

فائدة: ما معنى حديث النبي ﷺ «ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة وإن منبري على حوضي»^(٢)، قال الحافظ في الفتح: قوله (روضة من رياض الجنة) أي كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل من ملازمة حلق الذكر لا سيما في عهده ﷺ فيكون تشبيهاً بغير أداة، أو المعنى أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة فيكون مجازاً، أو هو على ظاهره وأن المراد أنه روضة حقيقة بأن ينتقل ذلك الموضع بعينه في الآخرة إلى الجنة. هذا محصل ما أوله العلماء في هذا الحديث، وهي على ترتيبها هذا في القوة.

وأما قوله: «ومنبري على حوضي» أي ينقل يوم القيامة فينصب على الحوض، وقال الأكثر المراد منبره بعينه الذي قال هذه المقالة وهو فوقه، وقيل المراد المنبر الذي يوضع له يوم القيامة، والأول أظهر، ويؤيده حديث أبي سعيد المتقدم وقد رواه الطبراني في «الكبير» من حديث أبي واقد الليثي رفعه «إن قوائم منبري رواتب في الجنة» وقيل معناه أن قصد منبره والحضور

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/١٦٨). عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾.

(٢) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر: ٧٠/٣، ومسلم في الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، برقم (١٣٩١): ١٠١١/٢.

عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد صاحبه إلى الحوض ويقتضي شربه منه، والله أعلم^(١).

مسافة الحوض:

اختلفت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في تحديد مسافة الحوض، ولعل ذلك لاعتبارات منها أجوبة النبي ﷺ للسائلين فلعل كل واحد منهم أخبره بما يمكن أن يتصوره من البلاد التي يعرفها، وقد أوضح ذلك أهل العلم لتسلم الأحاديث من الاضطراب، قال النووي نقلاً عن القاضي عياض رحمهما الله تعالى: «وَهَذَا الْإِخْتِلَافُ فِي قَدْرِ عَرْضِ الْحَوْضِ لَيْسَ مُوجِباً لِلِاضْطِرَابِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، بَلْ فِي أَحَادِيثٍ مُخْتَلِفَةِ الرِّوَاةِ، عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ سَمِعُوهَا فِي مَوَاطِنٍ مُخْتَلِفَةٍ ضَرَبَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَثَلًا لِبُعْدِ أَقْطَارِ الْحَوْضِ، وَسَعَتِهِ، وَقَرَّبَ ذَلِكَ مِنَ الْأَفْهَامِ لِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْبِلَادِ الْمَذْكُورَةِ لَا عَلَى التَّقْدِيرِ الْمَوْضُوعِ لِلتَّحْدِيدِ، بَلْ لِلْإِعْلَامِ بِعِظَمِ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، فَبِهَذَا تُجْمَعُ الرِّوَايَاتُ. هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي. قُلْتُ - النووي -: وَلَيْسَ فِي الْقَلِيلِ مِنْ هَذِهِ مَنَعُ الْكَثِيرِ، وَالْكَثِيرُ ثَابِتٌ عَلَى ظَاهِرِ الْحَدِيثِ، وَلَا مُعَارَضَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٢).

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «ظَنَّ بَعْضُ الْقَاصِرِينَ أَنَّ الْإِخْتِلَافَ فِي قَدْرِ الْحَوْضِ إِضْطِرَابٌ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، ثُمَّ نَقَلَ كَلَامَ عِيَاضٍ وَزَادَ: وَلَيْسَ إِخْتِلَافًا بَلْ كُلُّهَا تُفِيدُ أَنَّ كَبِيرٌ مُتَّسِعٌ مُتَّبَاعِدِ الْجَوَانِبِ، ثُمَّ قَالَ: وَلَعَلَّ ذِكْرَهُ لِلْجِهَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ بِحَسَبِ مَنْ حَضَرَهُ مِمَّنْ يَعْرِفُ تِلْكَ الْجِهَةَ فَيُخَاطَبُ كُلُّ قَوْمٍ بِالْجِهَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَأَجَابَ النَّوَوِيُّ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي ذِكْرِ الْمَسَافَةِ الْقَلِيلَةِ مَا يُدْفَعُ الْمَسَافَةَ الْكَثِيرَةَ فَلْأَكْثَرَ ثَابِتٌ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فَلَا مُعَارَضَةَ».

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر (٦/ ٤٤٨). وانظر مجمع الزوائد (٤/ ٦٨١) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

(٢) شرح مسلم للنووي (٥٨/١٥) إثبات حوض نبينا ﷺ.

وقال الحافظ معلقاً على القولين بعد أن نقلهما: «وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ أَخْبَرَ أَوَّلًا بِالْمَسَافَةِ الْيَسِيرَةِ ثُمَّ أَعْلَمَ بِالْمَسَافَةِ الطَّوِيلَةِ فَأَخْبَرَهُ بِهَا كَأَنَّ اللَّهَ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِاتِّسَاعِهِ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ فَيَكُونُ الْإِعْتِمَادُ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَى أطولها مسافة»^(١).

الإيمان زيادته ونقصانه:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَأَنَّ الْإِيمَانَ: قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَإِخْلَاصٌ بِالْقَلْبِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ يَزِيدُ بِزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ وَيَنْقُصُ بِنَقْصِهَا.

فيكون فيها التَّقْصُرُ وبها الزِّيَادَةُ وَلَا يَكْمُلُ قَوْلُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنَيْتِهِ وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنَيْتُهُ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ).

قال الناظم:

وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ الْأَعْضَاءِ وَإِخْلَاصُ الْجَنَانِ
يَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ بِالْأَعْمَالِ وَالْقَوْلُ بِالْإِيمَانِ ذُو كَمَالِ
بِعَمَلٍ وَلَا يَصِحَّانِ إِلَّا قَضْدٍ وَلِلْسُنَّةِ كُلِّهَا تَلَا

الشرح:

قد تقدّم الكلام في أول الكتاب عن الإيمان وحقيقته فمن نطق بالشهادتين وأذعن بقلبه بصدق الرسول ﷺ بما جاء به وعمل بأحكام الشريعة كالصلاة والصوم كان مؤمناً، قال عبدالله بن نافع كان مالك يقول: «الإيمان قول وعمل يزيد وينقص...»^(٢)، وفي العتبية: قال مالك في قوله تبارك وتعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال: هي صلاة المؤمنين إلى

(١) فتح الباري (٤٧١/١١) الحوض.

(٢) رواه عبدالله بن أحمد في السنة (٢١٣) وابن عبدالبر في الانتقاء (٣٥)، وانظر مسائل العقيدة التي قررها الائمة المالكية للحمادي (٧١).

بيت المقدس قبل أن ينصرف القبلة، فلما أنزل صرف القبلة، أنزل الله تعالى في هذا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ للصلاة التي يصلونها تلقاء بيت المقدس» اهـ^(١)، واحتج بهذه الآية على المرجئة الذين لا يرون العمل داخلاً في مسمى الإيمان.

قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت - القائل ابن كثير - : أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الانشقاق: ٢٥، والتين: ٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً.

هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص». اهـ^(٢).

وقال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص^(٣).

تنبيه لا بد منه :

حديث علي رضي الله عنه المزعوم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان معرفة

(١) الانتقاء لابن عبد البر (٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٥٦/١) دار الفكر.

(٣) فتح الباري (٤٧/١).

بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان». أخرجه ابن ماجه في سننه (١).
موضوع أي مكذوب على النبي ﷺ فأردنا التنبيه عليه لكثرة من أورده من
المفسرين اغتراراً منهم أنه في سنن ابن ماجه.

قال الألويسي: «واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل، أما الأول فلأنه لو
لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسق
والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام مثلاً واللازم باطل فكذا
الملزوم، وأما الثاني فلكثرة النصوص في هذا المعنى، منها قوله تعالى:
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ومنها ما روي عن ابن
عمر رضي الله تعالى عنهما قلنا: يا رسول الله إنَّ الإيمان يزيد وينقص قال:
نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (٢)،
ومنها ما روي عن عمر وجابر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً «لو وزن إيمان
أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به» (٣) واعترض بأنَّ عدم قبول الإيمان

(١) قال السند في حاشيته على سنن ابن ماجه: والحديث عده ابن الجوزي في
الموضوعات قال: فيه أبو الصلت متهم ممن لا يجوز الاحتجاج به وتابعه على ذلك
جماعة منهم بعض شراح الكتاب وفي الزوائد إسناد هذا الحديث ضعيف لاتفاقهم على
ضعف أبي الصلت الراوي، قال السيوطي: والحق أنه ليس بموضوع وأبو الصلت وثقه
ابن معين وقال: ليس ممن يكذب، وقال في الميزان: رجل صالح إلا أنه شيعي تابعه
علي بن غراب وقد روى له النسائي وابن ماجه ووثقه ابن معين والدارقطني قال
أحمد: أراه صادقاً وقال الخطيب: كان غالباً في التشيع وأما في روايته فقد وصفوه
بالصدق ثم ذكر له بعض المتابعات. وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة»
(٢٩٥/٥): موضوع.

(٢) هكذا أورد الحديث بعض المفسرين منهم الألويسي، ويقال بأنه من رواية الثعلبي وحاله
معروف مع الحديث، ولم أقف عليه من رواية صحيحة. وممن ذكره الإمام التفتازاني
في شرح المقاصد في علم الكلام (٢٦٢/٢) ط/ تحقيق الناشر دار المعارف النعمانية
سنة النشر ١٤٠١هـ - ١٩٨١/ باكستان.

(٣) رواه عبدالله بن أحمد في السنة (٨٢١) وقال المحقق د. محمد سعيد سالم القحطاني،
إسناده حسن، وضعفه الألباني في الضعيفة وقال: منكر (٦٣٤٣). وذكره المعلمي في
الفوائد المجموعة (رقم ١٨) وقال: ذكره صاحب المقاصد وسنده موقوفاً على عمر =

الزيادة والنقص على تقدير كون الطاعات داخلة في مسماه أولى وأحق من عدم قبوله ذلك إذا كان مسماه التصديق وحده.

أما أولاً فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة ولا إيمان دونه ليكون نقصاً، وأما ثانياً فلأن أحداً لا يستكمل الإيمان حينئذ والزيادة على ما لم يكمل بعد محال. وأجيب بأن هذا إنما يتوجه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الإيمان بانتفاء شيء من الأعمال، والجماعة إنما يقولون: إنها شرط كمال في الإيمان فلا يلزم عند الانتفاء إلا انتفاء الكمال وهو غير قاذح في أصل الإيمان.

وقال النووي وجماعة محققون من علماء الكلام: إن الإيمان بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضاً بكثرة النظر ووضوح الأدلة وعدم ذلك، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبه، ويؤيده أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى يكون في بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً منه في بعضها فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها. واعترض بأنه متى قبل ذلك كان شكاً^(١).

وقد عقد البخاري رحمه الله باباً فقال: «باب قول النبي ﷺ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدٌ وَيَنْقُصُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ﴿وَزَادَتْهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [٧٧] ﴿مَحَمَّدٌ: ١٧﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] وَقَوْلُهُ: ﴿أَيْكُمْ زَادَتْهُ هُدًى﴾ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا [التوبة: ١٢٤] وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَحَّشُوهُمْ فزَادَهُم إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ

= صحيح ومرفوعاً ضعيف، ورواه البيهقي في الشعب (٦٩/١) موقوفاً على عمر بإسناد صحيح كما قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٥٢/١).

(١) تفسير الألوسي (١١/٧).

الْعَزِيزِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُوداً وَسُنَنًا فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ فَإِنْ أَعَشَ فَسَابِقُهَا لَكُمْ حَتَّى تَعْمَلُوا بِهَا وَإِنْ أُمْتُ فَمَا أَنَا عَلَى صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ... اهـ^(١).

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً، وممن أنكر ذلك على قائله، وجعله قولاً محدثاً: سعيد بن جبير، وميمون بن مهران، وقتادة، وأيوب السختياني، وإبراهيم النخعي، والزهرري، ويحيى بن أبي كثير، وغيرهم. وقال الثوري: هو رأي محدث، أدركنا الناس على غيره. وقال الأوزاعي: كان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل»^(٢).

وقوله: (ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة)^(٣).

أي أنه لا يكون العبد مؤمناً إيماناً كاملاً إلا إذا اقترن مع التصديق العمل وذلك لاقترانهما في القرآن الكريم وفي الشرع الحنيف قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرَ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣] وقد ورد الإيمان مقروناً بالعمل الصالح ما ينيف عن خمسين مرة، هذا دون المواضع التي تكلمت عن الأعمال الصالحة والإيمان على وجه من وجوه التفصيل أو الإجمال.

ولا يقبل قول ولا عمل إلا بنية لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

(١) فتح الباري (١/٤٧).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٤٧).

(٣) ورد ما يشبه هذا النص في الجامع للمصنف (١٤٢ - ١٤٣).

وللحديث الفرد الصحيح الذي رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه وغيره قال: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا عبد الوهاب قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول أخبرني محمد بن إبراهيم أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنما الأعمال بالنية وإنما لامرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١). قال ابن رجب: وقد اختلف في تقدير قوله: «الأعمال بالنيات»، فكثير من المتأخرين يزعم أن تقديره: الأعمال صحيحة، أو معتبرة، أو مقبولة بالنيات، وعلى هذا فالأعمال إنما أريد بها الأعمال الشرعية المفتقرة إلى النية، فأما ما لا يفتقر إلى النية كالعادات من الأكل والشرب، واللبس وغيرها، أو مثل رد الأمانات والمضمونات، كالودائع والغصوب، فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نية، فيخص هذا كله من عموم الأعمال المذكورة هاهنا.

وقال آخرون: بل الأعمال هنا على عمومها، لا يخص منها شيء.

(١) أخرجه: مالك في الموطأ من رواية محمد بن الحسن الشيباني (ص ٣٣٨ رقم ٩٨٣) والبخاري ٢/١ (١) ٢١/١ (٥٤) ١٩٠/٣ (٢٥٢٩) ٧٢/٥ (٣٨٩٨) ٤/٧ (٥٠٧٠) و١٧٥/٨ (٦٦٨٩) ٢٩/٩ (٦٩٥٣)، ومسلم ٤٨/٦ (١٩٠٧) (١٥٥). وأخرجه أيضاً: ابن المبارك في «الزهد» (١٨٨)، والطيلاسي (٣٧)، والحميدي (٢٨)، وأحمد ٢٥/١ و٤٣، وأبو داود (٢٢٠١)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والترمذي (١٦٤٧)، والبخاري (٢٥٧)، والنسائي ٥٨/١ و١٥٨/٦ و١٣/٧ وفي «الكبرى»، له (٧٨) و(٤٧٣٦) و(٥٦٣٠)، وابن الجارود (٦٤)، وابن خزيمة (١٤٢) و(١٤٣) و(٤٥٥)، والطحاوي في «شرح المعاني» ٩٦/٣ وفي «شرح المشكل»، له (٥١٠٧) - (٥١١٤)، وابن حبان (٣٨٨) و(٣٨٩)، والدارقطني ٤٩/١ - ٥٠ وفي «العلل»، له ١٩٤/٢، وأبو نعيم في «الحلية» ٤٢/٨، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١) و(٢) و(١١٧١) و(١١٧٢)، والبيهقي ٤١/١ و٢٩٨ و١٤/٢ و١١٢/٤ و٢٣٥ و٣٩/٥ و٣٣١/٦ و٣٤١/٧، والخطيب في «تاريخه» ٢٤٤/٢ و١٥٣/٦، والبيهقي (١) و(٢٠٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٦٥/٥ و١١٩/٤٤ - ١٢٠ و٨٣/٤٦ و٢٩٠/٥٧ من طرق عن يحيى بن سعيد،

وحكاه بعضهم عن الجمهور، وكأنه يريد به جمهور المتقدمين، وقد وقع ذلك في كلام ابن جرير الطبري، وأبي طالب المكي وغيرهما من المتقدمين، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد.

قال في رواية حنبل: أحب لكل من عمل عملاً من صلاة، أو صيام، أو صدقة، أو نوع من أنواع البر أن تكون النية متقدمة في ذلك قبل الفعل، قال النبي ﷺ: «الأعمال بالنيات»، فهذا يأتي على كل أمر من الأمور اهـ^(١). وقال ابن دقيق العيد: «الذين اشترطوا النية قدروا صحة الأعمال بالنيات أو ما يقاربه، والذين لم يشترطوها قدروا كمال الأعمال بالنيات أو ما يقاربه»^(٢). فإذا اقترنت الأقوال والأعمال والنيات وجب النظر إلى موافقتها للسنة أو بعدها عنها، فكم من مجتهد في الخير محروم من الأجر والثواب، إما بسبب افتقاره للإخلاص ولو وافق السنة، أو بسبب إخلاصه واجتهاده لكن في بدعة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري ومسلم^(٣).

وقد استقى المصنف رحمه الله تعالى عبارته هنا لعل من حديث روي مرفوعاً ومرسلاً، فالأول من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، ذكر حديثاً طويلاً، وقال فيه: «لا قول إلا بعمل، ولا عمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا باتباع السنة»^(٤)، وهو من مراسيل الحسن، وروي موقوفاً على صحابين جليلين هما علي وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما قالوا: «لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل إلا بقول، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا نية إلا بموافقة السنة» وروي موقوفاً من كلام الحسن^(٥)، وقال الحميدي قال: «السنة عندنا

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب رحمه الله تعالى (٩).

(٢) انظر: طرح الثريب (٧/٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) وضعفه الألباني في السلسلة (٣٩٩١) وانظر الإبانة الكبرى لابن بطة رحمه الله تعالى باب لا قول إلا بعمل.

(٥) المرجع السابق. وانظر الشريعة للأجري (رقم ٢٥٧) فقد روى الأثر موقوفاً.

أَنْ يُؤْمِنَ الرَّجُلُ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلُوِهِ وَمُرِّهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ قَضَاءٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَلَا يَنْفَعُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا عَمَلٌ وَقَوْلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ وَلَا قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِسُنَّةٍ»^(١).

وقال الأوزاعي إمام أهل الشام رحمه الله تعالى المتوفى سنة (١٥٧هـ - ٧٧٤م): «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بالنية موافقة للسنة».

تمسك بحبل الله واتبع الهدى	ولا تك بدعيًا لعلك تفلح
ودن بكتاب الله والسنن التي	أتت عن رسول الله تنجو وتربح
ودع عنك آراء الرجال وقولهم	فقول رسول الله أزكى وأشرح
ولا تك من قوم تلهوا بدينهم	فتطعن في أهل الحديث وتقحح
روى ذاك قوم لا يرد حديثهم	ألا خاب قوم كذبوهم وقبحوا

ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة:

(وأنه لا يكفر أحد بذنوب من أهل القبلة).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَلَا يُكْفَرُ أَحَدٌ بِذُنُوبِي مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ أَنْبِي

المقصود بأهل القبلة هم المسلمون الذين رضوا بالله رباً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وبالإسلام ديناً، وصدقوا بذلك كله ولم يجحدوا معلوماً من الدين بالضرورة، فهؤلاء لا يجوز تكفيرهم وإخراجهم من دين الله لغير ذنب محرم استحلوه، وذلك لقوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفَرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ» البخاري.

(١) أصول السنة للحميدي.

وعند النَّسَائِي: «مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكُمْ الْمُسْلِمُ»^(١).

قال الطحاوي رحمه الله تعالى: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين... ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب، ما لم يستحله»^(٢).

وقال العباد: «إذا جحد المرء واجباً علم وجوبه من الدين بالضرورة كالصلاة والزكاة والصيام والحج، فإنه يكفر، وكذا إذا جحد تحريم ما علم تحريمه من الدين بالضرورة، كشرب الخمر والزنا ونحو ذلك فإنه يكفر، وأما إذا فعل شيئاً من الكبائر غير مستحل لها، فعند أهل السنة أنه يكون مؤمناً ناقص الإيمان، وإذا مات من غير توبة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، وإذا عذبه فإنه لا يخلده في النار، وذلك بخلاف قول المعتزلة والخوارج القائلين بخروجه من الإيمان في الدنيا، وبتخليده في النار في الآخرة»^(٣).

وهل تارك الصلاة من أهل القبلة: قال زروق: لا يكفر من يصلي إلى القبلة، وهل بالفعل (أي من يصلي فعلاً) وهذا لا يكفر، أو باللزوم (أي من كان مسلماً ومن واجبه أن يصلي ولم يصل) فلا يخرج من الملة، قال: وهما (أي العلماء) على قولين في تكفيره بتركها، والتكفير لأكثر المحدثين مع أقل الفقهاء، وعدمه لأكثر الفقهاء مع أقل المحدثين، ولم يقع لأهل السنة تكفير بعمل سوى ما ذكر. اهـ بتصرف^(٤).

(١) أخرجه البخاري ١٠٨/١ (٣٩١)، والنسائي (١٠٥/٨).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٣١٣ - ٣١٦) تحقيق جماعة من العلماء وخرج أحاديثها الألباني.

(٣) قطف الجنى الداني للعباد (٢٠٤).

(٤) شرح الرسالة لزروق (٨٠/١) ط/ دار الكتب العلمية. وانظر في أحكام الردة فيمن ترك الصلاة من كتابنا هذا والله الموفق.

البرزخ وأرواح الناس:

(وَأَنَّ الشُّهَدَاءَ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وَأَزْوَاجُ أَهْلِ السَّعَادَةِ بَاقِيَةٌ نَاعِمَةٌ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ وَأَرْوَاحُ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَالشُّهَدَاءُ يُرْزَقُونَ أَحْيَاءَ وَرُوحُ مَنْ سَعِدَ نَالَتْ بُغْيَا
نَاعِمَةٌ وَرُوحُ ذِي الشَّقَاءِ عَذَابُهَا بَاقٍ إِلَى اللُّقَاءِ

الشهيد: قال القرطبي: قيل: سمي شهيداً لأنه مشهود له بالجنة وقيل: سمي شهيداً لأن أرواحهم احتضرت دار السلام، لأنهم أحياء عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة، فالشهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح.

فضل الشهادة في سبيل:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبَشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. وساق حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم الذين أرسلهم نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل بئر معونة قال: لا أدري أربعين أو سبعين. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري -: أنا أبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج حتى أتى حياً [منهم] فاخْتَبَأَ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله

إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر. فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة. فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل. وقال إسحاق: حدثني أنس بن مالك: أن الله [تعالى] أنزل فيهم قرآناً: بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زمنا وأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

وقد قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه: بسنده عن مسروق قال: سألتنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال: أما إنا قد سألتنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا» (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نفس تموت، لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة». انفرد به مسلم من طريق حماد (٣).

(١) انظر تفسير الطبري (٣٩٢/٧، ٣٩٣) لأن ابن كثير ساقه من طريق ابن جرير، والحديث رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٨٠١) من طريق همام عن إسحاق بن أبي طلحة به.

(٢) مسلم (٤٩٩٣).

(٣) المسند (١٢٦/٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٧٧) لكن من طريق حميد وقتادة عن أنس به.

أفضل ما تمناه النبي ﷺ:

روى البخاري في صحيحه من طريق إمامنا مالك رحمهم الله جميعاً قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَنِّي أَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ» فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَقُولُهُنَّ ثَلَاثًا أَشْهَدُ بِاللَّهِ»^(١). قال القرطبي: قلت: هذا الحديث هو الذي صدر به البخاري كتاب التمني في صحيحه، وهو يدل على تمني الخير وأفعال البر والرغبة فيها، وفيه فضل الشهادة على سائر أعمال البر، لأنه ﷺ تمنّاها دون غيرها، وذلك لرفيع منزلتها وكرامة أهلها، فرزقه الله إياها، لقوله: «يَا عَائِشَةُ مَا أَرَأَلَ أَجْدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوْأَنُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ»^(٢). ولهذا قال علماؤنا لقد توفي النبي ﷺ شهيداً^(٣).

ما يلقاه الشهيد من الكرامات:

- ١ - «يغفر له في أول دفعة.
- ٢ - ويرى مقعده من الجنة.
- ٣ - ويجار من عذاب القبر.
- ٤ - ويأمن من الفزع الأكبر.
- ٥ - ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها.

(١) البخاري (٢٦٤٤، ٦٨٠٠).

(٢) الأبهري: عرق مستبطن في الصلب والقلب متصل به، فإذا انقطع لم تكن معه حياة، وحديث الشاة المسمومة وأكله ﷺ منها مذكور في غزوة خيبر، فليراجع حديثه في صحيح البخاري (٤١٦٥) باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(٣) انظر البخاري مع شرح الحافظ (الفتح) باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

٦ - ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين.

٧ - ويشفع في سبعين من أقاربه، رواه الترمذي^(١). وفي سنن ابن ماجه^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة».

وروى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»^(٣).

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشياً»^(٤).

قال ابن كثير: وكأنّ الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا التهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا التهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم.

فائدة عظيمة عزيزة: قال ابن كثير: «روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكلّ مؤمن بأنّ روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد، رحمته الله، رواه عن

(١) الترمذي (١٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه أحمد ١٣١/٤ (١٧٣١٤)، وابن ماجه (٢٧٩٩).

(٢) ابن ماجه (٢٨٠٢).

(٣) أخرجه النسائي ٩٩/٤ وفي «الكبرى» (٢١٩١).

(٤) قال ابن كثير: تفرد به أحمد، وقد رواه ابن جرير عن أبي كريب حدثنا عبدالرحيم بن سليمان، وعبدة عن محمد بن إسحاق، به. وهو إسناد جيد. أخرجه أحمد ٢٦٦/١ (٢٣٩٠) وعبد بن حميد (٧٢١).

[الإمام] محمد بن إدريس الشافعي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن مالك بن أنس الأصبحي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن الزهري عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق [أي يأكل] في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»^(١).

والشهداء ثلاثة: شهيد الدنيا والآخرة، وهو الذي قتل في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى فتطبق عليه أحكام الشهيد من عدم تغسيل وكفن وصلاة على خلاف، فعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وشهيد الآخرة: وهو الذي تنطبق عليه أحكام موتى المسلمين، ويعتبر في الآخرة له أجر شهيد وقد بَوَّبَ له البخاري بقوله: بَابُ الشَّهَادَةِ سَبْعُ سِوَى الْقَتْلِ»، وأسند حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: الشَّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ وَالْمَبْطُونُ وَالْغَرِقُ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣)، وبوب ابن حبان البستي في صحيحه باب فقال: «ذكر البيان بأن المصطفى ﷺ لم يرد بقوله: الشهداء خمسة نفيًا عما وراء هذا العدد المحصور: قال رسول الله ﷺ: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المبطون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمطعون شهيد، والحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيد»^(٤).

(١) رواه أحمد في المسند (٤٥٥/٣).

(٢) البخاري (١٢٣، ٣١٢٦، ٧٤٥٨).

(٣) البخاري (٢٨٢٩، ٧٢٠، ٥٧٣٣).

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٣١٨٨) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين/ مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣م.

وأما الشهيد الثالث فهو شهيد الدنيا لا الآخرة، وتجري عليه أحكام الشهيد الظاهرة، ولكن الله أعلم بنيته وفي مثله صح قول النبي ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ السَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...»^(١) الحديث.

بعض أحكام تتعلق بالشهيد:

قال القرطبي رحمه الله تعالى:

«اختلف العلماء في غسل الشهداء والصلاة عليهم، فذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري إلى غسل جميع الشهداء والصلاة عليهم، إلا قتيل المعترك في قتال العدو خاصة، لحديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَدْفَنُوهُمْ بِدِمَائِهِمْ» يعني يوم أحد ولم يغسلهم، رواه البخاري.

وروى أبو داود عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ بقتلى أحد أن ينزع عنهم الحديد والجلود وأن يدفنوا بدمائهم وثيابهم.

وبهذا قال أحمد وإسحاق والأوزاعي وداود بن علي وجماعة فقهاء الأمصار وأهل الحديث وابن علي.

وقال سعيد بن المسيب والحسن: يغسلون.

قال أحدهما: إنما لم تغسل شهداء أحد لكثرتهم والشغل عن ذلك.

قال أبو عمر: ولم يقل بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء

(١) أخرجه أحمد ٣٢١/٢ (٨٢٦٠) و«مسلم» (٥٠٣٢)، و«النسائي» ٢٣/٦، وفي «الكبرى» (٤٣٣٠ و ١١٤٩٥).

الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن العنبري، وليس ما ذكروا من الشغل عن غسل شهداء أحد علة، لأن كل واحد منهم كان له ولي يشتغل به ويقوم بأمره. والعلة في ذلك - والله أعلم - ما جاء في الحديث في دمائهم (أنها تأتي يوم القيامة كريح المسك) فبان أن العلة ليست الشغل كما قال من قال في ذلك، وليس لهذه المسألة مدخل في القياس والنظر، وإنما هي مسألة اتباع للأثر الذي نقله الكافة في قتلى أحد لم يغسلوا. - وأما الصلاة عليهم فاختلف العلماء في ذلك أيضاً، فذهب مالك والليث والشافعي وأحمد وداود إلى أنه لا يصلى عليهم، لحديث جابر قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: (أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟) فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة) وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم.

وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام: يصلى عليهم.

وروا آثاراً كبيرة أكثرها مراسيل أن النبي ﷺ صلى على حمزة وعلى سائر شهداء أحد.

وأجمع العلماء على أن الشهيد إذا حمل حيًا ولم يمت في المعترك وعاش وأكل فإنه يصلى عليه، كما قد صنع بعمر ﷺ. ويجب أن يقضى عليه دينه وما تعلق بوصاياه^(١).

مستقر أرواح الأنقياء السعداء والأشقياء التعساء:

قوله: (وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يُبعثون وأرواح أهل الشقاوة مُعذَّبة إلى يوم الدين).

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٥٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ

(١) بتصرف من «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/٢٧١).

سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ
 مَجْدُوزٍ ﴿١٠٥﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨]، وقال عن فرعون وآله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ
 عَلَيْهَا لِيُحَدِّثُوا عَلَيْهَا نِسْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِئْتَامًا وَأَلَّ سَمْعَهُمْ وَبَعَثْنَا لِقَوْمِهِ الْفَأرِيقَةَ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، قال البغوي رحمه الله تعالى: «صباحاً ومساءً، قال ابن مسعود:
 أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين،
 تغدو وتروح إلى النار، ويقال: يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم
 الساعة»^(١). وقد تقدم حديث الأئمة عليهم السلام أن روح المؤمن تعلق في الجنة
 حيث شاءت روى الإمام أحمد، رحمته الله، عن [الإمام] محمد بن إدريس
 الشافعي، رحمته الله، عن مالك بن أنس الأصبحي، رحمته الله، عن الزهري عن
 عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:
 «نسمة المؤمن طائر يعلق [أي يأكل] في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى
 جسده يوم يبعثه»^(٢). فذاك معنى أرواح السعادة باقية ناعمة إلى يوم البعث،
 وأهل الشقاوة في العذاب يعمهون نعوذ بالله من خذلانه.

وفي «الصحيحين». وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ:
 «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدادة والعشي، إن كان من أهل
 الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا
 مقعدك حتى يبعثك الله تعالى»^(٣).

فتنة القبر وسؤال الملكين:

(وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١﴾ يَبْتِئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٢﴾).^(٤)
 قال الناظم:

(١) تفسير البغوي (١٥٠/٧)، وانظر: البحر المحيط (٤٦٨/٧)، والقرطبي (٣١٨/١٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (٤٥٥/٣).

(٣) أخرجه مالك «الموطأ» ٦٤١ و«أحمد» ١٦/٢ (٤٦٥٨) و«البخاري» ١٢٤/٢ (١٣٧٩) و«مسلم» ١٦٠/٨ (٧٣١٣).

(٤) الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.

وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْقُبُورِ قُتِنُوا يُثَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

الشرح:

يجب الإيمان بسؤال القبر وفتنته، وضيق القبر وضغطته، ونعيمه وعذابه وذلك أن كل ميت يفتن في قبره إلا الشهيد كما تقدم، والمراد سؤال الملكين، وما أعظمها من فتنة لمن لم يثبت به الله، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وذلك أن الميت إذا وضع في قبره وانصرف الناس عنه يأتي إليه ملكان فيجلسانه ويسألانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قبر أحدكم، أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ، فهو قائل ما كان يقول، إن كان مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً، وينور له فيه، ثم يقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي أخبرهم فيقال له نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله ﷻ من ضجعه ذلك وإن كان منافقاً قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون ذلك فكنت أقوله فيقولان إنا كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله ﷻ من مضجعه ذلك» رواه الترمذي^(١).

وقوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [٢٧] إبراهيم: [٢٧]، قال السعدي رحمه الله تعالى:

يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين، أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وابن جبان ٣١١٧.

بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: «الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي»^(١)، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة، وصفتها، ونعيم القبر وعذابه اهـ^(٢).

روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، ثم قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ بِهِذَا وَزَادَ ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٣).

وَعَنْ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ».

وسؤال القبر على الروح والجسد كما ذهب إلى ذلك الجمهور، قال الحافظ: «وخالف الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما ثبت في الحديث، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه، لأن الله قادر أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ويقع عليه السؤال، كما هو قادر على

(١) أخرجه أحمد ٢٨٧/٤ (١٨٧٣٣) و«أبو داود» ٣٢١٢ و٤٧٥٣ و«ابن ماجه» ١٥٤٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط/: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م (١/٤٢٥).

(٣) البخاري (١٣٦٩)، ومسلم ١٦٢/٨ (٧٣٢٢) والنسائي (١٠١/٤)، وفي «الكبرى» (٢١٩٤ و١١٢٠٢).

أن يجمع أجزاءه. والحامل للقائلين بأن السؤال يقع على الروح فقط أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسألة لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب. وجوابهم أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة وهو النائم فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه، بل اليقظان قد يدرك ألماً أو لذة لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يدرك ذلك جليسه، وإنما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد وأحوال ما بعد الموت على ما قبله، والظاهر أن الله تعالى صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلا من شاء الله. وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور كقوله: «إنه ليسمع خفق نعالهم» وقوله: «تختلف أضلاعه لضمة القبر» وقوله: «يسمع صوته إذا ضربه بالمطراق» وقوله: «يضرب بين أذنيه» وقوله: «فيقعدانه» وكل ذلك من صفات الأجساد اهـ^(١).

إنّ الواقع على العبد في قبره ثلاثة أشياء: الفتنة، والضغطة، والعذاب أو التعميم، فأما الفتنة، فهي عند أهل اللّغة: الامْتِحَانُ وَالِاخْتِبَارُ، قَالَ عِيَاضُ: وَاسْتِعْمَالُهَا فِي الْعُرْفِ لِكَشْفِ مَا يُكْرَهُ اهـ، وقد صحّ عن النبي ﷺ أن الناس يفتنون في قبورهم؛ فأما المؤمن فيثبته الله، وأما الكافر والمنافق فيضله ويخذله، فعن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت أتيت عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس فإذا الناس قيام يصلون وإذا هي قائمة تُصلي، فقلت: ما للناس، فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: سبحان الله، فقلت: آية فأشارت برأسها أن نعم، قالت: فقممت حتى تجلاني العشي، وجعلت أصب فوق رأسي الماء فحمد الله رسول الله ﷺ وأثنى عليه، ثم قال: ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، ولقد أوجي إلي

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣/٢٣٥).

أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ
 أَسْمَاءُ: يُؤْتَى أَحَدَكُمْ فَيَقَالُ لَهُ مَا عَلِمَكَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُؤِقِنُ
 لَا أَدْرِي أَيِّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ
 وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَأَمَّا وَاتَّبَعْنَا فَيَقَالُ لَهُ نَمْ صَالِحاً قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُؤْمِناً وَأَمَّا
 الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُزْتَابُ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ
 النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ». رواه مالك والبخاري ومسلم^(١).

قال الباجي رحمه الله تعالى: وَقَوْلُهُ «وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي
 الْقُبُورِ» بَيَانٌ أَنَّهُ أَعْلِمُ بِذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَالْفِتْنَةُ الْإِخْتِبَارُ وَلَيْسَ الْإِخْتِبَارُ
 بِالْقَبْرِ بِمَنْزِلَةِ التَّكْلِيفِ وَالْعِبَادَةِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ إِظْهَارُ الْعَمَلِ وَإِعْلَامٌ بِالْمَالِ
 وَالْعَاقِبَةِ كَاخْتِبَارِ الْحِسَابِ لِأَنَّ الْعَمَلَ وَالتَّكْلِيفَ قَدْ انْقَطَعَا بِالْمَوْتِ قَالَ مَالِكٌ
 وَمَنْ مَاتَ فَقَدْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَفِتْنَةُ الدَّجَالِ بِمَعْنَى التَّكْلِيفِ وَالتَّعَبُّدِ لِكَيْفَ شَبَّهَهَا
 بِهَا لِصُعُوبَتِهَا وَعِظَمِ الْمِحْنَةِ فِيهَا وَقِلَّةِ الثَّبَاتِ مَعَهَا^(٢).

وعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ
 النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَهِيَ تَقُولُ لِي: أَشَعَرْتَ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي
 الْقُبُورِ، فَارْتَاعَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّمَا تُفْتَنُ الْيَهُودُ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا
 لِيَالِي ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ شَعَرْتَ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ»
 قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَعِيدُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٣).

وروى عبدالرزاق في مصنفه عن ابن جريج قال: قال عبدالله بن
 عمر رضي الله عنه: إنما يفتتن رجلان مؤمن ومنافق، أما المؤمن فيفتن سبعاً^(٤)، وأما

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» ١٣٣. و«أحمد» ٣٤٥/٦ و«الْبُخَارِي» (١٨٤)، و«مسلم» (١٣٤٧).

(٢) المنتقى للباقي (١/٤٥٦).

(٣) أخرجه البخاري ١٢٣/٢ و«السَّائِي» ١٠٣/٤، وفي «الكبرى» (٢٢٠٠).

(٤) وأخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد عن طاوس قال: إن الموتى يفتنون في قبورهم
 سبعاً فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام، كذا في شرح الصدور ٥٤.

المنافق فيفتن أربعين صباحاً، وأما الكافر فلا يسأل عن محمد ولا يعرفه، قال ابن جريج: وأنا أقول: قد قيل في ذلك فما رأينا مثل إنسان أغفل هالكة سبعاً أن يتصدق عنه»^(١).

وأما الشهيد فلا يفتن في قبره فعن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: «أن رجلاً قال يا رسول الله ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد قال كفى ببارقة السيف على رأسه فتنة» رواه النسائي^(٢).

وأما الضغطة فهي ضمة القبر تكون للمؤمن حناناً كما تضم الوالدة ولدها، وقال أحد مشايخنا إنما تكون الضغطة للمؤمن ليستجمع قواه من أجل إجابة الملكين، وللكافر عذاباً ونقمة وقد تقدم ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «... ثم يقال للأرض التثمي عليه فلتتم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله سبحانه من مضجعه ذلك» رواه الترمذي. فهذا شأن الكافر الفاجر، وأما المؤمن فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عما أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه: «أن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ» رواه أحمد^(٣).

وكذا العذاب أو النعيم في القبر: فثابت كما مر في حديث الترمذي فلا داعي لتكراره ومعاني هذا الباب كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد لمن تتبعها والله المستعان.

فائدة:

كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم دبر كل صلاة يستعين بالله من أمور منها عذاب القبر فقد روى البخاري من حديث عمرو بن ميمون الأودي قال كان سعدٌ يعلمُ بنبيه هؤلاء الكلمات كما يعلمُ المعلمُ الغلمانَ الكتابَةَ ويقولُ إنَّ

(١) مصنف عبدالرزاق.

(٢) أخرجه النسائي ٩٩/٤ وفي «الكبرى» (٢١٩١).

(٣) رواه أحمد (٦ / ٥٥ و ٩٨)، وابن حبان في صحيحه وانظر تخريجه في «السلسلة الصحيحة» (١٦٩٥) والحديث رقم: ٢١٨٠ في صحيح الجامع. وقد تقدم.

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْهُنَّ ذُبْرَ الصَّلَاةِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ
وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
عَذَابِ الْقَبْرِ» (١).

وفي الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يدعو:
«اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار، ومن فتنة
المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»، وورد في رواية لمسلم الأمر
به بلفظ: «إذا تشهد أحدكم فليستعد بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ
بك من عذاب القبر ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة
المسيح الدجال».

الملائكة الحفظة وملك الموت:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَأَنَّ عَلَى الْعِبَادِ حَفَظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَلَا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ
عِلْمِ رَبِّهِمْ، وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ).

قال الناظم:

وَأَنَّ لِلْعَبْدِ كِرَامًا حَفَظَهُ تَكْتُبُ مَا عَمِلَهُ وَلَقِظَهُ
وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِظْهَارِ بِهِمْ تَعَالَى عَالِمُ الْأَسْرَارِ
وَمَلَكَ الْمَوْتِ الْمُوَكَّلَ بِهِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ

أي أن على العباد إنسهم وجنهم مؤمنهم وكافرهم ذكرهم وأنشاهم
أحراراً كانوا أو أرقاء حفظة يحفظون الأعمال ويكتبونها ولا يدعون حتى
المباح والأنين في المرض، وحتى عمل القلب أي جميع الخواطر التي
تخطر به ويجعل الله لهم علامة على عمل القلب يميزون بها بين الحسنة
والسيئة ومصدر علم ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَنِينًا﴾

(١) البخاري (٢٨٢٢).

﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ [الانفطار ١٠ - ١٢] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني: وإن عليكم لملائكة حَفَظَةٌ كراماً فلا تقابلوهم بالقبايح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم اهـ^(١)، ثم إنّه «لكلّ أحد ملكان قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَفَّى التَّتَفَيَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [ق: ١٧ - ١٨]، وقد روي عن النبي ﷺ: «أنّ لكلّ أحد ملكين يحفظان أعماله» وهذا بصريح معناه يفيد أيضاً كفاية عن وقوع الجزاء إذ لولا الجزاء على الأعمال لكان الاعتناء بإحصائها عبثاً.

وأجري على الملائكة الموكّلين بإحصاء أعمالهم أربعة أوصاف هي: الحفظ، والكرم، والكتابة، والعلم بما يعلمه الناس^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَفَّى التَّتَفَيَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨﴾﴾^(٣).

أخرج ابن المنذر، وأبو الشيخ من طريق ابن المبارك عن ابن جريج قال: ملكان أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن يساره يكتب السيئات، فالذي عن يمينه يكتب بغير شهادة من صاحبه، والذي عن يساره يكتب السيئات، فالذي عن يمينه يكتب بغير شهادة من صاحبه، والذي عن يساره لا يكتب إلا عن شهادة من صاحبه، إن قعد فأحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وإن مشى فأحدهما أمامه والآخر خلفه، وإن رقد فأحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، وقال ابن المبارك: وكل به خمسة أملاك: ملكان بالليل، وملكان بالنهار، يجيئان ويذهبان، وملك خامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قول الله ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] قال: يحفظون عليك رزقك، وعملك، وأجلك، فإذا توفيت ذلك قبضت إلى ربك.

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/١٧٩).

(٣) الآيتان (١٧ - ١٨) من سورة ق.

أَمَامَ وَخَلْفَ الْمَرْءِ مِنْ لُطْفِ رَبِّهِ كَوَالِيَاءِ تَزْوِي عَنْهُ مَا هُوَ يَحْذَرُ

وأخرج ابن أبي زمنين في السنة عن الحسن قال: الحفظة أربعة يعتقبونك ملكان بالليل، وملكان بالنهار، تجتمع هذه الأملاك الأربعة عند صلاة الفجر وهو قوله ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وأخرج مالك، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»^(١).

قال ابن حبان: في هذا الخبر بيان واضح بأن ملائكة الليل إنما تنزل والناس في صلاة العصر، وحينئذ تصعد ملائكة النهار ضد قول من زعم أن ملائكة الليل تنزل بعد غروب الشمس^(٢).

قال القرطبي: الأظهر عندي أنهم غيرهم، أي غير الحفظة، ويقويه أنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد ولا أن حفظة الليل غير حفظة النهار، وبأنهم لو كانوا الحفظة لم يقع الاكتفاء في السؤال منهم عن حالة الترك دون غيرها في قوله: «كيف تركتم عبادي؟».

قال عياض: «والحكمة في اجتماعهم في هاتين الصلاتين من لطف الله تعالى بعباده وإكرامه لهم بأن جعل اجتماع ملائكته في حال طاعة عباده لتكون شهادتهم لهم بأحسن الشهادة»^(٣).

(ولا يَسْقُطُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِ رَبِّهِمْ)، لما في حديث يتعاقبون

(١) أخرجه مالك الموطأ (١٢٣). وأحمد (٤٨٦/٢) (١٠٣١٤) والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (١٣٧٦).

(٢) صحيح ابن حبان (٢٩/٥).

(٣) فتح الباري (٣٥/٢).

«وهو أعلم»، والله جعل من حكمته أولئك الملائكة شهوداً على بني آدم يحصون عليهم أعمالهم ﴿لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة» اهـ^(١).

(وَأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ بِإِذْنِ رَبِّهِ).

ومما يجب الإيمان به أن الله سخر ملائكة لقبض الأرواح، وأن ملك الموت المذكور في القرآن هو رئيسهم، ولا تقبض روح إلا بإذن باريها وخالقها، فإسناد القبض لملك الموت لمباشرة ما أمر به، وأما الذي يتوفى الأنفس حقيقة فهو الله وإسناد التوفى إلى الرسل من الملائكة لأنهم أعوان

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥١٤/٢).

ملك الموت في قبض الأرواح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَنفِقَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١) ولا تعارض هذه الآية قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (٣) - وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ﴾ [محمد: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

فقد سخر الله ملك الموت ليتولى قبض الأرواح واستخراجها، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، ويتولونها بعده، كما تقدم في حديث خروج الروح، وكل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره، وحكمه وأمره، فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه، ولا يقبضون روح أحد إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

وهل يقبض ملك الموت أرواح البهائم أيضاً، أم كيف تقبض؟

«الذي عليه مذهب أهل السنة قاطبة: أن ملك الموت هو الذي يقبض جميع الأرواح، من بني آدم والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تقبض أرواحها أعوان ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت في حق غير بني آدم، إنما هو عدم محض، كيبس الشجر وجفاف الثياب، فلا قبض لأرواحها وهو عدم من كونها تُبعث أو لا؛ بأن تعاد عن عدم بخلاف المكلف فإن روحه لا تعدم، خلافاً للملاحدة، فإنهم جعلوا الموت كله

(١) الآية (١١) من سورة السجدة.

(٢) الآية (٦١) من سورة الأنعام.

(٣) الآية (٤٢) من سورة الزمر.

عدماً محضاً، كجفاف العود الأخضر، وهو كفر»^(١).

من هم أفضل قرون هذه الأمة بعد نبيها ﷺ؟:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَأَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَمَنُوا بِهِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَأَفْضَلُ الْقُرُونِ قَرْنُ الْمُصْطَفَى
وَأَفْضَلُ الْأُمَّةِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ
بَكَرٍ يَلِيهِ عَمْرٌ ثُمَّ يَلِي
مَنْ آمَنُوا فَمَنْ قَفَا فَمَنْ قَفَا
وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ أَبِي
عُثْمَانَ وَالتَّالِيهِ فِي الْفَضْلِ عَلَيَّ

القرن: قال الحافظ في الفتح: «قرني أي أصحابي، واختلف السلف في تعيين مدة القرن فقبل مائة سنة، وهو الأشهر وحكى الحربي الاختلاف فيه من عشرة إلى مائة وعشرين، ثم قال عندي أن القرن كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد»^(٢).

وقال في فضائل الصحابة ما نصه للفائدة: «وَالْقَرْنُ أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ مُتَقَارِبٍ اشْتَرَكُوا فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَقْصُودَةِ، وَيُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِمَا إِذَا اجْتَمَعُوا فِي زَمَنِ نَبِيِّ أَوْ رَئِيسٍ يَجْمَعُهُمْ عَلَى مِلَّةٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيُطْلَقُ الْقَرْنُ عَلَى مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَحْدِيدِهَا مِنْ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ إِلَى مِائَةٍ وَعِشْرِينَ لَكِنْ لَمْ أَرَ مَنْ صَرَّحَ بِالسَّبْعِينَ وَلَا بِمِائَةٍ وَعَشْرَةِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِهِ قَائِلٌ.

وَذَكَرَ الْجَوْهَرِيُّ بَيْنَ الثَّلَاثِينَ وَالثَّمَانِينَ، وَقَدْ وَقَعَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ عِنْدَ مُسْلِمٍ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَرْنَ مِائَةٌ وَهُوَ الْمَشْهُورُ، وَقَالَ صَاحِبُ

(١) انظر تفسير ابن عجيبة - رحمه الله تعالى -

(٢) مقدمة الفتح (١/١٧٢).

الْمَطَالِع: الْقَرْنُ أُمَّةٌ هَلَكَتْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَثَبَّتْ الْمِائَةُ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ وَهِيَ مَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَلَمْ يَذْكُرْ صَاحِبُ «الْمُحْكَمِ» الْخَمْسِينَ وَذَكَرَ مِنْ عَشْرِ إِلَى سَبْعِينَ ثُمَّ قَالَ: هَذَا هُوَ الْقَدْرُ الْمُتَوَسِّطُ مِنْ أَعْمَارِ أَهْلِ كُلِّ زَمَنٍ، وَهَذَا أَعْدَلُ الْأَقْوَالِ وَبِهِ صَرَّحَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَقَالَ: إِنَّهُ مَا خُوذَ مِنَ الْأَقْرَانِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ الْمُخْتَلَفُ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِمَّنْ قَالَ إِنَّ الْقَرْنَ أَرْبَعُونَ فَصَاعِدًا، أَمَا مَنْ قَالَ إِنَّهُ دُونَ ذَلِكَ فَلَا يَلْتَمِمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْمُرَادُ بِقَرْنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحَابَةَ، وَقَدْ سَبَقَ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: «وَبُعِثْتُ فِي خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ» وَفِي رِوَايَةِ بُرَيْدَةَ عِنْدَ أَحْمَدَ «خَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْقَرْنِ الَّذِينَ بُعِثَتْ فِيهِمْ»^(١)، وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الَّذِي بَيْنَ الْبَعْثَةِ وَآخِرِ مَنْ مَاتَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِائَةٌ سَنَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً أَوْ دُونَهَا أَوْ فَوْقَهَا بِقَلِيلٍ عَلَى الْإِخْتِلَافِ فِي وِفَاةِ أَبِي الطُّفَيْلِ، وَإِنْ أُعْتَبِرَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ وِفَاةِ ﷺ فَيَكُونُ مِائَةٌ سَنَةٌ أَوْ تِسْعِينَ أَوْ سَبْعًا وَتِسْعِينَ، وَأَمَّا قَرْنُ التَّابِعِينَ فَإِنْ أُعْتَبِرَ مِنْ سَنَةِ مِائَةٍ كَانَ نَحْوَ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ، وَأَمَّا الَّذِينَ بَعْدَهُمْ فَإِنْ أُعْتَبِرَ مِنْهَا كَانَ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ، فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّ مُدَّةَ الْقَرْنِ تَخْتَلِفُ بِإِخْتِلَافِ أَعْمَارِ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَاتَّفَقُوا أَنَّ آخِرَ مَنْ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِمَّنْ يُقْبَلُ قَوْلُهُ مَنْ عَاشَ إِلَى حُدُودِ الْعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ اهـ^(٢).

تعريف الصحابي:

يجمع على صحابة، وهو من لقي الرسول ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك: قال السيوطي في ألفية الأثر وقد ذكر خمسة أقوال في حد الصحابي:

ثم الصحابي مسلماً لآبي^(٣) الرسول
كذلك الاتباع مع الصحابة
وإن بلا رواية عنه وطول
وقيل مع طول، ومع رواية

(١) أخرجه أحمد ٣٥٠/٥ (٢٣٣٤٨).

(٢) فتح الباري (٦/٧).

(٣) اسم فاعل من لقي.

وقيل مع طول وقيل الغزو أو عام وقيل مدرك العصر ولو
 وشرطه الموت على الدين ولو تخلل الردة، والجن رأوا
 دخولهم دون ملائك وما نشرط بلوغاً في الأصح فيهما

فجملة الأقوال خمسة كما في النظم وبقي سادس ذكره في التدريب،
 وهو أنه من رآه بالغاً حكاه الواقدي، وهو شاذ، والراجح من هذه الأقوال
 هو القول الأول.

قال الحافظ: لا خفاء في رجحان رتبة من لازمه ﷺ، وقاتل معه، أو
 قتل تحت رايته على من لم يلازمه أو لم يحضر معه مشهداً، وعلى من
 كلمه يسيراً، أو ما شاه قليلاً، أو رآه على بعد، أو في حال الطفولة، وإن
 كان شرف الصحبة حاصلاً للجميع، ومن ليس له منهم سماع منه فحديثه
 مرسل من حيث الرواية، وهم مع ذلك معدودون في الصحابة لما نالوه من
 شرف الرؤية اهـ^(١).

وهذا الذي أورده المصنف هو نص حديث النبي ﷺ في تزكيته
 أصحابه الذين رأوه، وآمنوا به، وهم أفضل هذه الأمة بعد نبينا عليه الصلاة
 والسلام، قد أشرقت عليهم شمس نبوته فحازوا فخار الاجتماع وفضيلة
 الصحبة فكان قرنهم أفضل القرون لقوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ
 الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ لِإِحْسَنِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:
 ١٠٠]، وقال النبي ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»
 كما في البخاري^(٢).

(١) شرح النزهة (١١٥ - ١١٦) وعنه الأثيوبي في إسعاف ذوي الوطر بشرح نظم الدرر في
 علم الأثر (١٨٤/٢ - ١٨٦). ط/مكتبة ابن تيمية القاهرة، الأولى سنة (١٤١٦ -
 ١٩٩٦). وانظر فتح الباري للحافظ (٣/٧). فضائل الصحابة دار المعرفة.

(٢) أخرجه أحمد ٣٧٨/١ (٣٥٩٤) والبخاري (٢٢٤/٣) (٢٦٥٢) و٣/٥ (٣٦٥١) و«مسلم»
 ١٨٤/٧ (٦٥٦٠).

وَعَنْ مَالِكٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّلَاثُ»^(١)، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الطَّبْرَانِيِّ وَسَمُوِيَّةٍ مَا يُفَسِّرُ بِهِ هَذَا السُّؤَالَ، وَهُوَ مَا أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيقِ بِلَالِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «أَنَا وَقَرْنِي» فَذَكَرَ مِثْلَهُ^(٢). وَلِلطَّبَّايسِيِّ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَفَعَهُ «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا مِنْهُمْ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّلَاثُ» وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ جَعْدَةَ بْنِ هُبَيْرَةَ عِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ وَالطَّبْرَانِيِّ إِثْبَاتُ الْقَرْنِ الرَّابِعِ وَلَفْظُهُ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الْآخَرُونَ أَرْدَأُ» وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّ جَعْدَةَ مُخْتَلَفٌ فِي صُحْبَتِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

وروى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله ﷺ? فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ? فيقولون: نعم، فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب من أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ? فيقولون: نعم، فيفتح لهم»^(٤) وفي رواية من حديث مثله حديث واثلة يرفعه إلى النبي ﷺ: «لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأيي وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأيي وصاحبني» الحديث أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده حسن^(٥) كما قال الحافظ في الفتح^(٦).

والصحابه هم خير هذه الأمة كما أخبر الله عنهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ

(١) أخرجه أحمد ١٥٦/٦. و«مسلم» ١٨٦/٧ (٦٦٤١).

(٢) مجمع الزوائد ٥٢٢/٧.

(٣) انظر الفتح ٣/٧ فضائل الصحابة.

(٤) أحمد ٧/٣ (١١٠٥٦) و«البخاري» ٤٤/٤ (٢٨٩٧) و«مسلم» ١٨٣/٧ (٦٥٥٨).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٤١٧).

(٦) الفتح ٥/٧.

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ [الفتح: ١٨]. قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: (كنا ألفاً وأربعمائة) ^(١).

وهذه الآية ظاهرة الدلالة على تزكية الله لهم تزكية لا يخبر ولا يقدر عليها إلا الله، وهي تزكية بواطنهم وما في قلوبهم ومن هنا رضي عنهم، (ومن رضي عنه تعالى لا يمكن موته على الكفر، لأن العبرة بالوفاء على الإسلام، فلا يقع الرضا منه تعالى إلا على من علم موته على الإسلام، وأما من علم موته على الكفر فلا يمكن أن يخبر الله تعالى بأنه رضي عنه) ^(٢). ومما يؤكد هذا ما ثبت في صحيح مسلم من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها» ^(٣) الحديث.

قال ابن حزم: (فمن أخبرنا الله صلى الله عليه وسلم أنه علم ما في قلوبهم، صلى الله عليه وسلم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحل لأحد التوقف في أمرهم، أو الشك فيهم البتة) ^(٤).

وعن أبي سعيد قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء فسيبه خالد فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» ^(٥) رواه مسلم.

... وكذلك قال الإمام أحمد وغيره: (كل من صحب النبي صلى الله عليه وسلم سنة أو شهراً أو يوماً أو رآه مؤمناً به فهو من أصحابه، له من الصحبة بقدر

(١) فتح الباري (١/٧ - ٣٤ ٢ - ٣٤)، صحيح مسلم، رقم ٨٥٦.

(٢) الصواعق المحرقة، (ص ٣١٦).

(٣) مسلم (٦٥٦٠)، وشرح النووي (٥٨/١٦).

(٤) الفصل في الملل والنحل (١٤٨/٤).

(٥) مسلم (٦٦٥١) وشرح النووي على مسلم (٩٢/١٦ - ٩٣). والنصيف: النصف.

ذلك)، وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«النجوم أمانة للسماء فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهب أنا أتى أصحابي ما يوعدون» رواه مسلم^(١)، وروى البزار في مسنده بسند رجاله موثوقون من حديث سعيد بن المسيب عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: «إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين»^(٢).

قال الإمام أحمد رضي الله عنه في عقيدته: (فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال)^(٣).

وقال النووي: (وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)^(٤).

ولقد زكى الله قلوبهم التي هي محل نظره، فدل على عظيم قدرهم عند ربهم حيث صفت قلوبهم، وصقلت أرواحهم، وطهرت نفوسهم قال تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨] وقبل توبتهم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، ورضي عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وصحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم لا يعدلها شيء مهما كان، قال الحافظ ابن حجر ذاكراً ما يدل على ذلك: (فمن ذلك ما قرأت في كتاب أخبار الخوارج تأليف محمد بن قدامة المروزي، قال: كنا عنده (أي أبي سعيد) وهو متكئ فذكرنا علياً ومعاوية فتناول رجل معاوية، فاستوى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه جالساً - فذكر قصته حينما كان في رفقة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أبو بكر رضي الله عنه

(١) مسلم (٦٦٢٩) في فضائل الصحابة.

(٢) رواه البزار في مسنده.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: اللالكائي ١/١٦٠.

(٤) مسلم بشرح النووي ٩٣/١٦.

ورجل من الأعراب - إلى أن قال (أبو سعيد): ثم رأيت ذلك البدوي أتى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد هجا الأنصار فقال لهم عمر: لولا أن له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أدري ما نال فيها لكفيتكموه) قال الحافظ: ورجال هذا الحديث ثقات (١).

فأنت ترى أن عمر توقف عن معاتبته فضلاً عن معاقبته، لما يعلمه من فضل صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم.

وقد ذهب بعض المفسرين كسفيان في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩] قال: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن عمر: (لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره)، وفي رواية وكيع: (خير من عبادة أحدكم أربعين سنة)، رواه أحمد في فضائل الصحابة وابن ماجه وابن أبي عاصم بسند صحيح قاله الألباني (٢).

حكم من سب الصحابة أو تنقصهم:

السبّ: هو الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم من السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم كاللعن والتقييح ونحوهما (٣).

إنّ سبّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطعن فيهم دليل على بغض الشخص، وعدم حبه لهم، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا أنّ من أحبهم فلهبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أبغضهم فبيغضه للرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يسبهم أحد إلا إذا كان وراءه هدف للطعن في الرسالة التي حملوها وبلغوها للناس، فهم واسطة العقد بيننا وبين نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن طعن فيهم فهو أولى بالطعن والذم، يقول أبو زرعة

(١) الإصابة (١/١٢).

(٢) فضائل الصحابة (١/٥٧، ٦٠) شرح الطحاوية (٥٣١).

(٣) انظر المطلع (١٤٩).

الرازي رحمته الله: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا حقٌّ والقرآن حقٌّ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة»^(١).

وقال أبو المظفر السمعاني رحمته الله: «التعرضُ إلى جانب الصحابة علامة على خذلان فاعله، بل هو بدعة وضلالة»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سَجْدًا يَلْبَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد استنبط الإمام مالك رحمته الله من هذه الآية كفر من يبغضون الصحابة، لأن الصحابة يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، ووافقه الشافعي وغيره^(٣).

وثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»^(٤).

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص ٤٩).

(٢) فتح الباري (٣٦٥/٤).

(٣) الصواعق المحرقة (٣١٧)، وتفسير ابن كثير (٢٠٤/٤).

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٣٦٧٣)، ومسلم كتاب الفضائل حديث رقم (٢٥٤٠)، (٢٥٤١).

وإليك تفصيل وبيان أحكام كل قسم:

- من وسم الصحابة بالكفر والردة، أو الفسق، جميعهم أو معظمهم فلا نشك في كفر من قال بذلك لأمر من أهمها:

أ - أن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق، وبذلك يقع الشك في القرآن والأحاديث لأنّ الطعن في النقلة طعن في المنقول.

ب - لأن في ذلك إيذاء له - ﷺ - لأنهم أصحابه وخاصته، فسب أصحاب المرء وخاصته والطعن فيهم يؤذيه ولا شك، وأذى الرسول ﷺ كفر كما هو مقرر.

ج - أن في هذا تكذيباً لما نص عليه القرآن من الرضى عنهم والثناء عليهم.

(فالعلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قطعي)، ومن أنكر ما هو قطعي فقد كفر.

قال الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ: (. . . ثم الكلام (أي الخلاف) إنما هو في سب بعضهم أما سب جميعهم، فلا شك في أنه كفر).

وفى الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بَغْضُ الْأَنْصَارِ»^(١) وفي رواية: «لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق»^(٢) . . . ولمسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(٣) . . . فمن سبهم فقد زاد على بغضهم فيجب أن يكون منافقاً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر^(٤) .

قال الحافظ في شرح حديث حبّ الأنصار: « . . . فلهذا جاء التحذير

(١) أخرجه أحمد ١٣٠/٣ (١٢٣٤١) و«البخاري» ١١/١ (١٧) و«مسلم» ٦٠/١ (١٤٧).

(٢) أخرجه أحمد ٢٨٣/٤ (١٨٦٩٤) وفي ٢٩٢/٤ (١٨٧٧٧) و«البخاري» ٣٩/٥ (٣٧٨٣) و«مسلم» ٦٠/١ (١٤٩).

(٣) مسلم (٢٤٧).

(٤) الصواعق المحرقة (٣٧٩). لابن حجر الهيثمي.

من بغضهم والترغيب في حبهم حتى جعل ذلك آية الإيمان والنفاق؛ تنويهاً
بعظيم فضلهم، وتنبهياً على كريم فعلهم، وإن كان من شاركهم في معنى
ذلك مشاركاً لهم في الفضل المذكور كل بقسطه، وقد ثبت في صحيح
مسلم عن عليّ أن النبي ﷺ قال له: (لا يُحبُّك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا
منافق)^(١)، وهذا جارٍ باطِّرادٍ في أعيان الصحابة؛ لتحقق مشترك الإكرام؛ لِمَا
لهم من حسن الغناء في الدين، قال صاحب المفهم: وأمّا الحروب الواقعة
بينهم فإن وقع من بعضهم بغضٌ لبعض فذاك من غير هذه الجهة (يعني
النصرة)، بل للأمر الطارئ الذي اقتضى المخالفة، ولذلك لم يحكم بعضهم
على بعض بالنفاق، وإنّما كان حالهم في ذاك حال المجتهدين في الأحكام،
للمصيب أجران، وللمخطئ أجرٌ واحد، والله أعلم^(٢).

ومن ذلك ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه
ضرب بالدرة من فضله على أبي بكر ثم قال عمر: أبو بكر كان خير الناس
بعد رسول الله - ﷺ - في كذا وكذا ثم قال عمر: من قال غير هذا أقمنا
عليه ما نقيم على المفترى^(٣). وكذلك قال أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب: لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى^(٤).

فهذا مجرد التفضيل يرى فيه هذان الخليفتان الراشدان الحد فكيف
بالسب والهمز واللمز.

ومن سب بعضهم سباً يطعن في دينهم كأن يتهمهم بالكفر أو الفسق
وكان مما تواترت النصوص بفضله (كالخلفاء) فذلك كفر - على الصحيح -
لأن في هذا تكديباً لأمر متواتر. روى أبو محمد بن أبي زيد عن سحنون
قال: من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ أنهم كانوا على ضلال وكفر
قتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل ذلك نكل النكال الشديد^(٥).

(١) «أحمد» ٨٤/١ (٦٤٢) و«مسلم» ٦٠/١ (١٥٢) و«الترمذي» (٣٧٣٦).

(٢) الفتح (٦٣/١).

(٣) فضائل الصحابة ٣٠٠/١.

(٤) فضائل الصحابة ٨٢/١، والسنة لابن أبي عاصم ٥٧٥/٢.

(٥) الشفا للقاضي عياض: ١١٠٩/٢.

وقال هشام بن عمار: سمعت مالكا يقول: من سبّ أبا بكر وعمر قتل، ومن سبّ عائشة رضي الله عنها قتل، لأن الله تعالى يقول فيها: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧﴾ فمن رماها فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل^(١).

أما قول مالك في الرواية الأخرى: «من سبّ أبا بكر جلد ومن سبّ عائشة قتل، قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن» [٣٠]. فالظاهر - والله أعلم - أن مقصود مالك - رضي الله عنه - هنا في سبّ أبي بكر - رضي الله عنه - فيما دون الكفر، يوضحه بقية كلامه عن عائشة - رضي الله عنها - حيث قال: من رماها فقد خالف القرآن. فهذا سبّ مخصوص يكفر صاحبه (ولا يشمل كل سب)، وذلك لأنه ورد عن مالك القول بالقتل فيمن كفر من هو دون أبي بكر^(٢).

قال الهيثمي مشيراً إلى ما يقارب ذلك عند كلامه عن حكم سبّ أبي بكر رضي الله عنه:

(... فتلخص أن سبّ أبي بكر كفر عند الحنفية، وعلى أحد الوجهين عند الشافعية، ومشهور مذهب مالك أنه يجب به الجلد فليس بكفر، نعم، قد يخرج عنه ما مر عنه في الخوارج أنه كفر، فتكون المسألة عنده على حالين إن اقتصر على السب من غير تكفير لم يكفر وإلا كفر)^(٣).

وقال أيضاً: (... وأما تكفير أبي بكر ونظرائه ممن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة فلم يتكلم فيها أصحاب الشافعي، والذي أراه الكفر فيها قطعاً...)^(٤).

وقال الخرشي شارح خليل رحمهما الله تعالى: (من رمى عائشة بما برأها الله منه...، أو أنكر صحبة أبي بكر، أو إسلام العشرة، أو إسلام

(١) الصواعق المحرقة (٣٨٤).

(٢) الشفا للقاضي عياض ١١٠٨/٢.

(٣) الصواعق المحرقة (٣٨٦).

(٤) الصواعق المحرقة (٣٨٥).

جميع الصحابة، أو كفر الأربعة أو واحداً منهم كفر^(١).

وقال البغدادي: (وقالوا بتكفير كل من أكفر واحداً من العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وقالوا بموالاتهم جميع أزواج رسول الله ﷺ وأكفروا من أكفروا أو أكفر بعضهم)^(٢).

والمسألة فيها خلاف مشهود ولعلّ الراجح ما ذكرنا. وأما القائلون بعدم كفر - من هذه حاله - فقد أجمعوا على أنه فاسق لارتكابه كبيرة من كبائر الذنوب يستحق التعزير والتأديب على حسب منزلة الصحابي ونوعية السب. وإليك بيان ذلك:

قال الهيثمي: «أجمع القائلون بعدم تكفير من سب الصحابة على أنهم فاسق»^(٣).

وقال إبراهيم النخعي: كان يقال شتم أبي بكر وعمر من الكبائر وكذلك قال أبو إسحاق السبيعي: شتم أبي بكر وعمر من الكبائر التي قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ﴾... الآية.

وقال القاضي (عياض): وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزّر ولا يقتل...^(٤)...

وقال عبدالملك بن حبيب: «من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدباً شديداً، ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت...»^(٥).

قال الإمام أحمد رحمته الله: (لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً عن مساويهم ولا

(١) الخرخشي على مختصر خليل: ٧٤/٨.

(٢) الفرق بين الفرق (٣٦٠).

(٣) الصواعق المحرقة (٨٣).

(٤) مسلم بشرح النووي: ٩٣/١٦.

(٥) الشفا (١١٠٨/٢).

يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ويستتبه، فإن تاب قبل منه، وإن ثبت عاد عليه بالعقوبة وخلده الحبس حتى يموت أو يراجع»^(١).

وقال القاضي أبو يعلى تعليقاً على قول الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سئل عمّن شتم الصحابة، فقال: ما أراه على الإسلام، قال أبو يعلى: (فيحتمل أن يحمل قوله: ما أراه على الإسلام، إذا استحلّ سبهم بأنه يكفر بلا خلاف، ويحمل إسقاط القتل على من لم يستحلّ ذلك مع اعتقاده لتحريمه كمن يأتي المعاصي) ثم ذكر بقية الاحتمالات^(٢).

لكن يختلف سب عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما برأها الله منه عن غيرها فقد أجمع أهل العلم على أن من سب أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما برأها الله منه فقد كفر قال القاضي أبو يعلى: من قذف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما برأها الله منه كفر بلا خلاف. وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم فروي عن مالك: من سب أبا بكر جلد ومن سب عائشة قتل (قيل له: لِمَ؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن. وقال ابن شعبان في روايته عن مالك لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٧) فمن عاد لمثله فقد كفر).

والأدلة على كفر من رمى أم المؤمنين صريحة وظاهرة الدلالة منها^(٣):

أ - ما استدل به الإمام مالك أن في هذا تكذيباً للقرآن الذي شهد ببراءتها، وتكذيب ما جاء به القرآن كفر. قال الإمام ابن كثير: وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكره في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وقال ابن حزم

(١) طبقات الحنابلة ٣٠/١.

(٢) الرد على الرافضة (١٩).

(٣) انظر ما كتبه محمد عبدالله الوهبي عن اعتقاد أهل السنة في الصحابة في مجلة البيان الأعداد (٢٥ - ٢٦).

تعليقاً على قول الإمام مالك السابق: (قول مالك هاهنا صحيح، وهي ردة تامة وتكذيب لله تعالى في قطعه ببراءتها).

ب - أن فيه إيذاء وتنقيصاً لرسول الله - ﷺ - من وجوه دلّ عليها القرآن الكريم.

١ - فرق ابن عباس رضي الله عنهما بين قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾... الآية [النور: ٤]، وبين قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾... الآية [النور: ٢٣]، فقال عند تفسير الآية الثانية: (هذه في شأن عائشة وأزواج النبي - ﷺ - خاصة وهي مبهمة ليس فيها توبة. ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة.

قال: فَهَمَّ رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسر، فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما أنزلت فيمن قذف عائشة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن لما في قذفهن من الطعن على رسول الله - ﷺ - وعيبه فإن قذف المرأة أذى لزوجها كما هو أذى لأبيها لأنه نسبة له إلى الدياثة وإظهار لفساد فراشه. وأن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً... ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف).

٢ - وإيذاء رسول الله - ﷺ - كفر بالإجماع، قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]، يعني في عائشة لأن مثله لا يكون إلا نظير القول في المقول عنه بعينه، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبي - ﷺ - لما في ذلك من إيذاء رسول الله - ﷺ - في عرضه وأهله وذلك كفر من فاعله).

ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي - ﷺ - ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت: فقام رسول الله - ﷺ - فاستعذر عن عبدالله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرنني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي...».

فقوله: من يعذرني أي: من ينصفني ويقيم عذري إذا انتصفت منه لما بلغني من أذاه في أهل بيتي، والله أعلم.

تنبيه في غاية الأهمية:

ومما أريد التنبيه إليه هنا ما شاع في بلادنا من بقايا سب الشيعة الملاعين للصديقة المبرأة بنت الصديق عليها السلام وعن أبيها، أنهم يقولون (لسام أبرص) الذي يتمشى على الجدران: [عائشة القرعة] وهذا مما لا ينتبه له من الألفاظ الخبيثة المدسوسة في ثقافتنا التي لا تخضع للتنقيح، وإنما للترديد فقط، وكذلك قول بعض النسوة إذا جاءتها الحيضة تقول: واستغفر الله مما يقلن: جاءت عائشة.

ومما يحاكيه والشأن بالشأن يذكر ما يفعله الصغار محاكاة لعبدة الشمس في بلادنا وكثير من البلاد التي سألت أهلها، أنهم إذا سقطت سن أحدهم رماها للشمس وقال: يا شمس خذي سن الحمار وأعطني سنّ الغزال، ومن تتبع ثقافتنا وجد فيها الكثير من الدسّ، فلذلك يتعيّن على المرّتين من العلماء والخطباء والدعاة والمعلمين تنبيه الناس عامة وصغار السن خاصة على الأخطاء اللفظية التي يترتب عليها أحياناً الشرك أو الأذى، والله المستعان.

الصحابة الأخيار وطبقاتهم في الفضل:

وَأَفْضَلُ الصَّحَابَةِ: الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ المَهْدِيُّونَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رضي الله عنهم أجمعين.

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَأَفْضَلُ الأُمَّةِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ وَالخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ يَلِيهِ عُمَرُ ثُمَّ يَلِي عُثْمَانُ وَالتَّالِيهِ فِي الفَضْلِ عَلِيٌّ

إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وآله هم الخلفاء الراشدون المهديون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، كما نص على ذلك النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: «عليكم

بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»^(١)، وقال ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»^(٢) فكان آخرهم خلافة علي ﷺ.

وروى البخاري عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهما»^(٣). وفي رواية عبيدالله بن عمر عن نافع كما في مناقب عثمان «كنا لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان، ثم نترك أصحاب رسول الله ﷺ فلا نفاضل بينهم»^(٤). ولأبي داود من طريق سالم عن ابن عمر «كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان» زاد الطبراني في رواية «فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره»^(٥). وفي الترمذي وغيره أنه قال في أبي بكر وعمر «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين» رواه الترمذي^(٦).

وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال له ابنه: يا أبت، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: «يا بني، أبو بكر» قال: ثم من؟ قال: «ثم عمر»^(٧)؛ وروى بضع وثمانون نفساً عنه أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها

(١) قطعة من حديث صحيح من حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب... رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (١٨١٦) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢ - ٤٤) وابن حبان (١٠٢ موارد) والدارمي (٤٤/١ - ٤٥) والحاكم (٩٥/١) وقال: صحيح ليس له علة وأقره الذهبي. وانظر للتوسع في تخريجه ولشرحه النفيس «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٢٢٥ - ٢٣٦) رواه ابن أبي عاصم (٥٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٤٦) وابن حبان (٥٣٤ موارد) واللفظ له، والترمذي (٢٣٢٦) وغيره بلفظ «خلافة النبوة ثلاثون سنة...». وانظر لتخريج الحديث وبيان صحته في «السلسلة الصحيحة». (٤٦٠) حيث نقل تصحيح تسعة من حفاظ الحديث وأئتمته.

(٣) البخاري (٣٦٥٥).

(٤) صحيح البخاري ٢/٢٨٩. وانظر فتح الباري (١٦/٧).

(٥) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٦/٧).

(٦) الترمذي (٣٦٦٤)، وقال: حديث حسن.

(٧) البخاري (٣٦٧١).

أبو بكر ثم عمر». ففي الأحاديث تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر، كما هو المشهور عند جمهور أهل السنة، وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان، وممن قال به سفيان الثوري ويقال إنه رجع عنه، وقال به ابن خزيمة، وطائفة قبله وبعده، وقيل لا يفضل أحدهما على الآخر قاله مالك في «المدونة» وتبعه جماعة منهم يحيى القطان، ومن المتأخرين ابن حزم.

ونقل البيهقي في «الاعتقاد» بسنده إلى أبي ثور عن الشافعي أنه قال: أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي^(١)، قلت: وهذا الذي استقر عليه الإجماع بعد ذلك فلا عبرة بمن خالفه.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد: فأما الخلفاء الراشدون فهم أفضل من غيرهم، وترتيبهم في الفضل عند أهل السنة كترتيبهم في الإمامة. اهـ.

وقال أيضاً: «ثبت أنه لا يعرف الفضل إلا بالوحي ولا يعرف من النبي ﷺ إلا بالسمع، وأولى الناس بالسمع ما يدل على تفاوت الفضائل الصحابة الملازمون لأحوال النبي ﷺ، وهم قد أجمعوا على تقديم أبي بكر، ثم نص أبو بكر على عمر، ثم أجمعوا بعده على عثمان، ثم على علي عليه السلام. وليس يظن منهم الخيانة في دين الله تعالى لغرض من الأغراض، وكان إجماعهم على ذلك من أحسن ما يستدل به على مراتبهم في الفضل، ومن هذا اعتقد أهل السنة هذا الترتيب في الفضل ثم بحثوا عن الأخبار فوجدوا فيها ما عرف به مستند الصحابة وأهل الإجماع في هذا الترتيب»^(٢).

وقد قسم العلماء طبقات الصحابة إلى خمس طبقات، وعليه عمل ابن سعد في كتابه الطبقات، وجعلها الحاكم اثنتي عشرة طبقة، وزاد بعضهم أكثر من ذلك، قال الشيخ أحمد شاكر: والمشهور ما ذهب إليه الحاكم، وهذه الطبقات هي:

(١) الاعتقاد للبيهقي (٣٦٨).

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي.

- الأولى: قوم تقدم إسلامهم بمكة كالخلفاء الأربعة.
- الثانية: الصحابة الذين أسلموا قبل تشاور أهل مكة في دار الندوة.
- الثالثة: مهاجرة الحبشة.
- الرابعة: أصحاب العقبة الأولى.
- الخامسة: أصحاب العقبة الثانية وأكثرهم من الأنصار.
- السادسة: أول المهاجرين الذين وصلوا للنبي ﷺ بقاء قبل أن يدخل المدينة.
- السابعة: أهل بدر.
- الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.
- التاسعة: أهل بيعة الرضوان في الحديبية.
- العاشر: من هاجر بين الحديبية وفتح مكة، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص.
- الحادية عشر: مسلمة الفتح الذين أسلموا في فتح مكة.
- الثانية عشر: صبيان وأطفال رأوا النبي ﷺ يوم الفتح وحجة الوداع وغيرهما، اهـ^(١)

وفي ذلك يقول السيوطي رحمه الله تعالى في ألفية الأثر:

وَهُمْ طِبَاقٌ، قِيلَ: خَمْسٌ وَذِكْرٌ
فَالأَوْلُونَ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ
ثُمَّ الْمُهَاجِرُونَ لِلْحَبَشَةِ
فَأَوَّلُ الْمُهَاجِرِينَ لِقَبَا
مِنْ بَعْدِهَا فَبَيْعَةُ الرُّضْوَانِ ثُمَّ
مُسْلِمَةُ الْفَتْحِ فَصِبْيَانُ رَأَوْا
وَعَمْرٌ بَعْدُ وَعُثْمَانُ يَلِي
عَشْرٌ مَعَ اثْنَيْنِ وَزَائِدٌ أُثِرُ
يَلِيهِمْ أَصْحَابُ دَارِ النَّدْوَةِ
ثُمَّ اثْنَتَانِ انْسَبَ إِلَى الْعَقْبَةِ
فَأَهْلُ بَدْرِ وَيَلِي مَنْ غَرَبَا
مَنْ بَعْدَ صَلْحِ هَاجَرُوا وَبَعْدَ ضَمِّ
وَالأَفْضَلُ الصَّدِيقُ إِجْمَاعاً حَكُوا
وَبَعْدَهُ أَوْ قَبْلُ قَوْلَانِ: عَلِي

(١) انظر شرح ألفية السيوطي عند معرفة الصحابة.

فَسَائِرُ الْعَشْرَةِ فَالْبَدْرِيَّةُ فَأَحَدٌ فَالْبَيْعَةُ الزَّكِيَّةُ
وَالسَّابِقُونَ لَهُمْ مَزِيَّةٌ فَقِيلَ: أَهْلُ الْبَيْعَةِ الْمَرْضِيَّةُ
وَقِيلَ: أَهْلُ الْقِبْلَتَيْنِ أَوْ هُمُ بَدْرِيَّةٌ أَوْ قَبْلَ فَتْحِ أَسْلَمُوا

وجوب ذكر الصحابة بأحسن الذكر، والكف عما شجر بينهم:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَأَنْ لَا يُذَكَرَ أَحَدٌ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَّا بِأَحْسَنِ ذِكْرِ وَالْإِمْسَاكِ
عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ وَأَنْهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يُلْتَمَسَ لَهُمْ أَحْسَنُ الْمَخَارِجِ، وَيُظَنَّ
بِهِمْ أَحْسَنَ الْمَذَاهِبِ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَلَا يَجُوزُ ذِكْرُ شَخْصٍ مُفْتَنِي صُحْبَتَهُ إِلَّا بِذِكْرِ حَسَنِي
وَيَجِبُ الْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَهُمْ أَحَقُّ أَنْ يُرَى
أَحْسَنَ مَخْرَجٍ لَهُمْ وَأَنْ يُظَنَّ أَحْسَنَ مَذَهَبٍ لَهُمْ فَهَوَ الْحَسَنُ

الشرح:

قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقد صحَّ عن النبي ﷺ
أنه قال: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر
القدر فأمسكوا»^(١).

قال أبو نعيم رحمه الله: فالإمساك عن ذكر أصحاب رسول الله ﷺ وذكر

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٨/٢) عن ابن مسعود وصححه الألباني: انظر حديث رقم: ٥٤٥ في صحيح الجامع.

زللهم، ونشر محاسنهم ومناقبهم، وصرف أمورهم إلى أجمل الوجوه، من أمارات المؤمنين المتبعين لهم بإحسان الذين مدحهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]...

ويقول أيضاً في تعليقه على الحديث المشار إليه: (لم يأمرهم بالإمساك عن ذكر محاسنهم وفضائلهم، إنما أمروا بالإمساك عن ذكر أفعالهم وما يفرط منهم في ثورة الغضب وعارض الموجدة)^(١).

إن أصحاب النبي ﷺ هم أفضل هذه الأمة بعد نبيها، ومع ذلك فهم بشر غير معصومين من الخطأ، وما وقع منهم من اختلاف فهو اجتهاد يؤجرون عليه ولا يخرجهم خطأهم عن شرف الصحبة التي نالوها، ولذلك وجب على من جاء بعدهم من أهل التوحيد الصحيح، وأتباع هدي نبينا الفصيح ﷺ، أن يستغفر لهم ويترضى عنهم، فما فعلوه من خطأ مغمور في بحور حسناتهم، وأن نتأول لهم أحسن المخارج، وهم الذين قال الله تعالى في الثناء على المهاجرين منهم، وتثنيته على الأنصار، وتثليثه بمن أحبهم وجاء بعدهم آيات تثلج صدور المحبين، وتنصدع منها قلوب المنافقين والزنادقة الحاقدين على حملة لواء الدين، وواسطة العقد الثمين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَصْرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ نَبَّؤُوا الدَّارَ وَالْآيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

ونحن نقول ونشهد الله وملائكته والصالحين من الإنس والجن على ما

(١) الإمامة (٣٤٧).

نقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان، وبقيت منزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾» (١).

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرنا أن نستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم، ثم قرأت الآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾» (٢).

وقد أخرج مسلم في أواخر صحيحه هذا الحديث بدون تلاوة الآية.

ولقد تكلم أهل السنة ببيض الله وجوههم عن عدالة الصحابة وما جرى بينهم فقالوا:

مالك بن أنس (١٧٩هـ) رحمته الله :

«من يبغض أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في قلبه عليه غلٌّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية، وذكر بين يديه رجلٌ ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، ثم قال: من أصبح

(١) الحاكم (٣٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) انظر فتح القدير (١٩٧/٥، ١٩٨).

من الناس في قلبه غِلٌّ على أحد من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ فقد أصابته هذه الآية»^(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) رَحِمَهُ اللهُ :

في كتابه السنة: «ومن السنَّة ذكرُ محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلُّهم أجمعين، والكفَّ عن الذي جرى بينهم، فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ أو واحداً منهم فهو مبتدع رافضي، حُبُّهم سنَّةٌ والدعاء لهم قربةٌ والافتداء بهم وسيلةٌ والأخذُ بآثارهم فضيلةٌ».

وقال: «لا يجوز لأحدٍ أن يذكر شيئاً من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه بل يعاقبه ثمَّ يستتيبه فإن تاب قبلَ منه وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وخلَّده في الحبس حتى يتوب، فإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وخلَّده في الحبس حتى يتوب ويراجع».

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٣٢٢هـ) رَحِمَهُ اللهُ : في عقيدة أهل السنة والجماعة: «ونحِبُّ أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حبِّ أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضُّهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ»^(٢).

وقال الإمام ابن الإمام عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي (٣٢٧هـ) رَحِمَهُ اللهُ : «فأمَّا أصحاب رسول الله ﷺ فهم الذين شهدوا الوحيَ والتنزيلَ، وعرفوا التفسيرَ والتأويلَ، وهم الذين اختارهم اللُّهُ عزَّ وجلَّ لصحبة نبيه ﷺ ونصرته وإقامة دينه وإظهار حقه، فرضيهم له صحابةً، وجعلهم لنا أعلاماً وقدوةً، فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله ﷻ، وما سنَّ

(١) البغوي في شرح السنة (٢٢٩/١). ورواه أبو نعيم في الحلية (٣٢٧/٦) وذكره القرطبي في تفسيره (٢٠٤/٤) وغيرهم.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٤٦٧).

وشرع وحكم وقضى وندب وأمر ونهى وحظر وأدب، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا في الدين، وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعانية رسول الله ﷺ ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرّفهم الله عزّ وجلّ بما منّ عليهم وأكرمهم به من وضعه إيّاهم موضع القدوة»، إلى أن قال: «فكانوا عدول الأئمة وأئمة الهدى وحجج الدين ونقلة الكتاب والسنة.

وندب الله عزّ وجلّ إلى التمسك بهديهم والجري على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والافتداء بهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية.

ووجدنا النبيّ ﷺ قد حضّ على التبليغ عنه في أخبار كثيرة، ووجدناه يخاطب أصحابه فيها، منها أن دعا لهم فقال: «نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها حتى يبلغها غيره»، وقال ﷺ في خطبته: «فليبلغ الشاهد منكم الغائب»، وقال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

ثم تفرقت الصحابة رضي الله عنهم في النواحي والأمصار والشغور، وفي فتوح البلدان والمغازي والإمارة والقضاء والأحكام، فبث كل واحد منهم في ناحيته وبالبلد الذي هو به ما وعاه وحفظه عن رسول الله ﷺ، وحكموا بحكم الله عزّ وجلّ وأمضوا الأمور على ما سنّ رسول الله ﷺ، وأفتوا فيما سئلوا عنه ممّا حضرهم من جواب رسول الله ﷺ عن نظائرها من المسائل، وجزّدوا أنفسهم مع تقدمه حسن النية والقربة إلى الله تقدّس اسمه، لتعليم الناس الفرائض والأحكام والسنن والحلال والحرام، حتى قبضهم الله عزّ وجلّ رضواناً الله ومغفرته ورحمته عليهم أجمعين»^(١).

وقال النووي: الصحابة كلهم عدول، من لابس الفتن وغيرهم، بإجماع من يعتد به^(٢).

(١) الجرح والتعديل (٨٧/١).

(٢) انظر تفصيل ذلك أيضاً في تدريب الراوي للسيوطي (٣١٨/١)، والإصابة (٦/١ - ٩).

قال السيوطي في ألفيته:

وهم عدول كلهم لا يشتبه النووي أجمع من يعتد به

وقال شارح الطحاوية: «فمن أضلُّ ممَّن يكون في قلبه غلُّ على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين، (كالرافضة الملاحين)، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة، قيل لليهود من خير أهل ملَّتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملَّتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شرُّ أهل ملَّتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، ولم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبَّوهم من هو خير ممَّن استثنوهم بأضعاف مضاعفة»^(١).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«وَاتَّفَقَ أَهْلُ السَّنَةِ عَلَى وَجوبِ مَنعِ الطَّعْنِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنْ حُرُوبٍ وَلَوْ عُرِفَ الْمُحَقُّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهَمْ لَمْ يِقَاتِلُوا فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ إِلَّا عَنِ اجْتِهَادٍ وَقَدْ عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُخْطِئِ فِي الاجْتِهَادِ بَلْ ثَبِتَ أَنَّهُ يُؤْجَرُ أَجْرًا وَاحِدًا وَأَنَّ الْمَصِيبَ يُؤْجَرُ أَجْرَيْنِ»^(٢).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: والمشهور من قتال معاوية مع علي ومسير عائشه رضي الله عنها إلى البصرة والظن بعائشة أنها كانت تطلب تطفئة الفتنة ولكن خرج الأمر من الضبط، فأواخر الأمور لا تبقى على وفق طلب أوائلها، بل تنسل عن الضبط، والظن بمعاوية أنه كان على تأويل وظن فيما كان يتعاطاه وما يحكى سوى هذا من روايات الأحاد فالصحيح منه مختلط بالباطل والاختلاف أكثره اختراعات الروافض والخوارج وأرباب الفضول الخائضون في هذه الفنون. فينبغي أن تلازم الإنكار في كل ما لم يثبت، وما

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٦٩).

(٢) فتح الباري (٣٤/١٣).

ثبت فيستنبط له تأويلاً. فما تعذر عليك فقل: لعل له تأويلاً وعذراً لم أطلع عليه. واعلم أنك في هذا المقام بين أن تسيء الظن بمسلم وتطعن عليه وتكون كاذباً أو تحسن الظن به وتكف لسانك عن الطعن وأنت مخطئ مثلاً، والخطأ في حسن الظن بالمسلم أسلم من الصواب بالطعن فيهم، فلو سكت إنسان مثلاً عن لعن إبليس أو لعن أبي جهل أو أبي لهب أو من شئت من الأشرار طول عمره لم يضره السكوت، ولو هفا هفوة بالطعن في مسلم بما هو بريء عند الله تعالى منه فقد تعرض للهلاك، بل أكثر ما يعلم في الناس لا يحل النطق به لتعظيم الشرع الزجر عن الغيبة، مع أنه إخبار عما هو متحقق في المغتاب.

فمن يلاحظ هذه الفصول ولم يكن في طبعه ميل إلى الفضول أثر ملازمته السكوت وحسن الظن بكافة المسلمين وإطلاق اللسان بالثناء على جميع السلف الصالحين. هذا حكم الصحابة عامة اهـ^(١).

وقال ابن دقيق العيد: (وما نقل عنهم فيما شجر بينهم واختلفوا فيه، فمنه ما هو باطل وكذب، فلا يلتفت إليه، وما كان صحيحاً أولناه تأويلاً حسناً لأن الثناء عليهم من الله سابق، وما ذكر من الكلام اللاحق محتمل للتأويل، والمشكوك والموهوم لا يبطل المحقق والمعلوم)^(٢).

قال في الجوهرة:

وأول التشاجر الذي ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

بل ينبغي على طلبة العلم والعلماء ألا يحدثوا العامة بما وقع بين الصحابة من الفتن، حتى لا يقع في قلوبهم شيء على أصحاب رسول الله ﷺ، لأنهم لا يعرفون مبدأ الخلاف، ولا حسن التراضي بينهم والإنصاف؛ وقد بوب الإمام البخاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: باب من خصَّ بالعلم قوماً

(١) الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي.

(٢) أصحاب رسول الله ومذاهب الناس فيهم (٣٦٠) عبدالعزيز العجلان.

دون قوم كراهية ألا يفهموا، وقال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون،
أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟^(١).

قال الحافظ في الفتح تعليقاً على ذلك: وفيه دليل على أن المتشابه لا
ينبغي أن يذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: (ما أنت محدثاً قوماً
حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، رواه مسلم في مقدمته^(٢).

وقال العوام بن حوشب مقررأ هذا الأصل: (أدرکت من صدر هذه
الأمة بعضهم يقول لبعض: «اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لتألف
عليها القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتحزبوا الناس عليهم»، وبلطف
آخر قال: «... فتجسسوا الناس عليهم».

وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي
ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف
في الغرائب... إلى أن قال: «وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي
البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه
الأخذ بظاهره مطلوب، والله أعلم»^(٣).

ولقد رأينا في هذه الأيام التي يُتاجرُ فيها بعض المحسوبين على
الدعوة، بسرد ما وقع بين الصحابة زعمأ أنه تاريخ ينبغي أن يستفاد منه،
نعم يستفيد منه أهل العلم، أما العوام فلا يستفيدون إلا التشويش بمعرفتهم
لهذه الأمور، وقد قال علماؤنا رحمهم الله تعالى:

واجتنب المشكل (كالصفات ورخصاً، مع المشاجرات)

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: يجب على المحدث في
الإملاء أن يختار الأحاديث المناسبة للمجالس العامة - وفيها من لا يفقه

(١) أخرجه البخاري (ح ١٢٧).

(٢) مقدمة مسلم (١٤) باب النهي عن الحديث بكُلِّ ما سمع.

(٣) فتح الباري (١/٢٢٥).

كثيراً من العلم - فيحدثهم بأحاديث الزهد ومكارم الأخلاق ونحوها، وليجتنب أحاديث الصفات، لأنه لا يؤمن عليهم من الخطأ والوهم والوقوع في التشبيه والتجسيم، ويجتنب أيضاً الرخص والإسرائيليات، وما شجر بين الصحابة من الخلاف لئلا يكون ذلك فتنة للناس اهـ^(١).

قلت: وهو المعول عليه اليوم عند الرافضة وأذئابهم ممن اغتروا بمذهبهم الخبيث في الترويج لما وقع بين الصحابة وثلبهم، وهم أولى بالثلب واللعن لا صبحهم الله ولا مساهم بخير.

ولقد سمعنا عن انتشار هذه الفرقة الضالة من الزنادقة، والنحلة المارقة عن الدين حينما وجدوا لهم دولة تؤويهم وتعطيهم، فصار القدح والسب يسمعه أبناؤنا في البلاد السنية التي ضعف فيها الولاء والاعتناء بأمر الدين وحب الصحابة الميامين، ولذلك يتعين على كل مسؤول يؤمن بالله واليوم الآخر، وكل مسلم غيور أن ينافح عن حملة الحق، لأن الطعن في الصحابة طعن في النبي ﷺ، وما أذكى إمامنا مالكا حينما سأله الرشيد: هل لمن سب أصحاب رسول الله ﷺ في الفبيء حق؟ قال: لا، ولا كرامة ولا مسرة، قال: من أين قلت ذلك؟ قال: قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيْطَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ فمن عابهم، فهو كافر ولا حق لكافر في الفبيء^(٢).

وقال: إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه، حتى يقال: رجل سوء ولو كان صالحاً لكان أصحابه صالحين، أو كما قال^(٣).

ومن تتبع حال الصحابة وجدهم في الفتنة إلى ثلاث فئات، فئة اجتهدت مع علي والحق معها لأنه أمير المؤمنين، وفئة اجتهدت ضده مع معاوية ولم يكن همهم شق العصا ولا الخروج عن علي ﷺ ولكن رأوا ما

(١) ألفية السيوطي في علم الحديث تعليق شاكر (١٨١ - ١٨٢) ط/دار المعرفة، وانظر (١١٧/٢) من شرحها للأثيوبي.

(٢) ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (٤٦/٢ - ٤٧).

(٣) الصارم المسلول (٥٨٠).

رأى معاوية رضي الله عنه من طلب دم عثمان، وفئة ثالثة خرجت للصالح والوفاق ممن كان مع أمنا الصديقة رضي الله عنها، ومعظم الصحابة لم يخرجوا في قتال ولا دخلوا في فتنة مع أن عددهم كان يفوق العشرة آلاف، ولم يدخل منهم في هذا الأمر سوى قرابة الثلاثين، ولذلك يقول عمر بن شبه رحمه الله تعالى:

«إن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة ولا دعوا لأحد ليولوه الخلافة، وإنما أنكروا على علي منعه من قتال قتلة عثمان وترك الاقتصاص منهم»^(١).

ومما يؤكد ذلك هذه الرواية التي ذكرها ابن كثير: (جاء أبو مسلم الخولاني وأناس إلى معاوية، وقالوا: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: لا والله، إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمته، والطالب بدمه، فأتوه فقولوا له، فليدفع إليّ قتلة عثمان، وأسلم له، فأتوا علياً، فكلّموه. فلم يدفعهم إليه»^(٢) وفي رواية: (فعند ذلك صمم أهل الشام على القتال مع معاوية).

وأيضاً جمهور الصحابة، وجمهور أفاضلهم ما دخلوا في فتنة، قال عبدالله ابن الإمام أحمد: «حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن عليّة حدثنا أيوب السخيتاني عن محمد بن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين. قال أبو العباس: (وهذا الإسناد أصح إسناد على وجه الأرض، ومحمد بن سيرين من أروع الناس في منطقه، ومراسيله من أصح المراسيل). يقول محمد عبدالله الوهبي: فأين الباحثون المنصفون ليدرسوا مثل هذه النصوص الصحيحة؟ وتكون منطلقاً لهم، لا أن يلطخوا أذهانهم بتشويشات الإخباريين ثم يؤولون النصوص الصحيحة حسب ما عندهم من البضاعة المزجاة»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء الذهبي (١٤٠/٣) بسند رجاله ثقات.

(٢) البداية والنهاية (١٢٩/٨).

(٣) تقدمت الإشارة، وانظر كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي المالكي رحمه الله تعالى فإنه يشفي في هذا الأمر، وانظر كلاما نفيسا في كتاب الشريعة للأجري رحمه الله تعالى، وانظر كتاب الانتصار للصحابة الأخيار لعبدالمحسن العباد.

إشكال والإجابة عنه :

ما مفهوم قول النبي ﷺ: «تأتي أيام للعامل فيهنّ أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم»^(١). وقوله ﷺ في حديث أبي جمعة قال: قال أبو عبيدة: يا رسول الله، أحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك، قال: «قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»^(٢). فهل يدل ذلك على أن من تمسك بهدي النبي ﷺ في آخر الزمان هو أفضل من الصحابة؟ أم ما هو توجيه الحديث؟

الجواب:

إن العلماء أجابوا بإجابات نختصرها فيما يلي:

أجاب العلماء عن ذلك بعدة أجوبة أهمها:

- ١ - حديث (للعامل فيهنّ أجر خمسين) لا يدل على الأفضلية لأن مجرد زيادة الأجر على بعض الأعمال لا يستلزم ثبوت الأفضلية مطلقاً.
- ٢ - أن المفضول قد توجد فيه مزايا وفضائل ليست عند الفاضل ولكن من حيث مجموع الخصال لا يساوي الفاضل.
- ٣ - وكذلك يقال الأفضلية بينهما (إنما هي باعتبار ما يمكن أن يجتمعا فيه وهو عموم الطاعات المشتركة بين سائر المؤمنين، فلا يعد حينئذ تفضيل بعض من يأتي على بعض الصحابة في ذلك، أمّا ما اختص به الصحابة رضوان الله عليهم وفازوا به من مشاهدة طلعتة ﷺ ورؤية ذاته المشرفة المكرمة، فأمر من وراء العقل إذ لا يسع أحد أن يأتي من الأعمال وإن جلت بما يقارب ذلك فضلاً عن أن يماثله)^(٣).

(١) رواه أبو داود: (٤١، ٤٣) والترمذي ١٧٧/٢، وابن ماجه (٤٠٤١) وابن حبان (١٨٥٠) قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه أحمد والدارمي والطبراني وصححه الحاكم، قال ابن حجر: إسناده حسن (الفتح ٦/٧).

(٣) الصواعق المحرقة (٣٢١).

٤ - أما حديث أبي جمعة فلم يتفق الرواة على لفظه، فقد رواه بعضهم بلفظ الخيرية كما تقدم، ورواه بعضهم بلفظ قلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً؟ أخرج الطبراني^(١). قال الحافظ في الفتح: (وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة، وهي توافق حديث أبي ثعلبة وقد تقدم الجواب عنه، والله أعلم)^(٢).

وأخيراً ينبغي التنبيه في آخر هذه الفقرة إلى أن الخلاف بين الجمهور وغيرهم في ذلك لا يشمل كبار الصحابة من الخلفاء وبقية العشرة ومن ورد فيهم فضل مخصوص كأهل العقبة وبدر وتبوك... إلخ.

وإنما يحصل النزاع فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة ولذلك استثنى الإمام ابن عبد البر أهل بدر والحديبية^(٣).

إنّ ممّا يجب أن يدين به المسلم الموحّد الصادق هو أن يحب الصحابة ويتقرب إلى الله بحبهم فذاك من كمال الإيمان، وتمام اليقين، وأن يدافع عنهم باللسان والسنان، فهم حملة الوحي، وأئمة الهدى، ومصابيح الدجى، ليس أحد مثلهم في الفضل، ولا يدانيهم في ذلك إنس ولا جن، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، نسأل الله أن يحشرنا معهم آمين.

طاعة أولي الأمر بعد طاعة الله ورسوله ﷺ:

(والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَطَاعَةُ الْوُلَاةِ قُلٌّ وَالْعُلَمَاءُ وَالسَّلَفَ الصَّالِحَ فَاتَّبِعْ مُسْلِمًا

(١) مجمع الزوائد (٥٣/١٠) رواه الطبراني واختلف في رجاله.

(٢) الفتح، ٧/٧.

(٣) المرجع السابق.

الشرح:

أي يجب الانقياد لأئمة المسلمين من ولاية الأمور الذين نصبوا أنفسهم لمصالح المسلمين، من علماء وأمراء ما أطاعوا الله ورسوله، واعتصموا بحبل الله ودينه، فإن أمروا بمعصية، أو ظهر منهم الكفر البواح فلا طاعة حينئذ، وتفسير المصنف رحمه الله تعالى لأولي الأمر بالعلماء والأمراء هو الحق الذي ذهب إليه السلف كما سيأتي بيانه، لأنه لا يتولى الإمامة الكبرى في الإسلام إلا عالم توفرت فيه شروط الإمامة التي سيأتي بيانها، أما زمننا فلا يقاس عليه أي زمن مر على أمة محمد ﷺ فإننا لله وإنا إليه راجعون، وما أصابنا فيما كسبت أيدينا، وإن ذنوباً ولت علينا أمثال هؤلاء لذنوب خبيثة كما قال النخعي رحمه الله تعالى عن ولاية الحجاج فماذا نقول نحن؟

والدليل من الكتاب والسنة على طاعة أولي الأمر قول الحق الملك العدل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

وعن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١).

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرّة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم فيه من الله برهان» أخرجاه^(٢).

وفي الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة». رواه البخاري.

(١) صحيح البخاري برقم (٧١٤٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٣٩) وسنن أبي داود برقم (٢٦٢٦).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧١٩٩)، وصحيح مسلم برقم (١٧٠٩).

معرفة سبب نزول الآية:

روى البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: «نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي؛
إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية». وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه،
وقال الترمذي: حديث حسن غريب^(١).

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل: عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ
سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَدَ عليهم في
شيء^(٢). قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟
قالوا: بلى، قال: اجمعوا لي حطباً. ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال:
عزمت عليكم لتدخلنّها. [قال: فهمّ القوم أن يدخلوها] قال: فقال لهم شاب
منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا
رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها.

قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها
ما خرجتم منها أبداً؛ إنما الطاعة في المعروف». أخرجه الشيخان^(٣).

فقد بين النبي ﷺ أنه لا طاعة في معصية الله ورسوله، وقد ذكر الله
تعالى طاعته وطاعة رسوله ولم يذكر فعل أطيعوا لأولي الأمر، وإنما عطفهم
على طاعته وطاعة رسوله، فدل على عدم تفردهم بالطاعة. وقد رجّح تفسير
وُلاة الأمر بما يشمل العلماء والأمراء القرطبي وابن كثير في تفسيريهما، فعزا
القرطبي تفسير ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ بالأمراء إلى الجمهور وأبي هريرة وابن
عباس رضي الله عنهما وغيرهم، وقال أيضاً: «وقال جابر بن عبدالله ومجاهد (أولو
الأمر): أهل القرآن والعلم، وهو اختيار مالك رضي الله عنه، ونحوه قول

(١) صحيح البخاري برقم (٨٥٨٤)، وصحيح مسلم برقم (١٨٣٤)، وسنن أبي داود برقم
(٢٦٢٢٤)، وسنن الترمذي برقم (١٦٧٢)، وسنن النسائي (٧/ ١٥٤).

(٢) وجد عليهم: حمل في نفسه ما أغاظه عليهم.

(٣) المسند (٨٢/١) وصحيح البخاري برقم (٤٣٤٠)، وصحيح مسلم برقم (١٨٤٠).

الضحّاك، قال: يعني الفقهاء والعلماء في الدين»^(١).

وقال ابن كثير: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم.

وقد قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَاءُ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصا أميرى فقد عصاني».

فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: خذوا بسنته ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي: فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف»^(٢).

ويترتب على ذلك أمور منها:

١ - وجوب طاعة الإمام أميراً أو عالماً فيما أمر به ونهى عنه، وكذلك طاعة الولاة المعيّنين من قبله. ٢ - حرمة منازعة الإمام القائم بالشرع الأمر، أو الخروج عليه بالسيف والسنان. ٣ - منع كل وسيلة تذهب بهيبة الإمام أو الولاة، أو تفضي إلى توهين العمل بطاعته واجتماع القلوب عليه. لكن طاعة الإمام في النظام السياسي الإسلامي ليست طاعة مطلقة، بل هي طاعة مقيدة كما تقدم بطاعة الإمام الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله، واتباع الشرع المنزل، وتحكيمه بين الناس؛ ولذلك فإن الشريعة تقر بحق المسلمين في نصح

(١) تفسير القرطبي (٢٥٩/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٦٤١/١) دار الفكر.

الولاية وإرشادهم إلى الخير وتحذيرهم من الشر، والإنكار عليهم وفق القواعد الشرعية التي قررها علماء السياسة الشرعية، كما تقر بحق الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد منها في عزل ولايتها متى استوجب الوالي ذلك على النحو المفصل في كتب الفقه، مثل أن يطرأ على الوالي الكفر والعياذ بالله^(١). قال القاضي عياض - رَحِمَهُ اللهُ - فيما نقله عنه النووي: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل»^(٢). وقال ابن حجر: «ينعزل بالكفر إجماعاً؛ فيجب على كل مسلم القيام في ذلك؛ فمن قوي على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعله الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض»^(٣).

وسائل تحقيق التكامل بين الراعي والرعية: إن أهم الوسائل التي تتكامل فيها الرعية مع الراعي هي:

الوسيلة الأولى: الشورى: قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. بالشورى تنصهر الأفكار، وتتحد الرؤى في توجيه وتوجه سليمان نحو المصلحة العامة.

الوسيلة الثانية: النصيحة: النصيحة تبذلها عامة الرعية لولاتهم، كما يبذلها الولاية للرعية؛ فالرعية تنصح الراعي، والراعي ينصح الرعية، وهو واجب على الجميع؛ ففي نصح الراعي للرعية قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير يلي أمر المسلمين، ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة»^(٤). قال النووي - رَحِمَهُ اللهُ -: «وفي هذه الأحاديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة لهم في دينهم وديارهم»^(٥). وفي نصح الرعية للراعي يقول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة؛

(١) انظر أين نحن من نظامنا السياسي الإسلامي؟ محمد بن شاعر الشريف، البيان العدد (١٩٩).

(٢) شرح النووي (١٢/٣١٧ - ٣١٨).

(٣) فتح الباري (١٣/١٣٢).

(٤) رواه البخاري (الفتح ١٣/١٣٥) ومسلم شرح النووي (١٢/٢٩٧).

(٥) المرجع السابق (١٢/٢٩٧ - ٢٩٨) شرح النووي.

قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١) قال ابن حجر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «والنصيحة لأئمة المسلمين: إعانتهم على ما حُمِّلوا القيام به، وتنبههم عند الغفلة، وسد خَلَّتْهم عند الهفوة، وجمع الكلمة عليهم، ورد القلوب النافرة إليهم، ومن أعظم نصيحتهم دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن»^(٢). ومن النَّصْح للوَلَاة الدعاء لهم وعدم الدعاء عليهم، وهي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة، وقد كان السَّلَفُ كالفُضَيْل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: «لو كان لنا دعوةٌ مجابةٌ لدعونا بها للسلطان».

وقال الشيخ أبو محمد الحسن البربهاري^(٣): «وإذا رأيت الرَّجُلَ يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحبُ هوى، وإذا رأيت الرَّجُلَ يدعو للسلطان بالصَّلاح فاعلم أنه صاحبُ سُنَّةٍ إن شاء الله، يقول فضيل بن عياض: لو كانت لي دعوةٌ ما جعلتها إلا في السلطان».

ثمَّ أسند إلى فضيل قوله: «لو أنَّ لي دعوةٌ مستجابةٌ ما جعلتها إلا في السلطان، قيل له: يا أبا علي! فسِّرْ لنا هذا، قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعدني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العبادُ والبلاد، فأمرنا أن ندعو لهم بالصَّلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن ظلموا وإن جاروا؛ لأنَّ ظلمهم وجورهم على أنفسهم، وصلاحتهم لأنفسهم وللمسلمين».

وقال الطحاوي في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة: «ولا نرى الخروجَ على أئمَّتينا ووَلَاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا نَنزِعُ يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عزَّ وجلَّ فريضة، ما لم يأمرُوا بمعصية، وندعو لهم بالصَّلاح والمعافاة»^(٤).

الوسيلة الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو الأمر بما أرشد الشارع إليه من قول وفعل، والنهي عما حذر منه، وهو يهدف إلى

(١) أخرجه مسلم (٣٣٨/١٢) شرح النووي.

(٢) فتح الباري (١٦٧/٢).

(٣) في كتابه شرح السُّنَّة (ص ١١٦).

(٤) العقيدة مع شرحها لابن أبي العزِّ (ص ٥٤٠). وانظر قطف الجنى الداني منه بتصرف.

نشر الخير وإذاعته، وإشاعته، والتضييق على المنكر وحصره، ومن ثم إزالته، وهو واجب يتكامل فيه الراعي والرعية لتحقيق الهدف المنشود من ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]. وقال الرسول ﷺ في أمر الرعية ولاية أمورهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون؛ فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا؛ ما صلوا»^(١). وقد بوّب النووي على هذا الحديث ونحوه «باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك»^(٢). فالجميع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر تكميلاً للخير وتقليلاً للشر في سعي دائم نحو هدف مشترك يسعى الجميع لتحقيقه.

واعلم أن تعدد الأمراء لهذه الأمة كتعدد الأزواج للزوجة كما قال شيخنا عبدالرحيم الطحان حفظه الله تعالى، ولذلك شدد النبي ﷺ بقوله: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»^(٣). قال النووي - رَحِمَهُ اللهُ -: (ومعنى هذا الحديث: إذا بويع ل خليفة بعد خليفة؛ فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها، ويحرم عليه طلبها؛ إلى أن قال: واتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يعقد لخليفتين في عصر واحد)^(٤). فالخليفة الصالح للخلافة الذي اختاره أهل الحل والعقد هو الشخص الذي تناط به السلطة السياسية في ديار الإسلام.

ما هي شروط ولي أمر المسلمين؟:

يجدر بنا أن نعرف شروط الولاية العامة في الإسلام، في زمن

(١) أخرجه مسلم (٣٣٨/١٢) شرح النووي.

(٢) شرح مسلم للنووي (٣٣٨/١٢).

(٣) أخرجه مُسلم ٢٣/٦ (٤٨٢٧).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢٣١/١٢).

انسلخت فيه البشرية عن هدي الإسلام، وابتعدت عن سلطان القرآن، واتبعت الأهواء، وصدق رسول الله ﷺ ولله درّ الماوردي حيث قال في أدب الدنيا والدين «ليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه، وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر في وهيه أثر».

فصارت المرأة تريد أن تحكم الرجال، وامتحنت الأمة لما تركت دينها بأنظمة تدعي أنها أسعد للمسلمين من دينها الموروث، وتسلب على رقابها حكام باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، وجهلت الأمة شروط الإمامة الكبرى، واستبدلوا بشرع الله شرع اليونان، ﴿فَمَا رِيحَتْ يَجْدَرُتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، فإلى الله المشتكى، قال شيخ مشايخنا محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ آدْبَرِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۗ﴾ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ۗ﴾ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۗ﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨].

مسألة:

أعلم أنّ كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأنّ كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد، لأنّ عامة الكفار من شرييين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد ﷺ، وهو هذا القرآن وما بينه به النبي ﷺ من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في الأمر، كالذين يتبعون

القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم من تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم.

فاحذر كلّ الحذر من الدّخول في الذين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر.

أما شروط الإمامة الكبرى فتتقسم إلى أربعة أقسام^(١):

(١) - ما يتعلّق بالحواس: أن يكون الإمام سليم البصر، والسمع، واللسان.

(٢) - ما يتعلّق بالأعضاء: سلامة كل عضو يؤثر فقده في رأي، أو عمل من أعمال الإمامة، كفقْد اليدين أو الرجلين، أما إذا كان فقد ذلك العضو لا يؤدي إلى شين ظاهر، فلا يضر كالمجبوب، والخصي.

(٣) - ما يرتبط بالصفات اللازمة: منها:

(أ) - النسب، فالشرط أن يكون قرشياً لقول النبي ﷺ: «الأئمة من قریش»، قال إمام الحرمين: وذكر بعض الأئمة أن هذا الحديث في حكم المستفيض المقطوع بثبوتة، من حيث تلقي الأمة له بالقبول.

(ب) - الذكورة.

(ج) - الحرية.

(د) - العقل.

(هـ) - البلوغ.

(٤) - الصفات المكتسبة:

أ - العلم: أن يكون مجتهداً بالغاً مبلغ المجتهدين.

(١) انظر كتاب الغيائي غياث الأمم في التياث الظلم لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني المتوفى سنة (٤٧٨هـ).

ب - التقوی والورع.

ج - الفطنة.

وجوب اتباع السلف الصالح في العلم والعمل، وترك الجدل في الدين:

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(وَاتَّبِعُ السَّلْفَ الصَّالِحَ. وَاقْتِنَاءُ آثَارِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ، وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ فِي الدِّينِ وَتَرْكُ مَا أَحَدَّثَهُ الْمُحَدِّثُونَ).

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وَالسَّلْفَ الصَّالِحَ فَاتَّبِعْ مُسْلِمًا
 لَهُمْ جُزُوا خَيْرًا وَسَبَّهُمْ دَرِي
 ظُهُورِهِ وَلَا تُجَادِلْ ذَا بَدَعٍ
 مِمَّنْ بَغَيْرِ الْحَقِّ يَنْفُثُونَا

وَأَقْتِنِي آثَارَهُمْ وَأَسْتَغْفِرِي
 وَالتَّرْكَ لِلْمِرَاءِ جَحْدُ الْحَقِّ مَع
 وَتَرْكُ مَا أَحَدَّثَ مُحَدِّثُونَا

الشرح:

من هم السلف؟:

«السلف: قال ابن فارس في (معجم مقاييس اللغة)^(١): (سلف، السين واللام والفاء، أصل يدل على تقدم وسبق. من ذلك السلف، الذين مضوا، والقوم السلاف: المتقدمون. والسلاف: السائل من عصير العنب قبل أن يعصر، والسلفة: المعجل من الطعام قبل الغداء...) وقال الراغب الأصفهاني في (المفردات)^(٢): (السلف: المتقدم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾^(٣)، أي: معتبراً متقدماً، وقال تعالى: ﴿فَلَهُ مَا

(١) مقاييس اللغة (٣/٩٥).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (ص ٢٣٩).

(٣) الآية (٥٦) من سورة الزخرف.

سَلَفٌ^(١)، أي يتجافى عما تقدم من ذنبه... ولفلان سَلَفٌ كريم: أي آباء متقدمون، جمعه أسلاف وسلوف...). وقال الدامغاني في (الوجوه والنظائر لألفاظ القرآن): (السلف في القرآن على وجهين: فوجه منهما، السلف: العبرة والعظة، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾، يعني عظة لمن يأتي بعدهم. والوجه الثاني، السلف: ما تقدم من الزمن الأول، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٢)، أي: مضى من الزمن الأول). وفي الاصطلاح الشرعي: تطلق كلمة السلف بإطلاقين أحدهما خاص والآخر عام. ففي الإطلاق الخاص عرّفه كل طائفة من العلماء بحسب مذهبهم:

فقال علماء الحنفية: السلف من أبي حنيفة إلى محمد بن الحسن (١٨٩هـ)، ويقابله الخلف: من محمد بن الحسن إلى شمس الأئمة الحلواني (٤٤٨هـ). ومن ينتسب إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل يقول:

السلف: الإمام أحمد بن حنبل، ومن تقدّمه من الصحابة والتابعين. وعلماء الشافعية والمالكية وعلماء الكلام، يقولون: السلف ما كان قبل الأربعمائة، والخلف ما كان بعد الأربعمائة^(٣). وفي الإطلاق الشرعي العام، يراد بالسلف: كل من يُقلّد مذهبه في الدين ويُقتفى أثره فيه، كالصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين^(٤). إذن فالسلف إذا أطلق هم سلف هذه الأمة المباركة المرحومة من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل القرون المزكاة، الذين شهد لهم المعصوم بالخيرية، والسبق إلى اتباع خير البرية، فلذا وجب على أهل السنة اتباع السلف بمعرفة سبيلهم، ونهج صراطهم في أخذ الأدلة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فهم الذين فهموا الشرع، وكانوا أبعد الناس

(١) الآية (٢٧٥) من سورة البقرة.

(٢) الآية (٢٣) من سورة النساء.

(٣) نموذج من الأعمال الخيرية، لمحمد منير الدمشقي ص (١٠ - ١١)، وانظر: الكليات لأبي البقاء ٣/٣٤.

(٤) انظر: كشف اصطلاحات الفنون: (٤/١٥)، الكليات: (٣/٣٤).

عن البدع والأهواء، ولم يحدثوا في دين الله ما أحدثه الخلف ولذلك أوصى النبي ﷺ في مواعظته باتباعهم والتمسك بهديهم، والتلبس بسمتهم، فهم:

قد لبسوا من هدي طه ملبسا ضاف على العقل يفوق السندسا
فسمتهم من سمته قد قيسا وعلمهم من وحيه تبجسا^(١)

جاء في حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه: «... فإنه من يعيش منكم بعدي فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٢).

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف
وقال آخر:

فتابع السنة ممن سلفا وجانب البدعة ممن خلفا
وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة: «عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة».

وقال مالك رضي الله عنه: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».
وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: «اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك»^(٣).

وقال أبو داود حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ وَسَاقِ سَنَدُهُ قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْقَدْرِ فَكَتَبَ:

(١) آثار البشير الإبراهيمي (١٢٦/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٥٤/١).

أَمَّا بَعْدُ؛ أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْإِقْتِصَادِ فِي أَمْرِهِ، وَاتَّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَتَرْكِ مَا أَحَدَثَ الْمُحَدِّثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَكُفُوا مُؤَنَّتَهُ، فَعَلَيْكَ بِلُزُومِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا لَكَ بِإِذْنِ اللَّهِ عِصْمَةٌ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعِ النَّاسُ بَدْعَةً إِلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فِيهَا، فَإِنَّ السُّنَّةَ إِنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا فِي خِلَافِهَا - وَلَمْ يَقُلْ ابْنُ كَثِيرٍ مَنْ قَدْ عَلِمَ مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ وَالْحُمَقِ وَالتَّعَمُّقِ^(١) - فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ بِهِ الْقَوْمُ لِأَنفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُّوا وَبَيَّصَرُ نَافِذٍ كَفُّوا وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الْأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا فِيهِ أَوْلَى فَإِنْ كَانَ الْهُدَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَقَدْ سَبَقْتُمُوهُمْ إِلَيْهِ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَهُمْ مَا أَحَدَثَهُ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ هُمُ السَّابِقُونَ فَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِمَا يَكْفِي وَوَصَفُوا مِنْهُ مَا يَشْفِي فَمَا دُونَهُمْ مِنْ مَقْصَرٍ وَمَا فَوْقَهُمْ مِنْ مَحْسَرٍ^(٢) وَقَدْ قَصَرَ قَوْمٌ دُونَهُمْ فَجَفُوا وَطَمَحَ عَنْهُمْ أَقْوَامٌ فَعَلَوْا وَإِنَّهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ لَعَلَى هُدَى مُسْتَقِيمٍ...».

ووجب علينا الاستغفار لهم والترحم عليهم امتثالاً لقول ربنا: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، وجزاء لما قدموه لنا اعترافاً بفضلهم، وشكراً لهم على جهدهم، وعظيم عملهم، وعيب على المتأخر إذا استفاد ممن قبله ألا يترحم عليه، قال الإمام أبو محمد رزق الله التميمي: «يقبح بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا»^(٣)، فرحمه الله تعالى ومشايخنا والمسلمين آمين.

(١) وهي في أسانيد أخرى ذكرها أبو داود في سننه انظر عون المعبود (٢٣٩/١٢) (٣٩٩٦)...

(٢) قال في عون المعبود: مصدر ميمي أو اسم ظرف أيضاً، أي كشف أو محل كشف من حسر الشيء حسراً أي: كشفه، يقال: حسر كمة من ذراعه أي كشفها، وحسرت الجارية خمارها من وجهها أي كشفته. وحاصله أن السلف الصالحين قد حبسوا أنفسهم عن كشف ما لم يحتاج إلى كشفه من أمر الدين حبساً لا مزيد عليه، وكذلك كشفوا ما احتيج إلى كشفه من أمر الدين كشفاً لا مزيد عليه.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي في ترجمته، وانظر مقال (كتب برامج العلماء في الأندلس) للدكتور عبدالعزيز الأهواني، في مجلة معهد المخطوطات العربية في المجلد الأول =

واختيار المصنف لكلمة الاتباع ظاهرةً في أخذ المكلف بالدليل إذا تبين له من نصوص الكتاب والسنة والإجماع الصحيح، ولا يجوز له التقليد بحال، لأن كل اجتهاد يخالف النص، فهو اجتهاد باطل^(١)، والفرق بين الاتباع والتقليد كما قال الحافظ ابن عبد البر ناقلاً عن خويز منداد من أئمة المذهب: هو أن التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه^(٢)، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والاتباع ما يثبت عليه حجة، وقال في موضع آخر: كل ما اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه، والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع» اهـ.

لكن معلوم أنه ليس كل الناس يصلح أن يطلب الدليل كالعامة وهم السواد الأعظم ولذلك جاز لهم أن يقلدوا، ولذلك استدرك الحافظ ابن عبد البر: فقال: «وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها، لأنها لاتبين موقع الحجة. اهـ^(٣)».

إلا أن التقليد غير مطلق في كل شيء أيضاً، كما تقول العوام «اجعلها في رقبة عالم واخرج سالم» فهذا غير صحيح وقد أشار إلى هذه الحيثية العلامة الأصولي سيدي عبدالله ولد الحاج إبراهيم في المراقي فقال:

= وعنه محقق رسالة المسترشدين أبو غدة (ص ٤). ورزق الله التميمي هو: رزق الله بن عبد الوهاب بن عبدالعزيز بن الحارث بن أسد. الإمام أبو محمد بن أبي الفرج التميمي البغدادي، رئيس الحنابلة ببغداد. ولد سنة أربعمائة، وقيل: سنة إحدى وأربعمائة. قال السمعاني: هو فقيه الحنابلة وإمامهم.

(١) انظر التقليد للأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد للشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان (ص ١٧٥). ولا يفوتك الاطلاع على كتاب الصوارم والأسنة لمحمد أبي مدين ابن الشيخ أحمد بن سليمان الشنقيطي (١٩١) ط/العلمية بيروت ١٤٢٢ - ٢٠٠١.

(٢) قال في المراقي: هو التزام مذهب الغير بلا علم دليله الذي تأصلا.

(٣) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١٤٣/٢).

وقولهم: من قلّد عالماً لقي الله سالماً، فغير مطلق
ومعلوم عند أهل العلم الخلاف في صحة تقليد العامي في مسائل
الإيمان.

ولذلك نقول لساداتنا العلماء، وإخواننا طلبة العلم اتقوا الله في
العوام، فإنكم مسؤولون عنهم أمام الله تعالى يوم القيامة، فبينوا لهم صحيح
الفقه المنوط بالدليل ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً وإلا بقيتم في سلك العامة،
ولا ينفعكم حفظ المتون، وكثرة الفنون فذلك إن كان مجرداً عن الدليل من
الفتون، ومن لم، فليسدد وليقارب، «وكلّ ميسر لما خلق له».

(وترك المراء والجدال في الدين، وترك ما أحدثه المحدثون).

المراء: بكسر الميم والمد قال الإمام ابن الأثير في النهاية: المراء
الجدال والتمازي، والممارسة المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال
للمناظرة ممارسة لأن كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما
يمتري الحالب اللبن من الضرع.

إن مما يجب أن يعمل المسلم السني هو الابتعاد عن مواطن المراء
والجدال في الدين، لا سيما مع أهل البدع والأهواء فإن القلوب ضعيفة
والأسماع خطافة، ولن تجد قوماً أوتوا الجدل وتركوا العمل إلا وتيقن أنهم
قد ضلوا عن الهدى، وقد صح عن النبي ﷺ بيان ذلك فقال: «ما ضل قوم
بعد هدى إلا أوتوا الجدل» ثم تلا تلك الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ
قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] (١).

وقال مالك رحمه الله تعالى: «المراء في العلم يقسي القلب، ويورث
الضغن». وقال ابن وهب سمعت مالكا يقول: «المراء في العلم يذهب بنور
العلم من قلب الرجل».

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح (٣٢٥٠)، وابن ماجه (٤٨) وأحمد (٢٥٢/٥)

وقال بعض السلف: «إذا أراد الله بعبد خيراً ففتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل»^(١).
 وقال وهب بن منبه: دع المراء والجدل، فإنه لن يعجز أحد رجلين: رجل هو أعلم منك، فكيف تعادي وتجادل من هو أعلم منك؟ ورجل أنت أعلم منه، فكيف تعادي وتجادل من أنت أعلم منه ولا يطيعك؟^(٢).

ولك أن تتصور الجزاء العظيم عند رب كريم لمن ترك المراء والجدال ولو كان محقاً فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه». أخرجه أبو داود^(٣) وابن ماجه والترمذي كذا في الترغيب.

أما إذا كانت المناظرة في الحق؛ وابتغاء معرفة المنهج الصدق، فإنها نعمة، إذ المناظرة الحقّة فيها إظهار الحق على الباطل، والرّاجح على المرجوح فهي مبنية على المناصحة، والجلم، ونشر العلم.

قال الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله تعالى: بعد أن حذر من الجدل والمراء: فإن قال قائل فما يصنع في علم قد أشكل عليه؟ قيل له: إن كان كذلك وأراد أن يستنبط علم ما أشكل عليه، قصد إلى عالم ممن يعلم أنه يريد بعلمه الله... فذاكره مذاكرة من يطلب الفائدة، وأعلمه أنّ مناظرتي إياك مناظرة من يطلب الحق، وليست مناظرة مغالب، ثم ألزم نفسه الإنصاف في مناظرته اهـ^(٤).

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: «ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدّد ويعان، وتكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما كلمت أحداً قط إلا ولم أبال بين الله الحق على لساني أو لسانه»^(٥)، قلت: ما أعظم هذا

(١) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلي (٨٦).

(٢) السير للذهبي (٥٤٩/٤).

(٣) أبو داود (٤٨٠٠) واللفظ له.

(٤) أخلاق العلماء (٤١).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢٦/٢) وعنه آداب طالب العلم (٦٢).

الإمام وما أجدره بأن يكون قدوة لمن بعده، يريد ظهور الحق ولو على حسابه فرضي الله عنه، وما أحوجنا أن نفتدي به».

«أما المماراة في المحاورات، والمناظرات، فإنها تحجج ورياء ولغظ وكبرياء ومغالبة ومرء، واختيال وشحناء، ومجاراة للسفهاء فأخذزها واخذز فاعلها؛ تسلّم من المآثم وهتك المحارم، وأعرض تسلّم وتكبّت المآثم والمعرّم»^(١).

واجتنب المحدثات في الدين من البدع واحذر أن تتلبس بها، فإن النبي ﷺ حذرنا من ذلك فقال: «مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» رواه البخاري من حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وجاء من حديث جابر في صحيح مسلم^(٢) أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبة الجمعة: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبٍ بَدْعَةٍ حَتَّى يَدَعَ بَدْعَتَهُ»^(٣).

وذكر الشاطبي في الاعتصام^(٤) أن ابن الماجشون قال: سمعت مالكا يقول: «مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بَدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٥)، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً».

وفي حلية الأولياء^(٦) لأبي نعيم قال أبو عثمان النيسابوري:

(١) انظر التوشيح على حلية طالب العلم للمؤلف (٢٥) مطبوع.

(٢) مسلم (٧٦٧).

(٣) قال المنذري: رواه الطبراني وإسناده حسن كما في الترغيب والترهيب (٦٥/١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٢).

(٤) الاعتصام (٢٨/١).

(٥) حلية الأولياء (٢٤٤/١٠).

(٦) الآية (٣) من سورة المائدة.

«مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ».

وقال سهل بن عبدالله التستري:

«ما أحدث أحد في العلم شيئاً إلا سُئِلَ عنه يوم القيامة، فإن وافق السنة سلِّمَ، وإلا فلا»^(١).

وقال ابن عبدالبر: «أجمع أهلُ الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهلَ الكلام أهلُ بدعٍ وزيف، ولا يُعدُّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهلُ الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز»^(٢). وما أحسن ما قاله الإمام ابن الإمام عبدالله بن أبي داود السجستاني في مطلع منظومته الحاثية:

تمسَّك بحبل الله وأتبع الهدى ولا تك بدعيًا لعلك تُفلح
وإذن بكتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله تنجو وتربح^(٣)

واعرض أقوالك وأفعالك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فما وافق فهو الشرع والصراط المستقيم وما خالف فاضرب به عرض الحائط إن لم يسبقك إلى فهمه إمام عظيم، ونحرير عليم، واعمل بما علمت يكن لك نوراً في الأرض وذخراً لك في السماء.

(وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد نبيِّه وعلى آله وأزواجه وذريته، وسلِّم تسليماً كثيراً).

الصلاة على النبي ﷺ معناها وحكمها^(٤):

اعتاد المصنفون أن يفتتحوا كتبهم ويختتموها بحمد الله وجميل الثناء عليه والصلاة والسلام على النبي ﷺ.

(١) فتح الباري (٢٩٠/١٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٩٥/٢).

(٣) انظر قطف الجنى الداني (٢٥٤).

(٤) انظر الشفا للقاضي عياض فقد عقد أبواباً في أحكام الصلاة والسلام على النبي ﷺ، =

وها هو المصنف يختتم ما كتبه عن العقيدة المباركة بالصلاة والسلام على النبي الأكرم وعلى أزواجه أمهات المؤمنين الطاهرات، وعلى ذريته وأصحابه البررة.

عسى الله أن يتقبل منه فهي في مقام الدعاء فإنه من لم يصل على النبي ﷺ في افتتاح دعائه وختامه فقد عجل في دعائه، وأن من سأل بعدهما فليبشر بالعطاء فقد أخرج الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أصلي والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم الصلاة على النبي ﷺ ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: «سل تعطه، سل تعطه».

وأخرج عبدالرزاق في المصنف عن معمر عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة بن عبد الله عن ابن مسعود قال: «إذا أراد أحدكم أن يسأل فليبدأ بالمدحة والثناء على الله بما هو أهله، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليصل بعد، فإنه أجدر أن ينجح»^(١).

والصلاة في اللغة: الدعاء مطلقاً، وتدخل الصلاة المخصوصة بالتكبير والركوع والسجود، لأنها في حقيقة الأمر دعاء، فإن قلت كيف تكون دعاء وفيها ما فيها من الأذكار؟، فأقول كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى فيما رواه عنه الطبري^(٢) قال حدثنا حسين بن حسن المروزي قال: سألت ابن عيينة عن الحديث الذي فيه أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ بعرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له...» الحديث. فقال سفيان: هو ذكر، وليس

= ولابن حجر الهيتمي كتاب يسمى «الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود» لابن حجر الهيتمي، وللحافظ ابن القيم كتاب «جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام».

(١) المصنف لعبدالرزاق (٤٤١/١٠). وأخرج أبو داود والترمذي من حديث فضالة بن عبيد مرفوعاً نحوه. وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٣٢٠٤). المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود لابن حجر الهيتمي ص (١٧٣).

(٢) انظر الفتح (١٧٧/١١).

دعاء، ولكن قال النبي ﷺ عن ربه ﷻ «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(١) قال: وقال أمية بن أبي الصلت في مدح عبدالله بن جدعان:

أذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضك الثناء
قال سفيان:

فهذا مخلوق حين نسب إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال فكيف بالخالق اهـ.

ومعنى الصلاة على النبي ﷺ هو طلب الثناء عليه من الله تعالى إذا كان الطالب بشراً، أما إن كانت من العليّ الأعلى سبحانه وتعالى فهو ثناء الله تعالى عليه في الملائ الأعلى، وهذا القول لأبي العالية^(٢)، وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى^(٣): وأما من قال إن الصلاة بمعنى الرحمة فهذا يضعفه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والأصل في الكلام التأسيس وإلا صار المعنى أولئك عليهم رحمة من ربهم ورحمة؛ وهذا لا يستقيم استقامة قوية والصحيح الأول.

فائدتان:

الأولى: وقع لبعض أهل العلم من الأفاضل الكبار في مصنفاتهم أنهم صلوا على النبي ولم يسلموا، [مثل الإمام مسلم في مقامة صحيحه،

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم (٢٩٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب، قال المباركفوري في شرحه تحفة الأحوذى (١٩٦/٨) قال الحافظ في الفتح: رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف اهـ. وانظر في الفتح (١٥١/١١) وفيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني وهو أيضاً ضعيف؛ ورواه الدارمي رقم (٣٢٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٥٧٢).

(٢) انظر تفسير ابن كثير عند تفسيره في سورة الأحزاب الآية (٥٦). وذكره القاضي عياض في الشفا.

(٣) شرح البيقونية له (ص٨).

وأجاب عليه النووي، ووقع لابن مالك في ألفيته ولايته، وللشافعي في الرسالة، وللبخاري في التاريخ الكبير في مواضيع كثيرة، ولأبي إسحاق الشيرازي في خطبة المهذب، ولابن عبد البر في مقدمة التمهيد وآخرون] كما أفاده الشيخ العلامة بكر أبو زيد.

الثانية: ينبغي لكاتب اسم نبينا ﷺ أن يقرنه بالصلاة والسلام عليه، وكذلك إن كتبه بوصف الرسالة أو النبوة (رسول الله، نبي الله)، ولا يقتصر على ما يفعله بعض الكتاب المتمجهدين في هذا العصر، من سوء الأدب فيرمزون بـ«حرف الصاد» أو صلعم «وغير ذلك، وقد نوّه أئمة الحديث والأثر على هذا الفعل الشنيع، والأدب الوضع، قال السيوطي في ألفيته^(١):

واكتب ثناء الله والتسليما مع الصلاة والرضى تعظيما
ولا تكن ترمزها أو تفرد ولو خلا الأصل خلاف أحمد

وكذلك الترضي على أصحاب النبي ﷺ فلا ينبغي أن يكتب (ض) بل يكتب ﷺ. فاقضى التنويه على هذا الأمر، وكنت نوهت عليه في شرح البيقونية^(٢).

حكم الصلاة والسلام على النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال القاضي أبو عبد الله ابن محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض بالجملة بعقد الأيمان، لا تتعين في الصلاة، وأن من صلى عليه ﷺ مرة واحدة من عمره سقط الفرض عنه.

(١) انظر ألفية السيوطي في الأثر تعليق الشيخ أحمد شاكر (١٥١)، وشرح العراقي على مقدمة ابن الصلاح (١٧٤ - ١٧٥)، وتدريب الراوي للسيوطي ص (١٥٣) وغيرها. وقد سماهم ابن جماعة رحمه الله تعالى بالمحررين المتخلفين (تذكرة السامع ص (١٧٢).

(٢) التحفة السخونية في شرح البيقونية للمؤلف (ص ١٧ - ١٨).

وأما الأحاديث في الصلاة والسلام على النبي ﷺ فكثيرة متواترة فلنقتصر على اثنين منها، قال البخاري - عند تفسير هذه الآية: عن كعب بن عُجرَةَ قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم، صلّ على محمد، وعلى آل محمد، [كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد] كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(١).

وعن أبي مسعود البدري أنهم قالوا: يا رسول الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم، صلّ على محمد وعلى آل محمد...»^(٢) وذكره.

قال الحافظ النحرير المفسر ابن كثير: ورواه الشافعي، رَحِمَهُ اللهُ، في مسنده، عن أبي هريرة، بمثله^(٣)، ومن هاهنا ذهب الشافعي، رَحِمَهُ اللهُ، إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التّشهاد الأخير، فإن تركه لم تصحّ صلاته. وقد شرّع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشعّ على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرّد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض. وقد تعرّف القائل في ردّه على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك، [وقال ما لم يحط به علماً]، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم:

ابن مسعود، وأبو مسعود البدري، وجابر بن عبدالله، رَحِمَهُ اللهُ، ومن التابعين: الشعبي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل بن حيان.

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٧).

(٢) أخرجه مالك «الموطأ» ١٢٠. وأحمد ١١٨/٤ (١٧١٩٤) و«مسلم» ٨٣٧ و«أبو داود» ٩٨٠ و«الترمذي» ٣٢٢٠ و«النسائي» ٤٥/٣.

(٣) مسند الشافعي برقم (٢٦٨) «بدائع المنن» ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس، عن نعيم بن عبدالله، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب [الإمام] أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زُرْعَةَ الدمشقي، به. وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المَوَاز المالكي، رحمهم الله، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن حكاه البُنْدَيْجِيّ، وسُلَيْم الرازي، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث، والله أعلم.

والغَرَضُ أن الشافعي، رَحِمَهُ اللهُ، لقوله بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة - سَلَفٌ وَخَلْفٌ كما تقدم، لله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: قال القاضي أبو عبدالله بن محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض بالجملة بعقد الأيمان، لا تتعين في الصلاة، وأن من صلى عليه ﷺ مرة واحدة من عمره سقط الفرض عنه^(١).

فيما ينبغي أن يحذره من سمع اسم النبي ﷺ:

ليس من الأدب لمن يدعي حب النبي ﷺ واتباعه أن يعرض عن الصلاة والسلام عليه إذا سمع اسمه عليه الصلاة والسلام، وقد وصفه النبي ﷺ بالبخیل، وأنه مرغوم الأنف ملصق بالتراب، فعن عبدالله بن الحسين، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «البخیل من ذُكرت عنده، ثم لم يصل علي». وقال أبو سعيد: «فلم يصل علي» رواه الترمذي ورواه أحمد ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم^(٢).

(١) الشفا للقاضي عياض (٦٢/٢).

(٢) أخرجه أحمد ٢٠١/١ (١٧٣٦) وقال «الترمذي» ٣٥٤٦: هذا حديث حسن صحيح =

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل علي»^(١) قال ابن كثير: وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء [منهم الطحاوي والحليمي]، ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه: عن جابر بن زيد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نسي الصلاة عليَّ خَطِيءٌ طريق الجنة» رواه ابن ماجه في سننه^(٢)، والبوصيري في الزوائد^(٣). قال ابن كثير: ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نسي الصلاة عليَّ خَطِيءٌ طريق الجنة». وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله [والله أعلم]، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب. نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي:

عن صالح - مولى التوأمة - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم».

تفرد به الترمذي من هذا الوجه^(٤). وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، في العمر مرة واحدة، امثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الجملة.

-
- = غريب، وزاد في سننه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح غريب. و«النسائي»، في «عمل اليوم والليلة» (٥٥)، وفي «الكبرى» (١٠٤٦).
- (١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للحافظ نور الدين الهيثمي (٩٦٣/٢).
- (٢) ابن ماجه (٩٠٨).
- (٣) الزوائد (٣١٣/١)، وقال: هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس وهو أحد رواة الحديث.
- (٤) الترمذي (٣٣٨٠).

قال: وقد حكى الطبراني^(١) أن محملاً الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام، وشعار أهله.

قلت - والقائل ابن كثير - وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب اهـ. ثم ذكر بيان تلك المواضع فلتنظر. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يَغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْدهُ أَبْوَاهَ الْكَبِيرِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ» قال عبدالرحمن: وأظنه قال: أو أحدهما. رواه الترمذي^(٢).

- وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: آمين ثم صعد، فقال: آمين، فسأله معاذ عن ذلك، فقال: «إن جبريل أتاني فقال: يا محمد، من سميت بين يديه فلم يصل عليك فمات فدخل النار، فأبعده الله، قل آمين، فقلت آمين».

وقال فيمن أدرك رمضان فلم يقبل منه فمات مثل ذلك.

ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله» رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما^(٣).

حكم الصلاة والسلام على أزواجه وآله:

قال القاضي وفقه الله: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ ففي حديث أبي حميد الساعدي في الصلاة: «اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته».

(١) في تحقيق تفسير القرآن العظيم لابن كثير للمحقق: سامي بن محمد سلامة «الطبري».

قلت: وهكذا أورده القاضي في الشفا.

(٢) الترمذي (٣٤٦٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) ابن حبان (٤٠٩)، ابن خزيمة (١٨٨٨).

وفي حديث آخر: «وعلى آل محمد» قيل أتباعه، وقيل: آل بيته. وقيل: أمته. وقيل: الأتباع، والرهط، والعشيرة. وقيل: آل الرجل ولده. وقيل: قومه. وقيل: أهله الذين حرمت عليهم الصدقة.

وفي حديث ابن عمر أنه كان يصلي على النبي ﷺ، وعلى أبي بكر وعمر، ذكره مالك في الموطأ من رواية يحيى الأندلسي. والصحيح من رواية غيره: ويدعو لأبي بكر وعمر.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحققون، وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله، وروي عن ابن عباس، واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيء يختص به الأنبياء، توقيراً لهم وتعزيراً، كما يخص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقدیس والتعظيم، ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النبي ﷺ وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم، ولا يشارك فيه سواهم، كما أمر الله به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

- ويذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وأيضاً فهو أمر لم يكن معروفاً في الصدر الأول، كما قال أبو عمران، وإنما أحدثته الرافضة والمتشعبة في بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة، وساووهم بالنبي ﷺ في ذلك.

وأيضاً فإن التشبيه بأهل البدع منهي عنه، فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك. وذكر الصلاة على آل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبع والإضافة إليه لا على التخصيص. - قالوا: وصلاة النبي ﷺ على من صلى عليه مجراها مجرى الدعاء والمواجهة، ليس فيها معنى التعظيم والتوقير.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ﴾ [النور: ٦٣]، فكذا يجب أن يكون الدعاء له مخالفاً لدعاء الناس

بعضهم لبعض. وهذا اختيار الإمام أبي المظفر الإسفراييني من شيوخنا، وبه قال ابن عبد البر اهـ ملخصاً من كلام القاضي عياض رحم الله الجميع^(١).

فَاللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا تَحِبُّ أَنْ تَحْمَدَ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ تَحِبُّ أَنْ تَحْمَدَ عَلَيْهِ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.



(١) الشفا للقاضي عياض (١٣/٢).



فهرست الموضوعات المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة بين يدي الكتاب	٩
مقدمة في بيان المنهجية التي سلكتها في شرح الرسالة	١١
بيان اسم الكتاب المناهل الزلّالة	١٥
شرح مقدمة المصنف	١٥
معنى كلمة السيد	١٧
شرح معنى (الآل)	١٩
بيان معنى لفظ الصحابة	٢١
بطاقة تعريف بالشيخ ابن أبي زيد رحمه الله	٢٢
الشيخ وحياته العلمية	٢٤
عقيدة ابن أبي زيد أشعرية ولذلك أثبتتها في كتابه	٢٧
شيوخه الذين تأثر بهم	٢٨
أحوال أهل السنة أيام دولة بني عبيد الشيعية	٣٠
بنوعبيد واستهزأؤهم بالصحابة	٣٠
خروج المالكية مع أبي يزيد الأعرج الخارجي في قتالهم لبني عبيد وخذعه لأهل السنة	٣٠
رثاء ابن ابي زيد لشيخه الممسي	٣٣
سنّة العلماء الشهداء لكثرة من قتل فيها منهم	٣٥
الشيخ وتلاميذه	٣٧

٤٠ الشيخ وأجلُّ أصحابه
٤١ الشيخ وحياته العملية
٤٢ بعض مواقف جُوده وكرمه
٤٢ اعتناؤه بالعلماء وطلبة العلم ونفقته عليهم
٤٣ إكرامه للقاضي عبدالوهاب
٤٣ أول من شرح الرسالة في حياة المؤلف القاضي عبدالوهاب وقيل: القبري ..
٤٥ الشيخ يقتدي بسعيد بن المسيب في تزويج ابنته لطالب علم فقير
٤٥ تعليق من ابن ناجي شارح الرسالة على هذا الموقف العظيم
٤٥ شاب يحرق أصابعه خشية وقوعه في الزنا
٤٦ ومن كراماته
٤٧ أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك، وردَّ الشيخ
٤٧ تواضع أبي محمد وهضمه لنفسه
٤٨ أسرة الشيخ أبي محمد
٤٨ زوجة سيئة ورجل صبور
٤٩ مؤلفاته
٥٤ كتب كذب العلماء نسبتها إليه
٥٤ قصة تأليفه للرسالة
٥٦ مكانتها في المذهب وعند العلماء
٥٨ ما تمتاز به الرسالة عن غيرها
٥٩ شروح الرسالة
٦٥ أقسام الرّسالة
٦٦ من طرائف فقهه
٦٧ من القصص المكذوبة عليه وعلى الإمام
٦٧ وفاته وراثاء العلماء له
٦٩ حزن القابسي عليه
٦٩ من فتاوى الشيخ وشيوخه في حكم الرّافضة الشيعة
٧٣ معنى الحمد

٧٤ تصوير الله للإنسان بحكمته، ومراحل خلق الجنين
٧٦ الظلمات الثلاث التي يكون بها الجنين
٧٧ الرزق شأنه عجيب، قف على حكم وأشعار في ذلك
٧٩ الآثار والمخلوقات تدل على عظمة الصانع
٨٠ أعراية تستدل على عظمة الخالق بدليل بسيط
٨٠ الرشيد ومالك واستدلالة على وجود ذي العزة والجلال
٨٠ أبوحنيفة والزنادقة
٨١ الشافعي يسأل عن وجود الصانع
٨١ أحمد واستدلالة بالبيضة
٨١ أبيات لأبي نواس في صنع الله البديع
٨١ أشعار للشافعي
٨٤ الهداية نوعان
٨٤ انشراح صدور المؤمنين للذكرى وتيسرهم لليسرى
٨٦ معنى أما بعد
٨٧ وجوب حفظ الودائع التي استودعنا الله إياها
٨٨ احفظ الله يحفظك
٨٩ أهم الكتب الجامعة للآداب والأخلاق
٨٩ أول علم يجب أن يتلقاه الطلاب هو الآداب والأخلاق
٩١ قف على سلسلة السمات والأدب من أبي داود
٩١ معنى أصول الفقه
٩٢ معنى المذهب
٩٣ ثناء الذهبي على مذهب مالك رضي الله عنه
٩٣ في الاختلاف بين العلماء رحمة للأمة
٩٤ صنيع القرافي في الذخيرة يدل على عمق فقهه وفهمه
٩٤ إذا خالف المذهب الحديث فما العمل؟
٩٤ ترجمة مختصرة لإمامنا مالك رضي الله عنه
٩٥ شعر ابن المبارك في الإمام

٩٥ مالك نبع الأئمة والعلماء بعده فروع له
٩٦ الأدلة التي بنى عليها مالك مذهبه
٩٩ أول ما ينبغي أن يسبق إلى قلوب الصغار
٩٩ اختلاف العلماء في أي العلوم ينبغي تعلمها قف على كلام العلماء
١٠٠ معنى البركة
١٠٠ ثواب من تعلم وعلم القرآن
١٠١ صفة قلوب الصغار وأهمية التربية والتعليم في الصغر
١٠٥ ثمرة من اهتم برسالة ابن أبي زيد نسال الله قطف ثمارها
١٠٦ يجب على الآباء أمر أبنائهم بالصلاة إذا بلغوا سبعا
١٠٧ وجوب التفريق بينهم إذا بلغوا عشرا حتى ولو كانوا بنات
	جملة مسائل الرسالة في قولي شيخنا محمد الحسن ولد الددو وقول العلامة
١٠٨ زروق
١٠٨ طلب الاستخارة في كل شيء سنة مستحبة
١٠٩ معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) والصيغ التي وردت في السنة
١١١	<u>نص الرسالة في العقيدة كاملاً</u>
١١٦ نظم القلاوي للنص كاملاً
١٢٠ باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من البيانات
١٢٠ مقدمة حول العقيدة الإسلامية عبر القرون
١٢٠ جمع المؤلف بين العقيدة والفقہ والآداب دال على أنه مرب حكيم
١٢٢ فهم الرعيل الأول من الصحابة والتابعين للعقيدة الصحيحة
١٢٢ هل عرف الصحابة ربهم بالطرق الكلامية والنظريات الفلسفية
١٢٢ بُعد السلف عن التعمق والخوض بعقولهم فيما وراء عالم الشهادة
١٢٢ متى بدأت البدع تغزو صفاء العقيدة ورحلة مع المقرئ في ذلك
١٢٤ أول من تكلم في الصفات الحارث المحاسبي ورد الإمام أحمد عليه
١٢٤ بداية التأليف في العقيدة وأهم الكتب في ذلك في القرن الثالث فما بعده
١٢٧ المذاهب الأربعة واتباعها لعقيدة السلف (كلام السبكي في ذلك)
١٢٨ عقيدة الأشعري هي عقيدة الطحاوية

- ١٢٨ قف مع الأشعري ووقفاته في وجه أهل البدع
- ١٢٨ الأشعري وتصريحه بأن عقيدته هي عقيدة الإمام أحمد
- ١٣٠ أبيات شعرية جميلة لشيخنا محمد سالم ولد عدود رحمه الله تعالى
- ١٣٠ ماذا جنى ابن تومرت على المالكية وغيرهم
- ١٣٠ ظهور دول أهل البدع وسقوط دولة المرابطين
- ١٣٣ شرح عنوان كتاب المعتقد
- ١٣٣ معنى لفظ العقيدة
- ١٣٥ الواجب في اللغة والاصطلاح
- ١٣٧ أصل أصول الإيمان هو توحيد الله تعالى
- ١٣٧ معنى الإيمان لغة واصطلاحاً
- ١٣٩ معنى الواحد والفرق بينه وبين أحد
- ١٤٠ تفسير التوحيد عند أهل السنة
- ١٤٣ معنى الشبيه والنظير وهل هما مترادفان
- من شبّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر (كلام
- ١٤٣ لشيخ الإسلام نعيم بن حماد شيخ البخاري)
- ١٤٤ تنزيه الله تعالى عن الوالد والولد
- ١٤٧ لا أولية لوجود الله تعالى ولا آخريّة له
- ١٤٨ وجوب التفكير في خلق الله تعالى، وامتناع التفكير في ذاته
- ١٤٩ الحقائق الواقعية التي تضمنتها آيات القرآن. نوعان. قف على ذلك
- ١٤٩ اعتبار المتفكرين في آيات الله
- ١٥٠ معنى الآيات
- ١٥٢ الشمس من أعظم آيات الله الظاهرة (كمثال)
- ١٥٤ معنى الماهية
- ١٥٦ وسوسة الشيطان لأهل الإيمان ودواء الوسوسة
- ١٦١ وسع كرسيه السماوات والأرض
- ١٦٢ معاني أسماء الله. العالم الخبير، المدبّر القدير، السميع البصير، العليّ الكبير
- ١٦٥ الرد على من أنكر سمع الله وبصره وزعم أنهما بمعنى العلم

- تصحيح أبيات هي لأبي العلاء المعري والناس ينسبونها لغيره ومطلعها: يا
 ١٦٨ من يرى مدّ البعوض جناحها
- ١٦٨ إثبات صفة العلو للعلي الغفار
- ١٦٩ من القرآن
- ١٦٩ من السنة
- ١٦٩ من أقوال الصحابة والتابعين
- ١٧٣ من أقوال أئمة المذاهب الأربعة
- ١٧٤ استواء الله سبحانه على عرشه المجيد (أم استيلاؤه عليه)
- ١٧٤ الأصح أن معتقد الجهة لا يكفر (قول زروق)
- ١٧٦ تحريف محقق شرح القاضي عبد الوهاب لشرحه الصحيح
- ١٧٧ قول الأشعري في مقالات الإسلاميين عن استواء الله تعالى
- ١٧٨ مسألة الفوقية وفهمها
- ١٧٨ قول إمام الحرمين في الاستواء والعلو
- ١٧٩ معنى العرش في كلام العرب ووروده في القرآن والسنة
- فساد قول من قال إن العرش هو الملك وعجزهم عن تأويل قوله تعالى:
 ١٨١ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾
- ١٨٣ قف على كلمة ذاته، والتشنيح على المصنف حيث أوردها
- ١٨٤ في الحاشية كلام الذهبي في ذلك
- ١٨٤ إثبات أن كلمة «ذات» وردت عند كثير من الأئمة المالكية وغيرهم
- ١٨٥ إحاطة علم الله تعالى بكل شيء
- مسألة الاستواء وحقيقته عند كبار علماء اللغة كالخليل وأبي عبيد والنضر بن
 ١٨٦ شميل شرح ذلك
- ١٩٠ أبيات في استواء الله على عرشه لشيخنا العلامة محمد سالم ولد عدود
- ١٩٠ منهج مالك والأئمة في إثبات الصفات
- ١٩٠ الكلمة التي أوقعت الكثير في تفسير الاستواء بالاستيلاء وخطأ ذلك
- ١٩١ فرار المؤولين من التشبيه فوقوا فيه وفي التعطيل
- ١٩٢ الاستواء معلوم من كلام أمنا أم سلمة رضي الله عنها

- ١٩٢ ما مدى صحة البيت المزعوم في حق بشر بن مروان؟
- ١٩٣ نرد الآية والأحاديث بزعم أنها آحاد ونستدل ببيت شعر فاسد
- ١٩٣ الأخطل النصراني الخبيث، وإبطال أهل السنة للاستدلال بالبيت المصنوع ..
- ١٩٤ مناظرة لطيفة بين جرير والأخطل
- ١٩٥ وفود الشعراء للخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز وطرده للأخطل
- ١٩٥ من الشعر المنكر الذي فاه به فاه التن
- ١٩٥ على فرضية أن البيت صحيح فما العمل؟
- ١٩٦ العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى «قول ابن الأعرابي من أئمة اللغة» ..
- ١٩٧ معنى الإنسان
- ١٩٩ قرب الله من خلقه بعلمه لا بذاته
- ٢٠٠ تكرير المصنف لصفة الاستواء على العرش
- ٢٠٢ فصل في أسماء الله وصفاته
- ٢٠٣ معنى الأسماء والصفات
- ٢٠٤ الثمرة من فقه أسماء الله وصفاته
- ٢٠٤ عدد أسماء الله الحسنى
- ٢٠٤ الثابت في حديث «إن لله تسعة وتسعين اسماً»
- ٢٠٤ قف على معنى «من أحصاها»
- ٢٠٦ أدلة كل اسم من أسماء الله تعالى
- ٢١١ ضوابط مهمة تتعلق بأسماء الله الحسنى
- ٢١١ أسماء الله توقيفية
- ٢١١ لا يشتق له من الأفعال المذكورة على وجه المشاكلة أسماء
- ٢١٣ ما هو اسم الله الأعظم
- ٢١٤ دعوى بعض الناس أن للاسم الأعظم أسراراً وخواص
- ٢١٦ معرفة الصفات العلى
- ٢١٧ أسماء الله قبل خلق الخلق
- محاولة من معتزلي مع أبي عمرو بن العلاء أن يحرف قول الله تعالى في
- ٢١٨ كلام الله لموسى، وإفحام أبي عمرو له

٢١٨	قول الإمام أحمد: من زعم أنّ الله كلّم موسى بلا صوت فهو جهمي
٢١٩	عدو الله
٢١٩	خالد القسري يضحى بالجعد بن درهم لإنكاره كلام الله لموسى
٢٢٠	طلب نبي الله موسى من ربه أن يراه
٢٢٢	القرآن كلام الله جل وعلا
٢٢٤	أبيات جميلة من عقيدة شيخنا العلامة محمد سالم ولد عدود
٢٢٤	كلام الله ليس مخلوقا فيبيد
٢٢٥	الإيمان بالقضاء والقدر
٢٢٥	القضاء والقدر لغة وشرعا
٢٢٧	مراتب القدر
٢٢٧	مرتبة العلم
٢٢٧	المرتبة الثانية: فهي مرتبة الكتابة
٢٢٨	في هذه المرتبة خمسة تقادير
٢٢٨	التقدير الأزلي
٢٢٨	كتابة الميثاق
٢٢٩	التقدير العمري
٢٢٩	التقدير الحولي
٢٣٠	التقدير اليومي
٢٣١	المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة
٢٣١	المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق
٢٣٢	النهى عن الخوض في القدر
٢٣٣	أقوال الأئمة في القدر
٢٣٥	الله خالق العباد وأعمالهم
٢٣٧	الهداية فضل والضلال عدل
٢٤٠	مناظرة بين ابن عباس وقدري
٢٤٠	مناظرة بين غيلان وربيعه
٢٤٠	مناظرة بين علي وآخر

- ٢٤١ مناظرة بين أبي إسحاق الإسفرائيني وعبدالجبار المعتزلي
- ٢٤١ أعرابي يرد على عمرو بن عُبيد في قصة حمارة
- ٢٤١ الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام
- ٢٤٢ معنى الرسالة، والندارة، والنبوة
- ٢٤٥ عدد الرسل الذين ذكروا في القرآن ونظم في ذلك
- ٢٤٥ أولو العزم
- ٢٤٦ عدد الرسل والأنبياء
- ٢٤٨ التوفيق بين كون عيسى ينزل آخر الزمان وقول النبي ﷺ لا نبي بعدي
- ٢٤٨ إجماع المسلمين على كفر من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ
- ٢٤٨ تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا...﴾ الآية
- ٢٥٣ الإيمان بأن الساعة حق وبالبعث والنشور
- ٢٥٣ ما هي الساعة التي وعد الله بقيامها؟
- ٢٥٣ ومن الذي عنده علم الساعة؟
- ٢٥٥ وما أشراتها الكبرى؟
- ٢٥٥ أشرط الساعة الكبرى والصغرى
- خروج نار عظيمة قرب المدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكان ذلك مما
- ٢٥٧ أخبر به النبي ﷺ ووقع
- ٢٥٨ الآيات خرزات منظومات
- ٢٥٩ ما هي أول الأشرط الكبرى ظهورا
- الجمع بين ما جاء أنّ هذه النار هي آخر أشرط الساعة الكبرى، وما جاء
- ٢٦٠ أنّها أول أشرطها
- ٢٦٠ خروج الآيات كلّها في ثمانية أشهر
- ٢٦٢ البعث والنشور
- ٢٦٦ كرم الله بمضاعفة الحسنات، وتكفير السيئات
- ٢٦٧ والحسنة ما يحمد عليها شرعاً عكس السيئة
- ٢٦٩ اجتناب الكبائر سبب في تكفير الصغائر
- ٢٧١ عدد الكبائر

- ٢٧٤ من مات مقترفا للكبائر ولم يتب أمره موكولاً إلى مشيئة الله
- ٢٧٤ عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار
- ٢٧٤ شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته
- ٢٧٥ ما هي الشفاعة
- ٢٧٥ من الذي يملك الشفاعة؟
- ٢٧٥ لا شفاعة إلا بعد إذن الله ورضائه. وذكر أنواع الشفاعة
- ٢٧٨ الجنة دار كرامة لأولياء الله تعالى، والنار دار غضبه لأعدائه
- ٢٨٣ الإيمان بالجنة والنار يتحقق بثلاثة أمور
- ٢٨٣ علم الله السابق في خروج آدم من الجنة
- ٢٨٤ نظر المؤمنين في الجنة الى وجه الله الكريم
- ٢٨٥ مجيء الرب جل وعلا للفصل بين العباد
- ٢٨٧ آيات لشيخنا العلامة محمد سالم ولد عدود رحمه الله تعالى
- ٢٨٨ العرض والحساب
- ٢٩٠ آيات لابن المُبَارَك
- ٢٩٢ حديث البطاقة
- ٢٩٤ تطاير الصحف
- ٢٩٦ الإيمان بالصرراط
- ٢٩٦ ما هو الصرراط؟
- ٢٩٧ أين تكون الظلمة بعد الفصل بين العباد
- ٣٠١ الحوض
- ٣٠١ الإيمان بالحوض
- ٣٠١ الأدلة على وجود الحوض
- ٣٠٣ هل الحوض قبل الصرراط أم بعده؟
- معالجة الحافظ ابن حجر لإشكال وقع وهو هل الحوض قبل الصرراط أم بعده؟
- ٣٠٥ هل الكوثر هو الحوض أم هما شيان مختلفان؟
- ٣٠٧ لكل نبي حوض

٣٠٨ من الذين سيردونه، ومن سيتردون عنه
٣١٠ معنى قوله ﷺ: «ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة»!
٣١١ مسافة الحوض
٣١٢ الإيمان زيادته ونقصانه
٣١٣ تنبيه لا بد منه
٣١٣ حديث علي رضي الله عنه المزعوم
٣١٥ لا قولٌ وعَمَلٌ وَبَيَّةٌ إِلَّا بِمُؤَافَقَةِ السَّنَةِ
٣١٩ ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة
٣٢٠ هل تارك الصلاة من أهل القبلة؟
٣٢١ البرزخ وأرواح الناس
٣٢١ الشهيد
٣٢١ فضل الشهادة في سبيل
٣٢٣ أفضل ما تمناه النبي ﷺ
٣٢٣ ما يلقاه الشهيد من الكرامات
٣٢٥ الشهداء ثلاثة
٣٢٦ بعض أحكام تتعلق بالشهيد
٣٢٧ مستقر أرواح الأتقياء السعداء والأشقياء التعساء
٣٢٨ فتنة القبر وسؤال الملكين
٣٣٣ فائدة كان من هدي النبي ﷺ دبر كل صلاة يستعيد بالله من عذاب القبر ...
٣٣٤ الملائكة الحفظة وملك الموت
٣٣٨ وهل يقبض ملك الموت أرواح البهائم أيضا، أم كيف تقبض؟
٣٣٩ من هم أفضل قرون هذه الأمة بعد نبيها ﷺ؟
٣٤٠ تعريف الصحابي
٣٤٥ حكم من سب الصحابة أو تنقصهم
 تنبيه في غاية الأهمية. هنا ما شاع في بلادنا من بقايا سب الشيعة الملاعين
٣٥٣ للصديقة
٣٥٣ الصحابة الأخيار وطبقاتهم في الفضل

- ٣٥٧ وجوب ذكر الصحابة بأحسن الذكر، والكف عما شجر بينهم إشكال والإجابة عنه: ما مفهوم قول النبي ﷺ: «تأتي أيام للعامل فيهن أجر خمسين»
- ٣٦٧ طاعة أولي الأمر بعد طاعة الله ورسوله ﷺ
- ٣٦٨ وسائل تحقيق التكامل بين الراعي والرعية
- ٣٧٢ ما هي شروط ولي أمر المسلمين؟
- ٣٧٤ تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها
- ٣٧٥ أما شروط الإمامة الكبرى فتقسم إلى أربعة أقسام
- ٣٧٦ وجوب اتباع السلف الصالح في العلم والعمل، وترك الجدل في الدين ...
- ٣٧٧ من هم السلف؟
- ٣٨٢ تَرَكُ المراءِ والجِدَالِ في الدِّينِ
- ٣٨٢ تَرَكُ ما أَحَدَثَهُ المُحَدِّثُونَ
- ٣٨٥ الصلاة على النبي ﷺ معناها وحكمها
- ٣٨٧ فائدتان: الأولى: في صلاة بعض المصنفين وعدم تسليمهم
- ٣٨٨ الثانية: ينبغي لكاتب اسم نبينا ﷺ ألا يكتب جنبه (صلعم) أو (ص)
- ٣٨٨ حكم الصلاة والسلام على النبي ﷺ
- ٣٩٠ فيما ينبغي أن يحذره من سمع اسم النبي ﷺ
- ٣٩٢ حكم الصلاة والسلام على أزواجه وآله
- ٣٩٤ نهاية كتاب الترجمة والعقيدة



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com